من هدى القرآن

١٦

تفسير سور

التغابن إلى الجن

تأليف

آية الله السيد محمد تقي المدرسي



سورة التغابن

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

فضل السورة :

قـال الإمـام الصـادق ــ عليه السـلام ــ : «**من قـرأ سـورة التغـابن في فريضة كـانت شـفيعة له يـوم القيامة ، وشاهد عدل عند من يجيز شهادتها ، ثم لا تفارقه حتى يدخل الجنة**»

ثواب الاعمال / ص 210

الإطار العام

كيف يمكن أن نربح صفقة العمر ونـأتي يـوم التغـابن بالفوز الكبير ، ذلك اليوم الذي تبلو الحقـائق ويظهر مـدى خسارة الإنسان ومدى ربحه؟

قبل أن يبصّـرنا السـياق بـالجواب يـذكّرنا بجلال الله القـــدوس عن ايّ نقص وعجز ، وانّ كل شـــيء يســـبح بحمده ، لانّ له الملك والحمد جميعا.

وإنّما يكفر من كفر بعد تمـــــــام الحجة عليه ، فهو المسـؤول عن ضـلاله ، وهو المجـزي بعمله ، لأنّ الله قد خلق السموات والأرض بالحق ، والجزاء صـورة من صـور الحق .. وأكمل خلق الإنسان (فأعطـاه ما يحتاجه لاختيـار الحق وأكمل عليه الحجـة) واليه المصـير للجــزاء .. وهو عليم بما يســرون وما يعلنــون .. فــانى لهم الفــرار من الجزاء؟

والجــزاء حق واقع تاريخيّـا. أفلا نعتـبر بـه؟ فكم ذاق الكفّار الغابرون وبال

أمرهم. لماذا؟ لأنّهم قالوا : «**أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا**» فمن الذي خسر أهم أم الرسل الطاهرون؟

كانت تلك عاقبة أمرهم في الأولى ، وفي الأخرى ينبّؤهم الله بما عملوا ويتمّ عليهم الحجة البالغة ثم يعذّبهم ، ويا ويلهم!!

في ذلك اليوم يربح المؤمنون الجنة تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وإنّه حقّا فوز عظيم.

وهكذا يبلغ السياق محور السورة ، ويبيّن كيف يفوز عباد الله الصالحون في يوم التغابن ، وذلك عبر بصائر تترى :

الأولى : الرضا بالقدر ، والإيمان بأنّ كل مصيبة تصيبه فبإذن الله.

الثانية : الإيمان هدى القلب ، وبه يعرف الإنسان سبيل النجاة عن المصائب وبه يتحدّاها.

الثالثة : الطاعة لله وللرسول ، والتوكل عليه.

الرابعة : الحذر من أقرب الناس إليه (وهم الأزواج والأولاد) لأنّ فيهم من هو عدو له ، ولكنّ الحذر لا يتحوّل عند المؤمن إلى عداء أو جفاء أو مواقف حدّية.

الخامسة : اليقظة التامة من (حب) الأموال والأولاد و(الافتتان) بهم.

السادسة : التقوى بكلّ استطاعته ، (والاجتهاد في الطاعة) ، والاستماع إلى أوامر الشريعة ووعيها ، والطاعة للقيادة الرشيدة ، والإنفاق وتجاوز شح الذات.

إنّ هذا سبيل الفلاح.

وفي خاتمة الســـورة يأمرنا الله بـــأن نقرضه قرضا حسـنا (بالإنفـاق أو الاسـتدانة) ، لأنّه يضـاعف ذلك ويغفر لصاحبه والله شـكور حليم ، وإنّه عـالم الغيب والشـهادة ، وهو العزيز الحكيم.

سورة التغابن

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (2) خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3) يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (4) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (5) ذلِكَ بِأَنَّهُ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى

---

5 [وبال أمرهم] : أي وخيم عاقبة كفرهم وثقل أمرهم بما نالهم العذاب.

اللهُ وَاللـهُ غَنِيٌّ حَمِيـدٌ (6) زَعَمَ الَّذِينَ كَفَـرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُــوا قُــلْ بَلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ وَذلِـكَ عَلَى اللـهِ يَسِـيرٌ (7) فَـآمِنُوا بِاللـهِ وَرَسُـولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنا وَاللهُ بِما تَعْمَلُـونَ خَبِـيرٌ (8) يَـوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْـعِ ذلِـكَ يَـوْمُ التَّغـابُنِ وَمَنْ يُـؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَـيِّئاتِهِ وَيُدْخِلْـهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ (9) وَالَّذِينَ كَفَــرُوا وَكَــذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ خالِدِينَ فِيها وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (10)

ذلك يوم التغابن

هدى من الآيات :

لكي نــؤمن بــالآخرة إيمانا عميقا لا بــدّ من المعرفة بالله أوّلا ، لأنّها الدين [1] ، والأساس الصحيح الـذي تبـنى عليه سائر البصائر والحكم والشرائع ، لـذلك نجد السـياق القرآني وهو يمضي بنا في التذكرة بالبعث والجـزاء (يـوم الجمع والتغابن) يهدينا إلى الله وأسمائه الحسنى (الآيــات 1ـ) ، فهو السبّوح ، الملك ، المحمود ، القـادر ، الخـالق ، البصير ، المصـوّر ، إليه المصـير ، وهو بكـلّ شـيء عليم ، ثم تذكّرنا الآيات بالجزاء الذي لقيه الكـافرون في التـاريخ كدليل إلى الجزاء الأكـبر في الآخـرة ، وأنّ سـبب كفـرهم هو الاعتماد على المقاييس المادية في موقفهم من قيادة الرسل ، وكفرهم بالبعث والحسـاب ، ممّا يـبرر لهم عـدم تحمّلهم المسؤولية في الحياة ، لذلك يؤكّد القـرآن حقيقة الآخرة وضرورة الإيمـان بالله ورسـوله والكتـاب باعتبـاره السبيل إلى الصـالحات والمسـتقبل الحسن في الآخـرة ، على العكس من الكفر الذي

---

(1) وفي الخبر : «أوّل الدّين معرفته»

يقود الإنسان إلى بئس المصير في الدّارين.

بينات من الآيات :

(1) تتصوّر الفلسفات البشرية التي تتحدّد بالجهل والعجز وضيق الأفق وشح النفس عند الإنسان تتصور العالم الكبير وما فيه من اختلاف وتسابق ركاما من القوى المتناقضة والمتصارعة ، وبالتالي حلبة لصراع الآلهة والشركاء المختلفين ، كلا .. إنما العالم ـــ في القرآن ـ ينضوي تحت راية العبودية لله.

(**يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ**)

هكذا يسبّح جميع ما في السموات والأرض لربّ العزة ، لأنّ كلّ شيء عارف باستحقاق ربه للتنزيه عن كلّ نقص وعيب ، فهو وحده الكمال المطلق في ضمير الخلق وعقله. وفعل المضارعة من التسبيح يدل على الاستمرار في التسبيح ، والسبب أنّ الله تجلّى لكلّ شيء بقدر وعيه ، وأعطاه حسبما شاء من نوره ، فوله كلّ شيء بربه وسبّحه وقدّسه بقدره.

(**لَهُ الْمُلْكُ**)

وحده وإنما يملك أحد شيئا بتمليكه له ، ومع ذلك يبقى ملكه محدودا ، وملك الله نافذ يسلبه متى شاء. وربنا ليس متصرّفا في الأشياء وحسب بل يملكها ويملك شهودها وضميرها ومبدءها ومصيرها ، يملكها دون أن تملك هي منه شيئا ، بعكس البشر الذين لا يملكون شيئا إلّا بقدر ما يمتلك منهم ، لأنّهم وإيّاه سواء في حدّ العبودية والضعف والعجز. وحري بالمملوك أن يخضع لمالكه المطلق ويتوجّه له بالتسبيح دون سواه. وإنّ هذه الصفة كما صفة القدرة وغيرهما لا تدعوه سبحانه كما الملوك إلى الظلم والقهر لمن تحت سلطانه ، فكل أفعاله حميدة.

(**وَلَهُ الْحَمْدُ**)

ممّا يــنزل عليهم من نعمه ويــدفع عنهم من البلاء ، فسبحان الذي لا يأخذ أهل الأرض بألوان العذاب.

ومن تجلّيـات حمـده قدرته ، فهو ذو القـدرة على كل ما يريد.

(**وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)

وهذه البصيرة (قدرة الله على كـلّ شـيء) هي الـتي ينبغي أن يتحسســها الإنســان ، لأنّها محــور لكثــير من الحقائق والعقائد التي منها الإيمان بالآخرة ، فـإنّ الـذي لا يــؤمن بقــدرة الله الثابتة يصــعب عليه التصــديق بحقيقة البعث والجزاء. وهكـذا تتصل هـذه البصـيرة بما يـأتي من التذكرة بالبعث.

وتذكير الإنسان بـأنّ الوجـود كلّه يسـبّح لله يـزرع في نفسه الشعور بالشـذوذ إذا ما كفر بربّه وخـالف رسـالته ، بل ويــزرع في داخله الــوازع الــذي يدفعه للانتظــام في المســـيرة الحقّة الواحـــدة حيث العبودية لله وحـــده والمعرفة به.

كما تهدينا هذه التذكرة إلى حقيقة أخرى هامة وهي : أنّ الخليفة بكينونتها والسنن الحاكمة عليها تدعم المـؤمن في مســيرته ، لأنّه يلتقي معها في المســيرة والهــدف ، وهـذا ما يجعل اتبـاع الحق سـهلا ميسـورا واتبـاع الباطل عسيرا في الدنيا والآخرة ، وبهـذا المضـمون جـاءت بعض الأخبـار الـتي منها قـول الإمـام علي ــ عليه السـلام ــ : «**ومن ضاق به العدل فالجور عليه أضيق**» [1].

[2] ويتســاءل الإنســان : من أين أتيت؟ ومن الــذي خلقني؟ والإجابة على

---

(1) بح / ج 41 ص 116

ذلك هي الـتي تحـدد مبـادئ النـاس ومسـيرتهم ، فيهتـدي البعض ويضل آخـــرون ، والقـــرآن هنا يوجّهنا إلى الإجابة الحق ليضعنا على الصراط المستقيم في الحياة.

(**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ**)

وليست الصـدفة ولا الشـركاء المزعـومين من دونـه. تلك الفلسفات الـتي تـاهت بعقـول الكثـير ولا زالت حـتى اليـوم تضـلّها. وحيث أنّ الله هو الخـالق فإنّه أهل الملك والحمد والقـــدرة ، ولكنّك مع ذلك تـــرى بين النـــاس من يكفر به سـبحانه بـالرغم من تجلّيـات أسـمائه وآياته في الطبيعة وفي ضمير الإنسان وعقله.

(**فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ**)

وكما يؤكّد هـــذا المقطع حرية الإنســـان في اختيـــار مسـيرته ومصـيره فهو يـبيّن مـدى طغيـان البشر الـذين يكفـــرون بخـــالقهم بـــدل أن يشـــكروه على نعمة الخلق وسائر النعم. وتنسف الآية فلسفة الجبر الـتي تقـول بـأن الكفر والإيمـــان أمر تكويـــني يحـــدّده الله ، فكما يخلق الأسـود والأبيض كـذلك يخلق المـؤمن والكـافر ، كلا .. إنّ الخلق منه تعالى بينما الكفر والإيمان رهين اختيار النـاس وإرادتهم «فمنكم .. ومنكم».

(**وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**)

إذا فعمل الإنسان هو الذي يحدّد مذهبه ومصـيره عند الله وليس لونه أو مجيؤه من والـدين كـافرين أو مؤمـنين ولا أي شيء آخر. وفي الآية تحـذير من طـرف خفي بـأنّ حريتك أيّها الإنســــــان ليست أبديّة ، وأنّ الله لم يخلق الناس ليتركهم سـدى ، أو أنّه مغلولة يـداه ومحجـوب عن الخلق ، إنّما هو رقيب ومهيمن عليهم ، وهكـــذا تنفي الآية التفويض كما تنفي الجبر لتثبت ـ بالتالي ـ أمرا وسطا بين الأمرين.

وكلمة أخـيرة في هـذه الآية هي : أنّ اختلاف النـاس إلى مـؤمن وكـافر ، ومظلـوم وظـالم ، وقاتل ومقتـول ، تجعل البعث والجـزاء ضـرورة فطرية في ضـوء الإيمـان بالإله الملك الحميد الذي من مظاهر حمده العـدل. وهـذه من الأفكار الرئيسية في المبادئ الإسلامية.

[3] ونجد آية هادية إلى الآخرة عند النظر إلى الحيـاة مفـردة مفـردة ، فهي قائمة على أسـاس الحق بكـلّ ما تعـني هـذه الكلمة من آفـاق الواقعية والنظـام السـليم ، وأهمّ تلك الآفاق بالنسبة للإنسان أنّ الحياة عرصة يجـري الله فيها الحق.

(**خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِ**)

والهدفية من الحق ، كما أنّ العبثية من الباطـل. وإنّ الإنسان حينما يلقي بنظره وفكـره إلى خلق الكـون يـراه بكلّ أجزائه حتى الذرة قد خلق بحكمة وهدف معيّن ، كما أنه عند ما يعـود إلى نفسه من رحلة الآفـاق يـرى نفس الحقيقة ، فهو قد صوّر وخلق كلّ عضو منه لغـرض محـدد ، فالعين للابصار ، والإذن للسـمع ، والأنف للشم والتنفّس و.. و..

(**وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**)

فهل يعقل أن يكـون الإنسـان ككل بلا هـدف؟! كلا .. بل له هـدف معيّن هو أن يقـوم بـالحق وهـذا يقتضي أن يكون هناك جزاء ومصير. ولأنّ الدنيا تقصر أن تكـون محلا للجـزاء الأوفى فلا بـدّ من دار ثانية يرجع فيها النـاس إلى ربهم.

(**وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**)

[4] وهو تعالى لا يقضي للنـاس بمصـائرهم اعتباطا ، إنّما يجازي كلّ فرد وأمة

الجــزاء الأوفى القــائم على علمه النافذ في كــلّ دقــائق الأمور ولطائفها حـتى النوايا المنطوية عليها الصـدور ، ولا يشـغله علم عن علم ، ولا سـمع عن سـمع ، بل يعلم كل شيء في آن واحد.

(**يَعْلَمُ ما فِي السَّـــــماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ**)

خيرا أو شرا.

(**وَاللهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ**)

وتأكيد الله على علمه المحيط بحيــاة الإنســان يتصل بمنهج الإسـلام الـتربوي القـائم على أسـاس زرع الـوازع الديني في نفوس المؤمنين ، فــإنّ المتحسس لرقابة الله عليه لن يقتحم المحرمـــات والمعاصي ، ولن يتخلّف في أداء الواجبات .. وهـذه المنهجية ذاتها هي الـتي تضع نهاية للخداع الذاتي (المنافقة) ، حيث تضع الإنســان أمـام يقين بعلم الله بذات صـدره ، وأنّ جـزاءه للنـاس لا يعتمد على أعمالهم وأقوالهم الظاهرة فحسب إنّما يعتمد على ما في القلوب من النوايا والخلفيات أيضا.

[5] ويحثّنا القـرآن إلى التفكر في واحـدة من الآيـات الكاشـفة لحقيقة كـون المصـائر بيد الله ، ولحقيقة البعث والجــزاء في الآخــرة ، وهي تـاريخ الأمم والأقـوام الـذين كفروا بالحق فاستأصلهم الله بألوان من العذاب.

(**أَلَمْ يَـأْتِكُمْ نَبَـأُ الَّذِينَ كَفَـرُوا مِنْ قَبْـلُ فَـذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ**)

في الـدنيا ، والوبـال هو السـوء ، وهنا بمعـنى العاقبة السـيئة ، وما دام الإنســان مسـئولا عن أفعاله في الـدنيا وهي دار امتحان فكيف لا يكون مسئولا عنها في الآخرة؟!

وعموما : فإنّنا سـوف نواجهه إن خالفنا عـاجلا أم آجلا في الدنيا أو في الآخرة.

(**وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ**)

ينتظرهم في الآخرة. ووصف الله للعذاب بأنّه «أليم» ينسف بعض الفلسفات التي حاولت تبرير الذنوب للنــاس بزعمها أنّ الإنسـان يـوم القيامة لا يشـعر بحـرارة النـار ، ومثّلوا لذلك بـالقول أنّ هنـاك بعض الحشـرات تعيش في النار ولا تتأثر بها! وهو زعم لا دليل عليه.

[6] أمّا السبب الذي انتهى بأولئك إلى عذاب الدارين فهو تكبّـرهم على الرسل ، وكفـرهم بهم ، وتـولّيهم عنهم إلى غيرهم.

(**ذلِكَ بِأَنَّهُ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ**)

أي الآيات الواضحة الـتي لا غمـوض فيهـا. إذن كـانت الحجّة قائمة وبالغة ممّا يجعل العقلاء يخضـــــعون لها ، ولكنّ الكفّار لم يتبعوا العقل ، إنّما اتبعوا الأهواء. لذلك لم يسلّموا لقيادة الرسل.

(**فَقالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا**)

انّهم لم يجـدوا ثغـرة في رسـالات الله لكي يعيبوها ، ولا نقصا في أخلاق الرسل وسـلوكياتهم ، ولكنّهم مع ذلك لم يكونــوا مســتعدين للخضــوع لقيــادة واحد منهم ، ولا لتحمّل المسؤولية بأيّة صورة ، لـذلك صـاروا يبحثـون عن تـبرير يتخلّصــون به من المســؤولية ، فكـان قــولهم أنّ الرسل بشر لا يصح الخضــوع لهم ، وهــذا ما يتشــبّث به الكفّــار عــبر التــاريخ .. فلما ذا إذا يبعث الله الرسل من البشر أنفسهم؟ والجواب : لأمرين أساسيين :

الأوّل : أنّ الكفّــار أرادوا من ذلك تــبرير انحــرافهم وكفرهم ، فلو أنّ الله بعث

ملائكة أو جنّا لبحثوا لهم عن تبرير آخر ، ولو كان يهمّهم الحق لا تبعوا الرسل الذين جاءوهم بالبينات.

الثاني : أنّ الهدف من بعث الرسل هو تزكية الإنسان وتطهّره من أمور النزعات السلبية التي فيه كالكبر والسموّ به إلى آفاق العبودية والتسليم للقيم والحق ، وهذا يقتضي أن يكون الرسل من البشر أنفسهم حيث أنّ التسليم لهم أبلغ أثرا في امتحان البشر ، وهل قد تخلّصوا من نزعة الكبر ، وتعالوا إلى سماء التواضع لله ، علما بأنّ الصراع على السلطة أعظم من أيّ صراع آخر ، وشهوة الرئاسة أشد من أيّة شهوة أخرى ، وأنّ الرسل جاؤوا ليحكموا بين الناس بالعدل ، وكان الطغاة يحكمونهم بالجور. وترى كيف يتنازل الطغاة عن سلطانهم ويسلموا لأمرهم ولأمر من ينوب عنهم من أوصيائهم وأوليائهم؟! إنّه حقا ابتلاء عظيم للطغاة ومن أيّدهم واتبعهم ، وإنّها لفتنة عمياء سقطت فيها أكثرية النفوس الضعيفة ، ونجد صورة لها في أمر الله إبليس بالسجود لآدم وليس لأعظم ملائكته ممّا أثار رفضه وتمرّده ، ممّا يؤكّد بأنّ ظاهر القرآن الشريعة وباطنه الولاية ، حيث أنّ خضوع الإنسان لبشر مثله باعتباره وليّا عليه من عند الله أمر صعب مستصعب ، وهكذا رفض الكفّار ذلك.

(**فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا**)

كفروا بالرسول والرسالة ولم يشكروا هاتين النعمتين ، وحيث لا يمكن للإنسان أن يعيش في الفراغ فإنّهم حوّلوا وجهتهم إلى القيم الفاسدة والقيادات المنحرفة (الضلال) ، ولعلّ التولّي هنا بهذا المفهوم ، أي تولّوا إلى غير الله بمعنى ولاية غير الله ، كما جاء في بعض تفاسير الآية الكريمة : «**فَهَلْ عَسَيْتُمْ ـ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ ـ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ**» ، وقد يكون الكفر هو الموقف النفسي والمبدئي ، بينما التولّي هو الموقف العملي السياسي.

(**وَاسْتَغْنَى اللهُ**)

أي أنّه تعـالى كـان يريد أن يظهر دينه ورسـوله بهم فلمّا كفروا استغنى وأظهر غنـاه عنهم فنصر دينه بغيرهم من الناس والملائكة ، كما قـال سـبحانه : «**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا مَنْ يَرْتَـدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِـهِ فَسَـوْفَ يَـأْتِي اللـهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**».

وهكذا يكـون معـنى الاسـتغناء فعل ما يظهر الغـنى ، وذلك على ضـوء معرفتنا بربنا وأنّه لا يصـدق عليه ما يصدق علينا من التحـوّل والتبـدل سـبحانه ، فلم يكن لربنا حاجة فيهم ولكن أراد أن يتفضّل عليهم بنصر دينه عـبرهم فرفضـوا ، حيث أنّ من نعم الله على عبـاده أن يجعلهم وسـائل لنشر دينه ونصر رسـله فيطلب منهم الـدعوة أو الجهاد أو القرض والإنفاق وما أشـبه .. لا لحاجة منه إليهم إنّما ليتلطّف بهم وينعم عليهم بفضله!

(**وَاللهُ غَنِيٌ**)

بذاته ، واستغناء الله عن أحد يعـني قطع حبل رحمته عنه ، وهذا سبب هلاك الأقوام التي كفـرت من قبل ، لأنّه إنّما يستقرضـهم ويسـتنفقهم ويـدعوهم للإيمـان لكي يرحمهم ، ولعلّ تأكيد الله على غناه واستغنائه يـأتي لعلاج عقبة نفسية طالما منعت ولا زالت تمنع الكثير من الإيمان بالرسالة والتسليم للرسول ، وهي عقبة الإحساس بالغنى عن الحق من جهة ، وحاجة الله ورسـوله إليهم كما قـال بعضـهم : «**إِنَّ اللـهَ فَقِـيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيـاءُ**» [1] من جهة أخرى.

(**حَمِيدٌ**)

وقد أضـاف تعـالى هـذه الصـفة للغـنى لأنّه ليس كـلّ غني حميد ، فقد يطغيه

---

(1) آل عمران / 181

الغنى ، أو تبطره النعم.

[7] ثم يـبيّن السـياق موقف الكفّـار الأساسي الـذي انشطر عنه الاستكبار والكفر والتولّي ، وهو عدم إيمـانهم بـالآخرة ، وطـبيعي أنّ من يكفر بـالجزاء لا يبـالي بتحمل المسؤولية.

(**زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا**)

للجزاء بعد الموت ، والزعم هو مجرّد الادّعاء الـذي لا يقين للإنسـان به ، وحيث أنّ الكفّـار لم يجـدوا دليلا ينفي الآخـرة باعتبارها حقيقة واقعية فطرية فـإنّهم لجـأوا إلى تأكيد زعمهم بكلمة «لن» تبريرا لكفرهم بالحقائق ، ولكن القرآن يكذّب زعمهم بالتأكيد على البعث والحسـاب ومن ثمّ على الجزاء إذ يقول تعالى يخاطب رسوله ـ صلّى الله عليه وآله ـ :

(**قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ**)

وفي هـذه الآية تأكيـدات عديـدة وذلك في مواجهة زعمهم الباطل ، فالتأكيد اللفظي يواجه بتأكيـــدات في الكلام أقوى منـه. وأمـره تعـالى الرسـول ومن خلال ذلك كل مـؤمن يواجه شـبهات الكفـار «قـل» لا يعـني مجـرد الـدعوة للقـول بل هو دعـوة لاتخـاذ موقف مضـاد ، إذ أنّ القـول هو ما يحكي إيمـان الإنسـان ، والمـؤمن مكلّف أن يحكي إيمانه بـالآخرة موقفا صـريحا يتحـدى موقف الاستهزاء والإنكار. ثم إنّهم نفـوا البعث بينما نجد السـياق يؤكّده ويضـيف بالتأكيد على الجـزاء لأنه محـور القضـية ، فهم زعموا أن لا بعث حتى يتحلّلوا من المسـؤولية ، بينما القرآن أكّد أنّ إنكـارهم البعث لا يخفّف عنهم من العـذاب شيئا ولا يهوّن لهم من المسؤولية أمرا.

وفي خاتمة الآية إشـارة إلى أهمّ عقبة نفسـية عند الكفّار أمام إيمانهم بالآخرة

ونسفها.

(**وَذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ**)

لأنّه تعالى قدير ، فهو ليس كما نحن البشر عـاجزا أو محدود القدرة ، بل هو صـاحب المشـيئة التامّة فلا شـيء يمتنع عنه أو يصـعب عليـه. وقد نتلمّس في الآية إشـارة إلى أنّ الكفّار زعمـوا لله مجموعة من الصـفات البشـرية التي تجعله عاجزا عن بعث الناس بعد الموت في فكـرهم ، وذلك امتداد لتصوراتهم ومقاييسهم البشرية التي دعتهم للكفر والتولي عن بيّنات الله ورسله.

[8] ولكي يتجنّب النـــاس وبـــال الأمر في الـــدنيا والعــذاب الأليم في الآخــرة ، ويفــوزوا الفــوز العظيم ، يرسم القرآن المعالم الأساسية لطريق النجاة والفوز. إنّه في الإيمان بالله ورسوله والنور المنزل من عنده.

(**فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ**)

الإيمــان بالله هو الأصل ولكنّه لا يكتمل إلّا بالتســليم لرسـوله حـتى تتحـوّل الرسـالة الإلهية إلى واقع حضـاري بالانتظـام تحت راية القيـادة الرسـالية ، ولا بد أن تصــير واقعا تفصـيليّا يضع لمساته على جـوانب حياته ومفرداتها المختلفة ، وبعبــارة : إنّ الإيمـــان بالله والرســول ليس عقيـدة مجـرّدة في القلب ، ولا مظـاهر وطقـوس فقط ، إنّما هو منهج حيـاة يجب على الإنسـان (فـردا وأمّـة) ان يلتزم به.

(**وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنا**)

والقرآن نـور لأنّه يخـرج الإنسـان من ظلمـات الجهل والكفر ، ويثــير دفــائن عقله ، وينمّي بــواعث الخــير في وجدانه ، ويرسم له مناهج الحياة. واي نور أعظم من حبل الله وكتابه الـذي يوصل البشـرية بالله «**نُورُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ**»؟!

ولقد مضى القـول في سـورة النـور وفي الصف عن أنّ القيادة الرسـالية هي الأخـرى مظهر وتجل لنـور الله ، لأنّها صورة ناطقة لكتـاب الله ومثل أعلى لرسـالاته ، وإنّ اتباعها ينـير للإنسـان دروب الحيـاة الفرعية المتداخلة ، ومن هنا جاء في الحديث المأثور عن الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ : «**لنور الإمام في قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئة بالنهار**» [1].

والإسلام الأصيل لا يرى الإيمان مجـرّد الإعتقـاد (بالله وبالرسـول وبـالنور) ، إنّما الإيمـان تسـليم لله ، واتبـاع للرسول ، وتطبيق للكتـاب ، وبعبـارة : الإيمـان هو العمل المسـتمر والمتقن والمخلص الـذي يسـتمد جـذوره من اليقين التـام بهيمنة الله عـزّ وجل ، وهـذا ما نفهمه من النصوص الدينية ومن قوله سبحانه في هذه الآية :

(**وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**)

فـالمؤمن يقـرأ في هـذه الخاتمة أنّ عليه الاسـتمرار في الإيمان والعمل به ، وأن يخلص فيه لوجهه تعالى ، بل ويتقن أداءه ، لأنّه في حضرة خالقه الـذي لا يمكنه خداعه أو التـدليس عليه ، فهو الخبـير بأعمـال الإنسـان بأشـمل وألطف ممّا عند الإنسان نفسه.

وكلمة أخيرة : كما أنّ الرسالة نور وأنّ الرسـول نـور فـإنّ من يحمل رسـالة الرسـول اليـوم ويكـون امتـدادا لقيادته الربّانية ونائبا عن خلفائه الأمناء ـ عليهم السـلام ـ فإنّه هو الآخر نـور. أوليس داعيا إلى اللـه؟ أوليس يحمل رسـالات ربه إلى العبـاد؟ كـذلك كـان علمـاء أمة محمّد ـ صلّى الله عليه وآله ـ كأنبياء بـني إسـرائيل. أو ليسـوا هم خلفاء الرسول؟ وكذلك نقرأ في حديث النبي يعظ سلمان المحمّـدي : «**يا سلمان .. وإنّ أكـرم العبـاد إلى اللـه بعد الأنبياء العلماء ، ثم حملة القرآن ، يخرجـون من الدنيا كما يخرج الأنبياء ، ويحشرون من قبورهم مع الأنبياء ، ويمرّون**

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 341

على الصراط مع الأنبياء ، ويأخـذون ثـواب الأنبيـاء ، فطـوبى لطـالب العلم وحامل القـرآن ممّا لهم عند الله من الكرامة والشرف» [1].

[9] وتأكيد الله على ضــرورة الإيمــان به وبرســوله وبنوره المنزل باعتبار ذلك هو طريق النجاة يوم القيامة.

(**يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ**)

أي يجمع أوصالكم التي تفرّقت بعد المـوت ويجمعكم إلى بعضـكم مؤمـنين وكـافرين ، وكـذلك يجمع النـاس مع الرسل ليشهدوا عليهم ، وسمّيت القيامة بيوم الجمع وفي مواضع أخــرى بيــوم الحشر لأنّها اليــوم الــذي تجتمع فيه البشرية كلّها من آدم حتى آخر مولود آدمي.

(**ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ**)

ماذا يعني التغـابن ، ولمـاذا سـمّي يـوم القيامة بيـوم التغابن؟

الجــواب : إنّ الغبن في الــبيع أو الشــراء هو ظهــور الخديعة والغلبة ، غبن فلانا نقّصه في الثمن وغــيره ، فهو غـابن وذاك مغبـون [2] ، والتغـابن من التفاعل أي أنّ كل فرد أو طرف يسعى لإيقاع الغبن بالآخر ، وسمّيت الآخـرة بذلك لأمور أهمها :

1 ـ إن لكـلّ إنسـان خلقه الله مـنزلين في الآخـرة ، أحـدهما في الجنة والآخر في النـار ، فـإذا أفلح أن يكـون أهلا للجنة ملك قصوره فيها وورث أهل النــار منزله فيها ، كما يــرث منــازل أهل النــار الــتي كـانت لهم في الجنة ، وذلك قوله تعالى :

---

(1) بح / ج 92 ص 18

(2) المنجد / مادة غبن بتصرف

(**أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُـونَ* الَّذِينَ يَرِثُـونَ الْفِـرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِـدُونَ**) [1] ، ويومئذ يظهر الغبن لـدى أهل النـار بخسرانهم الجنة ووقوعهم في الخسـارة العظمى بـدخول جهنم ، ولأنّ المؤمـنين يرثـون منـازلهم في الجنة فكـأنّهم أوقعوا بهم الغبن.

2 ـ إنّ المؤمنين والكافرين في صراع وتحـدّ دائمين ، وكـلّ فريق يحـاول إيقـاع الخسـارة بـالطرف الآخر عـبر الإنتصار عليه أو تحطيمه ، وحيث أنّ الدنيا دار الابتلاء لكلا الفـريقين فهي للكـافرين على المؤمـنين تـارة ، وتـارة للمؤمنين على الكافرين ، والغبن فيها نسبي محـدود ، أمّا في الآخــرة وهي دار الخلــود فإنّها المصــداق الأعظم للتغـابن ، فالغـابن فيها غـابن حقّا ، والمغبـون فيها خاسر بتمـام المعـنى. صـحيح أنّ أسـاس الغبن في الـدنيا ، لأنّ الدنيا هي دار العمل ، ولكنّ ظهوره لا يكون إلّا في الآخرة ولا يسمّى الغبن غبنا إلّا بعد أن يظهر للناس جليّا.

(**وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً**)

أي يــترجم إيمانه إلى العمل فــإنّ الإيمــان الحقيقي بالله أصل كلّ خير والباعث على كلّ صلاح.

(**يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ**)

أي الخطايا الجانبية.

(**وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهـارُ خالِـدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**)

وهذا مصير الطرف الغابن. وفي الآية إشارة إلى أحد معاني الشفاعة وهي أن

---

(1) المؤمنون / 10 ـ 11

تكــون لــدى الإنســان حســنات كبــيرة تــذهب بالســيئات الصغيرة.

[10] وفي نهاية الدرس الأوّل من سورة التغابن يضع القــرآن بين أيــدينا صــورة للفريق المغبــون ، وأيّ غبن وخسارة أعظم من الخلود في عذاب النار؟!!

(**وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ خالِدِينَ فِيها وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**)

إنّ السبيل إلى الفوز كان في الإيمان بالله الذي بيده مصـائر النـاس ، وفي اتبـاع رسـله والقيـادات الرسـالية ، وفي العمل بمنهج الفوز الذي تنطوي عليه آيات القـرآن ، وقد نبذوها وراء ظهورهم فصاروا إلى الخسران.

ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللـهِ وَمَنْ يُـؤْمِنْ بِاللـهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ (11) وَأَطِيعُـوا اللـهَ وَأَطِيعُـوا الرَّسُـولَ فَـإِنْ تَـوَلَّيْتُمْ فَإِنَّما عَلى رَسُـولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (12) اللــهُ لا إِلــهَ إِلاَّ هُــوَ وَعَلَى اللــهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُـونَ (13) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْـذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُـوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَـإِنَّ اللـهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ (14) إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْـدَهُ أَجْـرٌ عَظِيمٌ (15) فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُـوا خَيْـراً لِأَنْفُسِـكُمْ وَمَنْ يُـوقَ شُـحَّ نَفْسِـهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُـونَ (16) إِنْ تُقْرِضُــوا اللــهَ قَرْضــاً حَسَــناً يُضــاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِـرْ لَكُمْ وَاللــهُ شَـكُورٌ حَلِيمٌ (17) عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18))

إنّما أموالكم وأولادكم فتنة

هدى من الآيات :

كيف نتجنّب الغبن في يوم التغابن؟

1 ـ لنعلم أوّلا : أنّ المصـائب أقـدار إلهية ، وبالإيمـان يهتدي الإنسان كيف يتحصّن ضدّها أو يتعامل معها دون أن ينهار.

2 ـ الطاعة لله والرسـول ، والتوكّل على الله لمقاومة ضغوط الشهوات ونوائب الدهر.

3 ـ الحذر من الأزواج والأولاد ، لأنّ فيهم من هو عدو لنا ، ثم العفو عما تبدو منهم من إساءة ، ولنعلم أنّهم فتنة ، فلنقاوم الفتنة بابتغاء ما عند الله من أجر عظيم.

4 ـ التقـوى حسب المسـتطاع ، والطاعة للقيـادة ، ومواجهة شحّ النفس بأداء

الحقوق.
5 ـ القروض الواجبة والإنفاق المستحب.

بينات من الآيات :

[11] ليس من تغيّر خيرا كـان أو شـرا إلّا ويمـرّ عـبر تدبير الله وإذنه.

(**ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ**)

لأنّه تعـالى الـذي يمـدّ كـلّ شـيء بنـور الوجـود والاستمرار ، ولأنّه الذي وضع السـنن في الخليقة ويجريها بسـلطانه وليست من مصـيبة إلّا في سـياق تلك السـنن ، وله الإرادة غـير المحـدودة بـأن يفعل ما يشـاء ويغيّر ما يريد. وما دامت المصـائب تكـون بإذنه تعـالى وهو الحميد العادل الحكيم فلن تكون بلا سبب ومن دون حكمة ، بلى. ومن حكمته ولطفه أنّه بيّن في كتابه كيف يتخلّص الإنسان من المصيبة ، ولكن أنّى للإنسـان أن يسـتفيد من كتابه دون أن يؤمن به؟!

(**وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**)

ولهداية القلب هنا معان أبرزها :

1 ـ إنّ الإيمان بالله ، وبالتـالي معرفة أنّه الفعّـال لما يشـاء ، وأنّه المهيمن على العـالم ، وأنّه لا تقع مصـيبة إلّا بإذنه ، معرفة هـذه الحقـائق جميعا تجعل الإنسـان يسـمو إلى سماء التسـليم لله عـزّ وجـلّ ، ممّا يجعله قـادرا على الاسـتقامة في طريق الحق رغم التحـديات والمشـاكل. وتقديم هـذا البيـان هو تمهيد للأمر القـادم بطاعة القيـادة الرسـالية حيث يواجه المؤمنـون في هـذا الطريق ألـوان الفتن والمصـائب ، وإذا كـانت المصـائب تسـبّب للكثـير الانحراف عن سواء السبيل فهي لا تزيد المؤمن إلّا إيمانا

وتسليما.
المـؤمن كما الـذهب يـزداد صـفاء كلّما تعـرّض لفتنة النـار ، وإنّ إيمانه بالله ليزيـده صـلة بربه عند المصـائب ، لأنّه يعلم بأنّها لا تقع إلّا بإذنه ولا تزول إلّا بإذنه ، وأنّ خــير وسيلة لتحـدّيها هو المزيد من الاتصـال به والتقـرّب إليه ، بل يزداد إحساسه بالحاجة إلى الله وضرورة الاسـتعانة به ، كما قال تعالى : (**الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قـالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ**) [1].
2 ـ وكما أنّ الإيمـان معـراج الـروح إلى التسـليم فهو معراج الفكر إلى الصواب ، فإنّ المصيبة تفقد أكثر الناس تــوازنهم النفسي لما تحمله من الضــغوط ، فـتزرع فيهم اليأس من التغيير ، وقد تشلّ عقــولهم عن التفكر ، ولكنّ المـؤمن يقف أمامها كالجبل الأشم لا تخرجه عن طـوره ، وهـذا يبقيه مهتـديا ، وقـادرا على الوصـول إلى الصـواب حتى في ظروف المصيبة ، بل إنّها تصبح مدخله لكثير من المعـارف ، فـالمرض يدفعه لمعرفة سـنن الله في جسم الإنســان ، وطغيــان الظلمة يجعله يعــرف سـنن الله في المجتمع ، وهكذا ..
3 ـ أضف إلى ذلك أنّه يجد الحل للمصـيبة والموقف السليم منها نتيجة الإيمان ، فالإيمان بالله أكـثر من مجـرّد الإعتقاد. إنّه منهجيّة حياة شاملة ، والمـؤمن عند المصـيبة يتذكّر بـأنّ الله حكيم لا يفعل شـيئا إلّا لسـبب فيبحث عن ذلك الســبب ، ويتــذكّر أنّ الإنســان بأعماله هو الســبب الرئيسي لكلّ ما يجري عليه ، تسليما لقوله تعـالى : (**وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْـدِيكُمْ**) [2] ثم يسـعى للتغيـير ايمانا بقوله تعـالى : (**إِنَّ اللـهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَـوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ**) [3] ،

---
(1) البقرة / 156
(2) الشورى / 30
(3) الرعد / 11

ويستعين بالله بكلّ ما يستطيع من دعاء وصــدقة ، لإيمانه بأنّه على كــلّ شــيء قِـدير ، وأنّه يمحو ما يشــاء ويثبت ، ولأنّه قال : (**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**) [1] ، فالمصـيبة إذن تتحــوّل عند المــؤمن إلى عمل بمنــاهج الله ، وبالتــالي الوصول إلى الحل ، وذلك من مصاديق الهداية.

(**وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**)

وهذه الخاتمة تبني روح التسليم لقضـاء الله عند كـلّ مـؤمن ، حيث تؤكّد له أنّ إذن الله وتـدبيره متأسس على علمه ، فهو لحكمة يعرفها ، ولأسباب أحاط بها.

ونجد في الآية التفاتة لطيفة تتصل بنظرية الجبر التي عالجها كثــير من المفسّــرين عند هــذه الآية ، فقد زعم البعض بأنّ الإنسان ليس له اختيار في الحيــاة ما دام الله هو الذي يقدّر شؤونها ـ كالمصائب ـ ويجريها كيف يشـاء! ولكنّ القرآن يحل هذه الإشكالية باختصـار وبأسـلوب بليغ حيث يؤكّد دور الإنسان في صنع واقعه ومصيره بالقول : (**وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**). إذن فالهداية التي هي من عند الله لا تحصل إلّا بعد إيمــــان الإنســــان نفسه بالله ، وعلى هذه السنة تمضي الحياة بخيرها وشــرها ، بأفراحها وأحزانها ، كما أننا نسـتطيع أن نفسّـر كل الحـوادث بهـذه البصيرة.

وسؤال أخير في الآية : لماذا قال ربنا : «**يَهْدِ قَلْبَـهُ**» ولم يقل : يهديه ، كما في كثير من الآيات الأخرى؟

والجـواب : أوّلا : لبيـان أنّ صـلاح الإنسـان وفسـاده (هدايته وضلاله) كلّ ذلك متصل بما ينطـوي عليه قلبه من الأفكــار والمعتقــدات ، وبالتــالي فــإنّ التغيــير الحقيقي والجذري يتمّ بتغيير القلب.

---

(1) غافر / 60

ثانيا : لبيان شمولية الهداية فهداية الله لقلب المؤمن تجعله خالصا من كلّ انحـراف وضـلالة ، فـإنّ القلـوب قد تكــون مزيجا من الحــقّ والباطل إلّا قلب المــؤمن حيث يصـفو للحـقّ دون الباطل وللهـدى دون الضـلال ، أي أنّ الإيمان صنو لهداية القلب حيث يقوده إلى سـائر الحقـائق ، ويبصّــره في جميع أبعــاده وجــوانب الحيــاة ، وكلّما زاد إيمان أحد زاد هدى قلبه.

[12] وأعظم مصــيبة تصــيب البشر هي التخلّف في الـدنيا ودخـول النـار والتعـرّض لسـخط الله في الآخـرة ، ولكي يتجنّبها الإنســان يجب أن يطيع الله ، ويتبع القيــادة الشرعية ، ويعمل بمناهج الحق التي بلّغها الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ وفصّلها أئمة الهـدى والعلمـاء الصـالحون. وهكذا يوصل القرآن حقيقة الإيمان بالله وبـالآخرة بحقيقة الإيمــان بالرســول (القيــادة الإلهيــة). ولقد مهّد الســياق للحديث عن طاعة القيـادة بما تضـمّنته الآية السـالفة من بيان عن المصاعب ، وانطوت عليه من دعوة للتسليم لله فيها ، لأنّ الطاعة لله واتباع القيـادة الرسـالية الـتي تنشد التغيــير ســوف يتســبب بلا شك في كثــير من المشــاكل والضغوط التي ينبغي تحدّيها بروح التسليم لله عـزّ وجل ، ولكنّها تقضي على مشاكل أكبر بصورة جذرية.

(**وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**)

ونقف هنا عند تعبير القرآن الكريم ، فهو تارة يقول : (**أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُـولَهُ**) وأخـرى يقـول : (**أَطِيعُـوا اللـهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**) ، بإضـافة فعل الأمر (**أَطِيعُـوا**) ، كما في هـذه الآيـة. أوليس العطف بـالواو وحـده كـاف لتأدية نفس المعنى؟

والجـــواب : إنّ لكلا التعبــيرين ظلاله الخـــاص في المعــنى والنفس ، ولعل العطف بــالواو وحــدها يــبيّن أنّ طاعة الرســول هي امتــداد لطاعة الله ، بينما العطف بها مع الفعل : (**أَطِيعُــوا**) يؤكّد اســتحالة الفصل بين طاعة الله وطاعة القيادة الرسالية ،

بأن يزعم البعض بأنّه يكتفي بـالقرآن طاعة لله وبعـدها لا داعي لطاعة أحد رسـولا أو إماما أو عالما .. واللطيف أنّ هـذا التعبـير ورد في سـياق سـورة التغـابن الـتي تعرّضت لإشكاليّة الفصل بين طاعة الله وطاعة رسوله حيث قـال الكفّـار : (**أَبَشَـرٌ يَهْـدُونَنا**) (الآية 6) محاولة للفصل بين الطـاعتين. ويحـذّر الله من عصـيانه ورسـوله والتـولّي لغيرهما إذ يقول :

(**فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ**)

وكفى بهذه الآية تحذيرا للناس وتهديدا للكفّار.

[13] ولما انتقد القـرآن موقف الكفر والتـولّي من قبل الكفّار تجاه رسلهم لكـونهم بشر أمثـالهم ، وبالتـالي التقليل من شـأنهم وتـبرير عصـيانهم ، أكّد هنا في سـياق أمـره بطاعة الرسـول (القائد الربّـاني) وانطلاقا من منهجيته المتوازنة على حقيقة التوحيد كحـدّ لتقـديس الرسل والأولياء القـادة ، فإنّه لا يجـوز بحـال من الأحـوال اعتبـارهم شـركاء لله أو أنصـاف آلهة ، كما صـنع بعض النصارى واليهود بالنسبة لعيسى وعزير ـ عليه السلام ـــ ، فالطاعة للقيادة والعبادة لله وحده.

(**اللـهُ لا إِلـهَ إِلَّا هُـوَ وَعَلَى اللـهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**)

وقد أكّد القـرآن على ضـرورة التوحيد والتوكّل في سـياق أمـره بطاعته وطاعة رسـوله لأنّ هنـاك سـببين يدعوان الإنسان للتخلف عن الطاعة لهما :

الأوّل : الشـرك بالله سـبحانه شـركا مبـدئيّا باتبـاع الأفكار والفلسـفات الضـالة ، أو عمليّا بالخضـوع للإرادات الأخـرى من دون الله لمجـاراة الشـهوات والمصـالح ، أو اتباع الطواغيت والركوع إليهم. ولكي يسـمو الإنسـان إلى آفـاق الطاعة والتسـليم لله ولقيـادة الحق يجب أوّلا أن يتطهّر من رواسب الشرك ، ويتخلّص من أغلاله ،

ويتحدّى الأنداد المزعومة.

الثاني : الضعف والانهزام أمـام الضـغوط والتحـدّيات المضادة لخط الرسول والقيادة الإلهية ، فـإن أجلى صـور التحـدي والضـغوط تـبرز في مواجهة النظـام الاجتمـاعي بكـلّ أبعـاده سياسـيّا واقتصـاديّا واجتماعيّا وأخلاقيّا ويجب على المؤمن أن يستقيم في خطّ التوحيد رغم ذلك ، وهذا بحاجة إلى إرادة صـــلبة تجعله أشد من الجبـــال ، وهـــذه يستمدها من الاستعانة بصاحب القـدرة الواسـعة والتوكل عليه. وما أحوج الحركات الرسـالية والمجاهـدين للصـمود في مسـيرة التغيـير عـبر التوكل على خـالق السـماوات والأرض ، والالتجاء إلى حصن ولايته وعزّته وقدرته.

[14] ويـذكّرنا الـوحي بأحد أقـوى وأخطر التحـديات الـتي يواجهها المؤمنـون في طريق الجهـاد والطاعة لله وللقيادة الرسـالية وهو تحـدي الأسـرة ، ذلك لأنّ الأسـرة هي حلقة الوصل الأساسية بين الإنسان ومحيطه الثقـافي والسياسي ، ولذلك فهي أقرب تأثيرا وأبلغ نفاذا في إرادة المجاهد.

ثم إنّ مقاومة المؤمــنين للطـاغوت تنعكس بصــورة حادّة وسريعة على أسرهم ، فـإذا بها كلّها أو بعضـها تقف عقبة في طريق الجهـاد ، فينهـاروا نتيجة الصـلات الـتي تربطهم بهـا. ولكي يسـتقيم المـؤمن لا بد أن يتـذكّر هـذه الحقيقة ، ويحرق سفن العودة إلى الشرك ، ويتحصّن ضد وسائل الضغوط ، ومن أبرزها الأسرة ، وذلك عبر تحـدّيها بصلابة التقوى والإيمان.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـــوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ**)

قال الإمام الباقر ـ عليه السلام ـــ : «وذلك أنّ الرجل كان إذا أراد الهجرة إلى الرسول ـ صـلّى الله عليه وآله ـــ تعلّق به ابنه وامرأته ، وقالوا : ننشـدك الله أن تـذهب عنّا وتـــدعنا فنضـــيع بعـــدك ، فمنهم من يطيع أهله فيقيم ، فحذّرهم الله

أبناءهم ونساءهم ونهاهم عن طاعتهم ، ومنهم من يمضي ويذرهم ويقـول : أما والله لئن لم تهـاجروا معي ثم يجمع الله بيني وبينكم في دار الهجرة لا أنفعكم بشيء أبدا» [1].

وفي توجيه القـرآن الخطـاب للمؤمـنين بالـذات في هذه الآية بيان لحقيقة واقعية وهي : أنّ المـؤمن الحقيقي مجاهد بطبعه ، لـذلك تتـوالى عليه الضـغوط والتحـديات ، ولأنّه من دون سائر الناس يتحمّل المسـؤولية الرسـالية ، وبالتـالي فإنّه الأولى بمثل هـذا الخطـاب ، والأقـرب لفهم معانيه ، فهو هنا ذلك الإنســان الــذي آمن بربه وحـــده ، وأطـــاع قيــادة الحق متــوكّلا على اللــه. وكيف يــدرك المتقاعســون معــنى التحــديات الأســرية والاجتماعية والسياسية وهم يسبحون مع تيّارها وليس ضده كما يفعل المؤمنون الصادقون؟!

ولا تعـني الآية من الأزواج النسـاء وفقط ، فقد تكـون الزوجة مؤمنة مجاهـدة ويكـون العـدو هم الـزوج والأولاد فهي مسئولة أيضا. وما أروع موقف وهب الأنصاري حينما تحدّى تثبيط زوجته إذ تعلّقت به لتردعه عن خوض القتـال دفاعا عن الإسلام بين يدي الإمام الحسين ـ عليه السـلام ـ ولكنّه اندفع إلى الشـهادة ، لأنّ حبّ الله كـان أنفذ بقلبه من عاطفته تجاه زوجته الشـابّة! وما أعظم موقف آسـية بنت مـزاحم وهي تتحـدى طغيـان زوجها فرعـون حـتى استشهدت موثّقة بالأوتـاد! ولعمـري إنّ التـاريخ الرسـالي لحافل بمواقف البطولة للنســاء والرجــال على ســواء ، الذين فكّوا حلقة الأسرة ، وانطلقوا في رحاب الدفاع عن القيم السامية.

وكما أنّ العـــداوة تتخذ ألوانا فـــإنّ عـــداوة الأزواج والأولاد قد لا تظهر على شـفرة سـيف ، ولا سـنان رمح ، ولكنّها تتمثل في مظـــــاهر أخـــــرى عاطفية واجتماعية واقتصادية ، فحينما يكون المؤمن متفانيا لقضيته منصـهرا في بوتقة أهدافه فإنّ معاداة

(1) تفسير القمّي / ج 2 ص 372

أسرته للقضية والأهـداف هي في الواقع معـاداة له ذاته ، ولو جــاءت تلك المعــادات في صــورة قشــيبة من جهة التظاهر بحبّه.

وإذا لم يحــذر المــؤمن هــذه العــداوة فــإنّ عاقبته الخســـران ، ذلك أنّ الطغـــاة والمـــترفين والكســـالى والرجعيين يحسنون استخدام سـلاح الأسـرة ضد المـؤمن الرســالي ، لــذلك تــراهم ما يــبرحون يســعون بشــتى الأســـــاليب ترغيبا وترهيبا وتضـــــليلا لإدخالها في معادلة الصراع ضد الرساليين.

(**فَاحْذَرُوهُمْ**)

أي خذوا الحيطة المسـبقة ، وتحصّـنوا ضد عـداوتهم. وأمره تعالى بالاحتياط هنا ثم دعوته إلى الصفح والتسامح بعدئذ يدلّ على أنّ العـداوة المعنيّة ليست الـتي تصل إلى حــدّ القتــال بل هي العــداوة الخفية ، كــالتي تســتهدف التثبيط والنيل من عزيمة الجهاد لدى الإنسان المؤمن.

وثمّة ملاحظة جديرة بالانتباه تجـدها في وزن كلمـات الآية من الزاوية البلاغية ، فقد قـــال تعـــالى : «عــــدوّا» بالإفراد ، ثم قـال : «فاحـذروهم» بـالجمع ، لأنّ العـدو قد يكـون واحـدا منهم ولكنّه منـدسّ بين أبنـاء العائلة ومـؤثّر فيهم فلا بد أن يحـذر المـؤمن الجميع ويتـوجّس خيفة من أيّ كلمة تثبيط تتغلّف بالودّ والعاطفة ، سواء صــدرت من أمه وأبيه أو زوجته وبنيه أو أخته وأخيه ، وبهــــذا الحــــذر وحده يستطيع أن يتجنّب الفضل الذي وقع فيه الكثـير من الناس ، فما أكثر القـرارات الصـائبة الـتي ضـربت عـرض الحائط بسبب دمعة تحلّقت في جفـون الزوجـات أو كلمة عاطفية صدرت من أم أو أب؟!!

وليست الدعوة إلى الحـذر تعـني المقاطعة التامّة مع الأســرة ، كلّا .. بل لا بد أن يتحــرك في علاقاته ضــمن معادلة متوازنة إحدى كفّتيها الاحتياط والحذر ، والأخرى

العفو والصفح والغفران.

(**وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا**)

وهـذه ثلاث درجـات لصـفة واحـدة هي التنـازل عن الحقوق الشخصية بالسماحة وسعة الصدر لصالح الأسرة. وينبغي للمـــؤمن أن يســـمو بنفسه إلى آفـــاق الحلم والسماحة تخلّقا بأخلاق الله ، ويتحمّل بعض الإساءات من أجل جذب أسرته إلى الرسالة.

(**فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**)

يغفر للمتســامحين ويــرحمهم ، وهي أعلى درجــات التســـامح. وتحسس المـــؤمن بحاجته إلى غفـــران الله ورحمته لا شك يدعوه للتلطّف بمن هو تحت يده وقدرته.

ونعـــود الآن إلى معـــنى الكلمـــات الثلاث : (العفو ، الصفح ، الغفران) ، فـالعفو هو التنـازل عن حـقّ الانتقـام والمماثلة في القصاص وبالـذّات عند المقـدرة ، والصـفح درجة أرفع ، إذ قد يتنازل الإنسان عن حقّه في الاقتصاص مثلا ولكنّ علاقته مع الطـــرف الآخر تبقى كـــدرة بســـبب الإســاءة ، أمّا إذا صــفح عنه فهو يطــوي صــفحة الماضي ويفتح صـــفحة جديـــدة فتعـــود علاقته الظـــاهرة به علاقة طبيعية ، وليس بالضرورة أن تزول الآثار النفسية الداخلية بذلك ، بلى. إذا غفر أزال حتى هذه الآثار ، بل وتنـازل عن طلب الانتقام من الله عزّ وجل. وهـذه الصـفات ينبغي أن يتحلّى بها المؤمن تجـاه أسـرته والآخـرين على كـلّ حـال وفي كل الظـــروف ، وبالـــذّات عند ما يحتـــدم الصـــراع المبدئي بينه وبينهم ، فإنّ هذا الصـراع ينبغي أن يبقى في حدود المبدء ولا يتحوّل إلى صراع شخصي مستمر ، فــإذا عادت زوجته الـتي كـانت تمنعه من العمل في سـبيل الله إلى رشــدها أو اقتنع أبــواه وســائر أســرته فــإنّ عليه أن ينسى الإسـاءات الـتي صـدرت منهم تجاهه ، ولا يـذكّرهم بها ، ولا يحمل في نفسه

غضاضة ، ولا يطالبهم بالغرامة ، وما أشبه.

[15] وقد لا تبــدر العــداوة من قبل الأســرة تجــاه المــــؤمن ، ولكنّه يفتتن بهم أو بماله ، ولربما نجد البعض تحرّضه زوجته أو أســرته على الجهــاد ولكنّ تفكــيره في مستقبلها بعده يمنعه من الإقدام عليه ، لـذلك حـذّرنا الله عن ذلك بقوله :

(**إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ**)

قد ينجح المؤمن في مواجهتها وقد يفشل ولكنّها كلّها بالحصر ودون استثناء فتنة ، أي أنّها تضعه أمـام مفـترق طريقين : أحـدهما الحق والآخر الباطل ، وتثـير فيه نفسه الأمــارة والأخــرى اللوامة ، ليختــار بعقله ويمشي بإرادته في أيّهما شاء.

(**وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**)

وإنّما يذكّر ربنا بهذه الحقيقة لأنّ الإيمـان الصـادق بها كفيل بأن يدفع الإنسان لتجاوز الفتنة بنجاح فيختار ما عند الله على ما في الــدنيا ، كما أنّ هــذه البصــيرة تــرغّب المؤمن ليسخّر الأموال والأولاد في سـبيل الحصـول على ما عنده تعالى ، وليس جعلها عقبة دون ذلك ، وفــرق بين الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ الذي جعل أولاده وأصحابه وأهل بيته وأمواله وســيلة للتقــرّب من الله وبين الزبــير الذي أدخله افتتانه بولـده عبد الله في حـرب مع وليّ الله وحزبه في موقعة الجمل ، فقــال عنه أمـير المؤمـنين ــ عليه السلام ـ يصف عامل الانحــراف في حياته : «ما زال الزبـير رجلا منّا أهل الـبيت حـتى نشأ ابنه المشـؤوم عبد اللــه» [1] ، لأنّه الــذي دفعه الى حب الــدنيا والرئاسة ، وحرّضه على الحرب ضد الإمـام ــ عليه السـلام ــ. وهـذه البصيرة تجعل المؤمن يتصـرّف تصـرّفا معتـدلا مع أمواله وأولاده ، فلا يفـرط في حـقّ أبنائه ، ولا يبـذّر في صـرف أمواله ، إنّما يتبع طريقا وسطا يزن كلّ موقف منه

---

(1) نهج / حكمة 453

تجاههما بدقة ، ويتصرّف بحكمة ، ويتجنّب الاسترسال في موقف إيجابي أو سلبي.

وهكذا روى المفسرون حديثا عن الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ نستلهم منه معنى إيجابيا للفتنة ، وأنّها لا تعني طرد الأولاد أو نبذ الأموال ، بل التصرّف الحكيم معها. الحديث كما يلي :

روى عبد الله بن يزيد عن أبيه قال : كان رسول الله يخطب فجاء الحسن والحسين ـ عليهما السلام ـ وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله إليهما فأخذهما فوضعهما في حجره على المنبر ، وقال : «صدق الله عزّ وجل : (**إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ**) نظرت إلى هذين الصبيّين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما» ، ثم أخذ في خطبته [1].

[16 ـ 17] وليس من درع يتحصّن به المؤمنون ضد الفتن أفضل من تقوى الله ، لأنّها الحبل المتين الذي يوصل الإنسان بربه في كل مكان وفي كل لحظة من عمره ، وفي كل سعي وقول يصدر عنه. هذا أوّلا ، وثانيا : السماع لله ولرسوله والطاعة لهما ، وثالثا : الإنفاق في سبيل الله والتضحية بكل ما يملكه الإنسان ، فإنّ ذلك هو السبيل المستقيم لنيل ما عنده تعالى من الأجر ، والإنتصار على شح النفس الذي هو أساس كل انحراف في حياة البشر ، وبالتالي الفلاح الحقيقي في الدنيا والآخرة.

(**فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**)

وهذه الآية بيان لقول الله في موضع آخر : (**اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ**) [2] ، وذلك

---

(1) مجمع البيان / ج 10 ص 301

(2) آل عمران / 102

من وجهين :
الأوّل : أنّ الله سبحانه حينما فرض التقوى على الإنسان أعطاه من الاستطاعة ما يمكنه بها إحرازها كما يريدها منه تعالى ، قال الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ : «**ما كلّف الله العباد كلفة فعل ولا نهاهم عن شيء حتى جعل لهم الاستطاعة ثم أمرهم ونهاهم**» [1]
وقال ـ عليه السلام ـ : «وإنما وقع التكليف من الله تبارك وتعالى بعد الاستطاعة ، ولا يكون مكلّفا للفعل إلّا مستطيعا» [2] كما قال تعالى : (**لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها**) [3]. إذن فتقوى الله بقدر ما يستطيع الإنسان هي نفس حقّ التقاة.
الثاني : أنّ تقوى الله حقّ تقاته تختلف من إنسان إلى آخر باختلاف الظروف والإمكانات الذاتية ، فتقوى الأعرج والأعمى والمريض تختلف عن تقوى السليم في بدنه ، وتقوى العالم تختلف عن تقوى الجاهل ، وتقوى السجين تختلف عن تقوى الحر ، وهكذا .. فإذا ما بذل الإنسان كلّ ذرّة من جهد يستطيعه فقد اتقى ربه حقّ تقاته عمليّا. ولذلك فرّق تعالى في الكم بين إنفاق الموسع والمقتر فقال : (**لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللهُ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها**) [4].
ونستوحي من الآية : أنّ المؤمن يجب أن يكون واقعيّا في نظرته إلى الدين ، فيتقي الله حسب استطاعته ومكنته ، وإذا لم يستطع فلا يؤنّب نفسه ولا يقنط من

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 343
(2) المصدر
(3) البقرة / 286
(4) الطلاق / 7

رحمة الله ، بل يفعل بقـدر وسـعه. مثلا : من لم يسـتطع طـولا أن يصـلّي قائما فلا يـترك صـلاته رأسا ، بل يصـلّيها عن جلوس ، ومن لم يستطع أن يعارض حاكم السـوء فلا يجاريه بقلبه بل يتقيه ظـاهرا ويسـتمر في مقاومته في السر ، وهكذا ..

قال تعالى : (**لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُـونَ الْكـافِرِينَ أَوْلِيـاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَـلْ ذلِـكَ فَلَيْسَ مِنَ اللـهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً**) [1] ، وقـال : (**مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُـهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ**) [2] .. والحاصل : أنّ الإنسـان حينما يضـطر إلى التقوى الممكنة عمليّا لسبب مشروع فهو في الواقع صار إلى التقوى المأمور بها ، لأنّ تقـوى الله حـقّ تقاته تكـون بالتزام أحكامه سواء كـانت أحكاما أوّلية أو ثانوية ، وقد لا تحـرز التقـوى بحق إلّا بشـرب الخمر وأكل الميتة والعمل ظاهريا في جهـاز الحـاكم الجـائر ، كما أكّد ذلك الإمـام الكاظم ـ عليه السلام ـ لصاحبه علي بن يقطين الذي أراد الاسـتقالة من رئاسة الـوزراء في عهد هـارون حيث منعه وبيّن له بأنّ بقاءه هو الواجب المطلوب شرعا.

والآية الكريمة الـتي نحن بصـددها تعبـير عن النظـرة الواقعية في الإسلام ، وينبغي للحركات الرسـالية اعتبارها أصلا من أصـول التحـرك حيث أنّ النظـرة المثالية إلى الشريعة تجعل الأولويات ضـحيّة للأمـور الثانوية والأصـول ضحيّة للفروع.

(**وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا**)

فـالمهم إذن ليس الاسـتماع إلى كلام الله وتوجيهـات القيـادة الرسـالية فقط ، إنّما الأهم هو الطاعة والإتبـاع ، لأنّ التوجيه لا يـؤثّر في الواقع إلّا إذا سـلّمنا له وعملنا بمضـامينه ، وبالـذات تلك الـتي تتطلب من الإنسـان التضحية لأنّها الأصعب ،

---

(1) آل عمران / 28
(2) النحل / 106

والـتزام الإنسـان بها مؤشّـر على عمق إيمانه ، واقتحامه عقبة الشح الكبرى. لذا قال تعالى :

(**وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ**)

أي أنّ الإنفاق يعـود على صـاحبه بـالخير ، فهو يـزكّي النفس ويزيد إيمانها ، ويتقــدّم بــالمجتمع اقتصــاديّا لما يسبّبه من نماء في الثروة وتـدوير لهـا. وللآية تفسـير آخر هو : أنفقـوا خـيرا في مقابل الشر ، فـإنّ الخـير هو الـذي يعود للنفس والمجتمع بالنفع.

(**وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**)

وشحّ النفس هو مجموع الصـفات السـلبية الـتي تعبّر عن حب الذات وحب الدنيا ، كالبخل والحرص والعنصـرية وما أشـبه ، وإذا انتصر الإنسـان على شح نفسه صـار من المصلحين لأنّه جذر كلّ ضلال وانحراف ومعصية في حياة البشر ، ولأنّ الإنتصـــــــار عليه يفتح الطريق له نحو كل فضيلة وصلاح ، ولـذلك يحـدّثنا أبو قـرّة فيقـول : رأيت أبا عبد الله (الإمـام الصـادق عليه السـلام) يطـوف من أوّل الليل إلى الصـباح وهو يقـول : اللهم قـني شـحّ نفسي ، فقلت : جعلت فداك ما سمعتك تدعو بغير هـذا الـدعاء؟! قـال : وأيّ شـيء أشد من شح النفس ، وإنّ الله يقـول : «**وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**» [1]

والإنفـــاق من أهم العوامل الــتي تقضي على شح النفس ، جـاء في الحـديث المـأثور عن الإمـام الصـادق ـ عليه الســلام ـــ : «**من أدّى الزكـــاة فقد وقي شح نفسه**» [2]

(**إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ**)

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 346
(2) مجمع البيان / ج 10 ص 301

ما هو القرض هنـا؟ قـال بعضـهم : هو الـدين ، وقـال البعض : بل هو كل إنفـــاق ، أو الإنفـــاق المنـــدوب (بينما الأوّل كان في عمـوم الإنفـاق). وأنّى كـان فـإنّ لكل هـذه المفـردات آثـارا مباركة في حيـاة الفـرد والمجتمع ، ولها أيضا آثـار معنوية تتصل بمصـير الإنسـان في الآخـرة ، إذ تسبّب في غفران الذنوب باعتباره من الحسـنات الكبـيرة التي تشفع في السيئات.

(**وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ**)

فهو يـرد القـرض مضـاعفا بشـكره ، ويغفر الـذنوب بحلمه.

[18] وكلّما كـان الإنفـاق أصـفى من شـوائب الريـاء والسمعة والمنّ والاستكبار وابتغـاء المصـالح المادية كلّما كان أقرب إلى الله وأنفع للنفس وأزكى لها ، وربما لـذلك ختمت السورة بالتذكرة بأسماء الله :

(**عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ**)

يعرف ما ينفق ، ويعرف لماذا وبأيّة نية.

(**الْعَزِيزُ**)

الــذي لا يحتــاج إلى إنفــاق أحد أو نصر أحد ، قــال سبحانه (**وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللهُ وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**).

(**الْحَكِيمُ**)

الذي يثيب من يثيب بقـدر طاعته وإخلاصه ، ويعـاقب من يعاقب حسب ذنبه وكفره.

نسأل الله أن يجعلنا ممن يتبصر هذه الحقائق حتى لا نكون من المغبونين.

سورة الطلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

من كتـاب ثـواب الأعمـال وعقابها للصـدوق (رض) بإسناده عن أبي عبد الله الصادق ـ عليه السـلام ـ قـال : «**من قرأ سورة الطلاق والتحريم في فريضة أعـاذه الله من أن يكون يوم القيامة ممّن يخاف أو يحزن ، وعوفي من النّار ، وأدخله الله الجنّة بتلاوته إيّاهما ، ومحافظته عليهما ؛ لأنّهما للنـبيّ صـلّى الله عليه وآله**»

تفسير نور الثقلين / ج 5 ص 346

الإطار العام

في بادئ الأمر يتراءى أنّ سـورة الطلاق تتحـدث عن قانون الطلاق ، ولكن حينما نتـدبر في سـياقها نجد محـور السـورة الحـديث عن التقـوى ، وما الحـديث عن قـانون الطلاق وسـنن الله في الغـابرين و.. و.. إلا إطـارا لهـذا المحور ، والسؤال : ما هو سبب مزج السياق بين الأحكام الشرعية وبين الأوامر المؤكّدة بالتقوى؟ والجواب :

1 ـ إنّ التقـوى هي أفضل ضـمانة لتنفيذ الأحكـام الشرعية ، والـتزام الحـدود الإلهية ، والإعتبـار بالمواعظ ، والعمل بقيم الذكر ، وبالذات في صورتين :

الأولى : القضـايا الفردية الـتي لا تتصل بالنظـام السياسي للأمة بقـدر اتصـالها بالنظـام الاجتمـاعي وبالقرارات الفردية للإنسان.

الثانية : غيـاب النظـام الإسـلامي المتكامل (المجتمع الإسـلامي ، والحكومة الإلهيـة) إذ مع وجـود هـذا النظـام يصعب على الفرد أن يتجاوز حدود الله ، لأنّه

ســـــيجد من يمنعه ويقف في طريقه ، وبالـــــذات في المسـائل الاجتماعية ، لـذا فقد يلـتزم الإنسـان بالأحكـام خشية الناس والقانون ، أمّا إذا نمت روح التقوى عند أحد فــإنّ من ربه ســتكون أعظم من كــلّ شــيء ، وذلك ما يدعوه لاتباع الحق في أيّ مكـان وزمـان حـتى لو لم يكن ثمّة نظام إسلامي قـائم ، بل ولو كـان وحـده لا يـراه أحد من الناس.

2 ـ انّ حقيقة التقوى لا تنمو في القلب إلّا إذا اتصلت بمجمل ســـلوك الإنســـان ، فهي ليست مفهوما ذهنيّا أو مادة للمعرفة ، إنّما هي صبغة حياة ولون سـلوك ، ومنهج تكامل ، وموقف من الأحـداث المتحركة حـول الإنسـان ، لذلك يحدّثنا الـوحي عنها عـبر تيـارات الحيـاة وتطوراتها ، وأمــواج ضــغوطها المختلفة ، لكي لا نتعامل مع التقــوى كقضية مجرّدة ، وبعيدة عن التفاعل في قضايانا اليومية.

وبهـذه الطريقة تتصل التقـوى بكـلّ التعـاليم الدينية ، فإذا أمر الله بالتقوى عند الحديث عن قانون الطلاق فـإنّ معناها يكون الالتزام بأحكام الله وحدوده فيه.

سورة الطّلاق

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّســــاءَ فَطَلِّقُـــوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَـأْتِينَ بِفاحِشَـةٍ مُبَيِّنَـةٍ وَتِلْـكَ حُـدُودُ اللـهِ وَمَنْ يَتَعَـدَّ حُـدُودَ اللـهِ فَقَـدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً (1) فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِــكُوهُنَّ بِمَعْــرُوفٍ أَوْ فــارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ ذلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِـرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (2) وَيَرْزُقْـهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ

بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَـدْراً (3) وَاللاَّئِي يَئِسْـنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسـائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِـدَّتُهُنَّ ثَلاثَــةُ أَشْــهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْــنَ وَأُولاتُ الْأَحْمــالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَـهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً (4) ذلِـكَ أَمْـرُ اللـهِ أَنْزَلَـهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً (5)

وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً

هدى من الآيات :

الأسـرة كما يراها الإسـلام هي اللبنة الأولى في بنـاء المجتمع الإسـلامي ، وقد أولاها القـرآن اهتماما بالغا باعتبارها حصن الفـرد والمجتمع ، والمدرسة الـتي تـتربى فيها الأجيال ، فهو ما يفتأ يعـالج القضـايا المتصـلة بها بين سورة وأخـرى ، ليرسم المنهج المتكامل لمسـيرة النكـاح والمعاشـرة والتربية ، ولنظامها الـداخلي (الـدخول والخروج ، والأكل والنوم) وعلاقاتها المختلفة ، وفيما بينها حالات الشقاق والطلاق.

وبـالرغم من أنّ بعضا من المـذاهب كالمسـيحية الكاثوليكية تحـرّم الطلاق البتة ، وبـالرغم من أنّه في شـريعة الإسـلام نفسه أبغض الحلال إلى الله ، فقد جـاء الحديث المأثور عن النبي ـ صلّى الله عليّه وآله ـ أنّه قـال : «**تزوّجوا ولا تطلّقوا فإنّ**

الطلاق يهتزّ منه العرش» [1]

وجاء في حديث آخر عنه ــ صلّى الله عليه وآله ــ : **«لا تطلّقوا النساء إلّا من ريبة فإنّ الله لا يحب الذوّاقين والذوّاقات»** [2]

إلّا أنّه تعالى يشرّعه لأنّ الروابط الزوجية في نظر الإسلام إنّما وضعت لأهداف فردية وأسرية واجتماعية وحضارية ، فإذا أصبحت لا تؤدي الأغراض أو أضرّت بها فإنّ الطلاق يصير الأولى منها.

وحيث أنّ الطلاق عملية هدم لكيان الأسرة فقد أسّس الله دينه على الوقاية منه ، وفي هذا السياق تنتظم الكثير من القيود التي وضعت ليصبح الطلاق مشروعا ، كوجوب العدّة ، وبقاء الزوجة في بيت زوجها حينها لا هو يخرجها ولا هي تخرج منه ، وحضور شاهدي عدل حين الطلاق ، وما إلى ذلك.

ولا يعتبر الإسلام الطلاق مسألة شخصيّة يتصرف فيها الرجل كيف يشاء ـ كما يظن البعض ، وكما هي عند بعض المذاهب ــ إنّما هو قضية اجتماعية قس كيان الأسرة بصورة خاصة والمجتمع بصورة عامة. لذا يضع الله حدودا يحذّر من تجاوزها ، بل لا يقع الطلاق من الناحية القانونية والواقعية والشرعية إلّا ضمنها.

ويلاحظ إلى جانب السياق الذي يعالج مشكلة الطلاق من الناحية القانونية تأكيدات متتالية على أهمية التقوى وبصيغ مختلفة ، لأنّها الدرع التي تحصّن المجتمع ضد المشاكل كالطلاق ، ولأنّها الضمانة الحقيقية والأهم لالتزام الإنسان بحدود الله وتنفيذها في كلّ مكان وزمان.

---

(1) مجمع البيان / ج 10 ص 304.

(2) المصدر.

بينات من الآيات :

[1 ـ 2] في أوّل آية من السـياق يوجّه الله الخطـاب إلى رســوله بصــورة خاصة : (**يا أَيُّهَا النَّبِيُ**) باعتبــاره مسئولا عن الأمة وشاهدا عليها ، ثم يعمّ المسلمين ببلاغة فائقة : «طلّقتم» ، وذلك لكي ينسف المزاعم التي تقـول بأنّ علاقة الرجل بزوجته وتدبيره لشؤونها أمرا خاصّـا به ، ولا يمتّ بصلة إلى الدّين الـذي تمثّله القيـادة الإسـلامية ، ويؤكّد بــأنّ هــذا الــوهم غلط فاضح ، لأنّ علاقة الرجل بزوجته لا تقف عند حدود مصالح الفرد بل تنتشر إلى كـلّ امـرأة. أو ليست الزوجة عضـوة في المجتمع الإسـلامي ، وبالتالي لها امتداداتها وعلاقاتها بالمجتمع وبقيادتـه؟ فلا بد إذا أن يكون التعامل معها ضمن حدود الله وتوجيه القيادة الإلهيّة ، ولـذلك بـدأ الخطـاب بـالنبي ثم توسع إلى سـائر المسلمين.

(**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ**)

والملاحظ أنّه تعالى قـال : (**طَلَّقْتُمُ**) بصـيغة الماضي ، ثم قــال : «فطلّقــوهن» ممّا يــدل على أنّ للطلاق مرحلتين : المرحلة النفسية الداخلية ، والمرحلة القانونية الظاهرية ، وتلك تســبق هــذه إلّا أنّها لا تكفي لتحقّق الطلاق لأنّه يجب إجراء الطلاق وفق حدوده ومنها الصيغة التي تفيد إيقاعه كقول الرجل : زوجتي فلانة طـالق ، أو : أنت طالق .. كما يفيد قوله : «طلقتم» الجزم والاستقرار أي جــزمتم واســتقريتم على هــذا القــرار في أنفســكم وأردتم إيقاعه.

ولعل كلمة «النساء» تنصرف إلى الزوجات اللاتي تمّ الدخول بهن ، فإنّ غـير المـدخول بها ليس لها عـدّة ، لأنّ الحكمة منها حسب الأخبــار منع اختلاف الميــاه ، وهــذا منتف إلّا في المدخول بهن.

ولأنّ هنـــاك طلاق الجاهلية وطلاق البدعة لم يــــدع الوحي الكلمة هكـذا إنّما حـدّد النـوع المشـروع والصـحيح من الطلاق ، وهو الـذي الآيـات اللاحقة تـأتي على بيـان حـدوده وشـروطه ، ومن شـروطه العـدة ، وأن يتمّ في طهر لم يواقعها فيه ، لأنّه وحده الـذي يـدخل في حسـاب العدة الشرعية [1].

(فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَ)

وكلمة «طلّقوهن» من الناحية القانونية تعتبر تشـريعا للطلاق ، الأمر الـــــذي يختلف فيه الإســــلام عن بعض المــذاهب الـتي حرمته ومنعته فلم تحل المشـكلة ، بل تسـبب في كثـير من المشـاكل النفسـية والأسـرية والاجتماعية. ولم يقل الله للعدة لكونها تختلف عن امـرأة لأخرى ، فعدة الحامل تختلف عن غير الحامل ، قـالوا في تفسـير كلمة «لعـدّتهن» أي لزمـان عـدتهن ، وذلك أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه ، عن ابن عبــــاس وابن مسعود والحسن ومجاهد وابن سـيرين وقتـادة والضـحّاك والسـدّي ، فهـذا هو الطلاق للعـدة لأنّها تعتد بـذلك الطهر من عـدتها ، وتحصل في العـدة عقيب الطلاق. فـالمعنى فطلقـوهن لطهـرهن الـذي يحصـيهن من عـدتهن ، ولا تطلقوهن لحيضهن الذي لا يعتـدون به من قـرئهن ، فعلى هذا يكون العدة الطهر [2].

وتهـدينا الآية إلى أنّ المـرأة لا تنفصل كلّيا عن زوجها بمجرد أن تنطلق من لسانه صيغة الطلاق الأولى ، لتكـون حــرّة في اختيــار غــيره مثلا ، إنّما تبقى في بيته وتحت مسئوليته أثنـاء عـدتها ، فـإذا انتهت العـدة سـرى مفعـول الطلاق عمليا فتنفصل المرأة عن زوجها تماما لتصـبح في غير عهدته إلّا أن يرجع إليها وترجع إليه ، لذلك قال تعـالى :

---

(1) قال الامام الصادق (ع) «لا طلاق إلّا على طهر من غير جماع» نور الثقلين / ج 5 ص 347 نقلا عن أصول الكافي.

(2) مجمع البيان / ج 10 ص 303.

(**وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ**)

وقد أمر الرجل بالــذات بالإحصــاء لأنّ الطلاق بيــده ولأنّه المسؤول عن المـرأة في سـكنها ونفقتها وحمايتها ، فلا بد أن يحصي لكي يعـرف بالضـبط مـتى يمكنه التحلل من هـذه المسـؤولية الشـرعية. والتأكيد على التقـوى بعد الأمر بإحصاء العدّة يهدينا إلى ضرورة الدقة في الحسـاب ، لأنّ التقـوى هي الـتي تمنع الكـذب والتلاعب. وفي الآية تحذير للـزوجين بـأنّ الله رقيب وشـاهد لا يمكن مخادعته أبــدا ، وينبغي اتقــاء سـخطه وعذابــه. ولان فــترة العــدة مصــيرية بالنســبة لعلاقة الطــرفين ففيها يراجع الرجل نفسه ويقيّم زوجته من جديد ليقـــرر الرجـــوع إليها أو الانفصــال عنها فيجب عليه أن يــراقب الله من كــلّ ذلك ويكــون منصــفا. ولعل الرجل بالــذات يســتطيع مضــارّة زوجته فيتلاعب بالمــدة بعيــدا عن علم أيّ أحد ، وحيث لا يوجد النظـام الإسـلامي المتكامل فهو قـادر على صـنع ما يشاء دون أن يواجه أيّ إجراءات قضـائية وقانونية تخـالف هــواه ، لــذا فهو محتــاج إلى مراقبة الله قبل كل شــيء وتقـــواه (باعتبارها أهم الضـــمانات التنفيذية للحـــدود والشرائع).

ويوصل القــرآن الــدعوة للتقـوى بـالنهي عن إخــراج المطلقـات من بيـوت الزوجية قبل العـدة ، وهكـذا نهيهن عن الخـــروج ، لأنّ ذلك هو الآخر يحتـــاج إلى المزيد من خشية الله وتقواه.

(**لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ**)

إذن فقـول الرجل لامرأته : أنت طـالق لا يخرجها من مسـئوليته ، ولا يـبرّر لها التمـرد عليه .. فـإنّ الـبيت يبقى بيتها لا يجـــوز له إخراجها منه ، وهي تبقى في عهدته لا يحق لها الخـروج من تحت يـده ما دامت العـدة لم تنقض «**ثلاثة قروء وهي ثلاث حيضات ، وإن لم تكن تحيض ثلاثة أشهر ، وإن كان بها حمل فإذا وضعت**

انقضى أجلها» [1] كما يقــول الإمــام الصــادق ــ عليه السلام ـ.

ولعل بقاء المرأة في بيت زوجها أثناء العدة ـ بالـذات مع ملاحظة ما نـدب إليه الإســلام من التـبرج والـتزين لزوجها ـ صلاح كبـير ، باعتبـاره يشـدهما لبعضـهما ، ويعيد الرجل إلى زوجته من زوايا إنسانية عاطفية وجنسية حيث يــرى ضــعفها وانكســارها بين يديه وحيث يــرى الزينة والجمال ، ومن زاوية دينية باستشعار التقوى إن كـان ثمّة طريق للرجعة والانسـجام. قـال الإمـام الصـادق ــ عليه السـلام ــ : «المطلّقة تكتحل وتختضب وتطيّب وتلبس ما شاءت من الثياب لأنّ الله عـزّ وجـلّ يقـول : (**لَعَـلَّ اللـهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً**) لعلها أن تقع في نفسه فيراجعهـا» [2]

ويستثني القرآن مبرّرا واحدا تـبين بسـببه الزوجة من زوجها مباشرة بحيث يجـوز له إخراجها من بيته فلا يكـون بيتها ولا يتحمل مسـئولية الإنفـاق وما أشـبه في العـدة ، وهو أن تأتي بفاحشة.

(**إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ**)

الأقرب أنّ الفاحشة هي المعاصي الجنسـية وأظهرها الزنا والسـحاق ، لقوله تعـالى : (**وَلا تَقْرَبُـوا الـزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَساءَ سَبِيلاً**) [3] ، وفي ذلك جـاء الحـديث المأثور عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ــ حيث قـال في تفسير الآية : إلا أن تزني فتخرج ويقام عليها الحد [4] ..

(1) تفسير القمي / ج 2 عند الآية الرابعة.
(2) تفسير نور الثقلين ج 5 ص 352.
(3) الإسراء / 32.
(4) تفسير نور الثقلين ج 2 ص 350.

ولكنّ الفاحشة المبيّنة تعم حتى سائر الذنوب الكبيرة ، وبالذات تلك التي تؤثر في العلاقـات الزوجية ، كما جـاء في عـدة نصـوص منها المـروي عن الإمـام البـاقر ــ عليه السلام ـ في تفسير الآية «أنّها الإيذاء» [1] ، ومنها المأثور عن الإمام الرضا ــ عليه السـلام ــ قـال : «**الفاحشة أن تؤذي أهل زوجها وتسبهم**» [2].

(**وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ**)

وما دامت حــدود الله فهي مفروضة وواجب مراعاتها بالسير على هداها والخريطة الـتي ترسـمها ، لما فيها من صـلاح للفـرد وللأسـرة والمجتمع ، ولا يجـوز للإنسـان أن يصطنع لنسفه حـدودا غيرها ويتبعها بـاللف والـدوران ، أو بادّعــاء أنّ القضــية شخصــية ، كلّا ... إنّما التشــريع لله وحده.

(**وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**)

لأنّه لا تبقى ســعادة ولا قيمة في العلاقــات الزوجية الـتي لا تحكمها الضـوابط ، ولأنّ المجتمع الـذي لا يحـترم النظام يحطم بعضه بعضا ويسوده الظلم والتبادل ، ولكنّ أجلى صــورة لظلم الإنســان نفسه بتعــدي حــدود الله العذاب الذي يلقاه في الآخرة جـزاء انتهاكه حرمة أحكـام الله وشرائعه.

ويــبيّن الله الحكمة الأساسـية الـتي جعلت من أجلها العـدة ، ووجب بقـاء المـرأة في بيت زوجها أثنائها ، وهي رجــاء تغيّر المواقف وعــودة العلاقة إلى حالها الطــبيعي حيث الوئام والمحبة ، فلا يصح إذن أن يحكم الإنسـان في لحظة غضب وانتقام وردّة فعل حكم يأس على علاقته مع شريكة حياته بأنّها لا تصلح أبدا ، فإنّ الأمور بيد الله يبـدّل فيها كيف يشــاء ، فربما عطف القلــوب على بعضــها ، وألفها بعد الفرقة

(1) المصدر ص 351.
(2) المصدر.

برحمته.

(**لا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً**)

ولعلّنا نهتـدي هنا إلى فكـرة تشـريعية هامة هي : أنّ تشريع الطلاق من قبل الله عـزّ وجل ينبغي أن لا يتنكر له البشر ، أو يلغـوه من قائمة القـوانين الاجتماعية ، لأنّه إذا يرى في مـوارده الموضـوعية وضـمن الحـدود الإلهية فإنّه يعـود على المجتمع بـالنفع ، فـإذا بتلك الروابط الضـعيفة تصير متينة جـدا ، وتنتهي المشـاجرات وأسـباب الخلاف ، ويـزداد الحب بين الطـرفين فلا يفكّـرا إلّا في المزيد من التلاحم بعد أن ذاقا طعم الفراق بينهما ، وبعبارة : يحـدث تحـوّل إيجـابي في الروابط الزوجية والأسـرية بسـببه. ومعرفة الإنسان أنّه مكـره على قبـول زوجته لا يبعث فيه التطلع إلى تطـوير علاقته معها وتنمية حبه لها بل يجعلها وكأنّها شر لا بد منها.

وإذا انقضت العـدة هنالك لا يسـمح له بـأن يـذرها كالمعلّقة انتقاما كما يفعل أهل الجاهلية الـذين لا يؤمنـون بجدّ ولا قيمة في العلاقة الزوجية سوى الهوى والشـهوة ، كلّا .. إنّه مخيّر بين أمـرين لا ثـالث لهما ، فأمّا أن يرجع إلى العلاقة الطبيعية مع أهله والـتي شـعارها المعـروف (الحب والاحـترام والعقلانيـة) ، وأمّا الفـراق والانفصـال بـالمعروف (بعيـدا عن التشـفّي والأذى وسـوء الخلـق). ويقـدّم القـرآن خيـار الرجـوع ترجيحا له على الفـراق لأنّ الله يريد خـير الأسـرة والمجتمع والحفـاظ على كيانهما بالحفاظ على تماسكهما من خلال العلاقات الوطيدة الـتي منها العلاقات الزوجية.

(**فَـإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِـكُوهُنَّ بِمَعْـرُوفٍ أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ**)

واستخدام القرآن تعبير أمسكوا يؤكد على أنّ الطلاق في الإسلام قبل انتهاء العدة لا يعني إنهاء العلاقة الزوجية وطرد الزوجة من أسرتها ، إنما يبقى كل شيء

على طبيعته ، فــالزوج لا يــزال زوجها والقــائم عليها (ممسك بهـا) إلّا أن يختـار الفـراق فهنالك تتغيّر الأمـور ، فتطلق من زوجها بالمفهوم العرفي.

(**وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ**)

على الطلاق إذا كــان هو الخيــار لا الرجعة ، لأنّها لا تحتــاج إلى شــهود بل يكفي التصــريح بإرادتها أو مقاربة الزوجة ، فقد جــاء في كتــاب الكــافي قــال أبو الحسن موسى الإمام الكاظم ــ عليه السـلام ــ «**إنّ الله تعـالى أمر في كتابه في الطلاق وأكد فيه بشــاهدين ولم يـرض بهما إلّا عـدلين**» [1] وأهمية الشـهود في الطلاق لأمــور منها وضع النقــاط على الحــروف في الإرث وفي حرية المــرأة بعد فــراق زوجهــا. فلو لا الشــهود لكـانت المطلقة تــدعي في الإرث ما ليس لها ، ولكــان الرجل يمنع مطلقته من الـزواج بادعـاء أنّها لا تـزال في عصـمته مثلا.

ولكنّ الشــهادة العظمى الــتي يجب على المــؤمن اعتبارها وإقامتها هي الشهادة لله.

(**وَأَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ**)

ولا تقوم الشـهادة لله إلّا بشـروطها الـتي تتـوافر عند المتقين الــذين يؤمنــون بــالغيب ، لأنّ الله لا يحضر عند العيون والأسـماع إنما يحضر عند القلـوب المؤمنة به عـزّ وجل. وكذلك الآخرة ليست شيئا محسوسا في الـدنيا إنّما يؤمن بها المؤمنون بالغيب.

(**ذلِكُمْ يُوعَـظُ بِـهِ مَنْ كـانَ يُـؤْمِنُ بِاللـهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِرِ**)

أي يــؤمن بعلم الله بالحقــائق كما تكــون ، ويــؤمن بالجزاء بعد البعث على كلّ

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 352.

خير وشر ، وشهادة الله لمن يؤمن بــذلك أعظم واعظ له عن مخالفة أمـــره وحـــدوده علنا أو بما يســـمّى بالحيل الشرعية.

وقد أورد الدكتور بـدران أبو العيـنين أسـتاذ الشـريعة الإسلامية في كلّية الحقوق بجامعتي الإسـكندرية وبـيروت الغربية بحثا حول الشـهادة على الطلاق ودورها في تقليل نســبة الطلاق ، هــذا نصــها من كتابه : الفقه المقــارن للأحوال الشخصية :

(ذهب أكثر الفقهـاء على أنه لا يشـترط الإشـهاد على الطلاق ، بل اسـتحبوه فقط اسـتنادا إلى أنّه لم يـؤثر عن الرسول ولا صـحابة رسـول الله ــ صـلى الله عليه وآله ــ اشـتراط الشـهود في الطلاق ، وحملـوا الأمر الـوارد في قوله تعالى (**وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ**) على الندب كما في : (**وَأَشْـــهِدُوا إِذا تَبـــايَعْتُمْ**) ، واشـــترط الإمامية والظاهرية لوقـوع الطلاق إشـهاد عـدلين ، لقوله تعـالى : (**فَـــإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِـــكُوهُنَّ بِمَعْـــرُوفٍ أَوْ فـــارِقُوهُنَّ بِمَعْـرُوفٍ وَأَشْـهِدُوا ذَوَيْ عَـدْلٍ مِنْكُمْ**) الطلاق فالله سـبحانه طلب الإشـهاد على الطلاق الــذي ســيق الكلام لبيــان أحكامه ، ومن المســتهجن أن يعــود طلب الإشــــــهاد إلى الرجعة ، لأنّها إنّما ذكــــــرت تبعا واسـتطرادا ، كما قـالوا إنّ من المعلـوم أنّه ما من حلال أبغض إلى الله من الطلاق ، فالـدين الإسـلامي لا يـرغب في أيّ نـــوع من أنـــواع الفرقة ، ولا ســـيما في العائلة والأســـــرة ، وعلى الأخص في الزوجية بعد ما أفضى كل منهما إلى الآخر بما أفضى. فالشــارع بحكمته العالية يريد تقليل وقوع الطلاق والفرقة ، بتكثير قيوده وشروطه بنـاء على القاعـدة المعروفة من أنّ الشـيء إذا كـثرت قيـوده عز ، أو قلّ وجوده. فلهذا اعتبر الشاهدين العدلين للضبط أوّلا ، وللتـــــأخير والأنـــــاة ثانيا ، عسى إلى أن يحضر الشاهدان ، أو يحضر الزوجـان ، أو أحـدهما عنـدها يحصل الندم ، ويعودان إلى الألفة ، يشـير إلى هـذا قوله تعـالى : (**لا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْـدِثُ بَعْـدَ ذلِـكَ أَمْـراً**) وأيضا قوله تعالى : (**وَأَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ ذلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**) ، فهذا الأمر

بالشـهادة جـاء بعد ذكر إنشـاء الطلاق ، وجـواز الرجعة ، فكـان المناسب أن يكـون راجعا إلى الطلاق ، وإنّ تعليل الإشـهاد بأنه يوعظ به من كـان يـؤمن بالله واليـوم الآخر يرشح ذلك ويقويه ، لأنّ حضـور الشـهود العـدول لا يخلو من موعظة حسـنة يزجّونها إلى الـزوجين ، فيكـون لهما مخرج من الطلاق.

فإذا لم يشهد على الطلاق شـاهدين ظاهرهما العدالة يسـمعان إنشـاء الطلاق كـان غـير واقع ، وكـذا لا يقع إذا أشهد عدلا واحدا أو فاسقين يكون بـاطلا ، فـإنّهم قـالوا : إنّ بالإشهاد على الطلاق يظهر التناسق بين إنشاء الـزواج وإنهائه ، بل قـــالوا : إنّه لو طلق ثم أشـــهد لم يكن ذلك شــيئا ، والشــرط أن يكونا رجلين عــدلين ، فلا شـــهادة للنساء منفردات ولا منضمات للرجال.

ورأي الشيعة الإمامية هو الـراجح إذ أنه يضـيّق دائـرة الطلاق التي اتسعت الآن كثيرا ، كما يسـهل إثباته فيما لو وقع خلاف بين الـزوجين في الطلاق ، ويجـري العمل في مصر على أنّه يجب على الموثق «المـــأذون» أن يجـــري الطلاق بحضـــور شـــاهدين يثبتهما في إشـــهاد الطلاق ، ويوقّعـان على وثيقة الطلاق بالشـهادة. وقد نص قـانون حقـوق العائلة في المـادة (110) على أنّ الـزوج الـذي يطلّق زوجته مجبور على إخبار المحاكم بذلك) [1].

وهـذه شـهادة بصـورة أخـرى يقرها القـانون المـدني نظرا لأهميتها وواقعيتها.

ويقـول الـدكتور محمد يوسف موسى أسـتاذ ورئيس قسم الشـــريعة الإســـلامية بكلّية الحقـــوق بجامعة عين شمس بالقاهرة في كتابه : (الأحـوال الشخصـية) مشـيدا برأي الإمامية في الشهادة : (وهذه وجهة نظر يجب عـدم التغاضي عنها ، فإنّ الأخذ

---

(1) الفقه المقـارن للأحـوال الشخصـية بين المـذاهب الأربعة السـنية والمذهب الجعفري والقانون طبعة دار النهضة العربية ص 378.

بهذا الرأي يمهّد السبيل للصلح في كثير من الحالات حقّا)[1].

ومن هنا جاء في الحديث المأثور عن الإمام الكاظم ـ عليه السـلام ـ أنّه قـال لأبي يوسف (الفقيه الحنفي الشـهير): «**يا أبا يوسف إنّ الـدين ليس بقيـاس كقياسك وقياس أصحابك. إنّ الله تبارك وتعالى أمر في كتابه في الطلاق وأكد فيه بشـاهدين ، ولم يـرض بهما إلّا عـدلين ، وأمر في كتابه بـالتزويج فأهمله بلا شهود ، فأتيتم بشاهدين فيما أبطل الله ، وأبطلتم شاهدين فيما أكّد الله تعالى**» [2].

ويعـود القـرآن ليؤكد على أهمية التقـوى بالـذات في الظـروف الصـعبة والحرجة ، فإنّها قبل كل شـيء سـبيل الإنسان للانتصار على المشـاكل وحلّها ، لما فيها من زخم إيمـاني يثبّت المـؤمن على الحق ، ولأن التقـوى في حقيقتها برنامج متكامل يجد فيه حلّا لكلّ معضـلة ومخرجا من كلّ حرج مهما كان الظاهر باعثا على اليأس والقنوط.

(**وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً**)

وتنقض هـذه الآية الكريمة ظنـون البعض بـأنّ اتبـاع شـرع الله وأحكامه يضـيّق على الإنسـان مـدار حريته ، ويسـبّب له في الحـرج والضـيق ، كلّا .. إنّما يصل البشر لأهدافه ويتخلص من مشـاكله ، ويجد الحلـول الناجعة لها والمخارج من العسر والحـرج باتبـاع سـنن الله وأحكامه ، وذلك لأنّ سـنن الله كما السـبل اللاحبة الـتي لو مشى عليها الإنسـان بلغ أهدافه بيسر وبلا عقبـات ، ومن يتقي الله يتقي ـ في الواقع ـ الانـزلاق عن هـذه السـنن إلى المتاهـات الـتي لا تزيد السـائر فيها إلّا ضـلالا وبعـدا عن أهدافه ، فقد تبـدو للبعض أنّ السـرقة والانتهـاب والحيلة والغش والظلم

---

(1) الأحـوال الشخصـية للـدكتور محمد يوسف موسى ص 271 طبعة 1958 م.

(2) نور الثقلين ج 5 ص 352.

والاعتداء والربا وسائر الطرق المحرمة هي وسائل جيـدة للارتزاق لما في بعضها من ربح عاجل ، إلّا أن عاقبة هـذه الطــرق هي الخســارة ، بينما الســعي النظيف والكسب الحلال هو بـاب الـرزق الواسع والسـبيل اللاحب للـثروة المشـروعة ، أما غـير المـؤمن فهو ينهـزم أمـام الأزمـات والمشـاكل إلى حد الانتحـار ، وكثـيرهم الـذين انتحـروا بسـبب عقـدة الفشل في العلاقـات الزوجية أو الجنسـية. وفي تضـاعيف الآية إشـارة إلى أن المـآزق الـتي يتـورط فيها الإنســـان تـــأتي في الأغلب نتيجة ذنوبه ومخالفته لأحكام الله ، فاذا اتقى ابتعد عن الـذنوب ونفذ القـوانين ، وهل نأتي الطـرق المسـدودة إلّا بسـبب مخالفة القـوانين والأنظمة؟!

[3] ولأن الفقر والضــيق من المــآزق الــتي يواجهها الرجل في إدارة أسرته والإنفـاق على أهله وعياله ، فـإن الإسلام يسعى أن لا يكون مبررا للطلاق ، وذلك من خلال تنمية روح الأمل بالله والتوكل عليه في روعه بأنّه يضـمن له رزقه ، وهـــذه الأفكـــار والمنهجية ترتكز على قيمة أساســية في الإســلام هي إيمانه بضــرورة دفع الإنســان باتجاه المزيد من تحمل المسـؤولية وليس تـبرير التهـرب منها.

(**وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ**)

أي أن هناك آفاقا للرزق لا يتوقعها الإنسان لمحدودية علمه وإحاطته يفتحها الله له ، وخــير شــاهد على ذلك ما يكتشــفه العلم الحـديث من الوسـائل والآفـاق الجديـدة للتنمية والاستثمار والإقتصـاد والـتي ما كـانت تخطر على بـال أحد منذ قبل ، جـاء في الحـديث المـروي عن الإمـام الصادق ـ عليه السلام ـ في رسـالته إلى بعض أصـحابه : **«أمّا بعد فـإني أوصـيك بتقـوى الله ، فـإنّ الله قد ضـمن لمن اتقـاه أن يحوّله عما يكـره إلى ما يحب ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، فإياك أن تكون ممن**

يخاف على العبـاد من ذنـوبهم ، ويـأمن العقوبة من ذنبه» [1]

وقـــــال (ع): «**إنّ الله عـــــزّ وجل جعل أرزاق المؤمـنين من حيث لا يحتسـبون ، وذلك أنّ العبد إذا لم يعرف وجه رزقه كثر دعاؤه»** [2]

وقال ـ في حديث آخر يفسر هذه الكلمة ـ : «**يبـارك له فيما آتاه»** [3]

والايمـــان بهـــذه الحقيقة يقشع عن عقل الإنســـان وروحه سـحب اليـأس ويفـكّ أغلاله ، ويـدعوه إلى المزيد من البحث والسعي طلبا لتلك الآفـاق. وما دام ربنا يرزقنا من حيث لا نحتسب فبـــــــالأولى أن يأتنا رزقه من حيث نتوقع حيث نعمل ونسـعى ونتبع سـبله ، ومن المعـروف : أنّ مالتز كان قد حذّر العالم قبل قرن من نقص هائل في الموارد الغذائية في هذا القرن ، واتبعه الكثير من الكتّـاب والمؤسسـات الدراسـية ، بينما فتح الله آفاقا جديـدة في حقل التقـــدم العلمي وتنمية المـــوارد الغذائية الـــتي تضـاعفت خلال القـرن الحاضر .. وتبشّـر الدراسـات بأنّها ستتضاعف في المستقبل.

إنّ آفـاق التقـدم لا تحد ، وإنّ قـدرات الإنسـان على التكامل عبرها لا تحصى ، وإنّما اليـــأس وســـائر الأغلال والأصر تقيد البشر من الانبعاث ، ولو عرف الإنسان قيمة التوكل على الله فـــــــاتقى ربه لرزقه الله من حيث لا يحتسب.

ولا ريب أنّ الآية لا تدعونا إلى الكسل والجلــوس في الـــبيت على أمل نـــزول رزق الله بـــالمعجزة ، كلّا .. بل ينبغي النظر لمعناها والتــدبر فيها ضــمن الأصــول العامة الـتي جـاء بها الإسـلام والموجـودة في الآيـات الأخـرى ، كأصل السعي والعمل والكدح ، بل الآية نفسها تشـير إلى ذلك في الخاتمة وتدعو إلى نفض غبار اليأس والقنوط ،

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 355.
(2) المصدر / ص 354.
(3) المصدر / ص 357.

والانبعـــاث بـــروح الأمل والتوكـــل. كـــذلك الآية تواجه الوسوسة الشيطانية التي تجعل البعض يزعم أن الرزق لا يتأتّى إلّا عـبر الحـرام ، لـذلك يجد مثلا انفصـاله عن دوائر الأنظمة ومؤسسـاتها أمـرا لا يطـاق ، بينما لو توكلنا على الله فسوف نجده عند حسن ظننا به.

(**وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**)

أي الذي يكفيه ، ولا ينبغي للمـؤمن أبـدا أن يشك في قـدرة الله على تحقيق ما يعد به ، مهما كـانت الظـروف صعبة ومعاكسة كما يبدو للإنسان فإن إرادته تعـالى فـوق كل شيء.

(**إِنَّ اللهَ بالِغُ أَمْرِهِ**)

بلى. نحن البشر تثنينا الأسباب ، وتحـول بيننا وبين ما نريد العقبات والموانع ، لأنّ إرادتنا محدودة ، أما الله فإنّ إرادته مطلقـــة. ولكنّه تعـــالى أبى أن يجـــري الأمـــور إلّا بحكمة وموازين.

(**قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً**)

على الإطلاق ، فليس من شـــيء خـــارج على هـــذا القـانون الإلهي العـام ، وكما تحكم المقـاييس الظاهرية الحجم والـوزن والكثافة واللـون والأجل وجـود كل شـيء ومن ذلك المشـاكل فـإنّ هنـاك سـننا وقـوانين معنوية تحكمه أيضا ، فلا يمكن للإنســـان أن يجد رزقا حلالا من غـير سـعي مـادي أو معنـوي. ووعد الله بـرزق من يتقيه ويتوكل عليه أمر من أمـــــوره وهو لا ريب بالغه ، ولكنّه جعل لـذلك مـوازين وضـوابط «قـدرا» ينبغي للإنسـان معرفتها وحـلّ مشـاكله من خلالها ، ويجب عليه السـعي في الحياة لتحقيق أهدافه وتطلعاته ومقاصـده انطلاقا من الإيمان بهذه الحقيقة في تدبير

الله لشـؤون خلقـه. من هنا جـاء في تفسـير هـذه الآية : «أنّ الإمام الصادق ــ عليه السـلام ــ سـأل بعض أصـحابه فقال : ما فعل عمر بن مسـلم؟ فقـال له البعض : جعلت فداك أقبل على العبادة وترك التجـارة ، فقـال : ويحه أما علم أنّ تارك الطلب لا يستجاب له. إنّ قوما من أصـحاب رسول الله لمّا نزلت : «**وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ**» أغلقوا الأبـواب ، وأقبلـوا على العبادة ، وقـالوا : قد كفينا ، فبلغ ذلك النـبي فأرسل إليهم قال : ما حملكم على ما صنعتم؟ فقالوا : يا رسـول الله تكفّل لنا بأرزاقنا فأقبلنا على العبـادة ، قـال : إنّه من فعل ذلك لم يستجب له ، عليكم بالطلب» [1]

[4 ـ 5] وكما تتجلى هـذه الحقيقة في عـالم التكـوين الطبيعية الإقتصـاد والفيزيـاء وما أشـبه ، فإنها تطبع آثارها في عالم التشريع أيضا ، حيث فرض الله عدّة معينة كحق من حقوق المرأة وواجب من واجبـات الرجل بعد الطلاق. وبالطبع إنّ هناك حكمة ليست لذات الاعتداد وحسب ، بل لاختلاف العـدة من امـرأة إلى أخـرى كـذلك ، قد تتكشف للإنسان في مفردات العدة بالتفكير العميق.

(**وَاللاَّئِي يَئِسْــــنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِســــائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ**)

في كونهن هل يئسن أم لا؟

(**فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ**)

بناء على الأصل السابق هو عـدم اليـأس ، مما يجعل حكمهن كحكم النســاء العاديــات. أمّا لو تــبين كــونهن يائسـات فليست لهن عـدة ، فعن الإمـام الصـادق ــ عليه السلام ـ في التي يئست من المحيض يطلقها زوجها قــال : «**قد بانت منه**

(1) نور الثقلين ج 5 ص 155.

ولا عدة عليها» [1]. ويظهر من النصوص أنّ الأشـهر هي الأشهر الهلالية.

(**وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ**)

إذا ارتيب في كـــونهن بلغن الحيض فـــإنّ عــــدّتهن كالمشـكوك في يأسـهن ، أي ثلاثة أشـهر ، تأسيسا على الاحتياط ، فإن كنّ لم يحضن فليس ذلك بضارّ أحدا ، وإن تـبين حيضـهن يكـون الرجل قد أحـرز التكليف الشـرعي الملقى عليـه. وإلّا فـإن الصـبيّة لا عـدة لها ولو دخل بها ، فعن علي بن إبـــراهيم ، عن أبيه عن بن محبـــوب ، عن حمّـــاد عن عثمـــان ، عمّن رواه عن زرارة ، عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ في الصبية التي لا تحيض مثلها والتي قد يئست من الحيض قال : «ليس عليهما عـدة وإن دخل بهمـا» [2] واعتبـار الإسـلام مجـرد الـريب والشك بمنزلة اليقين بعدم اليـأس لـدى النسـاء وبـالحيض للصـبية عمليّا بحيث يعطي للمرأة حق الاعتداد ثلاث أشهر يظهر حرصه على سلامة الأسرة والعلاقـات الزوجية ، إذ لعل الاختلاف يحلّ وتعود المياه إلى مجاريها في هذه الفرصة.

(**وَأُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَ**)

فإذا ما وضعت الحمل انتهت عدتها ، قال أبو عبد الله ـــ عليه الســلام ـــ «**طلاق الحبلى واحــدة وإن شــاء راجعها قبل أن تضع ، فـإن وضـعت قبل أن يراجعها فقد بانت منه وهو خاطب من الخطـاب**» [3] أي تقبله أو ترفضه. ووضع الحمل خروجه من بطنها ولدا أو سـقطا ، تماما أو مضـــغة ، عن عبد الـــرحمن الحجـــاج عن أبي الحسن ـ عليه السلام ـ قال : سألته عن الحبلى إذا طلقها زوجها فوضعت

---

(1) المصدر ص 409.

(2) وسائل الشيعة ج 15 ص 408.

(3) المصدر ص 419.

سقطا تم أو لم يتم أو وضعته مضغة فقال : «كلّ شيء يستبين أنّه حمل تم أو لم يتم فقد انقضت عدتها وإن كان مضغة» [1] ، ولا يعتد بالمدة أكانت ثمانية أشهر أو لحظة واحدة بين الطلاق ووضع الحمل. وقد تكون العلة التي صارت من أجلها عدة الحامل وضع الحمل أنّ مسئولية الحمل مشتركة بين الأم والأب لذلك تمتد عدتها زمنيا حتى تضع وقد يطول ذلك ثمانية أشهر ، كما أنّ ذلك يعطي للزوج فرصة أكبر للمراجعة والتفكير ، فعسى يعدو إلى تكفّل الولد بعد أن يلقي الله في قلبه حبه ، ولعل ظاهر الآية يدل على أنّ العدة تنقضي حتى لو أجهضت المرأة نفسها لأن المعول على وضع الحمل. أما الحامل التي يتوفّى زوجها فعدتها أبعد الأجلين ، فعن سماعة عن الصادق عن الباقر ـ عليهما السلام ـ قال : «المتوفّى عنها زوجها الحامل أجلها آخر الأجلين ، إن كانت حبلى فتمّت لها أربعة أشهر وعشر ولم تضع فإنّ عدتها إلى أن تضع ، وإن كانت تضع حملها قبل أن يتم لها أربعة أشهر وعشر تعتد بعد ما تضع تمام أربعة أشهر وعشر ، وذلك أبعد الأجلين» [2]

(**وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً**)

إذن فالطريق السليم الذي ينبغي للإنسان أن ينتهجه للخروج من العسرة والمشاكل المتأزّمة هو التقوى ، وخطأ ظن البعض أنه يصل إلى اليسر في أموره بمخالفة حدود الله وأحكامه.

(**ذلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ**)

وأمره أحكامه وتعاليمه.

(**وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ**)

---

(1) المصدر 421.

(2) المصدر ص 455.

ونتســـاءل : كيف تكفّر التقـــوى ســـيئات الإنســـان؟ والجواب لسببين :

1 ـ لأنّ أخطـاء الإنسـان الـتي تنتهي به إلى المـآزق والمشاكل كالطلاق وخراب علاقته مع أهله نتيجة مباشرة لمنهجية خاطئة يتبعها في الحيـــاة ، كمنهجية الهـــوى أو المناهج البشـرية الضـالة ، وبالتـالي عـدم اتباعه لنهج الله القـويم. والتقـوى بمفهومها الواسع ليس مجـرد الإيمـان بالله والخشية منه بل هي إضافة إلى ذلك عـودة الإنسـان إلى نهج ربه المســـتقيم الكفيل بتصـــحيح أخطائه وإزالة آثارها السلبية في الواقع.

2 ـ ولأن التقـوى حسـنة كبـيرة تشـفع عند الله في الأخطاء الجانبية. وإلى جانب التكفـير عن السـيئات هنـاك ثمرة عظيمة أخـرى للتقـوى تتمثل في المزيد من الجـزاء والثواب.

(**وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً**)

إذ لا شك أن العمل الصـــالح كالصـــدقة أعظم ثوابا وأجـرا مع التقـوى منه بـدونها ، ذلك أنّه كلما زاد إيمـان الإنسان كلما زاد إتقانه للعمل وخلوصه فيه وقربه بالتـالي به إلى ربه ، مما يزيد في جزائه عنده.

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلا تُضآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَــعْنَ حَمْلَهُنَّ فَــإِنْ أَرْضَــعْنَ لَكُمْ فَــآتُوهُنَّ أُجُــورَهُنَّ وَأْتَمِــرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْــرُوفٍ وَإِنْ تَعاسَــرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَـهُ أُخْـرى (6) لِيُنْفِـقْ ذُو سَـعَةٍ مِنْ سَـعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِـقْ مِمَّا آتـاهُ اللـهُ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ ما آتاها سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْـراً (7) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ

---

6 [وجــدكم] : أي بقــدر امكانــاتكم وغنــاكم وطــاقتكم ، وعن الحسن والجبائي : أي ما تجدونه من المساكن ، وعن الفراء :
يقول على ما يجد ، فإن كان موسعا وسّع عليها في المسـكن والنفقة ، وان كان فقيرا فعلى قدر ذلك.
[تضاروهنّ] : أي تضيّقوا عليهن بالضرر في السكن والنفقة :
[وأتمروا] : من الائتمار ، والائتمار : قبول الأمر ، وملاقاته بالتّقبّل.

عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَرُسُلِهِ فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً وَعَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً (8) فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها وَكانَ عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً (9) أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً (10) رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللهِ مُبَيِّناتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً (11) اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (12))

فَاتَّقُوا اللهَ

يا أُولِي الْأَلْبابِ

هدى من الآيات :

في الــدرس الأخــير من ســورة الطلاق يشــرّع الله مجموعة من الأحكام المتصلة بالأسرة ، وبالـذات بالعلاقة بين الـزوجين حيث العـدة ، ليقـرّر للمـرأة حـقّ السـكنى والنفقة على زوجها ، بل أخذ أجــرة على الرضــاعة ، كما وينهى الرجل عن الإضــرار بها والتضـييق عليها تشـفّيا أو للخلاص من المسـؤولية بالضـغط ، ثم يؤكّد بـأنّ الائتمـار بالمعروف كواجب شـرعي على كل مـؤمن ومؤمنة تجـاه بعضــهم لا ينبغي أن يقطع حباله الاختلاف مهما بلغ .. ولو بلغ حالة الطلاق .. لأنّ المسـؤولية الاجتماعية واجب إلهي يجب أن تبقى حاكمة في علاقة المؤمــنين ببعضــهم حيث بعضهم أولياء بعض في كل زمان ومكـان وظـرف .. وتبلغ عناية الـدين الحـنيف بـالمرأة إلى حـدّ يقـرر لها الحق في قبول الرضاعة أو رفضها ، خلافا للعرف الـذي جـرت عليه المجتمعات ، وسارت عليه الجاهلية والكثير من المــذاهب البشرية.

ثم يعود القرآن ليضع الميزان الحق في شأن النفقة ، فهو كما يوجبها على الرجل حقّا للمــرأة ، لا يســمح من جهة أخرى للزوجة استغلال هذا الحق لتطـالب زوجها عند قراره بـالطلاق نفقة أكـثر ممّا يتحمل تشـقّيا منه ، فليس أحد مكلّفا في شرع الله أكبر وأكثر مما يستطيع.

وينتهي السياق القـرآني الـذي يتمحـور حـول التقـوى في هذه السـورة ليحـذّر من مخالفة شـرائع الله وحـدوده بصـورة عامة وفي حق الأسـرة بالـذات ، مشـيرا إلى أنّ الأسرة لا تختلف في ظلّ سننه عن المجتمع الكبـير الـذي لو تجاوز الحدود فإنّ عاقبته الخسـارة والـدمار كما ينطق بــذلك تـاريخ الحضـارات الـتي دمّـرت فأصـبحت عــبرا وأحاديث.

ولأن المؤمنين أولى بدراسة التاريخ من غـيرهم فـإنّ الخطاب يتوجه إليهم خاصة لكي يخرجوا بذلك إلى النور ، ويختم الســورة بالإشــارة إلى الحكمة من خلق الإنســان والعـالم المسخّر له ألا وهي أن يتعـرّف الله لعبـاده عـبر آياته المبثوثة في النفس وفي الآفـاق لعلّهم يخلصـون من ظلمات الضلال والشرك.

بينات من الآيات :

[6] لكي لا يظلم المــرء زوجته الــتي عافتها نفسه ، ومشى الشيطان بينهما بألف عقدة وعقدة ، يأمر القــرآن بأن يختار لها زوجها سكنا مناسـبا لوضـعهم الاجتمـاعي بلا تميّز.

(**أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ**)

والوجد : ما يجده الإنسان ويقدر عليه ، وفي المنجد : أنا واجد للشيء أي قادر عليـه. والوجد القـدرة ، يقـال أنا واجد الشيء أي قادر عليه. والآية تحدّثنا عن نوع

السكن وأنّه واجب على الرجل ليس السـكنى وحسب بل إسكان زوجته في العدّة بالـذات كما يسـكن ، فلا يصح أن يسكن هو في المكان المكيّف صيفا وشتاء ويسـكنها فيما دون ذلك ، ولهذا جاء التعبير ب «من» التبعيضية ولا يكون بعض الشـيء إلّا من نوعه وجنسـه. ويحـرم الإسـلام أن يضـرّ الرجل بزوجته أثنـاء العـدّة ليضـطرها للتنـازل عن النفقة أو الخـروج من بيته قبل انتهـاء العـدة باسـتخدام الضـغوط المختلفة المادية أو المعنوية نفسـية واقتصـادية واجتماعية وأخلاقية أو ما أشبه مما يحقّق نفس الغـرض ، بل لا بدّ أن تجد الزوجة الراحة والسـعة من جميع جوانبها قدر الإمكان.

(**وَلا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَ**)

ولعل أبلغ ضـرر تناله المـرأة المطلقة من زوجها هو جراحات اللسان ، قال الإمام الصـادق ـ عليه السـلام ـ : «**لا يضـار الرجل امرأته إذا طلقها فيضـيق عليها حتى تنتقل قبل أن تنقضي عدتها فإنّ الله قد نهى عن ذلك**» [1] والـتي لزوجها عليها السـكنى والنفقة غـير المبتوتة [2] ، فعن أبي بصـير عنه ـ عليه السـلام ـ أنّه «سأله عن المطلقة ثلاثا لها سـكنى ونفقـة؟ قـال : حبلى هي؟ قلت : لا ، قال : لا» [3] وعن زرارة عن أبي جعفر ـ عليه السـلام ـ قـال : «**المطلقة ثلاثا ليس لها نفقة على زوجها ، إنّما ذلك للتي لزوجها عليها رجعة**» [4].

وكما تمتد عـدة الحامل إلى الوضع كـذلك يجب أن يسـكّنها وينفق عليها حـتى تضع حملها ، لأنّ الولد له ، وثابت علميّا أنّ الولد يستهلك ما يحتاج من أمّه ، فلو

---

(1) نور الثقلين ج 5 ص 362.
(2) المصدر.
(3) المبتوتة : المطلقة بائنها فلا يحق لزوجها الرجعة لها بتة.
(4) تفسير نور الثقلين ج 5 ص 362.

نقص الكالســيوم في غــذاء أمّه فإنّه ســوف يــؤثر على تركيبة عظامها ، يقول الدكتور محمد علي البــار في كتابه خلق الإنسان بين الطب والقرآن : (تصـاب بعض الأمهـات الحوامل بلين في العظـــام أثنـــاء الحمل ، كما تصـــاب أســنانهن بالالتهابــات المتكــررة ، والســبب في ذلك أنّ الجــنين لكي يبــني عظامه يســحب من دم أمه وعظامها الكالســيوم والمــواد الضــرورية لبنــاء عظامه ، حــتى ولو تركها هزيلة هشّــة العظــام شــاحبة الوجه تعــاني من لين العظـام ومن فقر الــدم .. ويضـيف : يقــول مجموعة من أســاتذة طب النســاء والــولادة : والطفل يعتــبر كالنبــات الطفيلي الذي يستمد كلّ ما يحتاج إليه من الشجرة الــتي يتعلق بها ، يعيش ويأخذ غذاءه من الأم مهما كـانت حالتها أو ظروفها حتى ولو تركها شبحا) [1] ، لهذا فالمرأة أحوج ما تكون للعناية في فترة الحمل.

(**وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْـــلٍ فَـــأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَ**)

وجاء في أصول الكافي عن أبي جعفر ـ عليه السـلام ــــ قــــال : «الحامل أجلها أن تضع حملها وعليه نفقة بالمعروف حتى تضع حملها» [2] ، ولو أنّها أرضعت وليدها بعدئذ فلها الحق أن تتقاضى أجرا على الإرضــاع ، لأنّه من الناحية الشـرعية ليس واجبا على الأم بشـكل عـام حـتى غير المطلقة التي تنتهي عــدتها وقيمومة الرجل عليها بعد الوضع ، فـــالحليب ملكها وإن كـــان من الناحية التكوينية يتكون مع الحمل وبسببه.

والعلم الحــــديث يقر هــــذه الحقيقة ، وعلى أساسه دعت التشــريعات الحديثة الى تخصيصــات للمــرأة أثنــاء الرضــاعة ، وبعض البلــدان تشــرف على طعــام المــرأة المرضع والحامل ، وتـــدعوا إلى الاهتمـــام بطعامها في هاتين الفترتين.

---

(1) المصدر نقلا عن الكافي.
(2) المصدر ص 448.

(**فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَ**)

في مقابل الرضـــاعة. أمّا الســـكنى والنفقة فليسا واجبين على الزوج بعد الوضع.

ولا يحقّ للزوج أن يلزم زوجته ـ وبالـذات المطلقة ـ بالرضـاعة ، بلى. يجـوز التفـاهم في هـذه المسـألة بين الطرفين بعيدا عن أي لون من الضغوط والسـبل الملتوية ، بل بالحق.

(**وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ**)

أي ليأمر بعضكم بعضا بالمعروف بالتشاور والتحاور ، ولا بد أن يتمّ ذلك في إطـــار صـــحيح لا يتنكر له العقلاء «بمعروف» حتى يستقر التآمر على رأي يرضاه الطرفان. أمّا إذا حـدث الاختلاف فـإنّ الحق للأم تقبل الرضـاعة أو ترفضها لتكون المرضعة غيرها.

(**وَإِنْ تَعاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى**)

ولا يجـوز للأب أن يجـبر أم ولـده على رضـاعته كحل للتعاسر ، لأنّ ولاية الرجـال على النسـاء لا تمتد إلى هـذه الحـــدود في الظـــروف الطبيعية فكيف بعد الطلاق؟! ونهتدي من خاتمة الآية أنّ للحاكم الشـرعي أن يلـزم الأم بالرضـاعة لو تـوقفت حيـاة الولد عليها ، فيكـون الـزوج حينئذ ملزما بإعطاء أجرة المثل.

[7] ويعـود القـرآن لبيـان المقيـاس الـذي ينبغي أن يكون ميزانا فيصلا بين الطرفين في مقدار النفقة ، ولكن الوحي لا يحـدد دينـارا ولا درهما بل يضع قيمة تصـلح لكل زمـان ومكـان واحد لأنه لم يـنزل لامة دون أخـرى ، ولا لجيل دون جيل. من هنا يطرح المقـاييس الفطرية العامة بوضوح كاف لينطبق على كل عصر ، فما هو

المقيــاس الــذي يحــدد كيف وكم تكــون النفقــة؟ إنّه اسـتطاعة الـزوج المادية الممكنة ، وليست صـفاته ، فلو كــان غنيّا بخيلا فإنّه لا يجــوز منه التقتــير على زوجته المطلقة بالذات حيث تجب عليه نفقتها ، بل عليه التوسيع عليها ، كما لا يجــوز للــزوج ولا للحــاكم أن يفــرض عليه التوسيع في النفقة لو كان مقترا فقيرا.

(**لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ**)

أي بعضها وبنسبتها ، فليس مطالبا ببـذل كل ما يملك ، إنّما الواجب أن يفيض عليها من غناه بحيث يوسع عليها.

(**وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ**)

وكان فقيرا.

(**فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللهُ لا يُكَلِّفُ اللـهُ نَفْسـاً إِلَّا ما آتاها**)

فتشريعه عـزّ وجـلّ تشـريع واقعي عملي ، وحاشا له أن يكلّف أحــدا ما لا يطيق ، وهــذه الآية لا تقتصر على مسـألة النفقة على الزوجة حين العـدة ، بل هي قاعــدة لتنظيم الإقتصاد الفردي ، وحل المشـاكل المتصـلة به في المجتمع والأسـرة ، فلا غـروّ أن يوسع الغـني على نفسه من المال الحلال لأنّ الله إذا أنعم على عبد نعمة أحب أن يراها فيه ، قال الإمـام أبو عبد الله ـ عليه السـلام ـ وقد سأله أحد أصحابه عن الرجل الموسر يتخذ الثياب الكثيرة الجيـاد والطيالسة والقمص الكثـيرة يصـون بعضـها بعضا يتجمّل بها أيكون مسرفا؟ قال لا لأنّ الله عز وجلّ يقول : «الآية» [1] ، ومن جهة أخرى يجب أن لا ينفق الفقير أكثر من طاقته تلبية لرغابته الشخصية أو تظاهرا بين الناس أو لكي يوافق المجتمع المحيط في معيشته ومظاهره ، فإنّ ذلك يوقعه في

---

(1) المصدر ص 363.

مشـــاكل اقتصـــادية تنتهي إلى انحرافـــات خطـــيرة بعض الأحيان.

وهذه الآية يجب أن يتخذها الإنسـان شـعارا في إدارة نفسه وأسرته. وحيث أنّ النفقة من واجبـات الرجل تجـاه أسرته وأهله فإنّ للمرأة الحق في طلب الانفصال عنه لو لم يؤدّها الرجل ، فعن أبي بصير عن أبي عبد الله ـــ عليه السلام ـ قـال : «**إن أنفق الرجل على امرأته ما يقيم ظهرها مع الكسوة وإلّا فرّق بينهما**» [1] ، ولكنّ الله يعطي الإنســـان شـــحنة من الأمل برحمته ورزقه ، وفي نفس الـوقت يـدعو من طـرف خفي الزوجة إلى الصـبر والتحمل تسـليما لقضـاء الله ، وأملا في فضـله ، فإنّها لا تدري لعل زوجها الفقير يصبح غنيّا مقتدرا بفضله تعالى.

(**سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً**)

[8] وبعد أن يبيّن ربنا هذه الحدود الشرعية يحذّر من عواقب خرقها وتعديها حيث الفشل والعـذاب في الـدارين ، فإنّها سنّة الله التي تتجلّى في تاريخ البشرية ، وهي كما تجري في المجتمعات الكبيرة حينما تحادد الله وتخرج عن أمره تجري في الأسرة ذلك المجتمع الصـغير ، لأنّ سـنن الله واحـــدة تجـــري في الموضـــوعات الصـــغيرة بمثل ما تجري في الحقائق الجليلة ، أرأيت سنّة الله في النار. إنّها تحرق سواء كانت في عود الثقّاب أو في فرن عظيم! من هنا علينا أن ندرس التاريخ لنعتـبر به في سـلوكنا الفـردي في تنظيم حياتنا الأســـرية وفي نظـــام المجتمع وحركة الحضـارة .. لأنّ التـاريخ تجسـيد لسـنن الله وسـنن الله واحدة في الصغير والكبير.

وتنتظم الآيـات اللاحقة في السـياق العـام للسـورة (التقـوى) من زاوية مباشـرة لهـذا الموضـوع ، ذلك أنّ التفكر في مصير الأمم الماضية التي تمرّدت على شـرائع الله وسننه فلقيت من العذاب ما لا يخطر ببال بشر كفيل بتنمية روح التقوى عند

---

(1) المصدر.

الإنسان.

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ)

أي : وكم من قرية؟!! فكأيّن تفيد الكثرة.

ولعل التعبـير بصـيغة الكـثرة الرهيبة يهـدف مواجهة حالة الاسترخاء التي تصيب الإنسان بسبب تـواتر نعم الله وتتابع آلائه الكثيرة ، حتى يزعم بأنّ الـرب قد غفل عنه أو أهمله أو فـوض إليه أمـره فيـدعوه ذلك إلى الإيغـال في الذنوب ، كلّا .. إنّ قرى كثيرة قد دمّـرت فحـذار أن تـدمّر أيضا قريتك الصـــغيرة المتمثلة في الأســـرة والكبـــيرة المتمثلة في بلـدك ، لأنها ليست فـوق سـنن الله بل هي كأيّ من القرى الأخرى.

والقرية ــ كما يبـدو ــ تطلق في القـرآن عـادة على المجتمعات المتخلفة الفاسدة ، بينما تستخدم كلمة بلد أو المدينة للتعبير عن المجتمعات المتحضـرة ، وعـدم تحديد الآية لقرية بذاتها ينطوي على دعوة لدراسة شاملة لتأريخ البشرية ، ذلك لأنّ الإنسان مفطـور على مراجعة التـاريخ والإعتبـــــار به ، ونظرته إليه تحـــــدد نظرته إلى الحاضر وتطلعه نحو المســتقبل. والرســالات الإلهية تســعى إلى تصـحيح تقييمه للتـاريخ ، لكي لا تكـون نظراته خاطئة ولا حـتى عـابرة ، وذلك لأنّ الكثـير حينما يمـرّون على آثـار الماضين يكتفـون بالسـياحة أو النياحة ، والأدب العـربي ــ كما سائر آداب البشر ـ زاخر بروائع الشعر التي تستوقف الإنسان على الأطلال والبكاء حزنا عندها ، وقد اشتهر هذا الاستهلال في شـعر العـرب ، قفا نبكي من ذكـرى حـبيب ومنزل .. حتى قيل أنّه مطلع لسبعين رائعة شعرية!

بينما القــرآن الكــريم يســتوقف الإنســان أيضا عند القرى المدمّرة ولكن ليس لمجـرّد السـياحة أو النياحة بل للاتعاظ والإعتبار.

ولقد مــرّ المســلمون في عهد الإمــام علي ــ عليه السلام ـ على أطلال عاصمة كسرى فأنشد بعضهم :

جرت الريـاح على ديـارهم فكـأنّهم كـانوا على ميعـاد

فنهره الإمام وأمره بأن يقرأ : «**كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ**».

وهكذا يوجّه القرآن هذه النظرة الكامنة في الإنســان ليقف على الأطلال ، ويتذكر الغابرين ، ويعتبر بمصـيرهم ، ويهتدي بالسـنن الـتي كشـفتها حيـاتهم وممـاتهم من أجل بناء حياة سعيدة آمنة.

وعادة ما ينقل القرآن تاريخ الشعوب وليس الأفـراد ، وحـتى إذا تحـدث عن فـرد كفرعـون أو هامـان أو قـارون فغالبا ما يضع الحـديث عنه في إطـار اجتمـاعي باعتبـاره طاغية أو مرتـزق أو مـترف ، والسـبب أنّ حركة التـاريخ أجلى وأوضح حينما يوجه الإنســان نظــره وفكــره إلى مسـيرة الأمم وتاريخها ، وتـدمير المجتمعـات والشـعوب أدلّ على سنن الله وحاكميته من هلاك فرد لأنّه قد يكــون موته بسبب طـبيعي ، بل إن موته لا يثـير الإنسـان للتفكر والإعتبار كما يثيره هلاك الأمم والمجتمعات.

إنّ هلاك الأمم وبصــورة متعاقبة لا يمكن أن يكــون أمرا اعتياديّا ، وهذا ما يتضح عند دراسة تاريخ القرى التي دمّرت والحضارات التي بـادت ، فإنّنا لا شك سـنجد سـببا لهذه العاقبة وهو الفساد الواقع الذي أفقدها مـبرّر الحيـاة ، حيث تمرّدت على النظم الإلهية ، كما قال الله :

(**عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَرُسُلِهِ**)

والعتو : هو المبالغة في العصيان والانحراف والتحدي ، أمّا الأمر فهو النهج

والسبيل المتمثل في الشرائع والحـدود الإلهية ، كما قـال تعـالى بعد أن عـدّد مجموعة من الأحكـام والحـدود في الآيات (1) : (**ذلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ**) [1] ، ولكنّ الله سمّاها كلّها أمرا بصفة الإفـراد ربما ليؤكّد لنا بأنّها لا تقبل التجـزأة أبـدا ، فمن يعص الله أو الرسـول ولو في أمر واحد فإنّه يعتبر عاصيا لهما ، كما لا يسمّى مطيعا وملتزما إلّا من يسلّم لكلّ ما يصدر عنهما ويعمل به.

وقد أضـاف إلى أمـره «رسـله» لأنّ الطاعة للقيـادة الرسـالية من أعظم وأجلى أوامر الله ، لأنّ أمر الله هو القيم التشريعية كالأحكام والنظم والقوانين الصـادرة عن الله مباشرة والمذكورة في رسـالته الـتي أنزلها للنـاس ، بينما أمر الرسـول ـ صـلّى الله عليه وآله ـ هو الجـانب العملي والسياسي من أمر الله المتجسد في النظـام السياسي والديني الذي يقـوده (ص) ومن يمثله بحق ، فلا يصح إذن أن يقول أحد : حسـبي كتـاب الله ، بل لا بـدّ له من البحث عن القيادة الإلهية لكي ينتمي إلى خطها ويجنّد نفسه تحت لوائها فلا يعتو عن أمر من أوامرها أبدا ، فـإنّ في ذلك الخسران وبئس العاقبة.

إنّ الهـدف من الخلق والوجـود هو عبـادة الله : (**وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**) [2] ، فـإذا لم يحـرز المجتمع هـذا الهـدف لم يبق مـبرّر لوجـوده ، وإنّ قيمة الإنسان يستمدها من مـدى تجسـيده للحق وطاعته لربه ، فإذا تمحض في الشر والعصـيان لم تبق له قيمة عند الله ، ولا عجب حينئذ أن تـرى في التـاريخ تلك القـرى الـتي دمّرها الله لعتوّها عن أمره.

(**فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً وَعَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً**)

إذن فالعذاب الـذي حل بتلك القـرى ليس بالصـدفة ، وإنّما هو نتيجة طبيعية

(1) الطلاق 5.
(2) الذاريات 56.

لأعمالها السيئة التي تتكشف بالدراسة والمتابعة والتحليل لمسيرتها التي سبقت الهلاك ، فلكلّ فعل ردّ فعل ، ولكلّ معصية مردود سلبي على صاحبها ، فشرب الخمر يسـبّب مجموعة من الأمـــراض ، والربا يـــؤدي إلى الفســـاد الاقتصـــادي ، والزنا يعـــدم الأســـرة ، ولكنّك إذا جمعت بالحسـاب الـدقيق انحرافـات أمّة من الأمم تعتو عن أمر ربها فستجد رد فعلها الخسران والـدمار لا غـير ، وهـذا ما حــلّ بتلك القــرى من العــذاب المنكر الــذي لا يتصــوّره البشر.

وما دامت حركة التـــاريخ في الأمم والأفـــراد قائمة على الحسـابات الدقيقة فحـريّ بالإنسـان أن يـدرس كـلّ خطـوة يقـوم بها في الحيـاة ، وكـلّ قـرار يتخـذه صـغيرا وكبـــيرا ، في ضـــوء معادلة الـــربح والخســـارة والعاقبة المصيرية.

والحساب الشديد هو الحساب الدقيق ، ذلك لأنّ الله يحاسب النـاس بلطفه فيتغاضى عن كثـير من سـيئاتهم ، ولكنّه إذا سخط على أحد بسـبب انحـراف مجمل سـلوكه (أمّة أو فردا) حاسـبه بعدله فيصـير من الحسـاب اليسـير إلى الآخر الشديد والعسـير ، وحينئذ لا ينجو من العـذاب ، وقد أشار الله إلى ذلك بقوله : (**وَلَوْ يُؤاخِـذُ اللـهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ**) [1] ، وكما أنّ الله يحاسب الإنسان الذي يكـون مجمل مسـيرته الصـلاح والحسنات الكبيرة حسابا يسيرا فيكفّر عنه سـيئاته ، فإنّه سـبحانه يحاسب الــذي يكــون مجمل مسـيرته الفســاد والفـواحش الكبـيرة حسـابا عسـيرا لا تغفر فيه سـيئة بل تتضاعف ، وهكـذا فعل الله بـالقرى الـتي دمّرها ، من هنا قـال العلّامة الطبرسي رحمه الله : « **الحسـاب الشـديد الذي ليس فيه عفو** » [2].

وتعـذيب الله لتلك القــرى ينسف ظنــون البعض بأنّه وهو الرحيم أجلّ من أن

---

(1) فاطر 45.
(2) مجمع البيان ج 10 ص 309.

يؤاخذ العبـــاد بما يعصـــون ، وبالتـــالي مما يبعثهم نحو الاسترسال في الفسق والانحـراف من خلال هـذا التـبرير الـواهي ، وهـذا أحد معـاني قوله سـبحانه (**وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِـرِينَ**) [1] وذكر ذلك يـــزرع روح التقـــوى في القلب ، ويوقف مسيرة الاسترسال نحو الهاوية!

[9] إنّ الإنسان لا يمكنه أن يتحرك في الفراغ ، لذلك فـإنّ القـرى حينما عتت عن أمر الله (مناهجه ونظمـه) اصطنعت لنفسها نظما وقوانين بشرية ، ولكن هل وصلت إلى أهدافها الحقيقية ، بل هل حقّقت مصالحها ورغباتها لا أقل؟ كلّا .. لأنّ رسـالات الله وسـيلة وحـدها الـتي تسـعد الإنسان وتلبّي حاجاته ، لـذلك بقيت وحـدها الخط الثـابت عـبر الـزمن ، رسـالة بعد أخـرى ، وجيلا بعد جيل ، أمّا المـذاهب البشـرية فهي تبطل الواحد بعد الآخر ، فكلّما ابتدع المترفون مذهبا وضعيّا ليكون بديلا عن رسالات الله ورسله وغطاء لتسلّطهم غير المشروع على رقاب النـاس لم يلبث أن ظهر فسـاده ، وانتشـرت آثـاره السـيئة فاسـتبدلوه بمـذهب آخر أو أفسد منه ، وها نحن اليـوم نسمع ونقرأ عن إفلاس الشـيوعية ، وظهر ما جـرّت على الناس من دمـار وقمع وفسـاد عـريض. أو ليس هـذا وبـالا وعذابا؟! بلى ؛ ولكن هل يعود الناس إلى منـاهج الـوحي؟ كلّا .. إنما يبتدع لهم كبراؤهم مذهبا بـاطلا آخر ويـأفكونهم به.

(**فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها**)

أي ثقل عاقبة أمرها المتمثلة في الخسران.

(**وَكانَ عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً**)

---

(1) فصلت / 23.

فهي من جهة خسرت المكاسب والمعطيات العظيمة الــتي تنــال بتطــبيق أمر الله ورســله ، ومن جهة أخــرى خســرت ســعيها وجهودها والأهــداف الــتي تمنّت بلوغها ، وهــذه هي نتيجة المســيرة الخاطئة الــتي اختارها النــاس لأنفسهم ، وهكذا كلّ حضارة لا تقوم على أســاس رصــين من الحق فإنّها تكون كبنــاء على شــرف هــار ، كلّما ارتفع البنــاء كلّما اقــترب من الانهيــار ، وفي لحظة يتلاشى كــلّ شيء ، وتذهب جهود الملايين من البشر!!

[10 ـ 11] والخطير في الأمر أنّ الخســارة والعــذاب ليسا في الدنيا فحسب فإنّ ما في الآخرة أشدّ وأخزى!

(**أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً**)

ولعل إعــداد العــذاب بســبب أنّه يــأتي نتيجة الأفعــال التي يجترحها المذنبون في الدنيا فيهيّئ الله لكــلّ ذنب ما يناسبه من العــذاب كمّا وكيفا ، ممّا يجعلنا أشد حــذرا من السيئات لأنّها تتحوّل إلى عذاب شــديد فــور وقوعها ولكنّنا محجوبون عنه اليوم.

وكما تهبط الأمم إلى حــدّ الهلاك بــالعتوّ عن أمر الله ورسله ، واتباع المناهج البشرية ، فإنّها ترتقي في مــدارج الكمــال والتقــدم بالتســليم لأمر الله ورســله وبــالتقوى وتطــبيق شــرائعه ومناهجه في الحيــاة ، فتفلح في الــدنيا بالخروج من الظلمات إلى النور ، وفي الآخرة بالخلود في جنّات النعيم.

(**فَاتَّقُوا اللهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا**)

إنّ التقــــوى درجة رفيعة من الإيمـــــان بالله تبعث الإنســان إلى المزيد من الــوعي لأمر الله والتســليم له ، فهي إذن تكمّل لبّه وعقله ، كما تكمّل إيمانه وجوانبه الروحية.

من هنا فإنّها أكــبر عامل وأوثق ضــمانة لاســتجابته للحق والتزامه به.

وقد قـــالوا أنّ (**أُولِي الْأَلْبـــابِ**) بـــدل عن (**الَّذِينَ آمَنُـــوا**) ، واللب هو مخ الشـــيء وعمقه ، وذي اللب هو صاحب البصيرة التي تنفذ إلى أغوار الأمور ، وقد خــاطب الله المؤمــنين من هــذه الزاوية لأنّ دراسة التــاريخ وما صـارت إليه تلك القـرى والإعتبـار منه يحتـاج إلى الإيمـان وإلى الألباب والبصائر التي هي محـور الثـواب والعقـاب ، ففي محاسن البرقي مرفوعا إلى الأئمة ـ عليهم السلام ـ قال : «ما يعبأ من أهل هذا الدّين بمن لا عقل له» ، قــال (الــراوي) قلت : جعلت فــداك أنا آتي قوما لا بــأس بهم عندنا ممن يصف هذا الأمر ليست له تلك العقول؟ فقال : «ليس هــــؤلاء ممن خـــــاطب الله في قوله : «يا ألي الألبـاب». إنّ الله خلق العقل فقـال له : أقبل فأقبل ، ثم قال له : أدبر فـأدبر ، ثم قـال : وعـزتي وجلالي ما خلقت شـــيئا أحسن منك ولا أحب إليّ منك أبـــدا ، بك آخذ وبك أعطي» [1] إنّ تقوى الله تعني تجنّب الوقـوع في سـخطه وعذابه ، وهي لا تتحقق بالإيمـان وحـده ، بل لا بد من لبّ يعرف به الإنسان ما يسـخط الـرب وما يرضـيه ، ذلك لأنّ الشـروط الموضـوعية للتقـوى متـوافرة ، فتلك هي عــبر التاريخ أمامنا ، وهذا كتاب الله ورسوله يذكّرنا الله بهما.

(**قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً**)

يــذكّر الإنســان بربه ، وبالحقــائق الفطرية ، ويــذكّره بطاقاته ، وقدراته الكامنة ، وأهدافه ، وتطلّعاته ، ويستنقذه من الغفلة ، فما هو ذلك الذكر؟

(**رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللهِ مُبَيِّناتٍ**)

قال أكثر المفسـرين أنّ الـذكر هو الرسـول ، والـذي يبدو لي أن الذكر أعم إنّه

(1) المحاسن ج 1 ص 194.

الرسـول والرسـالة ، لأنّهما جنبا إلى جنب يكمّل أحـدهما الآخر ذكر الله للناس ، والرسول ليس مـنزلا إنّما المـنزل هي صفة الرسالة التي اشتق اسم الرسول منها ، وهكـذا وصف الرسول بالذكر لأنّه يتلو آيـات بينـات ، ومن هنا : لا يكون الذكر الكتاب وحده ، ولا الرسول وحـده ، وإنّما هما معا. وهما معا يشكّلان حالة واحدة لا ينفصلان ولا يفترقان حتى يوم القيامة.

والآية هي العلامة والدلالة ، وآيات الله كـلّ ما يعـرّف الإنسان به ويهديه ، فالسـماء آية ، والشـجر آية ، والمطر آية و.. و.. ، ولكنّ أجلى الآيات هي التي جاءت بها رسـالة الله عزّ وجلّ ، والتي وصـفها بأنّها «مبيّنـات» لأنّها آية في ذاتها وتهـدينا إلى سـائر آيـات الله ، وهـذا ما يميّز آيـات القرآن عن الآيات الطبيعية الأخرى.

ثم إنّها ترسم الطريق المسـتقيم ، فتـبين الصـواب والخطأ ، وما أحوجنا أن نتبعهـا. أو ليست تنصب لنا أنـوار الهداية ، كما قال تعالى :

(**لِيُخْـرِجَ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ**)

من ظلمـات الكفر إلى نـور الإيمـان ، ومن ظلمـات الجهل إلى نـور العلم ، ومن ظلمـات التفـرّق إلى نـور الوحدة و.. و.. وبعبـارة أخـرى : من كـلّ شـرّ وظلمة إلى كلّ خـير ونـور ، ونتسـاءل : أوليس المؤمنـون قد خرجـوا فعلا من ظلمة الكفر إلى ضياء التوحيد ، فما ذا يعني بيان أنّ الله يخـرجهم من الظلمـات إلى النـور؟ الجـواب : للإنسان في البـدء فرصـتان متسـاويتان للإيمـان وللكفر ، وقلبه كالشفق فيه ضغث من نور وآخر من ظلمة ، وآيات الله ليس تكشف له عن النـور والظلمة فقط ، بل تـرجّح فيه فرصة الإيمان وتزيد النور الذي في قلبه لتميل به إلى الحق ، ثم تـرقى به درجة فدرجة في مـدارج النـور والكمال حتى يتمحض في الإيمان فيخرج خروجا

كلّيّا من الظلمـات إلى النـور ، لأنّ كـلّ عمل قـبيح ونيّة فاسدة وصـفة ذميمة ظلام في القلب ، وكـلّ عمل صـالح ونيّة رشيدة وصفة حميدة نور ، وكلّما تزكّى القلب وتطهّر السـلوك من السـيئات كلّما زاد القلب نـورا حـتى يصـبح العبد من المخلّصـين ، كالـذهب المصـفّى لا يشـوب نـور إيمانه أي ظلام ، وهذا مقام أولياء الله المقرّبين.

وهكذا ليس آيات الله بديلا عن سعي الإنسان نفسه ، إنّما دورها هو رسم النهج السليم للكمال والـرقي ، وعلى الإنسان الاجتهاد للعروج عبرها إلى الكمال.

(**وَمَنْ يُـؤْمِنْ بِاللـهِ وَيَعْمَـلْ صـالِحاً يُدْخِلْـهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً قَدْ أَحْسَـنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً**)

والرزق ما يعطى للإنسان شيئا فشيئا ممّا يوحي بـأنّ نعيم المؤمنين في الآخـرة لا ينحصر في ما يعطـونهم أوّل مرّة ، إنّما هو في ازدياد وتكامل يوما بعد يوم.

[12] وحيث دعتنا أكثر آيـات السـورة إلى تقـوى الله جـاءت الخاتمة تعرّفنا بربنا سـبحانه ، لأنّ التقـوى بنت المعرفة ، فكيف إذن نزداد معرفة بربنا لكي نزداد تقوى؟

لننظر إلى الآفاق من حولنا ، إلى السـماوات والأرض ، وإلى أسمائه المتجلّية في هـذه الآفـاق. إنها سـبيلنا إلى معرفته تعالى ، فحيثما رميت ببصرك رأيت عجيب الصـنع وعظمة الخلقة ، وأنّى جلت ببصرك وتعمّقت بفكـرك فلن تجد إلّا إجابة واحـدة تقـودك إلى حقيقة التقـوى وسـنام المعرفة.

(**اللـهُ الَّذِي خَلَـقَ سَـبْعَ سَـماواتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَ**)

قيل : السبع كالسبعين كلمة تدلّ على الكـثرة ، وقيل : أنّ الظاهر هو المقصود ،

فهناك سبع سماوات ، فما هي السموات السـبع؟ هل هي ما تحيط بالأقاليم السبع من الفضاء القـريب ، باعتبـار أنّ السماء هي الجهة المقابلة للأرض ، فـإذا كـانت الأرضـون سبعا ـ حسب تقسـيم النـاس يومئذ ـ فـإنّ سـمواتها أيضا سـبع ، وعلى هـذا فـإنّ الأرضـين السـبع هي تلك الأقـاليم المشـهورة في أدب العـرب وفي عـرف الـذين خوطبـوا بالقرآن ، وقد جاء في حديث الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ : «لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكهـا» [1] ، أم أنّ السماوات السبع اشارة إلى الكـواكب أو إلى سبع منظومات شمسية أو إلى المجـرات؟ لعـلّ الإنسـان يطلع على معاني أخـرى إذا تقـدّم به العلم. والمماثلة بين السماوات والأرضين هنا قد تكون عددية وجنسية حيث أنّ الأرض من رتق السماء.

(يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَ)

«والأمر» : سنن الله وقضـاؤه وتقديراته وما يبـدو له ممّا يدبّر به شؤون الخلق ، ولعلّ ذلك سمّي أمرا لأنّ الله وكّل ملائكة على كلّ شيء ينفّـذون إرادته في الكائنـات ، فهو يأمرهم من فوقهم وهم يعملون بما يريد.

وإذا نبحث عن الفلسـفة الأساسـية الـتي خلقت من أجلها السـماوات والأرض ، وبالـذات السـماوات الـتي لا يطالها الإنسان فإنّنا سـنجدها ليست المتعة بـالنظر إليها ، ولا ما تقـوم به من دور في وجـوده وحياته ، إنّما هي كما له المعنـوي والـروحي بمعرفة ربه من خلال أسـمائه المتجلّية في الكون من حوله.

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

حيث تتجلّى آية قدرته في الخلق العظيم للسـماوات والأرض لتهدينا إلى هذه

---

(1) نهج خ 224.

الحقيقة.

(**وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً**)

وآية ذلك أمره الـذي يتـنزّل لتـدبير كـلّ شـيء. وعلم الإنســان بقــدرة الله على كــلّ شــيء وعلمه المطلق وبالتـالي إيمانه بـذلك هو الـذي يـزرع في نفسه التقـوى ، حيث يخشى سـطوة الله القــادر ، ويتحسس رقابته عليه فلا يعصيه في علن ولا خفاء.

وكلمة أخــيرة : إنّ الإنســان الــذي لا يتخذ الخليفة وسيلة لتكامل معرفته وإيمانه بربه ضال عن هدف الخلقة ، أو تـدري كيـف؟ لأنّ الله سـبحانه قد خلق ما في الأرض للإنسان حـتى أصـبح الإنسـان محـور الخليقة ، فهل خلقها لجسـده أم لروحـه؟ إنّ الإنسـان لا يتميّز بجسـده عن أي حيوان آخر ، ولا فضـيلة له في ذلك أبـدا. إذا حكمة الخلق تكمن في روحه ، وماذا في روح الإنسان غير العقل الـذي ينمو بــالنظر في آفــاق الســموات والأرض؟! فمن لم يتكامل عقله فإنّه ليس يبطل حكمة خلقه فقط ، بل وحكمة الوجود من حوله أيضا. أليس كذلك؟

سورة التحريم

الإطار العام

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد ارتفعت ولا تـــزال راية الجــــدل بين المــــذاهب الإسلامية في شأن زوجات الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ فاختلفوا إلى ثلاثة آراء رئيسة :

الأول : أضــفى عليهن مســحة من العصـــمة متابعة لبعض النصــــــــــــــوص ، كقــــــــــــــــول الله : (**النَّبِيُّ أَوْلى بِـــالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِــــهِمْ وَأَزْواجُـــهُ أُمَّهاتُهُمْ**) [1] ، وكـونهن مشـمولات بآية التطهـير وأخبـار وردت ، ولأنهن زوجات أفضل خلق الله ـــ صـلّى الله عليه وآله ـ الذي لا يعقل أنه يختار لنفسه من الزوجات إلّا خـير النساء ، وقد دعمت هذا الرأي اعتبارات مذهبية أخرى.

الثـاني : وتطـرف فريق إلى حد الطعن فيهن لـدوافع مصـــلحية أو مذهبية ، كالمنـــافقين الـــذين نـــالوا بالإفك والبهتان من بعض زوجات الرسول ـ صــلّى الله عليه وآله ـ.

---

(1) الأحزاب 6.

الثالث : وبين هذا وذلك أخذ فريق سـبيلا وسـطا ، فلا تبرير للأخطـاء ، ولا تضـخيم لها : ولكي يصل البـاحث إلى الـرأي الموضـوعي لا بـدّ أن يـدرس أمـرين أساسـيين : أحدهما : تاريخ زوجات الرسـول ــ صـلّى الله عليه وآله ــ دراسة موضــوعية ، والآخر : موقف القــرآن عــبر دراسة شاملة لكل ما أوردته آياته في هـذا الموضـوع ، ولكن بما أن في التــاريخ اختلافا وتزويــرا فــإنّ القـــرآن يبقى هو الميزان الثابت والفرقان الأعظم وبالخصوص في القضـايا الحساسة كالموقف من زوجات سيد الرسل ــ صـلّى الله عليه وآله ـ ، فما هو موقف القرآن؟

لقد سجلت الآيات القرآنية موقف الرسالة الإلهية في هذه القضـية ، ويكفينا أن نعـرض هنا ما جـاءت به سـورة التحــريم الــتي يبــدو أنّها تحــدّثنا فيما تحــدثنا عن هــذا الموضوع كخط عام لآياتها.

1 ـ ففي البداية تـبيّن أنّ الرسـول ــ صـلّى الله عليه وآله ـ كان يتعـرض للضـغط من قبل بعض أزواجه ، حـتى يضطر في بعض الأحيان أن يحرّم على نفسه ما أحلّه الله له ، فيضــيّق عليها طمعا في مرضــاتهنّ (الآيــات 1)ـ ، وهاتان الآيتان تعريض ببعض زوجات الرسـول وليس به ــ صلّى الله عليه وآله ـ.

2 ـ إنّ اثنتين منهنّ خانتا النبيّ بإفشاء بعض ما أفضى إليهما من الأسرار (الآية 3).

3 ـ إنّهن أو بعضـــهنّ كنّ يملن عن الحق في بعض الأحيان (تصغي قلوبهن) ويمكن أن يتبن عن ذلك إلى الله ، كما يمكن أن يتمادين في الميل إلى حد المظاهرة ضد ـ الرسول ـ صـلّى الله عليه وآله ــ ، وبالتـالي الوقـوف ضد جبهة الحق الـــتي مثّلها الله ، وأمين وحيه (جبرئيـــل) ، وخيرة المؤمـنين ، والملائكة الـذين ينصـرون النـبي (الآية 4).

4 ـ إنّ نساء النبيّ لسن أفضل النساء على الإطلاق ، فهو لو طلّقهن فقد يجد خـــيرا منهن بين النـــاس ممن جمعت فيهن بصــورة أفضل صــفات الخــير والفضــيلة كالإسلام والإيمـان والقنـوت والتوبة والعبـادة والسـياحة ، (الآية 5).

5 ـ ويفصل القـرآن بين الـزوج وزوجته في التقـييم ، لأنّ قيمة كلّ إنسان ما يحسـنه هو لا ما يحسـنه الآخـرون مهما كـــانت الرابطة بينه وبينهم قريبة وحميمة ، كما أنّ مقيــاس القبح هو ما يقــوم به الفــرد من السـيئات لا ما يقـــوم به الآخـــرون مهما قربـــوا منه ، إذن فـــالتقييم الموضوعي الـدقيق لأي أحد بتقييمه كفـرد منقطع عن أيّ أحد ، وهــذا ما يجعل زوجــتي نــوح ولــوط مثلا للكفّــار فتـدخلان النـار لا فـرق بينهما وبين سـائر النـاس عند الله من جهة ، ومن جهة أخـرى نفس هـذه الحقيقة هي الـتي تجعل آسية بنت مزاحم زوجة فرعون الذي ادّعى الربوبية مثلا للمؤمنين عبر التـاريخ ، وكـذلك مـريم الـتي أحصـنت فرجها وصدّقت بكلمـات الله وكتبه وقنتت له مع القـانتين (الآيات 10 ، 11 ، 12).

6 ـ وهكـذا كـانت سـورة التحـريم تـدور حـول علاقة الزوج بزوجته حيث ينبغي أن تكون وفق المقاييس الإلهية ، فلا يجوز لأحد أن يقيّم الزوجة على أسـاس زوجها سـلبا أو إيجابا ، فقد كانتا زوجتا لوط ونوح خائنتين وكانت آسـية صــالحة .. ولا يجــوز للمــرأة أنّى كــانت أن تنشر أســرار البيت خارجه. وهكذا تتواصل آيات سـورة التحـريم لتكمّل بصائر آيات سـورة الطلاق في مراعـاة التقـوى في سـائر أبعاد الحياة الزوجية.

سورة التحريم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (1) قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ وَاللهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (2) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً**

---

2 [تحلّة أيمانكم] : أصل الحلّ حلّ العقدة ، وهذه الآية تقصد حل عقدة الإيمان من الكفّارة ، وروي في الحديث : «لا يموت للرّجل ثلاثة أولاد فتمسه النار إلا تحلّة القسم» أي قدر ما يقول : ان شاء الله تعالى ، وفي الآية دلالة على أن النبي كان قد حلف على الترك ، وأمر بتحلّة يمينه بالكفّارة ، فالتحلة تحلل اليمين.

فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَها بِـهِ قـالَتْ مَنْ أَنْبَـأَكَ هـذا قـالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (3) إِنْ تَتُوبا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما وَإِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ

---

3 [عــرّف بعضــه] : أجمع المفســرون على أن المعــنى أبــان وفضح لزوجاته ما أذعنه ، ولكن يبـدو لي أن الكلمة «عـرّف» بالتشـديد تعـني الإبــراز كما الجبل يســمي عرفا ، وقد قــال الله : «**وَيُـدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ**» أي أبرزها وأظهرها كما العـرف ، وقـال تعـالى : (**وَعَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيماهُمْ**) أي على مشارف ، والإعراض عكس الإعراف أي الإهمال والتغافل.

4 [صـغت قلوبكمـا] : أي مـالت ، وقيل : ضـاقت وعـدلت عن الحق ، ويبـدوا أن ذلك لا ينســجم والآية : إذ تقـول (**إِنْ تَتُوبا إِلَى اللـهِ فَقَـدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما**) والأصح أنها من الإصغاء لقوله تعالى : (**وَلِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُـونَ بِـالْآخِرَةِ**) فكـأن التوبة الى الله تفتح أسـماع القلوب.

[تظاهرا عليه] : تتعاونا وتعاضدا عليه ، وجواب هـذا التظـاهر والتعـاون أن يتظاهر معه الله مولاه وجبريل وصالح المؤمــنين والملائكة بعد ذلك ظهــير. أي معين وناصر ، وفي المصــطلح الحــديث : تظــاهر النــاس تظاهرة ، أي إجتمعوا أو خرجوا متعاونين كما في المنجد ، واستظهر به استعان ، والظّهرة : العون.

فَـإِنَّ اللـهَ هُـوَ مَـوْلاهُ وَجِبْرِيــلُ وَصــالِحُ الْمُـؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِـكَ ظَهِـيرٌ (4) عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَــهُ أَزْواجــاً خَيْــراً مِنْكُنَّ مُسْــلِماتٍ مُؤْمِنــاتٍ قانِتاتٍ تائِباتٍ عابِداتٍ سائِحاتٍ ثَيِّباتٍ وَأَبْكــاراً (5) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَــكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نــاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُــونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ (6) يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُــونَ (7) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُـوا إِلَى اللـهِ تَوْبَـةً نَصُـوحاً عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيُــدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي

---

5 [مؤمنات قانتات] وجوابهما قوله : (**وَضَـرَبَ اللـهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُـوا امْـــــــــرَأَتَ فِرْعَـــــــــوْنَ**) وقوله عن مـــــــــريم : (**وَكانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ**) ولعل ذلك يؤيد الروايـات الـتي تقـول : ان الله سوف الجنة من امرأة فرعون ومريم (ع).

[سانحات] : قيل : صائمات ، وقيل : مجاهدات من الحـديث : «سـياحة أمتي الجهاد» وفي أخرى «جهاد المرأة حسن التبعّل»

مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَاغْفِرْ لَنا إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (8) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (9) ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10) وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ

---

10 [فخانتاهما] : الخيانة والنفاق واحد ، الا أن الخيانة تقال اعتبارا بالعهد والأمانة ، والنفاق يقال اعتبارا بالدِّين ، فالخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السرّ ، ومن الخطأ استعمال كلمة الخيانة في الفاحشة ، والقرآن لم يورد الخيانة في الفاحشة قطّ ، وعلى ذلك فمن الخطأ القول أنّ الخيانة الزوجية تدل على الفاحشة.

وَعَمَلِــهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَــوْمِ الظَّالِمِينَ (11) وَمَــرْيَمَ ابْنَتَ عِمْـرانَ الَّتِي أَحْصَـنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيــهِ مِنْ رُوحِنا وَصَـــدَّقَتْ بِكَلِمــاتِ رَبِّها وَكُتُبِــهِ وَكــانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ (12))

لم تحرّم ما أحلّ الله لك

بينات من الآيات :

[1] قـالوا : إنّ رسـول الله كـان في بيت حفصة في يومها ، وعــادت وكــانت مارية القبطية تخدمه ، فــذهبت حفصة في حاجة لها ، فتناول رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ــ مارية فعلمت حفصة بــذلك فغضــبت وأقبلت على رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ فقالت : يا رسول الله هذا في يـومي ، وفي داري ، وعلى فراشـي؟!! فاسـتحى رسـول الله ــ صـلّى الله عليه وآله ــ منها فقـال : «كفى فقد حرّمت مارية على نفسي ، ولا أطأها بعد هذا أبدا» [1] ، وعلى رواية عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ أنّه قـال : «**والله ما أقربها**» [2] ، وتكشف لنا هذه الحادثة الـتي ذكرها الــرواة عن جــانب من حيــاة الرســول مع زوجاته ببيان حقائق ثلاث :

الأولى : ما عليه الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ــ من عظيم الأخلاق ، إذ

---

(1) تفسير القمي ج 2 عند الآية.

(2) المصدر

كان يتنازل عن حقوقه الشخصية شريطة ألّا تتعــارض من الناحية الشرعية مع حقـوق الآخـرين ، مع ما في ذلك من الحرمان والمشـقة ليعيش الآخـرون في راحة ، فهو بـأبي ونفسي كما وصف أمــير المؤمــنين ــ عليه الســلام ـــ : «نفسه منه في عنــــاء ، والنــــاس منه في راحة ، أتعب نفسه لآخرته ، وأراح النـاس من نفسـه» [1] ، وذلك مما يليق بمقام النبوة.

الثانية : إنّ بعض زوجات النـبيّ ــ وبالـذات المعنيـتين بمطلع ســـورة التحـــريم ـــ كنّ يمارسن ضـــغوطا عليه لأغراض لا مبرّر لها ، بل تتعـارض الاسـتجابة لها عمليا مع أحكام الدين فتصيّر الحلال حراما.

الثالثة : وهكذا كان الرسول وحده الأسوة للمؤمنين ، أمّا من حوله فليسـوا موضع تأسي إلّا بمقـدار تجسـيدهم للحق في حيـاتهم واقتـدائهم بشـخص الرسـول ، وهكـذا بالنســبة إلى كل رســول وكل قائد رســالي إنّه وحــده المقياس أما من حوله فقد يكونـون أبعد النـاس عن مثاله ومنهجه ، أليس ابن نــوح كــان من الهــالكين؟ أو ليست زوجة نـوح وزوجة لـوط دخلتا النـار مع الـداخلين؟ وهكـذا ينبغي أن ندرس التاريخ في ضوء هذه الآية من جديد.

أمّا كيف تدخّل الـوحي في حـادث التحـريم وعالجـه؟ فهـــذا ما يجيب عنه الســياق حيث يؤكّد على أنّ تحـــريم النـــــبي لما قد حرّمه على نفسه (مقاربة مارية ، أو لعق العسل ، أو مقاربة كل نسائه) مما هو حلال في الأصل لم يكن تشريعا إلهيّا تـنزل به الـوحي ليكـون حكما جاريا إنّما هو مبادرة شخصـية في حـدود الحقـوق الشـرعية اختارها النـــبيّ لنفسه ، لحكمة بالغة تمثّلت في ابتغـــاء مرضـــاة الأزواج ، ولهذا جاء الخطاب بقوله تعالى :

(1) نهج خ 193 ص 306

(**يا أَيُّهَا النَّبِيُ**)

وربما لم يخاطبه الجليل بصــفته رســولا يبلّغ أحكــام الله ورســالته بل بصــفته نبيّا لكي لا يعــدّ إيلاؤه جــزء من الرسالة.

(**لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ لَكَ**)

إنّ التحريم هنا بمعنى الامتناع وليس بمعنى التشــريع ، قــال الله تعــالى في شــأن موسى ــ عليه الســلام ــ : (**وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ**) [1] ، ولو كان الرسول بتحريمه مشــرّعا لجــاء التعبــير (لا تحــرّم) بــالنهي ، لأنه لا مشــرّع إلّا الله ولا يجــوز لأحد مهما كــان أن يشــرّع من دونه.

فعن زرارة عن أبي جعفر ـــ عليه الســلام ـــ قــال : سألته عن رجل قال لامرأته : أنت عليّ حــرام ، فقــال لي «لو كــان لي عليه ســلطان لأوجعت رأسه وقلت له : الله أحلّها لك فما حرّمها عليــك؟ إنّه لم يــزد على أن كــذب فزعم أنّ ما أحلّ الله له حرام ، ولا يــدخل عليه طلاق ولا كفــارة» [2] ولم يحــرّم مشــرّعا الرســول ، إنّما امتنع عن مقاربة مارية القبطية لغاية هي إرضـــــــاء زوجاته اللّاتي أثارتهنّ الغيرة.

(**تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ**)

وفي الآية تحذير للرســول ولكل قائد أن لا يتــأثّر بأحد ولو كــان أقــرب النــاس إليه ، لأن الضــغوط الــتي يوجهها المقربــون للقيــادة ليس بالضــرورة آتية من دوافع داخلية وإن كــانت تتلبس بهــذا الثــوب ، إنّما تنتقل عــادة إلى بيت القائد من أبعد نقطة ، ولكن عــبر حلقــات متواصــلة حــتى تبلغ القائد ، وبالخصوص في هذا العصر الذي

---

(1) القصص 12

(2) نور الثقلين ج 5 ص 368 نقلا عن الكافي.

تستهدف الـدوائر الاسـتكبارية فيه محاربته والقضـاء على الـدين ، فليس من شك أنّ أجهـزة المخـابرات وشـبكات الأحـزاب الفاسـدة كالشـيوعية والماسـونية والصـهيونية وفروعها المبثوثة في أوســاط الأمّة كلّها تسـعى للتـأثير على القيادات الدينية عبر وسـائط عديـدة ، وإنّها قد تـؤثر حـتى في مواقف بعض القيـادات وآرائها وفتاويها ، فكيف ينبغي أن يتعامل القائد مع مجـاميع الضـغط هـذه فينفي تأثيراتها السـلبية؟ إن للقائد صـفتين : إنسـانية وقيادية ، وعليه أن يحافظ على تـوازن حكيم ، ففي الـوقت الـذي يتعامل مع زوجته وأولاده وذوي قربـاه بصـفته الإنسـانية وبكامل عواطفه وأحاسيسه عليه ألّا يسـمح لـذوي النفـوذ أن يؤثروا عليه من خلالها على مركزه القيـادي ، وهـذا ما يشير إليه القرآن في آية التحريم.

(**وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**)

وينبغي للقائد أن يتحلّى بهـاتين الصـفتين أيضا ، ففي الوقت الذي لا يتأثر بضـغوط الزوجـات لا ينـال أذاهنّ من حلمه وسعة صدره بل يغفر لهن ويـرحمهن تخلّقا بصـفات الله وطمعا في غفرانه ورحمته.

[2] ومن مظـاهر غفرانه ورحمته عـزّ وجـلّ أن جعل للمؤمـنين مخرجا يتحللـون به من اليمين وآثـاره المادية والمعنوية بالكفّـارة ، ولو كـان الله يجعل تحـريم الإنسـان على نفسه تشـريعا لوقع الكثـير من النـاس في العسر ولتفككت الكثـير من الأسر ، حيث تـدعوهم الضـغوط وحالات الغضب إلى التحريم باليمين في أحيان كثيرة.

(**قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ**)

قال الإمام أبو جعفر ـ عليه السـلام ـ : «**إنّما حـرّم عليه الجارية مارية وحلف أن لا يقربها ، فإنّما جعل عليه الكفّارة في الحلف ولم يجعل عليه في**

التحريم» [1] ، وهـذا واضح في الآية «**تَحِلَّةَ أَيْمـانِكُمْ**» ، فلو قـال أحد فلانة عليّ حـرام دون يمين فلا هي تحـرم عليه ولا تجب عليه الكفـارة بخرقه لكلامه وقـراره ، بل لا يكون إيلاء إلّا باليمين ولمدة أربعة أشهر ، فعن أبي جعفر (ع) قـال : «**لا يكـون إيلاء حـتى يحلف على أكـثر من أربعة أشهر**» [2] أي بهذين الشـرطين ، والـذي يظهر من النصوص أنّ ما كـان من رسـول الله تحـريم بيمين وليس إيلاء ، لأن مارية جارية لا إيلاء فيها ، فعن أبي نصر عن الامام الرضا (ع) قال : سألته عن الرجل يـولي من أمته ، فقـال : «**لا. كيف يـولي وليس لها طلاق**» [3] إلّا أن يكـون النـبي ـ صـلّى الله عليه وآله ـ كما قـال بعض المفسرين قد حلف بأن لا يقارب أزواجه جميعا بعد تحذير الله له من تحـريم ما أحل له ابتغـاء مرضـاتهن ، والله أعلم.

ولكي يتحلل الرجل من الأيمـان بـالإيلاء أو مجـرّدة فرض الله كفارة كمخـرج وكعقوبة حـتى لا يعـود لها مـرّة أخرى ، وهي في صـالحه ، وهـذا يـدل عليه قوله سـبحانه «لكم» بالرغم من أنّ البعض يراها كلفة وغرامة لله عليه ، فهي تـزكّي النفس ، وتوقف الغضب عند حـدّه. وكفّـارة نقض اليمين واجبة فرضها الله ، إلّا أن العـود إلى ما كـان قد حرّمه بها ليس متعلّقا بأدائها ، فلا تتكـرر الكفّـارة بتكـرار العـود قبل أدائها كما هو في الظهـار ، إنّما تجب مرّة واحدة لكل يمين ، ومقدارها إطعام عشـرة مسـاكين ، فعن أبي حمزة الثمالي قال : سألت أبا عبد الله ـ عليه السلام ـ عمن قـال : والله ثم لم يف ، فقـال : «**كفّارته إطعام عشرة مساكين**» [4].

ويـأتي هـذا الفـرض من موقع الولاية الإلهية على المؤمنين.

---

(1) المصدر

(2) الوسائل ج 15 ص 538

(3) المصدر ص 539

(4) المصدر ص 571

(**وَاللهُ مَوْلاكُمْ**)

فالـذي يفرضه هو الـواجب ، ولا يجـوز للمؤمـنين أن يأخذوا تشريعاتهم من مصدر سواه ، لأنّه حيث يشرّع أهل لـذلك ، لاحاطته علما بكـلّ شـيء ، ولأنه لا يضع حكما إلّا لحكمة بالغة.

(**وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**)

وإيمـان الإنسـان بهـاتين الصـفتين لله يبعث فيه روح التسليم والرضى بكل ما يفرضه عليه حيث يشعر بفطرته وعقله أنّه يتلقّى تشـريعاته من لـدن عليم حكيم ، بل إن ذلك يجعله لا يؤمن إلّا بما يتنزل من عنـده ، أمّا ما يضـعه البشر من النظم والأحكـام فإنّها لا تـدعوا إلى الاطمئنـان بها ، لأنّ واضعها محدود العلم والحكمة.

[3] ويكشف لنا الوحي بعد الكلام عن حادث التحريم الـذي جـاء نتيجة ضـغوط بعض أزواج النـبي عن صـورة أخـرى سـلبية من تعـاملهنّ معه ـ صـلّى الله عليه وآله ـ حيث يفشـين أسـراره إلى الآخـرين. الأمر الـذي ينطـوي على خيانتين : خيانة له كـزوج فالزوجة المخلصة يجب أن تكون مسـتودع سر زوجها ولا يليق بها إشـاعته لأحد مهما كان قرابته ومكانته ، وخيانة له كنبي وقائد للأمة.

(**وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً**)

قيل أنّه تحــريم مارية على نفسه ، وقيل أنّه تحــدّث عن التيارات السياسية والاجتماعية التي كـانت في الأمة ، وعن مســتقبل الســلطة السياســية فيها ، وهو الأقــرب والأهم ، لأن تحـريم مارية لم يكن في الخفـاء ، ولا يحتـاج الكلام عن إفشاء هكـذا حـديث إلى التأكيد على مظـاهرة الله والملائكة وصالح المؤمـنين للنـبي. وفي مجمع البيـان قـال العلّامة الطبرسي (رض) : ولمّا حـرّم مارية القبطية أخبر حفصة أنّه

يملك من بعده أبو بكر وعمر [1].

(**فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ**)

قيل أنّ كلّا من حفصة وعائشة أخبرتا أبواهما بالأمر ، إمّا بسبب العلاقـات العاطفية المتينة بين البنت وأبيها ، أو لحب التظاهر بالحضـوة عند الرسـول ، وهـذان من أوسع الأبواب التي تخرج منها أسرار الإنسان إلى الآخـرين. وإذا كان الإنباء بأسرار النبي يتمّ بعيدا عن سمعه ونظــره فإنّه لن يكون بعيدا عن رقابة الله الذي أخبر رسوله بالأمر.

(**وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ**)

أي كشف له أنّ هذه الزوجة لم تصن سره.

(**عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ**)

مما يفصح عن معدن الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ حيث الأخلاق والحكمة ، فهو لم يعاتبها على كل شـيء بل أظهر جانبا من أمرها وكأنّه يجهل الجوانب الأخرى ، ولعل ما أعرض عن ذكره كان يتسبب لو ذكره في حـرج عظيم لها ، وآثـار سـلبية لا تحمد عقباها ، وذلك غاية في الحكمة لكل زوج في أسرته ، ولكل قائد تجاه أمته.

(**فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا**)

ولعلها حينئذ كــــانت مرتابة في أنّ من أطلعته على السر هو الذي أخبر النبي ـ صـلّى الله عليه وآله ـ وغـاب عن بالها وإيمانها أنّه متصل بالوحي ومؤيّد من عند

---

(1) مجمع البيان / ج 10 عند الآية.

الله سبحانه ، فأجابها ـ صلّى الله عليه وآله ـ :

(**قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ**)

الذي يحيط بكلّ شيء. وموقف الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ تجاه زوجته التي أذاعت سره ينبغي أن يدرسه كلّ زوج قائد ، ويتخذه منهجا في أمثال تلك المواقف وظروفها.

[4] ويؤكّد القرآن أنّ ما حدث من اثنتين من نسائه كان زيغا عن الحق وميلا إلى الباطل ، وأنّه بالتالي يحتاج إلى الإصلاح والتوبة.

(**إِنْ تَتُوبا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما**)

أي أنّكما تحتاجان إلى غسل دون الانحراف ، وإصلاح الخطأ بالتوبة إلى الله والاعتذار من الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ لأنّ قلوبكما قد صغت أي مالت ، وأصغى سمعه لفلان أي مال به إلى كلامه. وتأكيد الله على انحراف القلب يبيّن أنّ ما حدث لم يكن خطأ عابرا ، إنّما هو انحراف له جذور تمتد إلى أعماق القلب ، بلى. إنّ كشف أسرار النبي ليس إلّا علامة على انحراف داخلي في الجذور ، وهكذا الكثير من مواقف وسلوكيات الإنسان الخاطئة. إنّها مرة تكون سطحية وأخرى جذرية.

ويحذّر الله الاثنتين من أنّهما لو رفضتا التوبة وتماديا في التظاهر ضد الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ فإنّ العاقبة ستكون للخط الرسالي السليم لأنه مدعوم بقوّة لا تقهر.

(**وَإِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ**)

أي خــيرتهم وأفضــلهم ، وأفضل كــلّ المؤمــنين هو الإمام علي ـ عليه السـلام ـ الـذي نصر الرسـول في كل معاركه وحروبه العسـكرية والسياسـية وغيرهما ، ولـذلك جاءت بعض النصوص بهذا التأويل ، قال الإمام الصـادق ـ عليه السـلام ـ «**صـالح المؤمـنين هو عليّ بن أبي طالب** عليه السلام» [1].

(**وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ**)

قال ابن عباس : سألت عمر بن الخطـاب عن اللتـان تظاهرتا على رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ؟ فقـال : حفصة وعائشة. أورده البخاري في الصحيح [2].

[5] ويحذّر الله زوجات الرسول من السلوك السـلبي تجاهه بأنّ مصلحة رسالته فـوق كل شـيء ، وهو مسـتعد لتطليقهنّ لو عارضن الرســــــالة دون أن يجعل قيادته وقراراته عرضة للتـأثر بالضـغوط وتبعا لأهـواء الزوجـات وميــولهنّ. ثم أنّه لو فعل ذلك فلن تتعطل مســيرته بل ستستمر ، وسـيجد بين النـاس وعند الله من هو خـير من زوجاته.

(**عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَـهُ أَزْواجـاً خَيْـراً مِنْكُنَ**)

من الجهة المعنوية والماديـــة. وقد وجّه القــــرآن الحديث من المثنى إلى الجميع لكي يكون ما حدث عـبرة للجميع ، فلا تحدثهن أنفسهن بالسير على خطى الاثنـتين. أما الصـفات المعنوية الـتي ينبغي أن تكـون في شـريكة حياة الإنسان المؤمن فهي التالية :

(**مُسْـلِماتٍ مُؤْمِنـاتٍ قانِتـاتٍ تائِبـاتٍ عابِـداتٍ سائِحاتٍ**)

---

(1) نور الثقلين ج 5 ص 370

(2) مجمع البيان ج 10 عند الآية.

من السياحة وهي الجهـاد لقـول رسـول الله ــ صـلّى الله عليه وآله ــ : «**سـياحة أمـتي الجهـاد**» ، والهجـرة صورة من السياحة بهذا المفهوم ، والصفات الآنفة صفات متدرجة فالإيمان فوق التسليم ، والقنـوت فـوق الإيمـان ، وهكـذا .. وهـذه الصـفات هي الأهم ، وتـأتي في الدرجة الثانية الصفات المادية الظاهرة :

(**ثَيِّباتٍ وَأَبْكاراً**)

[6] وبعد أن بيّن القرآن بـأنّ من الممكن للرسـول ــ صـلّى الله عليه وآله ــ أن يجد في المجتمع زوجـات خـيرا من زوجاته لو طلقهن ملوّحا لهنّ بـالطلاق لو لم يتبن إلى الله ، أمر المؤمنين بتحمل المسؤولية الرسالية في إطـار الأسـرة ، إذ يجب السـعي الحـثيث لإنقـاذ نفسه وسـائر أسرته من نار جهنم ، وهذه أعظم مسئولية للمؤمن تجـاه أهله.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً**)

وإنّها لآية عظيمة ترسم للإنسـان المـؤمن خطـوط مسـئوليته لتخرجه من إطـار الفردية إلى التطلعـات الإنسـانية والدينية الواسـعة ، حيث التفكـير في نجـاة الآخرين وفلاحهم كجزء من المسـؤولية في الحيـاة. وعلى هـذا أكّد أئمة الهـدى في تفسـيرهم لهـذه الآية الكريمة ، قال سليمان بن خالد : قلت للإمام الصادق ـ عليه السلام ـ إنّ لي أهل بيت وهم يسمعون مـني أفـأدعوهم إلى هـذا الأمر؟ فقـال : «نعم. إنّ الله عـزّ وجـلّ يقـول في كتابه : الآية» [1] ، وعن أبي بصير قال : سألت أبا عبد الله ـ عليه السـلام ــ عن قـول الله : الآية ، قلت : هـذه نفسي أقيها فكيف أقي أهلي؟ قـال : «تـأمرهم بما أمـرهم الله به ، وتنهاهم عما نهاهم الله عنه ، فإن أطاعوك كنت قد

(1) نور الثقلين ج 5 ص 372 نقلا عن أصول الكافي.

وقيتهم ، وإن عصوك كنت قد قضيت ما عليك» [1] ، وهذه الرواية تؤكد بـــأنّ الـــدعوة لله مســـئولية مفروضة على المؤمن في أوساط الأسـرة (الزوجة والأولاد) ، وأنه يجب عليه أن يكون رسولا لربه فيها يدعوهم إلى الحق وينهاهم عن الباطل.

ولا يسقط المسؤولية عدم اسـتجابتهم للـدعوة ، فقد سئل الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ عن الآية فقيل : كيف نقيهن؟ قال : «تأمروهن وتنهونهن» ، قيل له : إنّا نأمرهن وننهاهن فلا يقبلن؟ قال : «إذا أمرتموهن ونهيتمـوهن فقد قضـيتم ما عليكم» [2] ، ولعل الوقاية من النـار تمر من خلال اجتناب السيئات وتركـيز الصـفات المشـار إليها في الآية اللاحقة في النفس والأهل. وأيّ نار تلك التي يـدعونا الله للوقاية منها؟

أوّلا : إنّها تشتعل باحتراق الناس والحجارة.

(**وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ**)

فليس الناس هناك يحترقون بالنار بل يتحوّلـون نيرانا ، لأنّ كل شـــــــيء في جهنم ذو طبيعة نارية ، فهل يتم الاحـتراق بتفـاعلات ذرية في الجسم لـذلك لا يتحولـون رمادا بسرعة ، بل يبدّل الله جلودهم كلّما نضجت ليذوقوا عذاب الهـون ، أم بطريقة أخـرى؟ لا نعلم ، إنّما يكفينا أن نتصوّر ذلك المنظر الرهيب فنخشى ونتقي.

وقالوا عن الحجارة أنّها حجارة الكبريت ، ولكن يمكن أن يكون عموم الحجارة ويكون احتراقها بتفاعلات ذرية.

ثانيا :

---

(1) المصدر.

(2) المصدر ص 373.

(**عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ**)
فهم قساة التعامل مع أهل النار ، فلا ترى في شخصيتهم البشاشة واللطف ، كما أنّهم أقوياء فتعذيبهم وأخذهم لا يكون إلّا بالشدة.
(**لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ**)
من قبل في تعذيب أهل النار.
(**وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ**)
في كلّ زمان وعلى كلّ حال ، فلا يتصور الإنسان أنّه قادر على إقامة علاقات خاصة معهم تثنيهم عن أمر الله تجاهه ، فإنّهم عباد مأمورون لله وليسوا شركاء ، وطاعتهم له عزّ وجلّ ليس فيها ثغرة يهرب عبرها المعذّب من عذاب الله. وإذا كان ثمّة طريق لاتقاء غلظتهم وشدتهم وعذاب النار فهو الالتجاء إلى سيّدهم والتحبّب إليه بالإيمان والطاعة ، ولا يتمّ ذلك إلّا في الدنيا ، فلما ذا يضع البعض حجبا بينه وبين ربه باتباع الفلسفات البشرية الشركية كعبادة الأصنام والملائكة؟!
[7] هنا في الدنيا عند ما يواجه الإنسان حقيقة رهيبة أو مسئولية ثقيلة يحاول أن يتهرب منها بالخداع الذاتي ، فتراه يلتمس الأعذار والتبريرات ، ويتحصن وراء الأوهام والظنون ، كلّا .. إنّها لا تفيده هنالك في الآخرة شيئا.
(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**)
وما دام جزاء الآخرة هو ذات عمل الإنسان في الدنيا فلا معنى للعذر إذا ، وكيف يتخلّص الإنسان مما هو جزء ذاته؟ وفي الآية إيحاء بأنّ عدم استعداد الكفّار للآخرة ولقاء الله نتيجة طبيعية لكفرهم بها.

[8] وينبغي أن تكون هذه التذكرة باعثا نحو المبــادرة إلي التوبة في الـــدنيا قبل فـــوات الأوان ، توبة صـــادقة كـأروع ما تكـون التوبة ، فـإن ذلك وحـده الاعتـذار الـذي يقبله الله.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً**)

بالنــدم على ما فــات ، والعــزم على تــرك الــذنب ، وإصلاح آثـاره السـلبية نفسـية واجتماعية واقتصـادية و.. ، والاجتهاد في الصالحات ، هكذا سأل أحمد بن هلال الإمام الهادي ـ عليه السلام ــ عن التوبة النصـوح ما هي؟ فكتب عليه السـلام : «أن يكـون البـاطن كالظـاهر وأفضل من ذلك» [1] ، وقال الإمـام الصـادق ــ عليه السـلام ــ : «هو صوم يـوم الأربعـاء والخميس والجمعـة» [2] ، لأنّ العمل الصالح جـزء من التوبة ، وقـال الإمـام أبو الحسن ــ عليه السـلام ــ : «يتـوب العبد من الـذنب ثم لا يعـود فيـه» [3]، وقـال رسـول الله ــ صـلّى الله عليه وآله ــ عن التوبة النصوح : «**أن يتـوب التـائب ثم لا يرجع في ذنب كما لا يعود اللبن إلى الضرع**» [4].

وهــذه التوبة هي الـتي يقبلها الله فيعفو عن سـيئات الإنسان بها ويدخله جنات النعيم يوم القيامة.

(**عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ**)

حقا : إنّ التائب عن صدق يـرجى له أن تتحـوّل ذنوبه من عقدة سيئة تعيق

---

(1) المصدر ص 373.
(2) المصدر.
(3) المصدر ص 374.
(4) عن مجمع البيان ج 1 ص 318 والقرطبي ج 18 ص 197.

مسيرته نحو التكامل إلى دافع قوي نحو الخير والفضيلة ، كما أنّ الله سـبحانه يمحو من ديوانه السـيئات فلا يطلع عليها أحـدا حـتى أقـرب المقـربين إليه ، قـال معاوية بن وهب : سـمعت أبا عبد الله ــ عليه السـلام ــ (الإمـام الصـادق) يقـول : «إذا تـاب العبد توبة نصـوحا أحبه الله فسـتر عليه في الـدنيا والآخـرة» ، فقلت : كيف يسـتر عليـه؟ قـال : «ينسي ملكيه ما كتبا عليه من الـذنوب ، ويـوحي إلى جوارحه : اكتمي عليه ذنوبه ، ويـوحي إلى بقـاع الأرض : اكتمي ما كـان يعمل عليك من الـذنوب ، فيلقى الله حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشـيء من الذنوب» [1] ، فلا يبقى سبب يدخل به النار ، وفـوق هـذا كله يدخله إلى رضوانه ونعيمه في الجنان.

(**وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ**)

وتأكيد الله على الجنـات يـزرع في الإنسـان المـؤمن إرادة التحـدي للشـهوات ولزخـارف الـدنيا الزائلة حيث يتطلع إلى النعيم الأعظم كمّا ونوعا في الآخرة.

(**يَوْمَ لا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ**)

بالعذاب والمذلّة بين النـاس ، ولعـلّ في الآية إشـارة إلى أنّ الله يمضي شفاعة الرسول ـ صـلّى الله عليه وآله ـ والمؤمنين معه من أئمة الهدى والصالحين.

(**نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ**)

التي كـدحت في سـبيل اللّه ، أمّا عن النـور فـالأظهر فيما قيل ثلاثة آراء لا تنـاقض بينها ، أحـدها : أنّه العمل الصـالح والإيمـان يظهر في صـورة نـور يـوم القيامة ، والثاني : أنّه القرآن الذي مشى على هداه المؤمنـون فهو يقـودهم إلى الجنة كما قـادهم في الـدنيا إلى الصـواب والسعادة ، والثـالث : أنّه أئمة الهـدى والقـادة الصـالحون الذين

---

(1) المصدر.

اتبعـــوهم في الـــدنيا ، فهم يقـــودونهم إلى الجنـــان كما قـادوهم إلى الحق والعمل الصـالح في دار الـدنيا ، قـال الإمام أبو عبد الله (ع): «**أئمة المؤمنين نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم حتى ينزلوا منازلهم**» [1].

وعند ما نبحث عن الأسـباب الـتي نجى بها المؤمنـون من الخزي يوم القيامة ، وسعى لأجلها نـورهم بين أيـديهم ، نجد من أهمها طموحهم الكبـير للكمـال ، وتـوكّلهم على ربهم ، ودعاؤهم إليه أن يغفر لهم .. هكذا يدعون ربهم :

(**يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَاغْفِرْ لَنا**)

ومن تمام النـور كمـال الـوعي واصـابة الحق في كل جوانب الحياة وأبعادها المختلفة ، وهنـاك علاقة بين دعـاء المؤمنين بتمـام النـور وغفـران الـذنوب فـإنّ الخطايا في الحقيقة ظلمـــــات معنوية تتمثل يـــــوم القيامة ، الظلم ظلمات ، والغش ظلمات وهكـذا الكـذب والإسـراف و.. ، فهم من جهة يسألون ربهم تمام النـور ، ومن جهة أخـرى يطمحون إلى النجاة من ظلمات الذنوب والخطايـا. ودون هاتين الغايتين تقف التحديات الصعبة التي تحتاج إلى عزم الإرادة ، واستقامة الإيمان ، اللذان يسـتمدهما المؤمنـون من ذي القـوة المطلقة بالـدعاء والتوكل ، إذ يعلمـون أنّ بلوغ الغايات السامية (تمام النور ، والغفـران) يحتـاج إلى توفيق الله وأن تجانب سعيهم قدرته ، وهذا ما تشـير إليه الخاتمة :

(**إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)

وكلمة أخــــيرة : إنّ الله ســـبحانه بعد الأمر بالتوبة النصـــــوح والـــــدعوة إليها لم يقل جزما : (**يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ**) .. إنّما أضاف (عسى) التي تفيد الترجّي ..

(1) المصدر ص 375.

فالنتيجة المترتبة قد تكـون وقد لا تكـون حسب المفهـوم الظاهر للكلمة ، وذلك لكي لا يتسرب إلى أفئدة المؤمنين الغـــرور والعجب فيكـــون الاعتمـــاد منهم على التمنيـــات بغفران الله بدل السعي والعمل.

[9] وبعد أن أمر الله بوقاية النفس والأهل من النار ، والتوبة النصوح إليه عزّ وجل ، وبالتالي السـعي للكمـال ، أمر النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ بجهاد الكفار والمنافقين كضـــرورة لتهيئة الظـــروف والأســـباب من أجل الوقاية والتوبة والكمـال ، وذلك أنّ كثـيرا من أسـباب الانحـراف والنقص الـتي يتعـرض لها المؤمنـون تـأتي نتيجة تحـرك الكفــار من الخــارج والمنــافقين من الــداخل ضد الحق وأتباعه ، فلا بد إذن من مواجهة بـــؤرة الفســـاد هـــذه والقضــاء عليها بالجهــاد لتكــون الظــروف ملائمة لبنــاء المجتمع النموذجي (المتقي ، والتائب ، والتام). لذلك جاء الأمر للنــبي ـــ صــلّى الله عليه وآله ـــ بمواجهة الكفــار والمنافقين.

(**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِـدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنـافِقِينَ وَاغْلُـظْ عَلَيْهِمْ**)

أي جهادا لا هوادة فيه ، باعتبـار القائد الرسـالي ليس مســئولا عن أســرته وحسب بل هو في المجتمع كــالأب مسئول أن يقي نفسه ويقيه من النار والضلال ، فلا بد أن يعمد إلى اجتثاث بؤر الانحراف عنه ومما حوله مهما كــان ذلك الكافر أو هذا المنافق بعيدا أو قريبا.

(**وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**)

ففي الدنيا يلقون جـزاءهم بمجاهـدة المؤمـنين لهم ، وفي الآخـــرة الجـــزاء الأوفى حيث الخلـــود في أســـوء ما يصير إليه مخلوق من عاقبة.

[10] وبمناسبة الحـديث عن زوجـات الرسـول الـذي يحدد لنا سياق هذه السورة

الموقف السـليم منهن تـأتي الآيـات الثلاث الأخـيرة لتؤكد على حقيقة هامة يجب الالتفـات إليها في تقـييم النـاس ، وهي أنّ قيمة كل إنســان بأعماله ومواقفه هو صــالحة أو فاســدة ، بغض النظر عمن حوله ومن ينتمي إليـه. إذن لا يصح أن نفسر التاريخ والقـرآن والمواقف تفسـيرا تبريريا توفيقيا عند الحـديث عن أخطـاء أقربـاء الأنبيـاء نسـبا أو صـحابة أو زواجا لأنّ ذلك يجعلنا في غمـوض ، فقد يكـون أقرب الناس إلى نبيّ من الأنبياء مثلا للكفار كزوجتي نوح ولوط ـ عليهما السـلام ــ ، بينما يصـبح أقـرب النـاس إلى بــؤر الانحــراف أمثــال فرعــون والبيئــات الفاســدة مثلا للمؤمنين كآسية بنت مزاحم ومريم ابنة عمران ، دون أن يكون في ذلك إساءة إلى الأنبيـاء والصـالحين ولا إحسـان إلى المنحرفين اللذين ينتمي إليهم كلا المثلين.

(**ضَــرَبَ اللــهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَــرُوا امْــرَأَتَ نُــوحٍ وَامْرَأَتَ لُـوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْـدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صـالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللهِ شَيْئاً**)

لأن الشــــفيع الحقيقي للإنســـــان عمله الصــــالح لا القرابات ولو كانت من الأنبياء والأولياء ، وأعمالهما كـانت ســيئة لما انطــوت عليه من خيانة لزوجيهما بإذاعة السر والتظاهر لجبهة الكفر [1] وخيانة للرسالة والقيم التي جاءا بهما ، فما نفعتهما القرابات وما بقي لهما شـيء يتمـيزان به عن الناس ، فالقرابة وحـدها ليست ذات قيمة عند الله إنّما العمل ، بل إنّ انتمـاء الإنسـان إلى أيّ شـخص أو أيّة جبهة لا يقاس بالحسابات المادية كالمسـافة والنسب إنما بنوع العمل ، وانتماء هاتين الزوجتين كان إلى جبهة الكفار في الدنيا وأهل النار في الآخرة لتجانس الأعمال لذلك لم يغني عنهما نوح ولوط شيئا.

---

(1) في المجمع ج 10 قال ابن عباس : كانت امرأة نـوح كـافرة تقـول للناس إنّه مجنون ، وإذا آمن بنوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نـوح به ، وكانت امرأة لوط تدل على أضيافه.

(**وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ**)

وقد اعتبر الله هاتين المرأتين مثلا للذين كفروا لأنهما كـان يفـترض أن تكونا قمة في الإيمـان حيث كانتا تحت عبـدين صـالحين من الأنبيـاء ، إلّا أنّهما اختارتا الكفر بـدل الإيمان رغم الظروف المساعدة ، وهـذا المثل يهـدينا إلى أنّ سعي المؤمنين لوقاية أهليهم من النار ليس بالضرورة أن يـؤدي إلى نتيجة إيجابية ، وأنّه من الخطأ تقـييم أحد كالأنبيـاء من خلال زوجـاتهم ومن حـولهم ، إنّما التقـييم السليم يكون عبر أعمالهم ورسالتهم.

ولنا في الآية وقفة عند كلمة الخيانة فهي ـ كما أعتقد ـ خيانة بالمقيـاس الرسـالي أي خيانة لحركة الرسـول ومبادئه ، وليس كما قد يتقـوّل البعض لما فيه من عقد جنسية أو لاعتماده على الإسرائيليات بأنّها خيانة جنسـية ، كلّا .. إنّها خيانة في رسالة النبي بدليلين

الأول : بدلالة السـياق ، فقد وقع الحـديث عن الخيانة في سياق الحديث عن إفشاء السر من قبل زوجات النبي ، وحينما تكلم عن زوجتي نوح ولـوط ضـربهما مثلا للجبهة المضـادة للحق «**لِلَّذِينَ كَفَـرُوا**» ، ولو كـانت الخيانة جنسية لضربهم مثلا للذين فسدوا مثلا أو للزناة.

الثاني : لأنّ تفسـير الخيانة هنا بالخيانة الزوجية ليس يمس زوجـات الأنبيـاء وحسب بل يمس الأنبيـاء أنفسـهم ويصوّر بيـوتهم محلا للفاحشة والـدعارة ، حاشا الأنبيـاء ـ عليهم السلام ـ [1].

[11 ـ 12] ويضـرب الله مثلا معاكسا للـذين آمنـوا ، أحدهما من بيت فرعون

(1) وهذا ما سعى إليه الكاتب الضـال سـلمان رشـدي في أحد فصـول كتابه : (الآيات الشيطانية).

الطاغية ، والآخر من بيئة بـــني إســـرائيل المنحرفة حيث مريم بنت عمران.

(**وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ**)

الــتي آمنت بنــبيّ الله ، وتحــدّت إغــراءات الســلطة وضـــغوط الطاغية زوجها في ســـبيل الله ، رغم تظـــافر العوامل المادية التي يعتبرها البعض من الحتميـات ، حيث كـان فرعـون زوجها وكـانت في ذات الـوقت من رعايـاه. كـــانت تنتمي إلى بـــني إســـرائيل الطبقة المستضـــعفة والمعدمة بينما كان فرعون قائد المستكبرين والمترفين ، وكـانت مصـالحها المادية مؤمّنة عند فرعـون ، فما الـذي جعلها تتحداه وتواجه جبروته وسلطانه؟! إنّه الإيمان الـذي جعلها تتحــدى كل الظــروف لتكــون مثلا رفيعا يقتــدي به المؤمنون عبر التاريخ ، وجبلا لا تتأثر بإغراء ولا بإرهـاب أو تضليل.

(**إِذْ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ**)

وهنا إشارتان لطيفتان نستوحيهما من الآية :

الأولى : أنّ أعظم سبب للانحراف كانت تواجهه آسية هو غـــرور الســـلطان والملك ، فلقد كـــانت زوجة لأعظم الملـوك الـذين عـرفهم تـاريخ البشـرية ، إلّا أنها انتصـرت على قمة تحـدي الـدنيا للإنســان بالرغبة في نعيم الآخـرة الـذي يتصـاغر أمامه كل نعيم ، ولقد جـاء في الأخبـار أنّها كـانت تـرى قصـورها في الجنة وهي موتّـدة تصـبّ عليها ألوان التعذيب.

الثانية : أنّ هذه المرأة الشريفة لم يحالفها الحظ في الزوج الذي تـرغب إليه أمثالها من المؤمنـات فطلبت من الله أن تصـير إلى نعم بيت الزوجية ، وكـان طلب الـبيت بمثابة طلب من فيه ، وماذا يطيب من الـبيت للمـرأة من دون زوج كريم؟ وإذا كان دعاؤها بهـذا المعـنى فلما ذا لم يصرّح به في القرآن؟ لعلّ ذلك لأنّ الآداب الاجتماعية عند العرب (وربما عند غيرهم أيضا) ما كانت تستسـيغ للمـرأة العفيفة

أن تطلب زوجا.

وممّا يؤكّد هذه الفكرة الروايات التي بيّنت أنّها تصبح زوجة لرسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ في الجنة ، فقد أثر عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ أنّه دخل على خديجة ـ عليها السلام ـ وهي في مرض الموت فقال لها : «بالرغم منّا ما نرى يا خديجة ، فإذا قدمت على ضرائرك (أي اللّاتي هنّ أزواج الرسول كما خديجة) فاقرئيهنّ السلام» ، فقالت : من هنّ يا رسول الله؟ فقال : «مريم بنت عمران ، وكلثم أخت موسى ، وآسية امرأة فرعون» ، وتوحي بهذه الحقيقة أيضا بقية الآية :

(وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ)

فكانت ترفض البقاء في ظلّه ، ويهدينا قوله سبحانه : «وعمله» إلى فكرة هامة هي أنّ الإنسان المؤمن قد ينجو بالهجرة أو بسقوط النظام الفاسد من أذى الظالمين المباشر ، لكنّه قد لا ينجو من أعمالهم ، فإذا به يصبح ظالما مثلهم ويعمل الفواحش ويقع في الفساد ، لذلك ينبغي الدعاء والعمل للنجاة من الظلمة ومن الظلم.

(وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

أمّا المثل الثاني للمؤمنين فهي مريم ابنة عمران ـ عليها السلام ـ فإنّها رغم انحراف بني إسرائيل بعد موسى وشياع الفاحشة بينهم تحدّت الانحراف فحافظت على عفّتها وطهارتها.

(وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها)

ولا ريب أنّ الأرحام المحصنة والفروج العفيفة والحجور الطيبة الطاهرة ستكون

منطلق الأجيال الصالحة ، وموضع تجلّي روح الله.

(**فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا**)

وبرزت عظمة مـريم ــ عليها السـلام ــ في تصـديقها بكلمات الله وكتبه ، ولعلّ كلمات الله هي أنبيـاؤه كعيسى بن مـريم ، لأنّ الأنبيـاء لسـانه في خلقه وينطقـون بوحيه وكلماته ، أو هي البصائر الإلهية البارزة الـتي من الصـعب التصـــديق بها ، أمّا الكتب فهي الرســالات. ولقد جعلت مريم نفسها مصداقا للحق الذي جـاء به الأنبيـاء وانطـوت عليه كتب الله.

(**وَصَــدَّقَتْ بِكَلِمــاتِ رَبِّها وَكُتُبِــهِ وَكــانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ**)

والقانتون هم المثابرون بالـدعاء إلى الله المسـلّمون له ممّا يؤكّد روحانيتها وتبتّلها الـدائم. ونسـتوحي من الآية تأكيدا للروايات التي قالت بأنّها تكون من زوجات رسـولنا الأكرم ـ صلّى الله عليه وآله ـ في الآخرة حيث وعده الله فيما وعده بالزوجات القانتات التي هي منهن.

وقد يكون من معـاني التصـديق بكلمـات الله وقنوتها أنّها بلغت مرحلة العصمة ، حيث أنّ الإنسان بين أمـرين : بين الاستجابة لنـداء الباطل وكلماته ، أو التصـديق بـالحق واتبـاع ندائه ومناديه ، وإذا كـان الإنسـان جـادّا في اتبـاع الحق تمايز في داخله نداء الشيطان المنبعث من شـهواته ووساوس نفسه الأمّارة بالسوء وهمزات شيطانه الـرجيم تمايز عن نداء الـرحمن المنبعث من عقله ووجـدان نفسه اللوّامة وإلهامات ربه عبر ملائكته الكرام.

وهـذا أحد وسـائل الـوحي الـذي هو نقر في القلب ، والذي من أمثلته ما ألهمت أمّ موسى ـ عليها السلام ـ أن تلقي بولدها في اليمّ.

وهذه الآيات الثلاث تهـدينا إلى حقيقة رئيسـية هي أنّ الإنسان قادر على الاسـتقلال بإرادته وقـراره وعمله مهما كانت الظـروف مسـاعدة أو معاكسة لما يختـاره لنفسه ، فـالكفر والإيمـان يبـدءان من داخل الإنسـان وليس من الظـروف والعوامل المحيطة ، وبالتـالي يمكن القـول أنّ هـذه الآيـات بما ضـربته من الأمثـال تنسف الفلسـفات الضالة القائمة على أساس الإيمان بالحتميات اقتصادية أو اجتماعية أو وراثية أو .. أو .. فيما يتصل بقـرار الإيمـان والكفر في حياة الإنسان ، فهذه آسية بنت مزاحم ومـريم ابنة عمران تحديتا الظـروف والضـغوط وآمنتا بالله ، بينما كفرت زوجة نوح ولوط رغم العوامل الإيجابية والمساعدة على الإيمان ، وإذا كانت هذه البصيرة صـادقة في المـرأة فـإنّ صـدقها بالنسـبة إلى الرجل أوضح وأجلى أليست المرأة ضعيفة أمام الرجل؟

سورة الملك

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في أصـــول الكـــافي عن أبي جعفر (البـــاقر) عليه السـلام قـال : «**سـورة الملك هي المانعة تمنع من عذاب القبر ، وهي مكتوبة في التوراة سورة الملك ، ومن قرأها في ليلة فقد أكـثر وأطـاب ولم يكتب من الغافلين ، وإني لأركع بها بعد عشاء الآخرة وأنا جالس ، وإنّ والدي ـ عليه السلام ـ كان يقرؤها في يومه وليلته ، ومن قرأها إذا ادخل عليه نـاكر ونكـير من قبل رجليه قـــــالت رجلاه : ليس لكما إلى ما قبلي سـبيل قد كـان هـذا العبد يقـوم عليّ فيقـرأ سورة الملك في كلّ يوم وليلة ، وإذا أتيـاه من قبل جوفه قـال لهما : ليس لكما إلى ما قبلي سـبيل قد كان هذا العبد اوعاني سـورة الملك ، وإذا أتيـاه من قبل لســـانه قــــال لهما : ليس لكما إلى ما قبلي سبيل قد كان هذا العبد يقرأ بي في كـلّ يـوم وليلة سورة الملك**»

نور الثقلين / ج 5 ص 378

الإطار العام

لعلّ زرع الخشية من الله بالغيب هو المحور الذي تتصل به كلّ آيات سورة الملك ، التي هي بداية انعطافة كبيرة في السياق القرآني نحو البصائر التي تنزّل بها الوحي في الجزئين الأخيرين ، واللذان يتألّفان في الأكثر من السورة المكية التي تذكّر بأصول الإسلام كالإيمان بالله ، وبالرسول والرسالة ، وبالآخرة.

1 ـ ففي مطلع السورة يتجلّى الله العظيم بأسمائه الحسنى (تبارك ، الملك ، والقدير ، والخالق ، والعزيز ، والغفور ، والرحمن) لأنّ المعرفة السليمة بالله تضع الإنسان المخلوق بوجدانه وعقله وكلّ حواسه أمام الله الخالق سبحانه ، ممّا تمنحه الخشية منه عزّ وجل. ولا ريب أنّ خشية الإنسان من ربه تكون بقدر معرفته به. أولم يقل تعالى : (**إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ**)؟ [1]. ولكي تكون المعرفة بتلك الدرجة نجد السياق يمزج بينهما وبين تعريف الإنسان بأعظم الأهداف التي

---
(1) فاطر / 28

خلق من أجلها (**لِيَبْلُـوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَـنُ عَمَلاً**) فليس في منهج الإسلام إذن معرفة لا تقـود إلى العمل الصـالح ، بل إنّ أحسن الناس عملا أكثرهم معرفة بربّه.

ويزداد الإنسان معرفة بربّه كلّما جال ببصره وبصيرته في الآفاق من حوله ، ففيها تتجلّى أسـماء الخـالق (قدرته وعظمته وتعاليه ..) وبالذات إذا كرّ ببصره مع عقله المرة بعد الأخرى ، في مظهر الخلق وجوهره ، وفي صلة بعضه ببعض ، حيث يتجلّى له ربه وجماله الـــــذي عكس بعض آثاره في الكون بمظهره وجوهره ونظامه المتقن الـذي لا يعتوره تفاوت ولا فطور. الآيات (1).

2 ـ ولأنّ الكفر من الحجب الـتي تمنع المعرفة بالله ومن ثمّ خشـيته بـالغيب جـاءت الآيـات تـذكّر الكـافرين بعذاب الآخـرة ، وتحـذّرهم من التكـذيب بالنـذر ، كوسـيلة لهـزّ ضـمائرهم وإخـراجهم من غـرور الكفر وغفلته ، إذ تضعهم أمام صور من عذاب الخـزي في جهنم الـتي تكـاد تتفجر من الغيظ ، وبصـورة تجعل ذلك الغيب المسـتقبلي شـهودا لمن يسـمع أو يعقل ، مما يـزرع خشـية الله في النفس ، فهنالك تحـوط الكـافرين الحسـرة ، ويغمـرهم النـدم على ما فرّطـوا في جنب الله وما صـاروا إليه من سـوء العاقبة ، ولا يملك أحـدهم إلّا الاعـتراف بذنوبه دون أن يجد مـــبرّرا يتملّص به من المســؤولية أو يســتر به الفضـيحة ، وأنّى له ذلك وشـهادة الله محيطة بكل شـيء وهو عليم بـذات الصـدور؟! وكيف لا يعلم اللطيف الخبـير بخلقه؟! الآيات (6).

3 ـ ثم يأتي السـياق على الأفكـار الشـركية فينسـفها نســفا ، لأنّها تــدعوا الإنســان الاعتمــاد على الأنــداد المزعومين ، والإعتقاد بأنّهم قـادرون على تأمينه وحمايته ورزقه من دون الله ، باعتبــارهم شــركاء أو شــفعاء أو أنصـاف آلهة يـؤثّرون على مشـيئته سـبحانه ، الأمر الـذي يجعله لا يخشى ربه عزّ وجل. الآيات (15).

وبناء على الحقائق الثلاث المتقدمة يمكن القول بـأنّ قوله سبحانه : (**إِنَّ الَّذِينَ**

يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ) .. هي الآية التي تفصح بجلاء عن المحور الأساسي في هذه السورة المباركة.

سورة الملك

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(تَبـارَكَ الَّذِي بِيَـدِهِ الْمُلْـكُ وَهُـوَ عَلى كُـلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ (1) الَّذِي خَلَـقَ الْمَـوْتَ وَالْحَيـاةَ لِيَبْلُـوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2) الَّذِي خَلَقَ سَـبْعَ سَماواتٍ طِباقاً ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَـارْجِعِ الْبَصَـرَ هَـلْ تَـرى مِنْ فُطُـورٍ (3) ثُمَّ ارْجِـعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ

---

1 [تبارك] : من برك أي دام في خير ، ومنه البركة.
3 [طباقا] : أي واحدة فوق الأخرى ، وقيل المراد بالمطابقة المشـابهة أي يشبه بعضها بعضا في الإتقان والإحكام والاتساق والانتظام.
[تفاوت] : اختلاف وتناقض.
[فطور] : شقوق وفتوق.

يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِـيرٌ (4) وَلَقَـدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصـابِيحَ وَجَعَلْناها رُجُومـاً لِلشَّـياطِينِ وَأَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ (5) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِـرَبِّهِمْ عَـــذابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِـــيرُ (6) إِذا أُلْقُـــوا فِيها سَـمِعُوا لَها شَـهِيقاً وَهِيَ تَفُـورُ (7) تَكـادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَـذِيرٌ (8) قـالُوا بَلى قَـدْ جاءَنا نَـذِيرٌ فَكَـذَّبْنا وَقُلْنا ما نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَـيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَـلالٍ كَبِـيرٍ (9) وَقالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ

---

4 [خاسئا] : مطـرودا مبعـدا ، أي أنّ البصر سـوف يعـود متعبا دون أن يعثر على عيب في خلق الله.

[حسير] : هو العاري من الحسّر وهم الرّجالة في الحرب يحسرون عن وجـــوههم ورؤوســـهم أو يكونـــون لا درع عليهم ، ويقـــال : أرض عارية المحاسر ، فالبصر يعود وهو عـار من أيّ دلالة ونتيجة تثبت التفـاوت أو الفطور في خلق الله.

7 [شـهيقا] : في مفــردات الــراغب : الشــهيق طــول الزفـير وهو ردّ النفس ، وأصله من جبل شاهق ـ أي متناهي الطول.

8 [تميّز] : تتقطّع وتتفرّق.

السَّـعِيرِ (10) فَـاعْتَرَفُوا بِـذَنْبِهِمْ فَسُـحْقاً لِأَصْـحابِ السَّـعِيرِ (11) إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَــوْنَ رَبَّهُمْ بِــالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (12) وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (13) أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَـقَ وَهُـوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14)

---

11 [فسـحقا] : أي بعـدا ، وهو دعـاء عليهم أي اسـحقهم الله وأبعـدهم عن النجاة.

تبارك الذي بيده الملك

هدى من الآيات :

لكي يـزرع القـرآن خشـية الله في القلـوب يـذكّرنا بآيات الله وأسمائه ، لأنّ المعرفة أسـاس الخشـية ، فهي التي تظهر للإنسان عظمة ربه وأنّه أهل التقـوى ، وتجعله يـراه ببصـائر قلبه عـبر آياته وأفعاله ، فمن خلال سـنّة المـوت والحيـاة يتحسس خلقه الأشـياء ، وملكه لها ، وقهره إيّاها ، ومن خلال النظر في أنظمة الكائنات يتجلّى له قدرته وحكمته ، وإنّه ليكلّ بصره فيعود خاسـئا حسـيرا دون أن يرى ثغرة في خلق الله وتـدبيره ، ممّا يعـزّز لديه الإيمان به عزّ وجلّ كلّما كرّ ببصره وبصيرته في الكائنات. وحيث يسـمو البشر بنفسه وعقله إلى آفـاق المعرفة يحضر ذلك الغيب أمامه حضورا يبعثه على الخشية.

ثم يذكّرنا الله بجهنم التي أعدّها للكـافرين وكيف أنّها من شدة حرارتها ذات شـهيق ، بل تكـاد تتفجر من الغيظ غضبا على أعداء الله ، وأنّ الوسيلة للخلاص منها

هو سماع النـذر والآيـات واسـتثارة العقل على أثرهما في الـدنيا ، لأنّ تقصـير الإنسـان في ذلك هو أعظم الـذنوب التي لا يجد مفرّا دون الاعتراف بها في الآخـرة ، وكيف لا يعترف وتحوطه شهادة الله النافذة؟!

بينات من الآيات :

[1] في أوّل كلمة من سـورة الملك يطالعنا اسم من أعظم أسـماء الله وهو تبـارك ، والـذي يقـول عنه (وعن اسمين آخرين يماثلانه في العظمـة) الحـديث المـأثور عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ : «**إنّ الله تبارك وتعالى خلق اسـما بـالحروف غـير منعـوت ، وباللفظ غـير منطق ، وبالشـخص غـير متجسد ، وبالتشـبيه غـير موصوف ، وباللون غير مصبوغ ، منفي عنه الأقطار ، مبعد عنه الحدود ، محجوب عنه حس كـلّ متـوهم ، مسـتتر غـير مسـتور ، فجعله كلمة تامّة على أربعة أجزاء معا ليس منها واحدا قبل الآخر ، فـأظهر منها ثلاثة أسماء لفاقة الخلق إليها ، وحجب واحدا منها ، وهو الاسم المكنون المخزون بهـذه الأسـماء الثلاثة الـتي أظهـرت ، فالظـاهر هو : الله ، وتبـارك ، وسبحان (وفي رواية : وتعالى) لكـلّ اسم من هـذه أربعة أركان ، فـذلك اثـنى عشر ركنا ، ثم خلق لكـلّ ركن منها ثلاثين اسما فعلا منسوبا إليها**» [1].

وربما بسبب عظمة الأسماء الثلاثة الـتي أظهرها الله لخلقه نجد أئمة الهـدى ينعتـون عـادة ربهم بها ، فما تكـاد تقـرأ حـديثا عن الله إلّا يقولـون فيه : قـال الله تبـارك وتعالى .. فما هو معنى «تبارك»؟

إنّ أهم وأظهر معاني هذا الاسم العظيم الخير الكثـير المستمر الذي يتصل في مقـام الخـالق بتـواتر نعمه على الكائنات وتتابع آلائه ، التي لولاها ما استمرت ولزالت

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج 4 ـ ص 166.

وتلاشت السـموات والأرض وما بينهما ، كما يتصل في مقـام الخليقة بأنّها في حالة نمـوّ وتكامل مسـتمر ، لأنّ خالقها يعطيها بركة تلو أخرى ، ممّا يـدلّ على أنّ مسـيرة الخلق تصـاعدية. وما التوسـعة الـتي يضـيفها الخـالق للسـموات حينا بعد آخر والـتي أشـار إليها بقوله : (**وَالسَّـماءَ بَنَيْناها بِأَيْـدٍ وَإِنَّا لَمُوسِـعُونَ**) [1] إلّا مظهر لبركات الله ، وفي القرآن إشارات إلى هـذا المعـنى إليك بعضـها : قـال تعـالى وهو يتحـدث عن الرسـالة ، (**تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً**) [2] ذلك لأنّ الفرقان نعمة تتواصل وخير يسـتمر وعطـاء لا ينقطع من الـدنيا وإلى الآخـرة. إذا فهو تجعـلّ لاسم ربّنا «تبارك» ، وقال في معرض حديثه عن إنشاء الإنسان من طـور إلى آخر حـتى سـوّاه كـاملا بنعمة العقل : (**ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ**) [3] ، وقـال في سـياق بيانه لنعمه الـتي في السـماء وبركاته : (**تَبـارَكَ الَّذِي جَعَـلَ فِي السَّـماءِ بُرُوجـاً وَجَعَـلَ فِيها سِراجاً وَقَمَراً مُنِيراً**) [4].

وهكذا يكـون اسم «تبـارك» الـركن الأخـير من أربعة أركان جعلها الله لاسـمه الأعظم ، وهو يشـير إلى صـفات فعله ، الفعّـال لما يريد ، الجـواد ، الكـريم ، المنّـان ، المتفضّـل ، الوهّـاب ، الخـالق ، البـارئ ، المصـوّر ، وهو صانع كلّ مصنوع ، وخالق كلّ مخلوق ، ورازق كلّ مرزوق ، ومالك كلّ مملوك ، وراحم كلّ مرحوم ، و.. و..

أمّا الأركـان الثلاثة فـإنّ واحـدا منها مخـزون عند ربّ العـزة ، بينما الثـاني هو : (اللـه) الـذي يشـير إلى صـفات الذات ، والثالث هو : (تعالى أو سـبحان) الـذي يشـير إلى صفات الجلال.

---

(1) الذاريات / 47.
(2) الفرقان / 1.
(3) المؤمنون / 14.
(4) الفرقان / 61 (ولقد مرّ في مطلع سورة الفرقان تفصيل في بيـان هذا المعنى من تبارك فراجع).

(**تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ**)

فالملك الحقيقي بيده وحـده تعـالى ، لأنّه البـاقي بعد فنـاء كـلّ شـيء ، ولأنّه وحـده القـادر على التصـرف في ملكه بصــورة مطلقة ، أمّا ما يملكه الخلق فمــالكيتهم له محـدودة بقـدر ما منحهم الله ، فمـتى شـاء زاده أو نقص منه أو سلبه وحوّله إلى غيرهم.

وهـذه الآية تفتح آفاقنا على وجـود أوسع من الأرقـام الفرضية الـتي يقـدّرها العلمـاء والفلكيـون ، بل أوسع ممّا للإنســان المقـدرة على تخيّله مهما ذهب بعيـدا ، وأنّى له تصـوّر ملك الله وهو بيّد قـادرة على كـلّ شــيء وتمـدّه بالبركة بعد البركة؟!

(**وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)

وكفى دلالة على أنّ الملك بيـده تعـالى وأنّه صـاحب القـدرة المطلقة أن ينظر الإنسـان إلى الوجـود من حوله وما فيه من آيات القدرة والعظمة ، وكيف أنّه مسيّر وفق نظام دقيق وضعه الله له لا يخرج عنه ، ولا ترى فيه ثغرة أو نقصا أو فطورا.

ولقد وردت رواية عن أمــير المؤمـــنين علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ في بيان جوانب من معـاني أسـماء الله الحسـنى نـذكر بعضـها للفائـدة : ولمّا تسـمّى بالملك أراد تصحيح معـنى الاسم لمقتضى الحكمة ، فخلق الخلق وأمـــرهم ونهـــاهم ليتحقق حقيقة الاسم ومعـــنى الملك (ويظهر من هـذه الكلمـات أنّ الشـرائع من مظـاهر اسم الملك الإلهي) والملك له وجــــوه أربعة : القـــــدرة (على التصــــرف في الملك بمطلق التصــــرف) ، والهيبة (وهي انعكاس لقـدرة المالك على المملـوك) ، والسـطوة (بأخذ المملوكين بالقوة والبطش حين المخالفة. فسبحان من لا يعتــــــدي على أهل مملكته بســــــطوته) ، والأمر والنهي (تشريعيّا وتكوينيّا) [1].

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج 93 ـ ص (41 ـ 42).

[2] ومن أظهر آيات ملك الله ، وأظهر آيـات قدرته : المـوت والحيـاة ، وقد اختلف في معناهما هنا إلى رأيين : أحــدهما : أنّهما ظاهرتا المــوت والحيــاة اللتــان تطبعــان آثارهما على كلّ شيء ، سواء المـاديتين كمـوت الإنسـان وحياة الأرض بالزرع ، أو المعنويتين كالهـدى والصـلاح في مقابل الضلال والفساد ، والآخر : أنّهما إشارة إلى تقسيم الكائنات إلى أشياء جامدة وذات حياة.

(**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ**)

وقد أشار الإمام الباقر ـ عليه السلام ــ إلى المعنـيين فقال : «الحياة والموت خلقان (من) خلق الله ، فإذا جـاء الموت فدخل في الإنسان لم يدخل في شيء إلّا وخرجت منه الحيـاة» [1] والــذي يظهر لي أنّ المــوت هنا بمعــنى انفصــال الحيــاة من كـائن حي كما تفيد الرواية ، وبما أنّ معرفة الحيــاة بصــورة أجلى تتحقّق بمعرفة المــوت فإنّه قـــدّم المـــوت على الحيـــاة ، ولا أعتقد أنّ ما قاله بعض المفسرين والفلاسفة من أنّ الموت سابق للحياة صحيحا ، لأنّ الإنسان قبل خلقه ووجـوده لا يقـال له ميت ، وكيف يقال للعدم ميّت؟! من هنا جاء في الحـديث المـروي عن الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ : «**وانّ الله عزّ وجـلّ خلق الحياة قبل المـوت**» [2] وقد يكـون تقـديم المـوت على الحيــاة في الآية لحكمة أخــرى هي أنّ قــدرة الله تتجلّى بالموت حيث لا يجد سبيلا لتحدّيه ولا مفرّا من سطوته.

كــذلك جــاء في الــدعاء المــأثور : «**وقهر عبــادة بالموت والفناء**» [3].

ويضع الله الإنســان أمــام ســنّة المــوت الحتمية ، وفرصة الحياة ، ويذكّره في نفس

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 379.
(2) المصدر نقلا عن أصول الكافي.
(3) مفاتيح الجنان / دعاء الصباح.

الوقت بالهدف الــذي خلق هو كما خلقا من أجله ، ألا وهو الابتلاء لاستخراج معدن كلّ فرد واستظهار خبايا شخصيته ، ومع أنّ المـوت من مفـردات الابتلاء الا أنّ الابتلاء أكـثر وأعظم تجلّيا بالحياة .. بل لا يكون إلّا أثناء الحياة ، ولذلك تأخّر ذكر الحياة على المـوت لتكـون هـذه الكلمة لصـيقة بكلمة الابتلاء.

(**لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**)

إذن يجب على الإنســان وهو يعيش فرصة الحيـاة أن لا يضل عن هـذا الهـدف الكبـير ، بل يقـاوم كـلّ عوامل الانحـــراف والغفلة عنه ، ويســـخّر كـــلّ قدراته المعنوية والمادية للفلاح والفـــوز فيه ، بـــأن يجعل عمـــره مزرعة لأحسن العمل.

فما هو أحسن العمل؟ إنّه ما أخلص فيه الإنسان النية ، وأتقن الأداء ، وتحـــدّى به هـــوى نفسه وأهـــواء القـــوى الشـيطانية في مجتمعة ، وكـان العمل نفسه من أشـرف الطاعـات وأعظمها ثوابا عند الله ، هكـذا روي عن النـبي (ص) أنّه قـــال في تفســـير الآية : «أيّكم أحسن عقلا ، وأورع عن محارم الله ، وأسرع في طاعة الله» [1] ، وقال : «أتمّكم عقلا ، وأشـدّكم لله خوفا ، وأحسـنكم فيما أمر الله ونهى عنه نظرا» [2] ، وقـال الإمـام الصـادق ـ عليه السلام ـ : «**ليس يعني أكـثركم عملا ، ولكن أصـوبكم عملا ، وإنّما الإصابة خشـية الله ، والنيّة الصـادقة**» [3].

وقوله : «ليبلوكم» لا يعـني أنّه تعـالى لا يعلم بخلقه ، بل ليتحقّق ذلك العلم في عـــالم التكـــوين ويطّلع النـــاس أنفسـهم على معـادنهم ، ويعقلـون جـزاء الله أنّه بعـدل لا بظلم ، قال الإمام علي بن موسى الرضا ـ عليه السلام ـ : «**خلق خلقه ليبلوهم**

---

(1) تفسير نور الثقلين ج 5 ص 380.

(2) المصدر

(3) تفسير البرهان عند الآية.

بتكليف طاعته وعبادته لا على سـبيل الامتحـان والتجربة لأنّه لم يزل عليما بكلّ شيء» [1]

ولعـلّ أظهر تأويل لهـذه الآية هم الأنبيـاء والرسل وأئمة الهـدى من أهل بيت الرسـول ، حيث أنّهم جميعا كانوا الأحسن عملا بين خلق الله ، فهم ـ على هذا ـ أبـرز الحكم الإلهية للخلق. أليس قد أظهـرت البلايا أنّهم القمم المضـيئة ، والـذري المتسـامية؟ وانّ الله ما اختـارهم ولا اصـطفاهم إلّا بعلم وحكمة ، وما جعلهم سـادات البشر وأمراء الصالحين من عباده إلّا لأنّهم السـابقون في طاعة الله.

وقد قـدّر بعضـهم في الآية كلمة فقـالوا : الأصل هو : ليبلـوكم فينظر أيكم ، ولا أرى لهـذا الافـتراض وأشـباهه مـبرّرا في كتـاب الله ، فالآية أعمق بلاغة بوضـعها ممّا لو أضـفنا إليها شـيئا ، لأنّنا نفهم منها أنّه تعـالى يصـنع الصـالحين في رحم الابتلاء ، بل إنّ خلق الإنسـان يكـون ناقصا لو لم يأت إلى الدنيا ويبتلى فيها. وهكذا تكـون الآية مظهر من مظـاهر اسم «تبـارك» حيث تظهر بركة الله بأجلى صورها وشواهدها في الصفوة من عبادة المؤمـنين الصـالحين ، الـذي يتجـاوزون في سـبيله كـلّ الجاذبيـات السلبية والعقبات الكـأداء ، ويسـمون بأنفسـهم إلى آفـاق الفضـيلة ببركة الإيمـان به عـزّ وجل وبنعمة العقل الـتي وهبها لهم ، ولذلك جاء في الأخبار عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـــــــــــــــــــــــــ في قوله (**أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**) قال : «**أحسن عقلا**» [2].

ولأنّ الإنسـان يفلح تـارة ويخطئ أخـرى وهو يواجه الابتلاءات ، أو يتعنّت أحيانا على الحق ، جاءت خاتمة الآية لتسـوقه نحو أهدافه في مسـيرة العمل بمعادلة متوازنة كفّتها الأولى الخـوف وكفّتها الأخـرى رجـاء رحمة الله وغفرانه ، وذلك من

---

(1) المصدر.
(2) المصدر.

خلال تعريفه باسـمين لربه من أهمّ ما ينبغي له التعـرّف عليهما .. فلا يسترسل مع الرجـاء المفـرط ، ولا يصـير فريسة للقنوط.

(**وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**)

يأخذ بعزّته العاصـين المـذنبين ، ويغفر لمن يتـوب ، فمن أحسن العمل غفر له ، ومن أسـاء عذّبـه. ثم إنّنا نهتدي من هذه الخاتمة أنّ للابتلاء هدفا آخر غير اسـتظهار معدن الناس ، وهو الجزاء.

[3 ـ 4] ثم تأخذ الآيـات بأبصـارنا وبصـائرنا إلى بـديع خلقه الكائنـات ، فإنّنا إذا أمعنا النظر فيها والقينا نظـرة إلى السـماء الـتي تمتد مـدى أبعد من أدق النواظـير وأعظمها الـتي اخترعها الإنسـان بما لا يقـدر بشر على تخيّله .. وأعظم من حجم السـماوات ذلك النظـام المتنـاهي في الدقة الـذي يحكمها على ما فيها من المنظومات والمجرات الهائلة ، فسنقرأ في الآفاق أسماء ربنا الجليل. إنّ التفكر في خلق الله يوقف الإنسـان أمـام حقيقة بديعة هي متانة الحق والتـدبير في كـلّ مفـردات الكون وأجزائه ، والنظرة السليمة التي ينبغي أن نسـلكها ليست التي تقف بنا عند ظواهر الأشياء ، بل الـتي تحملنا من الظاهر المشهود إلى الباطن المحجوب ، ومن معرفة المخلوق إلى معرفة الخالق الذي أنشأه وأبـدع له النظـام الذي يسير عليه.

(**الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً**)

قـالوا : يعـني بعضـها فـوق بعض ، كما قـال الله : (**لَتَـرْكَبُنَّ طَبَقـاً عَنْ طَبَـقٍ**) [1] ويبـدو أنّ التطـابق هنا بمعـنى الدقة في التكامل والتناسق ، من بـاب المطابقة والموافقة ضد التناقض والتنافر ، وإن دلّ ذلك على شيء فإنّما يدلّ على دقة

(1) الإنشقاق / 19.

النظام الحـاكم في الكـون ومـدى قـدرة خالقه وعظمته ، فإنّك مهما بحثت وأجهـدت نفسك فلن تجد ثغـرة ولا عيبا في خلق الله.

(**ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ**)

أي ثغرات وتناقضات ، فإنّ التفاوت بمعنى الاختلاف ، والاختلاف يعـني التنـاقض ، قـال تعـالى : (**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُـرْآنَ وَلَـوْ كـانَ مِنْ عِنْـدِ غَيْـرِ اللـهِ لَوَجَـدُوا فِيـهِ اخْتِلافـاً كَثِـيراً**) [1] وقد ذكر اسم «الــرحمن» هنا عند الحــديث عن نظــام الخليقة لأنّ ذلك من أعظم تجلّيـات رحمته عزّ وجلّ. أترى لو كان النظام الكـوني متناقضا هل كـانت الحيـاة ممكنة أو ميسّـرة؟! كلّا .. وإنّنا مهما تفكرنا في الخلائق فإنّنا نجدها محكومة بنظــام التكامل المتقن ، فالشـمس تختلف عن القمر ولكنّ أحـدهما يكمل مسـيرة الآخرة ، بل يقوم بـدور محـدّد بحيث لا تنتظم مسـيرته إلّا به ، بلى. قد نزعم أنّهما متناقضان لأنّ أحدهما (الشمس) نار مشتعلة والآخر (القمر) نـور هـادئ ولكنّ أحـدهما وجه للثاني.

واللطيف في التعبير القرآني عند هذه الآية أنّه حــدّثنا في المطلع عن الســـماوات الســبع ، ولكنّه عند ما نفى وجود التناقض نفاه عن كـلّ خلق الله ، وذلك أنّ الإنسـان قد يسـلّم بـأنّ خلقا من خلقه تعـالى كالسـماوات محكم ومتقن ، ولكنّه يشك في وجود هذه الحقيقة عند ما يتفكّر في خلق آخر ، فإذا به يتساءل : ولمـاذا خلق الله الـذباب والميكروبات المهلكة؟ لماذا الزلازل التي يـذهب ضـحيتها الألوف من البشر؟

ولكنّ عليه أوّلا : أن يقيس ما يعرفه من خلق البشر بما لا يعرفه ، وثانيا : أن يعــالج شــكّه بــاليقين ، فلا يسترسل مع وســاوس الشــيطان ، بل يظل باحثا عن الحقيقة حتى يكتشفها. لذلك يأتي الخطاب الإلهي الكـريم يدعو كلّ فرد فرد من أبناء

---

(1) النساء / 82.

البشر للنظر والتفكر في خلق الله ، ودراسة الظـــــواهر المختلفة ، لأنّنا كلنا مســـــــــــئولون عن معرفة الحقيقة والوصول إلى درجة اليقين من الإيمان بالله ، ويقول :

(**فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ**)

وإلى جـانب البصر ينبغي أن يعمل الإنسـان بصـيرته أيضا ، فإنّ العين نافذة القلب على الحيـاة. ولعـلّ الفـرق بين كلمتي «تفاوت وفطور» أنّ التفـاوت يكـون بين خلق وخلق آخر ، وهو منفي لأنّ كـلّ خلائق الله يكمل بعضـها بعضا فهي منسـجمة مع بعضـها ، أمّا الفطـور فيكـون في ذات الخلق الواحد بين أجزائه ، وليس في خلق من خلقه تعالى ثغرة.

وإنّه لعجيب قـول ذلك الـدكتور الألمـاني بخـنر : «بما أنّنا لم نجد ظاهرة واحدة في هذا الكون الرحيب من أبعد نقطة اكتشـفناها في الفضـاء وإلى أقـرب جـرم إلينا ، لم نجـدها شـاذّة عن النظـام الكـوني ، فليس لنا الحاجة إلى افتراض وجود الله» [1]. سـبحان الله كيف عمي قلبه ولم يعرف أنّ وجـود النظـام دليل على من نظّمه وهيمن على إجرائه؟!

نعم لو ثمّة تنـاقض أو تنـافر في نظـام الكـون لأمكن افـتراض أنّ الصـدفة هي الـتي أوجدته ، أو أنّ هنـاك آلهة متعددة شركاء في الربوبية يتناقض الكون بتنـاقض آرائهم وتـــدبيرهم ، ولكنّنا لا نــرى شــيئا من ذلك ، فما هي إلّا حقيقة التوحيد الخالص إذن. وليست مشكلة الدكتور بخنر إلّا واحدا من أمرين : فامّا أن يكون جاحدا معانـدا لم يـرد التسـليم للحق ، وامّا أنّ يكـون قد أخطأ في منهج البحث والدراسة لظواهر الكــون ، بحيث أنّه جعل المزايا العلمية المجردة هدفا من بحثه فلمّا وجـدها توقّف عنـدها ، وهـذا خلاف المنهج السليم الذي يأمر به العقل والدين

---

(1) الفكر الإسلامي مواجهة حضارية ـ للمؤلّف / ص 188.

والذي يدعو إلى تجاوز ظواهر الأمور إلى بواطنها.

إنّ الإنسان لا يستطيع أن يصنع شـيئا إلّا وفيه ثغـرة ، ولكنّك لا تجد ولا بعضا من فطــــور في خلق الله ، وأنّى يكــون ذلك وهو الــرحمن ، الــذي لا يريد لخلقه عنــاء ولا نصــبا؟ أتــرى لو كــانت الشــمس تتغــير من موقعها هل نستطيع العيش على هذا الكوكب؟! وهل يمكن لنا الحيـاة على الأرض لو انعـــدم الأوكســـجين أو تلاشى قـــانون الجاذبيــة؟! كلّا .. إذن فــذلك من رحمة خالقنا وتلطّفه بنا سبحانه.

بلى. قد ينظر الإنســـــان إلى خلق الله ويتفكر فيه فيزعم أنّ وجود اللوزتين ـ مثلا ـ ثغره في خلق الإنسان ، الأمر الذي دعا بعضهم قبل سنين معدودات إلى اقتلاعهما بعيد الــولادة! أو يســمّي عضــوا داخله بالزائــدة الدودية ، وتسود هــذه الأفكــار بين النــاس بل في الأوســاط العلمية أيضا ردحا من الزمن ، ولكنّه بعد أن يتقــدم العلم يكتشف خلاف تلك المـــزاعم ، ويتـــبيّن له أنّ اعتقاداته الســـابقة كانت ظنونا سببها الجهل والتسرّع في الحكم. لذلك يدعو القرآن للتفكر والنظر في الأمور بإمعان مرّات عديدة :

(**ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ**)

وأكثر من ذلك ، وابحث بكــلّ ما تسـتطيع عن تنـاقض وثغرات في خلق الله ، بل افترضه ذلك ثم حاول أن تثبت وجــوده ، فهل ســتجد إلى ذلك ســبيلا؟ كلّا .. وإنّما ستصل إلى حقيقة واحدة هي التي أشار إليها القــرآن : (**ما تَـرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ**) عند تفكرك في أيّ خلق من خلقه تعالى ، حتى.

(**يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ**)

والخاسئ المطرود المبعد ، وتقال هذه الكلمة للكلب والخنزير ، قال صاحب

المنجد : الخاسئ من الخنازير والكلاب المبعد المطـرود ، لا يترك أن يدنو من الناس [1] وكـانّ الإنسـان حينما يجـول ببصـره يبحث عن عيب في خلق الله يطـرد بلسـان حـال الخلائق ، وكأنّها تقول له : إخسأ إنّنا خلق الرحمن الحكيم العليم فلن تجد فينا نقصا ، حيث يقـــال خسأ وخســـوء البصر : كـلّ وأعيا [2] ، وهـذا المعـنى قـريب أيضا لأنّ البـاحث سـوف يتعب ويشـقى دون العثـور على عيب ، وكيف يعثر على شـيء ليس بموجـود؟! ويؤيّد هـذا القـول قوله تعالى : (**يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَـرُ**) فهو يتعب ويكـلّ من النظر إلى الخلائق فلا يعـود إلى ذلك مـرّة أخـرى .. بل يرجع صاحبه منهكا دون نتيجة.

أمّا الحســـير فقيل : المحقّر ، وقيل : من اشـــتدت حسرته وندامته على أمر فاته [3] ، وهما محتملان الصحّة .. وهناك معنى قريب جدا من الآية هو العاري من الحسّـر : الرجّالة في الحرب يحسرون عن وجـوههم ورؤوسـهم ، أو يكونـون لا درع عليهم ، ويقـال : أرض عارية المحاسر أي لا نبات فيها [4] وإنّ الإنسان ليعود ببصره وبصـيرته من رحلة البحث عن التفـاوت أو الفطـور في خلق الله وهما مجرّدان عاريان من أيّ دلالة ونتيجة تثبت ذلك.

قال أمير المؤمنين (ع): «**فمن فـرّغ قلبه ، وأعمل فكــــــره ، ليعلم كيف أقمت عرشك ، وكيف ذرأت خلقك ، وكيف علّقت في الهـواء سـماواتك ، وكيف مددت على مور المـاء أرضك ، رجع طرفه حسـيرا ، وعقله مبهورا ، وسمعه والها ، وفكره حائرا**» [5].

---

(1) المنجد مادة خسا.
(2) المصدر.
(3) المصدر ـ مادة حسر.
(4) المصدر.
(5) نهج البلاغة خ 160 ص 225.

ولنا في الآية الرابعة وقفة عند معنى «كرّتين» ، فلما ذا قال الله : «ثم ارجع البصر كرّتين»؟ والإجابة :

1 ـ للتأكيد على ضـرورة أن يركّز الإنسـان في بحثه ودراسته ، فلا يحكم على شيء من نظرة واحدة عـابرة ، إنّما يجب أن يدرس أموره مـرّات عديـدة ثم يقـول رأيه ، فقد يكـــون في مرّته الأولى غفل عن بعض الجـــوانب والمعطيات ، أو لم يفكر تفكيرا كافيا.

2 ـ إنّ المعرفة السليمة قد لا تتـأتّى إلّا بالمقارنة بين الأشياء ، فينبغي للدارس أن يراجع ببصره وفكره مرتين ، مـــرة يرجع إلى ما يريد معرفته والتحقيق في شـــأنه ، وأخرى يرجع إلى ما يشابهه أو يناقضه للمقارنة.

3 ـ إنّ دراسة الشـــيء دراسة شـــاملة تتم بدراسة جانبين فيه : الجانب المـادي الظـاهر ، والجـانب المعنـوي البـاطن ، ويحتـاج البـاحث أن يكـرّ مـرّة ببصـره لملاحظة الجانب الأوّل ، وكـرّة أخـرى يرجع بها إلى الجـانب الثـاني منه.

4 ـ لكي يرقى الإنسان في معارفه سلّم التكامل فهو بحاجة إلى إعـادة النظر في ما توصّـل إليه سـابقا بهـدف نقده أو تكميله من خلال نظـرة تفكّر جديـدة ، لا حقة بعد السابقة وهكذا.

[5] وممّا يؤكّد حاجة الإنســان إلى إعــادة النظر في معارفه أنّ هنـاك جملة من الأفكـار والإعتقـادات الخاطئة (الأساطير) ينطوي عليها فكره لا تتصحح إلّا بكرّات أخرى جديـــدة يرجع فيها البصر والبصــيرة ، ومن بينها تصــوّره المتصل بنظام السماء أنّه فيه ثغرات تنفذ منها الشياطين إلى الملأ الأعلى فتطّلع على أقـــدار الله ، وزعمه بـــأنّ النجوم هي مراكز الأقـدار وأنّ لكـلّ فـرد نجما يخصّـه إذا مات سقط ، وعلى ذلك

فسّروا ظاهرة الشهب والنيازك ، ومضى القـول : (نجمي لا يوافق نجمــك). والقــرآن يشــير إلى تلك التصــوّرات ويصححها حين يقول تبارك وتعالى :

(**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ**)

وهي النجوم التي تعتبر لأهل الأرض قناديل الليل ، إذ تهتـدي بها السـفن الـتي أضـلّتها العواصف عن مسـارها وتضـيء درب الـراعي السـاري بغنيماته ليلا في صـحراء بعيـدة ، كما تنـاغي المسـتلقي تحت السـماء في الليـالي الصـــــــــافية. ولكنّ متانة الخلقة تربط بين تلك الزينة والإضاءة وبين حراسة السماء في تلك النجـوم ، فهي كما تـــزيّن الســـماء وتضـــيء لأهل الأرض كـــذلك تقصف الشياطين رجما فلا يستطيعون العبث بمقـدّرات الكـون ، ولا حتى استراق السمع لمعرفة تلك المقدّرات.

(**وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ**)

وهذه الآية تنسف زعم الجاهلين بأنّ الشياطين قــوى خارقة وعالمة بأقـدار الله لأنّها تخـترق السـماوات وتصل إلى الأعلى ، الأمر الـــــذي جعل البعض يشـــــرك بهم ، ويتبعـون الكهنة باعتبـارهم وسـائط بين الشـياطين وبين الآدمـيين ، فـإنّ النجـوم ليس كما يتصـوّرون بل هي زينة ومصـابيح ورجـوم ، وإنّ الشـياطين ليسـوا كـذلك لأنّهم يرجمون.

ولعلّ هذه الآية تؤكّد متانة النظام الكوني وهيمنة الله من زاويتين :

الأولى : أنّ ما نــراه من الشــهب والنيــازك ليست مجرّد قطع تنفصل عن مدار بعض النجوم والشـموس في الفضـــاء نتيجة عوامل وقـــوانين فيزيائية بحتة ومن دون هــدف ، إنّما تنفلت من مواقعها بـــإرادة الله ولأهــداف محدّدة من بينها رجم الشياطين.

الثانية : أنّ النظام الكوني نظـام متقن ، وهو بـالرغم من وجود العوامل المضادة التي تحاول خرقه كالشياطين فإنّها لا تؤثّر في مسيرته ونظمه ، وأنّ مصـير كـلّ محاولة لخرقه هو الفشـــل. وهـــذه الحقيقة تعطي الإنســـان الاطمئنـان والأمن حيث يشـعر أنّه يعيش في كـون منظّم ومحروس.

ويؤكّد ربّنا في خاتمة الآية بأنّ ما هو أعظم من جـزاء الرجم الدنيوي للشياطين هو ذلك العـذاب المعـدّ لهم في الآخرة.

(**وَأَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ**)

ويـــدلّ هـــذا المقطع على أنّ الشـــياطين مخلوقـــات مكلّفة ومختارة ومسئولة حيث تجري عليهم سنّة الجزاء.

[6] وبعد أن انتهى الفصل الأوّل الـذي اسـتهدف زرع الخشـية من الله بـالغيب من خلال معرفته بالشـهود ومن خلال تعريفه نفسه بالآيـات ، يبـدأ السـياق القـرآني فصلا آخر لا ينفـكّ عن الأوّل ، بل يلتقي معه في ذات الهـدف ، حيث تـــذّكرنا الآيـــات التالية بعـــذاب جهنّم وجـــزاء الله للكافرين.

(**وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ**)

إنّ الكفر بالله من قبل الإنســــــان هو الآخر كعمل الشياطين خرق لنظم الله ممّا يسـتوجب العـذاب. ولهـذه الآية صـلة متينة بالآية الثانية في السـورة الـتي بيّنت بـأنّ حكمة الخلق اسـتظهار معـدن الإنسـان بـالابتلاء ، والكفر والعذاب صورة لفشل الإنسـان في القيـام بـدوره وواجبه الذي خلق من أجله ، فيتردّى في الجحيم.

(**وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**)

والمصـير من الصـيرورة أي ما يصـيّر الإنسـان نفسه إليه.

ويلاحظ في هـــــذه الســــورة تأكيد الله على اسم الـرحمن أربع مـرّات (في الآية الثالثة ، والتاسـعة عشر ، والعشرين ، والتاسـعة والعشـرين) ، وكأنّه تعـالى يريد أن يؤكّد بأنّه إنّما خلقنا ليرحمنا لا ليعــذّبنا ولكنّنا نحن الــذين نختار العذاب لأنفسنا بإرادتنا حينما نكفر به ، فانّ ما يصير إليه الإنسـان من العقـاب نتيجة كفـره لا لأنّ الله سـبحانه يريد له بئس المصير .. وبمـاذا يكفر ويمـارس الكفـر؟ إنّه يكفر بخالقه ورازقه وواهبه الحيـــــاة وكــــلّ ما يملك ، ويمارس عنـاده له بنعمه .. بنعمة المـال والقـوة والصـحة والســمع والبصر و.. و..! ولعــلّ هــذا ما تــوحي به كلمة «بربّهم» أي به وبوسيلة نعمه.

[7 ـ 9] ويفصّل القـرآن القـول في موضـوع العـذاب مبيّنا بعض صفات جهنّم وأحوال أصحابها حينما يلقون فيها ، لعلّنا نتحسس ذلك الغيب ، ونخشى ســطوة الله .. فما هي صفات جهنم؟

أوّل صفة لها أنّها ـ كما الحفرة أو الـوادي ـ ذات قعر سحيق ، وقد يكـون أوّل عـذاب يواجهه أهل جهنم فيها هو الإلقـاء من الأعلى إلى الأسـفل ، فعن الإمـام الصـادق ـ عليه السلام ـ عن الرسـول ـ صـلّى الله عليه وآله ـ عن جبرئيل قال :

«**وإنّ جهنّم إذا دخلوها هــــووا فيها مســـــيرة سبعين عاما**» [1] ويعلم الله كم هم يقاسـون في هـويهم من ألوان العذاب؟!

(**إِذا أُلْقُوا فِيها**)

وبنــاء الفعل هنا للمجهــول يــدلّ على أنّهم يلقــون مكرهين في النار ، وفي

(1) نور الثقلين / ج 3 ـ ص 477.

النصـوص إشـارة إلى ذلك ، قـال الإمـام الصـادق ــ عليه السلام ـ : «**والذي نفسي بيـده إنّهم يسـتكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط**» [1].

(**سَمِعُوا لَها شَهِيقاً**)

ومن أنواع العذاب ما يسـمعه الكـافرون حين هو يهم في جهنم من عظم شهيقها. والشهيق هو أخذ الهـواء إلى داخل الرئة ، وكـأنّ النـار يومئذ تعطى قـدرة هائلة على الجـذب فتسـحبهم إلى جوفها بشـهيق ذي صـوت مـرعب أعظم بملايين المرّات من الرعد القاصف.

وصفة ثالثة لجهنم أنّها تفور.

(**وَهِيَ تَفُورُ**)

وللفوران معنيـان : أحـدهما : الغليـان بارتفـاع ما في الإناء لشدّة الحرارة ، وفي المنجد : (فـارت القـدر : غلت وارتفع ما فيهـا) [2] وجهنم يومئذ تتـداخل ألسـنتها وتتمـوّج بما يشبه فوران الماء في القدر لشدّة حرارتها ، والثاني : الغضب ، ويقال : فار فائره أي ثـار ثـائره وهـاج غضـبه [3] وكلا المعنـيين مجتمعـان في هـذه الكلمة القرآنية ، فـإنّ النار يومئذ تفور كالقدر غضبا.

(**تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ**)

إنّها أعظم من ملايين القنابل النووية التي تنفجر مرّة واحدة ، حتى تكاد

(1) نور الثقلين / ج 4 ـ ص 8 نقلا عن مجمع البيان.

(2) المنجد مادة فور.

(3) المصدر.

تنفجر ويمتاز بعضها عن بعض لو لا مشيئة الله! والغيظ الذي يكاد يفجّرها هو انعكاس لغضب الله على الكافرين في واقع جهنم ، والآية توحي بأنّ النار لها شعور يوم القيامة ، وليس من شيء يدعوها للغيظ أعظم من عصيان أصحابها لربّهم عزّ وجل!

ويأبى الله سبحانه إلّا أن يظهر عدالته حتى لأولئك الذين تسير بهم الأقدار إلى قعر جهنم فإذا بملائكته يسألونهم عن سبب وصولهم إلى هذا المصير البئيس ، لكي لا يدخل النار أحد وفي قلبه ذرّة من شك بأنّه سبحانه قد ظلمه ، ولكي يصير أهل النار إلى العذاب وهم في أعظم ما تكون الملامة لأنفسهم على ما فرّطوا في جنب الله وفي الإعداد لتلك الدار الاخر.

(**كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ**)

يحذّركم من معصية الله ومن هذه النار.

(**قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ**)

فالحجة إذن بالغة عليهم ، وأسباب الهداية إلى الحق والوقاية من العذاب وأهمّها المنذر والإنذار كانت متوافرة. فعن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ أنّه سأله رجل : لأيّ شيء بعث الله الأنبياء والرسل إلى الناس؟ فقال : «(**لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**) ، ولئلّا يقولوا ما جاءنا من بشير ونذير ، وليكونوا حجة الله عليهم. ألا تسمع الله عزّ وجلّ يقول حكاية عن خزنة جهنم ، واحتجاجهم على أهل النار بالأنبياء والرسل : الآيتين» [1].

وحيث انتفى التقصير عن الله المعذب ثبت على الطرف الآخر وهم الكافرون

---

(1) نور الثقلين ج 5 ـ ص 381.

المعــذبون ، فما هو خطــؤهم الفظيع الــذي أدّى بهم إلى بئس المصير؟ إنّه التكذيب بالنذر.

(**فَكَذَّبْنا وَقُلْنا ما نَزَّلَ اللـهُ مِنْ شَـيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ**)

وفي الآية بيان لثلاثة ذنوب كبيرة أقدم عليها الكفّار :

الأول : تكـــذيبهم الحق في داخل أنفســـهم وعـــدم استجابتهم له.

الثـــاني : أنّهم بـــادروا للهجـــوم المضـــاد ضد القيم الرسـالية الـتي جـاء بها المرسـلون وأئمة الحق محـاولين سـحب الشـرعية (أنّها من عند اللـه) عنها ، بتصـنيفها في خانة القيم البشـــرية للتحلّل من مســئولية الالــتزام بها ، وذلك أنّ الملزم للإنسان هو الحق الذي يتصل بالله فقط.

الثـالث : اتهـام النـذر المصـلحين بـألوان التهم في محاولة لإسقاط شخصيتهم وضرب قيادتهم في المجتمع ، ومن أبرزها اتهـامهم بالضـلالة من خلال قيمهم الفاسـدة وثقافتهم الخاطئة.

وكلمة «قلنــا» تــدل على أنّهم يحــاربون الرســالات والقيادات الرسالية بالإعلام المضلل الـذي يحكي ثقـافتهم ومواقفهم الجاهلية ، والإنسان قـادر على القـول للآخـرين والتعبير عمّا يريد بوسائل شتى ، كاللسان والفن و..

[10 ـ 11] وغاب عن الكفّار أنّهم هم الضـالون ، وأنّ ورائهم يوما تنتصر فيه الحقيقة وتظهر رغم أنف أعـدائها ، يوما يفصل فيه القـــول ، ويخسر هنالك المبطلــون ، يوما يشهد فيه الإنسان على نفسه ويعترف بذنبه.

(**وَقالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ**)

فالإنسان إذن يحـدّد موقفه ومصـيره في الـدنيا ، فهو الــذي يختــار الحق أو الباطل ، وينتمي إلى حــزب الله أو حزب الشـيطان ، وبالتـالي يسـلك طريق الجنة أو النـار ، وهــذه الحقيقة تكــون في أجلى صــورها يــوم القيامة إذ يلاقي كلّ واحد مصيره الـذي هو نتيجة مباشـرة لاختيـاره وعمله في الدنيا ، وكفى بهـذا البيـان الإلهي داعيا للنـاس إلى التفكر في مستقبلهم الأبدي.

وفي هذه الآية إشارة لطيفة تتصل بمعارف الإنسان ، فهو إمّا يكــون تابعا لعاقل فيســمع منه ، وإمّا أن يكــون بنفسه قــادرا على الاهتــداء إلى الحق والاجتهــاد في المعرفة فيعقل ، وإمّا أن يكون ضالا كهؤلاء الكفّـار الـذين ما كانوا يسمعون ولا يعقلـون ، بعلمهم بهـذه الحقيقة في الدنيا وباعترافهم بها في الآخرة. وإشارة أخرى تهدينا إلى أنّهم كـانوا شـيئيين يقيّمـون الأمـور بالمظـاهر المادية ، فكأنّهم يعيشـون في الـدنيا بأبصـارهم فقط وبطـونهم و.. أمّا الأســماع والعقــول فإنّها معطّلة ، والحــال أنّ قيمة الإنسـان بعقله .. ولو أنّهم كـانوا يسـتفيدون من عقـولهم لما ضـلّوا ، لأنّ العقل يوافق الحق (100 خ) قـال الإمـام الصادق ـ عليه السلام ـ : «من كـان عـاقلا كـان له دين ، ومن كان له دين دخل الجنة» [1] وقال ـ عليه السـلام ـ : «العقل ما عبد به الرحمن ، واكتسب به الجنان» [2] وقال الإمـام علي ـ عليه السـلام ـ : «هبط جبرئيل على آدم ـ عليه السلام ـ فقال : يا آدم إنّي أمرت أن أخـيرك واحـدة من ثلاث فاخترها ودع اثنــتين ، فقــال له آدم : يا جبرئيل وما الثلاث؟ فقـال : العقل والحيـاء والـدين ، فقـال آدم ـ عليه السـلام ـ : إني قد اخــترت العقل ، فقــال جبرئيل للحياء وللدين : انصرفا ودعاه ، فقـالا : يا جبرئيل إنّا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان ، قال : فشأنكما ، وعـرج» [3] وقال رسول الله

(1) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 382.
(2) المصدر.
(3) المصدر.

ـ صلّى الله عليه وآله ـ : «**إنّما يرتفع العباد غدا في الدرجات وينالون الزلفى من ربّهم على قدر عقولهم**» [1] وما كان الكفار يعقلون فهم لا ينالون شيئا ، بل يتسافلون في دركات العذاب. وإنّ إغفال الإنسان لدور العقل لهو أعظم الذنوب ، لأنّه الذي تتفرّع عنه كل معصية وخطيئة ، وهذا ما يكتشفه أهل النار يوم القيامة.

(**فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ**)

وكيف لا يعترف البشر لله بذنبه وله الحجّة البالغة عليه ، وكلّ شيء يشهد عليه حتى جوارحه؟! وربما نهتدي من كلمة «فاعترفوا» ـ بإضافة إيحاءات السياق ـ أنّ الكفّار يرفضون الحق وهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنّهم يختارون الباطل إلّا أنّهم لا يعترفون بذلك في الدنيا.

(**فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ**)

أي ليكن جزاؤهم أن يسحقوا بالعذاب وبالأقدام ، والسحق : هو دق الشيء أشدّ الدق [2] حتى يصير جزئيات صغيرة في مثل الرمل والطحين أو أنعم من ذلك ، وقيل : هو الإبعاد عن رحمة الله [3] والمعنيان متحدان لأنّ السحق في الآخرة بالمعنى الأوّل نتيجة لطرد الله الكافر من رحمته.

[12 ـ 14] ويصل السياق إلى محور السورة حيث التأكيد على خشية الله بالغيب ، فإنّ الآيات التي عرّفتنا على جانب من عظمة ربنا في مطلع السورة ، وهكذا التي حدثتنا عن عذاب الكافرين وبعض أحوالهم يوم القيامة ، وكذلك بقية الآيات حتى خاتمة سورة الملك والتي تنسف أفكار الشرك بالله ومزاعم المشركين ..

---

(1) المصدر.
(2) المنجد / مادة سحق.
(3) المصدر.

إنّها كلّها تهدف رفعنا إلى مستوى خشية ربنا بالغيب.

(**إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ**)

لما سبقت منهم من سيئات وخطيئات.

(**وَأَجْرٌ كَبِيرٌ**)

وذلك لأنّ خشـية الله بـالغيب من الحسـنات الكبـيرة التي تذهب السيئات وتضـاعف الصـالحات. فما هو معـنى الخشية بالغيب؟

الجـــواب إنّها خـــوف الله بالمعرفة الإيمانية ، وليس نتيجة العوامل المادية الـــتي يعانيها الإنســـان ، ويلمس آثارها في الــدنيا .. فتــارة يلــتزم الواحد منّا بأحكــام الله ويطبّق رسالته لأنّ الحكم بيد أوليائه الذين يجرون حدوده وأحكامه ، فهو لا يقدم على السرقة ولا الزنى لأنّ الحاكم ســوف يقطع يــده ويجلــده أو يرجمه بالحجــارة ، وتــارة يستجيب لله لمعرفته وإيمانه بالآخرة ، وأنّه تعـالى يعـذّب العصـاة بالنـار ، فـإذا بـذلك العامل الغيـبي الـذي لا يـراه ببصـره ولكنّه يعاينه ببصـيرته يعكس الخـوف من الله في كلّ كيانه.

ومن المعــارف الــتي تبعث في النفس روح الخشــية من الله هي معرفة الإنسـان برقابته المطلقة تعـالى على كــلّ شــيء وعلمه به ، لا فــرق بالنســبة إليه بين الســرّ والجهر ، لأنّ هــذه المعرفة تجعل من الغيب حاضــرا في وعي البشر وسلوكه.

(**وَأَسِـرُّوا قَـوْلَكُمْ أَوِ اجْهَـرُوا بِـهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِـذاتِ الصُّدُورِ**)

أي مطّلع على النوايا الباطنية الـــتي تنطـــوي عليها نفوس الناس ، وتصـدر عنها الأقـوال والأفعـال في مرحلة متأخرّة عن تكوّنها. وهذا المستوى من المعرفة إذا سمى

إليه الإنسـان فإنّه ليس لا يقـترف الـذنب في المجتمع ولا بعيـدا عن أعين النـاس وحسب ، بل لا ينجس صـدره بنية سوء أبدا ، لأنّها هي الأخرى يعلمها الله. وهذه أكبر ضمانة للالتزام بالنظام ، وقد أثبتت الإحصاءات أنّ ثمانين بالمائة من حوادث الاجرام التي تقع في العالم ناشئة من اعتقـاد المجـرم بأنّه قـادر على الفلت من الرقابة والجـزاء ، لأنّ الحـاكم مهما بلغ فهو بشر مثله محـدود القـدرات اطّلاعا ومجـــازاة ، ولكن هل يصـــدق ذلك بالنســـبة إلى الله سبحانه؟ كلّا .. والقرآن ينسف أدنى تصوّر بهذا الاتجـاه إذ يقول متسائلا :

(**أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ**)

الذي ينفذ علمه إلى أدقّ الأشياء وأخفاها.

(**الْخَبِيرُ**)

العالم علما شاملا وكاملا بخلقه ، وإذا كان الخبير من البشر يعلم بدقائق ما يصنعه من الأجهـزة فكيف بالخـالق المطلق العلم؟! إذن فلا تحـاول أيّها الإنسـان أن تخـادع نفسك ، ولا تسمع لنـداء الشـيطان الـذي يحـاول تغريـرك والإيحاء لك بأنّك بعيد عن الأنظار فتمارس الخطيئة.

وهناك رواية في معـنى «الخبـير» مـأثورة عن الإمـام علي بن موسى الرضا ـ عليه السـلام ـ : «**وأمّا الخبـير فالذي لا يعـزب عنه شـيء ولا يفوته ، ليس للتجربة وللاعتبار بالأشـياء ، فعند التجربة والإعتبـار علمـان لولاهما ما علم ، لأنّ من كان كذلك كان جاهلا (قبل العلم ومحـدود المعرفـة) ، والله لم يـزل خبـيرا بما يخلق ، والخبـــير من النـــاس المســـتخبر عن جهل المتعلّم ، فقد جمعنا الاسم واختلف**

المعنى» [1] فنقول : أنّ الله خبير كما نقـول أنّ فلانا من الناس خبـير ، فالتسـمية واحـدة ، ولكنّ معـنى خـبرة الله يختلف عن معنى خبرة الناس.

(1) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 383.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15) أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذا هِيَ تَمُورُ (16) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (17) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ

---

15 [ذلولا] : سهلة ، مسخّرة للبناء والزرع ودفن الأموات والسير وإجراء الأنهر والقنوات وغيرها .. من ذلّ بمعنى خضع ولان.
[مناكبها] : أي ظهورها وطرقها ، ومنكب كلّ شيء أعلاه ، وأصله الجانب ، ومنه منكب الرجل والريح النكباء.
[النشور] : الحياة بعد الموت ، وأصله من النشر ضد الطّي.
16 [تمور] : تضطرب وتموج.
17 [حاصبا] : الحاصب الحجارة التي يرمى بها كالحصاء ، وحصبه بالحصاء إذا رماه بها.

كانَ نَكِيرِ (18) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (19) أَمَّنْ هذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ إِنِ الْكافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ (20) أَمَّنْ هذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (21) أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (22) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (23) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (25) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (26)

---

18 [نكير] : أي إنكاري عليهم حيث عذّبوا بألوان العذاب من غرق وخسف وحصب وغيرها.
21 [لجّوا] : استمرّوا في اللجاج والمخالفة.
[عتوّ] : تعدّ عن الحق.
24 [ذرأكم] : أي خلقكم بالتناسل والتوالد.

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِــهِ تَــدَّعُونَ (27) قُــلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللــهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنا فَمَنْ يُجِــيرُ الْكــافِرِينَ مِنْ عَــذابٍ أَلِيمٍ (28) قُــلْ هُــوَ الــرَّحْمنُ آمَنَّا بِــهِ وَعَلَيْــهِ تَوَكَّلْناً فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (29) قُــلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمــاءٍ مَعِينٍ (30))

27 [زلفة] : قريبا.
[تدّعون] : تطلبون وتستعجلون ، من الدعاء ، وقالوا : تدعون وتــدّعون بمعنى واحد.
30 [غورا] : غائر في أعماق الأرض لا يتمكّن الإنسان من إخراجه.
[معين] : ظاهر للعيون ، أو بمعنى جار سهل التناول.

إِنِ الْكافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ

هدى من الآيات :

إنّ الفلسـفات الشـركية الـتي تربط ظـواهر الكـون ونظمه بالقوى المزعومة من دون الله هي المسؤولة عن مشي الإنسان مكبّا على وجهه ، ضـالا عن الحقيقة ، وهي التي تحجب عنه نـور الخشـية من ربّه ، وتصـنع في نفسه هالة من الأمن والاطمئنـان الكـاذب ، الأمر الـذي يسـوقه نحو ممارسة المعصية ومخالفة النظام الحق دون وازع أو ضابط ، ويسقط من عنده قيم الشرائع والعهود. أو ليست الخشية روح الالتزام بالنظام؟

بلى. إنّ الشـرك والإعتقـاد بالأنـداد هو الـذي يـترك الإنسان لا مسـئولا ، فـإذا به لا يخشى من مخالفة الحق ، ولا يـرى ضـرورة للشـكر على النعم ، لأنّه يـزعم أنّ الله خلق الوجود وقدّر نظامه ثم فـوّض إلى النـاس أمـورهم ، أو فوّضه إلى الأنداد ثم اعتزل ، أو أنّ هناك قوى الشركاء التي تنصرهم من دونه تعالى فتقاوم قدرته

ومشيئته سبحانه ، فإذا منع رزقه عنهم رزقتهم ، وإذا غـار مـاؤهم جـاءتهم بمـاء معين غـيره .. ويعـالج القـرآن هـذا الضلال (الغرور والعتو والنفور) ببصيرتين :

الأولى : بصـيرة التوحيد ، وأنّ الله وحـده الـذي بيـده الأمر والقدرة التامة ، ويذكّر القرآن بهذه الحقيقة بصـورة تكون فيها آيات الدرس الأخـير من سـورة الملك تفسـيرا لآية محورية في السـورة هي الآية الأولى : (**تَبـارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)».

الثانية : حقيقة البعث والجـزاء ، ذلك أنّ جـزء كبـيرا من شـرك الإنسـان وعـدم إحساسه بالمسـؤولية نتيجة لكفره بـالآخرة أو شـكّه فيها ، فلا بد أن يعلم بأنّه منشـور محشور. وعند ما يـذكّر القـرآن بهـذه الحقيقة يعيـدنا إلى آية محورية أخرى في السورة هي الآية الثانية : (**لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**).

بينات من الآيات :

[15] لم يكن الناس يعرفون في عصر نـزول القـرآن أبعـاد نعمة الحيـاة على الأرض كما يعرفـون اليـوم ، وأنّ الأرض تختلف من جهات كثيرة عن سائر الكواكب الأخرى من حيث القـوانين الطبيعية الـتي تحكمها ، فجـاء القـرآن ليفتح أفقهم على معرفة هامة وهي : أنّ الكـوكب الـذي يعيش على وجهه كسائر الكواكب الأخرى يشبه كرة تدور في هـذا الفضـاء الـرحب ولكنّه يختلف عنها في كونه مهيّأ من جميع الجوانب لحياته عليه. وكان حريّ بالإنسـان وهو ينشد غزو الفضاء وركوب الكواكب الأخرى أن ينطلق من هذه الآية الكريمة.

أمّا هدف القـرآن من بيـان هـذه المـيزة للأرض الـتي نعيش فوقها فليس أن يضـيف إلى العلم معرفة وحسب ، بل هنالك هدف أبعد من ذلك .. ومن دونه لا

تكــون معــارف البشر ذات قيمة حقيقية ، ألا وهو تعريفه بربه ، فإنّه لو تفكّر مليّا لعــرف أنّ توفــير الأرض لحيــاة البشر آية من آياته عــزّ وجــل. بلى. ربما يفكّر البعض في ذلك ولكنّك تجـــدهم يضـــلون بإجابـــات لا رصـــيد لها من الصــحة فــإذا بهم يشــركون بالله ، فأمّا القــدماء فكــانوا يتصوّرون أنّ الأصنام أو الشياطين هي التي صنعت ذلك ، وأمّا المعاصرون فقالوا أنّها الصدفة!! ولكنّ القرآن يــذكّر الإنسان بالحقيقة التي أركزت في فطرته ، ويجد أصداءها حينما يستنير عقله ، فينقذه من ضلالات الجهل والشرك ، إذ يقول :

(**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً**)

أي مذلّلة ميسّرة لكم كالحصان المستراض أو البقرة المســتألفة ، حيث جعل نظامها وما فيها لصــالح الإنســان طعما وشــرابا وهــواء وزينة وما أشــبه ممّا يحتاجه وينفعه كالليل والنهار والشمس والقمر .. إلخ.

وتذليل الله للأرض انعكــاس لاسم «تبــارك» حيث أنّ ذلك من بركته ورحمته.

(**فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ**)

وقوله تعــالى : «فامشــوا» ليس مجــرد أمر تشــريعي يــوجب الســعي ، بل هو أمر تكويــني ، إذ لو لم يقــدّر الله المشي لما كــان أحد يســتطيع المشي حــتى في منــاكب الأرض. والمنكب مفــرد منــاكب وهو مجتمع رأس الكتف والعضد ، وناحية كــلّ شــيء وجانبه ، يقــال : ســرنا في منكب من الأرض أو الجبل أي في ناحيته ، والمنكب من الأرض الطريق [1] وكــأنّ القــرآن حينما أمر بالمشي في مناكب الأرض شبّهها

---

(1) المنجد / مادة نكب.

بالإنسان ، رأسها الجبال ومناكبها السفوح والسهول وما دون القمم العالية الوعرة التي يصعب المشي فيها. وحينما نمشي فإنّنا ليس فقط نحصل على الرزق بل ونزداد معرفة أيضا. وهناك علاقة بين فعلي الأمر «امشوا» و «كلوا» ذلك أنّ رزقنا لا يمكن أن يمشي إلينا بل لا بد أن نسعى إليه بأنفسنا ، وهذه هي القاعدة السليمة التي يجب علينا أن نتبعها في الحياة لنمارس مسئوليتنا فيها ونصل إلى اللقمة الحلال والمرضية عند الله ، إذن فليس في الدين دعوة للخمول والكسل والتّطفل على الآخرين ، كما يصوّره البعض ، إنّما هو صورة لسنن الحياة الواقعية التي لا يمكن لأحد الوصول إلى أهدافه وأغراضه إلّا من خلالها ومن أهمها سنّة السعي والكدح.

ثم تنسف الآية الكريمة في خاتمتها كلّ القيم المادية التي تفسر الحياة تفسيرا شيئيا ، وتحصر مسئولية الإنسان في الوجود في مساحة ضيقة وتافهة ، فإذا بها تنزل به إلى واد سحيق وطموحات ضالة ، وكأنّه يشبه الأنعام خلق ليأكل ليعيش بلا هدف! كلّا .. إنّ الإنسان له أن يتعلّم من الحياة والطبيعة من حوله درسا أساسيا ، فلينظر إلى ما حوله هل يجد شيئا خلق بلا هدف؟ فما هو هدفه؟ دعه يبحث عن هدفه فإنّه سيجد هدفه أعظم من مجرد الأكل والشرب والتلذذ ، كلّا .. إنّ له تطلّعا أسمى وطموحات أكبر .. مثلا يتطلع كلّ إنسان لملك الأرض والخلود في الحياة هل يتحقق له ذلك في هذه الحياة؟ كلّا .. وهكذا يهتدي الإنسان إلى الإيمان بالآخرة ، وبعبارة موجزة : سيواجه الحقيقة التي تطرحها الآية في خاتمتها :

(**وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**)

وتنطوي هاتان الكلمتان على مجمل حقائق الإيمان حيث الإيمان بالآخرة ، والتسليم لله عزّ وجلّ نفسيا بالإيمان وعمليا باتباع رسله ومناهجه. وعند ما نتأمل في

ترابط أجــزاء الآية الكريمة ببعضــها نكتشف حقيقة هامة وهي أنّ على الإنسـان أن يضع هدفه ويفكر في مسـتقبله الأبدي وهو يمارس الحياة بكلّ صورها ، أكلا وشربا وسعيا في طلب الــرزق. ومن ضــرورة الأكل والشــرب الحياتية يجب عليه أن يتحسس حاجاته وهو يمضي إلى مصـــيره ، ومن ارتكاز الحصول على الـرزق على السـعي (أو بتعبـير الآية المشي) يجب أن يعـرف بـأنّ وصـوله إلى غاياته في الآخرة هو الآخر يرتكز على السـعي ، وإنّ خـير الـزاد في ذلك السفر الطويل لهو التقوى.

الأكل والـــــــرزق في الآية أعمّ من ظاهرها ، فالأكل صورة من صور الاسـتهلاك ، والـرزق هو عمـوم ما يحتـاج الإنســان إليه ، والآية بمجملها تــوحي بــأنّ الأرض خلقت مذلّلة في بعض الجـــــوانب ولكن الله يريد للإنســـــان أن يـذلّلها كلّها بسـعيه ، وبـالرغم من أنّه لا يقـدر على تـذليل كلّ شيء فيها لتصبح الأرض جنّة الفردوس لأنّه يتنافى مع حكمة خلق الإنسـان فيها ألا وهي الابتلاء ، فإنّه قـادر على تطوير حياته إلى الأفضل أبدا.

[16 ـ 17] وكما ينبغي للإنسـان أن ينتفع من تـذليل الأرض له ويتحسس اسم «تبـــارك» من هـــذه الرحمة الإلهية عليه ، كــذلك يجب عليه أن يستشــعر قــدرة الله على كلّ شيء ، وأنّه لو شاء لسـلب تلك البركة منه فـإذا بتلك الأرض المذلّلة تصبح كالفرس الجامح تمور مورا ، أو يحدث تغييرا في النظام الكوني فإذا بالسماء التي تحميها تسـتحيل منطلقا لعـذاب مصـوب لاطاقة للأرض وسـكانها به. وتذكّر هذه الحقيقة مهم لأمرين :

الأول : أنّها إلى جــانب تنعّم الإنســان ببركــات الله ورحماته الـــتي في الطبيعة تعطيه توازنا نفســيا وعقليا وعمليا يسـوقه نحو المسـيرة الصـحيحة في الحيـاة ، فلا تبطر به النعم وتضـــلله عن أهدافـــه. فإنّه مـــتى وصل الإنسان إلى اليقين بقدرة الله عليه سلّم له

أمره واتصل به وخضع له ، وهذه من أعظم أبعاد الخشـية منه تعالى.

الثاني : أنّها تجتث من نفس الإنسان جذور الشــرك ، لكي لا يـأمن مكر الله ثم يعصـيه اعتمـادا على الشــركاء المزعومين (كالشياطين والأصنام والملائكة بأنّهم قادرون على مقاومة قــدرة الله ومنع مشــيئته) أو استرســالا مع رحمته تعالى.

(**أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّــماءِ أَنْ يَخْسِــفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذا هِيَ تَمُورُ**)

أي تموج وتضـطرب كما يمـور البحر ، وذلك بإحـداث انهيارات أرضـية وزلازل ، أو بتغيـير النظـام الأرضي مـرّة واحدة مما يفقدها توازنها بصورة رهيبة ، وفي الآية إشارة إلى ذلك بكلمة الخسف التي تعني التغيير والتبديل باتجـاه سلبي.

(**أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّـــماءِ أَنْ يُرْسِـــلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً**)

وفي التساؤل ب «أم» تلويح بالنهي عن أن يأمن أحد مكر الله لما فيه ذلك من دواعي المعصية والاسترســال ، والحاصب حجارة العذاب المتقدة نارا ، وقوله تعالى «**مَنْ فِي السَّماءِ**» في الآيتين محمـول على أحد وجـوه ثلاثة : فإمّا هو كناية عن تعاليه ســبحانه ، وإمّا لأنّ في الســماء عرشه الــذي تصــدر منه أوامــره عــزّ وجل ، وإمّا يكــون إشـــارة إلى الملائكة الـــتي تنفّذ أمر الله ومشـــيئته في الحياة.

ونتسـاءل : ما هي العلاقة بين تحـذير الله للنـاس من الكفر به وتهديــده بتحطيم النظــام الكــوني لو كفــروا؟ والجواب : لأنّه تعالى (كما بيّن في الآية الثانيــة) إنّما خلق الوجــود الحي والميت لأجل الإنســان ، فــإذا أفسد البشر حكمة وجوده بطلت حكمة الوجود الذي حوله أيضا.

وما تحمله آيات الله من الإنذار لا تسـتوعبه إلّا قلـوب المؤمنين فإذا هم يخشون

ربّهم بـالغيب ، أمّا الكـافرون والمشـركون فهم في غفلة عنه لأنهم محجوبــون بالجهل والشــرك عنه ، وذلك لأنّهم مـاديون لا يـرون إلّا الأمـور الظـاهرة ، ذلك لأنّ العقل هو الذي يهدي الإنسان إلى البـاطن من خلال الظـاهر ، وإلى الغيب عــبر الشــهود ، وهو معطّل لــديهم ، كما أنّهم لا يسمعون الموعظة من العقلاء ، هكذا تراهم يعترفون في الآخرة ، وإليهم يوجّه القرآن هذا التحذير المبطّن :

(**فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ**)

حينما تخسف بهم الأرض ويحــلّ عليهم العــذاب في الدنيا ، أو في الآخرة حيث العـذاب المقيم والأليم ، هنالك يعرفون حقيقة النذير.

[18] ولكنّ القرآن لا يكتفي بالمسـتقبل الغـائب دليلا على حقائقه بل ويستدل عليها بالشـواهد الظـاهرة ، لكي لا يبقى لبشر ما يـبرّر له الكفر والزيغ ، ولتكـون له الحجة البالغة ، فما هو الدليل على عذاب الله وقدرته على صـنع ما يشاء؟

لنــدرس التـاريخ البشــري فهو خـير معلّم للإنســان ، حيث يهديه إلى ســنن الله وآيــات معرفته ، ونحن حينما نتتبع حوادثه فسـنجد الكثـير من الأمم والمجتمعـات الـتي ذهبت ضحية كفرها وفسوقها عن أمر الله ، فـذاقت ألوانا من العذاب لا يستوعبها فكر بشر لهولها وفظاعتها.

(**وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**)

فأين قرى لوط المؤتفكة؟ وأين فرعون وقومـه؟ إنّك لن تجد غير إجابة واحدة : إنّهم دحـروا وبـادت حضـاراتهم لأنّهم لم يخشوا ربهم ويتبعوا رسالاته ورسله.

(**فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ**)

فكيف كان العذاب المنكر الـذي لم يكونـوا يحتسـبوه والذي نزل بساحتهم من عند الله سبحانه؟!!

ويحتمل هذا المقطع معنى آخر غير المنكر الفظيع إذا تصـوّرنا القـرآن يتسـاءل : كيف إذن تنكـرون ، والشـواهد ظاهرة ، والآيات قائمة؟

[19] ويلفت القــرآن الأنظــار والأفكــار إلى مشــهد الطيور وهي تطـير في الفضـاء ، ليثـير عقولنا نحو دراسة هـذه الظـاهرة الـتي تحكي تـذليل الله السـماء للطيـور برحمته ، وتكشف عن مئـات القـوانين العلمية الـتي تفيد الإنســان في حياته وحضــارته. فلما ذا لا يتســاءل ما هي القوانين الفيزيائية التي يمكن في ضوئها الطيران؟ ولماذا لا يبحث عن الأسباب والعوامل الـتي تجعل الطـائر يسـبح في الفضــاء دون أن يقع على الأرض؟ وأهمّ من ذلك كلّه لماذا لا يحاول أن يتصل قلبه بـروح هـذا العـالم لـيراه آية واضحة من آيات ربه العظيم؟

(**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صـافَّاتٍ وَيَقْبِضْـنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمنُ**)

والصف هو بسط الجنــاحين بينما القبض هو جمعهما إلى الجسم ، ولعل في الآية إشـارة بهـاتين الكلمـتين إلى نوعين من الطيور : أحدهما صفّه أكـثر من قبضه ، والآخر العكس ، وإلى أيّهما نظر الإنسان تجلّت آيات رحمة الله ، ولكنّها أظهر عند رؤية ما يصـفّ منها ، وربما لـذلك تقـدّم ذكــره على الــذي يقبض .. وإنّما يكــون طـيران الطيــور مظهر لرحمة الله لأنّه تعــالى لو لم يــذلّل لها الفضــاء بالنظام الذي يسمح لها بالطيران لما كانت تجد سبيلا إلى ذلك فهو الذي يمسكها ، ولأنّها بالطيران تسـتطيع الهـرب من الأخطار.

ولعــلّ كلمة «فــوقهم» في الآية تثــير الإنســان نحو التحدي فيسعى ليكون قادرا

على الطيران ، وما كان الإنسان ليكتشف أسرار الطيران لو لم يكن يــدرس هــذه الظــاهرة الكونية ويطّلع على قوانينها فإذا به يصنع مختلف وسائل الطيران.

(**إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ**)

فهو يعطي كلّ خلق من خلقه القـدرات والصـفات ما يتناسب معه ومع دوره في الحياة ، حتى يكـون كل شـيء في نفسه وحسب هدفه كاملا قد منحه ربه كل ما يحتاج ، وذلك يؤكد الحقيقة الـتي تعلنها الآية : (**إِنَّهُ بِكُـلِّ شَـيْءٍ بَصِـيرٌ**) يتبصر حقيقته ودوره والهـدف من خلقه وتناسب هذا الخلق مع سائر خلقه سبحانه.

ونحن يجب أن نهتدي إليها حينما نشاهد طـائرا يطـير وقد جعل كلّ شيء مناسـبا لحركته في الفضـاء : حجمه ، أجنحته ، تركيبة بدنه ، طعامه وشرابه ، وتوالده وتكـاثره ، هـذا ما نعرفه وسـائر البشر ، أمّا العلمـاء والمتخصصـون الذين يدرسون حياة مخلوقات الله جامدة أو متحركة فهم كلّما ازدادوا معرفة بها ازدادوا إيمانا بدقة صنعه عزّ وجل.

تعـالوا نسـتمع إلى الإمـام جعفر بن محمّد الصـادق ـ عليه السلام ـ يحدّث رجلا من شـيعته (المفضل بن عمـر) عن الدقة في خلقة الطير والحكمة في صنعه :

«تأمّل يا مفضّــل الطــائر وخلقته فإنه حين قــدّر أن يكون طائرا في الجوّ خفّف جسـمه وادمج خلقه ، فاقتصر به من القـوائم الأربع على اثنـتين ، ومن الأصـابع الخمس على أربع ، ومن منفـــــذين للزبل والبــــول على واحد يجمعهما ، ثمّ خلق ذا جؤجؤ محدّد ليسـهل عليه أن يخـرق الهـواء كيف ما أخذ فيه ، كما جعل السـفينة بهـذه الهيئة لتشـقّ المـاء وتنفذ فيه ، وجعل في جناحيه وذنبه ريشـات طــوال متــان لينهض بها للطــيران ، وكسي كلّه الـريش ليداخله الهـواء فيقلّه ، ولما قـدّر أن يكـون طعمه الحبّ واللّحم يبلعه بلعا بلا مضغ نقص من خلقه الأسنان ، وخلق له منقار

صلب جاس يتناول به طعمه فلا ينسـجح من لقط الحب ، ولا يتقصف من نهش اللّحم ، ولّما عـدم الأسـنان وصـار يزدرد الحب (أي يبتلعه ويسرع الطـيران) صـحيحا واللّحم غريضا أعين بفضل حـرارة في الجـوف تطحن له الطعم طحنا يسـتغني به عن المضغ ؛ واعتـبر ذلك بـأن عجم العنب وغـيره يخـرج من أجـواف الإنس صـحيحا ، ويطحن في أجواف الطير لا يرى له أثر ، ثمّ جعل مما يـبيض بيضا ولا يلد ولادة لكيلا يثقل عن الطيران فانّه لو كانت الفـراخ في جوفه تمكث حـتى تسـتحكم لأثقلته وعاقته عن النهـوض والطـيران ، فجعل كـلّ شـيء من خلقه مشـاكلا للأمر الذي قدّر أن يكون عليه ..»

تأمل ريش الطير كيف هو؟ فإنك تراه منسوجا كنسج الثوب من سلوك دقـاق قد ألف بعضه إلى كتـأليف الخيط إلى الخيط والشعرة إلى الشعرة ، ثمّ ترى ذلك النسج إذا مددته ينفتح قليلا ولا ينشقّ لتداخله الريح فيقلّ الطائر إذا طار ، وترى في وسط الريشة عمودا غليظا متينا قد نسج عليه الذي هو مثل الشعر ليمسكه بصـلابته ، وهو القصـبة الـتي هو في وسط الريشة ، وهو مع ذلك أجـوف ليخـفّ على الطائر ولا يعوقه عن الطيران [1]

[20] ولا شك أنّ ذلك الجهل بواقع الحيـاة هو جهل بآيـات الله سـبحانه ، ممّا يـدعو الإنسـان إلى التكـذيب بـالحق والكفر بربه ، وبالتـالي أن يشـرك به الأنـداد المزعـومين ، ظنّا منه بأنّه قـادر بواسـطتهم على الفـرار من سلطان الله القاهر وعلى التهرب من مسـئولية الحق ، الأمر الـذي يجعله يعيش في الحيـاة من دون قيد أو ضابط ، ولكنّ القـرآن ينسف هـذه الأفكـار والمـزاعم من جذورها مبيّنا بأنّها ليست سوى نشوة من الغرور الجامح.

(**أَمَّنْ هـذَا الَّذِي هُـوَ جُنْـدٌ لَكُمْ يَنْصُـرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ**)

(1) بحار الأنوار / توحيد المفضّل / ج 3 ص 103.

و «من دون الرحمن» تتسع إلى معنيين هما :

1 ـ الضد .. وعليه تنصــــرف الآية إلى الشــــركاء الموهــومين والقــوى الــتي يغــتر بها الكــافرون كالمــال والســلطة فإنّها كلّها لا تنصــرهم ضد الله ، ولو نصــرتهم جدلا فهي لا تنفعهم شيئا.

2 ـ أو تكون الآية منصرفة إلى الشفعاء فـإنّهم كـذلك لا يمكن أن يشفعوا لأحد من دون إذن الله ورحمته ، فلما ذا يجعل الإنسان بينه وبين ربه حجبا ووسـائط ، وهو قـادر على الاتصال بمصدر الرحمة والنصر؟!

إنّ الشفعاء الحقيقيين كالأنبياء والأولياء ليسـوا بـدائل عن طاعة الله ، وعن الدعاء إليه مباشرة ، بل هم وسائل وسبل إلى الرحمن سبحانه.

(**إِنِ الْكافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ**)

والغـرور هو الـوهم. أتـرى كم هو مغـرور ذلك الغـبي الذي يزعم أنّه قادر على مقاومة الإنفجار النووي بيمينه؟! بلى. قد يزخرف القـول ويخـادع نفسه ولكنّه عند مواجهة الحقيقة يكتشف أنّه إنّما كان في غرور محيط ، وإنّنا نـرى اليوم مدى الغرور الذي فيه قوى الاستكبار العــالمي ، لما تملك من ترسانات الأسلحة ، والقدرة الاقتصــادية ، ولكن أين هــذا كلّه من قــدرة الله المطلقة حــتى يبارزونه عــزّ وجل ويدّعون أنّهم سوف ينتصرون على الحق؟!

وعـادة لا يكتشف الغـرور إلّا بعد فـوات الأوان عند ما يصطدم الإنسان بالحقيقة المرة حيث لا ينفعه شيئا.

ونتسـائل : ألم يكن من الأنسب أن يـذكر هنا أسـماء العزة والقوة بدل اسم

«الـرحمن» حيث أنّ السـياق سـياق التحـدي ، ولكنّنا عند التدبر نهتدي إلى إشـارة لطيفة في ذكر اسم «الـرحمن» فكأنّ القرآن يقول للإنسان بأنّ مصـالحك الحقيقة تجـدها عند صاحب الرحمة ، فلما ذا تتخذ الشركاء من دونه؟!

عند ما تضـيق مـذاهب الحيـاة أين نلجـأ. أو ليس إلى رحاب رحمة الله؟ وحينما تتوالى المصـائب والنكبـات إلى من نجأر. أو ليس إلى حصن الرحمن؟

[21] وإنّه لثـابت فطريّا وعمليا لـذوي العقـول أنّهم إنّما ينتصـرون على المشـاكل والتحـديات بفضل الله ، ولا يلمسـون أثـرا لقـوى أخـرى تنصـرهم ويسـتعينون بها عند الشدائد سواه سبحانه ، وعند ما تحبس السـماء غيثها هل يقدر الشركاء المزعومون أن ينزلوه؟ كلّا .. ألا تـرى كيف يجـار الإنسـان عند ما يحبس رزقه إلى ربه ، تبعه إلى ذلك الفطرة ، ويحثّه العقل؟!

(**أَمَّنْ هذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ**)

ويبـدو أنّ الـرزق هو أرضـية الاكتسـاب ، فلو لا أنّ الأرض خصـبة والميـاه متـوفّرة هل يمكن للـزارع أن يكتسب منها شـيئا؟! ولو لا أنّ البلد يكـون فيه معـادن ومنابع هل يمكن للصناعي أن يطـوّر صـناعته أو يسـتخرج نفطا أو ذهبا أو حجرا كريما؟!

وهكذا يتقلب البشر في رزق الله يكتسب منه معاشه فـإن انعـدم الـرزق لم يبق معـاش ، ولكن بـالرغم من وضـوح هـذه الحقيقة تـرى الكفّـار يصـرّون على الكفر والغرور.

(**بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ**)

لجّ ولجاجة : عند في الخصـومة ، وتمـادي في العنـاد إلى الفعل المزجور عنه ، ولجّ

في الأمر : لازمه وأبى أن ينصرف عنه [1] إصـرارا ، والعتو : الاسـتكبار الـذي يجـاوز الحد ، والقلب يقسو فلا يلين ، والظالم يطغى ويتجـبر [2] ، والنفـور : يعـني التباعد ونفر الظبي وغيره شرد وابتعد ، والإنسان أعـرض عن الشـيء وصـدّ [3] ، وفي كلمة «نفـور» تشـبيه للكفّـار بـالحمير والـدواب [4] إذ تمـادوا في معانـدة الحق مع وضـوحه ، وأصروا على لزوم الباطل مع زهوقه ، وتجـاوزوا الحد في الاسـتكبار ، وركبـوا التباعد عن الحق شـرودا وإعراضا وصدودا.

[22 ـ 23] وكيف لنا أن نتصور مسـيرة من كـان في غـرور ولجاجة من العتو والنفـور عن الهـدى والحق ، إلّا كمن يمشي مرسلا نظـره إلى الأرض لا يـرى أمامه ، أو كمن على بصـره غشـاوة يتخبط ولا يهتـدي سـبيلا أفهل يسـتوي هو ومن يبصر أمامه وينتفع بجميع حواسه وهو على صراط مستقيم؟!

(**أَفَمَنْ يَمْشِـي مُكِبًّا عَلى وَجْهِـهِ أَهْـدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ**)

وللكبّ معنيان ـ حسبما قالوا ـ : أحـدهما الـذي ينظر إلى الأرض وهو يمشي ، والثاني من لف على وجهه شـيئا يقـال تكبكب في ثيابه إذا تلفف بها ، والمكب على وجهه الذي لفّ عليه شيئا ، والسوي الذي يمشي بكامل حواسه وإمكاناته ووعيه فهو السـويّ ، قـال تعـالى : (**آيَتُـكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيـالٍ سَـوِيًّا**) [5] أي كاملة ، وقـال : (**فَسَـتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْـحابُ الصِّـراطِ السَّـوِيِّ وَمَنِ اهْتَدى**) [6] أي الصراط

---

(1) المنجد مادة لج.
(2) المصدر مادة نفر بتصرف.
(3) المصدر بتصرف.
(4) قال تعالى : (**كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ* فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ**) المـدثر 50 / 51.
(5) مريم 10.
(6) طه 135.

السـليم ، وإنّ الكـافرين لا يمشـون في الحيـاة بكامل حواسـهم ووعيهم ، وليس أدل على ذلك من أنّهم معطّلة أسـماعهم عن تلقّى المواعظ ، وعقـولهم عن وعي الحق واسـتيعابه كما وصـفوا أنفسـهم وكما وصـفهم ربهم في قوله : (**لَهُمْ قُلُـوبٌ لا يَفْقَهُـونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها**) [1] ويؤكد هذه الحقيقة قوله تعـالى في الآية اللاحقة مفسـرا معـنى المكب :

(**قُـلْ هُـوَ الَّذِي أَنْشَـأَكُمْ وَجَعَـلَ لَكُمُ السَّـمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ**)

قيل : إنكم لا تشكرون إلّا قليلا ، وقيل : إنّ المعنى لا يشـكرون منكم إلّا قليل ، وكلا المعنـيين صـحيح. وإنّ للشكر بالنعم جانبين :

الأول : أن لا يسـتخدم الإنسـان نعم الله عليه في معصـيته ، فيسـمع باذنه ما حرّمه عليه كالغيبة والكـذب والغنـاء ، أو ينظر بعينه ما هو محضـور كـأعراض النـاس وعـوراتهم ، أو يجعل فـؤاده عشّـا للشـيطان فيملـؤه بالظنون والنوايا السيئة والأفكار الضالة .. وهكذا.

قال الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ : «**شـكر النعمة اجتناب المحارم**» [2] ، وقال الإمام علي ـ عليه السلام ـ : «**شكر كل نعمة الورع عمّا حرّم الله**» [3].

الثـاني : أن يسـخر ما أنعم الله به عليه في طاعته وإعلاء كلمته ، بأن يجعله وجوده وكيانه في طاعته وخدمة الحق واهله ، ومحاربة الباطل وأعداء الله ، فيستمع بإذنه علـوم الحق ومواعظ الصـدق ، ويوظف بصـره في النظر إلى آيات ربه وكتابه ،

---

(1) الأعراف 179.
(2) موسوعة بحار الأنوار / ج 71 ص 40.
(3) المصدر ص 42.

ويصـيّر فـؤاده وسـيلة لمعرفة الحق والتفكر فيما ينفع به رسـالته ونفسه والنـاس ، وهكـذا سـائر النعم والهبـات الإلهية.

وإذا فعل الإنسان ذلك يكون شـاكرا ، ولا يتم الشـكر إلّا بمعرفة المنعم والتوجه إليه به ، فـإنّ الإنسـان عرضة للشرك في الشـكر أيضا ، لـذلك جـاءت بداية الآية توجهنا إلى المنعم وأنه أهل الشـكر ، وعلى هـذه الحقيقة أكـدت النصـوص المستفيضة عن أئمة الهـدى ، قـال الإمـام زين العابـدين علي بن الحسـين ـ عليه السـلام ـ : الحمد لله الذي لو حبس عن عباده معرفة حمـده على ما أبلاهم من مننه المتتابعة ، وأسـبغ عليهم من نعمه المتظـاهرة ، لتصـرّفوا في مننه فلم يحمـدوه ، وتوسّـعوا في رزقه لم يشكروه ، ولو كانوا كـذلك لخرجـوا من حـودود الإنسـانية إلى حـدّ البهيمة ، فكـانوا كما وصف في كتابه : «**إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعـامِ بَـلْ هُمْ أَضَـلُّ سَـبِيلاً**» [1] وقـال الإمـام الحسن العسكري ـ عليه السلام ـ : «لا يعـرف النعمة إلّا الشـاكر ، ولا يشـكر النعمة إلّا العـارف» [2] وأوحى الله تعالى إلى موسى ـ عليه السلام ـ : «**يا موسى اشكرني حق شكري ، فقال : يا ربّ كيف أشكرك حقّ شكرك وليس من شـكر أشـكر به إلّا وأنت أنعمت به علي؟! فقال يا موسى شكرتني حق شـكري حين علمت أنّ ذلك مني**». [3]

[24 ـ 27] وعند التفكـير في الآية (23) والآية (24) نجـدهما تجيبـان على أهمّ الأسـئلة المصـيرية الـتي تخطر على بال كلّ إنسان : من الذي أوجدني ووهبني ما أنا فيه من النعم؟ ومن الذي ذرأنا في الأرض؟ ثم ماذا بعد الـدنيا ، وإلى أين تسير بنا الأقدار؟ هذه الأسئلة وأمثالها تؤكّد أنّ معرفة الخالق مسألة فطرية ملحّة عند كلّ إنسـان ، وهي إن لم يجب عليها الإجابة السـليمة فسـوف يظل الإنسـان حائرا لأنها

(1) الصحيفة السجادية الدعاء الأول.
(2) موسوعة بحار الأنوار ج 78 ص 378.
(3) المصدر ج 13 ص 351.

أســئلة مصــيرية ترسم إجابة كــلّ واحد عليها شخصــيته (فكره وسلوكه وعلاقاته) كما تحدّد مستقبله.

وحيث أنّ القرآن متنزل من ربّ الإنسـان الـذي خلقه ويعلم ما توســـوس به نفسه وذات صـــدره ، فـــإنّ آياته جاءت واقعية وشفاء لما في صدره ، وعلاجا لكلّ قضـاياه ومسائله ، وإنّ هذه الآيات بحق تعـبر عمّا في ضـمير كـلّ بشر وحاشا لله وهو الـرحمن اللطيف بعبـاده أن يـدعهم في حيرة من هذه الأسئلة الخطيرة فيضلون كفرا وشـركا ، وهكذا قال ربنا سبحانه :

(**قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**)

وليست الصـدفة أو الطبيعة أو القـوى المزعومة من دونه ســبحانه ، والــذرأ هنا بمعــنى الخلق والنشر ، فإنّه تعالى خلقنا في الأرض ونشـرنا في أقطارها ، قـال الله : (**وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَـرْثِ وَالْأَنْعـامِ نَصِـيباً**) [1] أي ممّا خلق وبث ، وقــــال : (**وَما ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفـاً أَلْوانُـهُ**) [2] أي خلق ووزع ، وذرأ الحبــوب في الأرض فرقها وبذرها. والحشر هو الجمع ، والسـؤال : هل خلق الإنسان في الأرض ليعود إليها بعد الموت دون هدف ومسئولية؟ كلّا .. إنّما هي مرحلة في دورته الحياتية الـتي لا تنتهي ، فقبل أن يذرأ في الأرض في عـالم الـذر ، وبعد هـذه الـدنيا يبـدأ رحلة إلى عـالم الـبرزخ ثم عـالم الحشر والجـــزاء حيث يلاقي مصـــيره الأبـــدي ، وما دامت بداية الإنسان من الله ونهايته إليه ومصيره بيـده فما أحوجه أن يوظّف وجـــوده في هـــذه الأرض ونعم الله عليه من أجل حشر سعيد في الآخرة.

وما أعظم ذكر الآخرة والحشر في قلوب الصالحين ، وحسب ما يقول الإمام علي

---

(1) الانعام 136.

(2) النحل 13.

ـ عليه السلام ـ : «**ولو لا الأجل الـذي كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم في أبدانهم طرفة عين أبـدا**» [1]
، ولكنك ترى الضـالين الـذين حجبهم الكفر والشـرك عن رؤية هــذه الحقيقة يســتهزءون بها فيــذهبون فرصــتهم الوحيدة في بحوث عقيمة تافهة ، فيتساءلون ـ مثلا ــ عن موعد الساعة.

(**وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**)

وأسئلة أخرى تافهة كقولهم : كيف يحي الله الموتى؟ وإنّك حين تدرس خلفياتها وأهدافها في نفوسهم تجد أنّهم لا يريدون بها معرفة الحقيقة ، إنّما مجرد الجـدل والعنـاد. أو ليسوا يبحثون عن تبرير للتملص من مسـئولية الالـتزام بالحق ، واتباع القيادة الرسالية في الحيـاة ، والهـرب من وخز الضمير ونداء الفطرة؟ إذن لا بد أن يكفـروا بـالآخرة لأنّ الإيمان بها قمة الشـعور بالمسـؤولية ، ولكن هل يغيّر إنكارهم للحقيقة الواقعية شـيئا ، فلا تقع السـاعة ويصـبح الداعية إليها كاذبا لو كفـروا بهـا؟ كلّا .. فلينكر أحد حقيقة المـوت ، وليكـذّب من يـذكّره بها ، فهل يبقى خالـدا إلى الأبد ويصير المذكّر كاذبا؟ وسؤال آخر : هل انّ عـدم علم الإنسان بلحظة موته ـ مثلا ـ ينفي حقيقة المـوت؟ فلما ذا يعتبر الجاحدون عدم إخبار الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ــ لهم بموعد السـاعة دليلا على انتفائها وكـذب المؤمـنين بها؟

(**قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ**)

وهنا نتسـاءل : لمـاذا تـأتي هـذه الإجابة كلّما تحـدّى الكفّـار الرسـول بالسـؤال عن موعد السـاعة ، أو ليس الأفضل أن يطلعه الله عليها فيجيبهم وينتصر عليهم في الجدال؟

(1) هكذا وصـفهم إمـام المتقين علي بن أبي طـالب في الخطبة 193 من نهج البلاغة.

والجواب : هنا أسـباب تكشف عن جـانب من الحكمة الإلهية ، تبرّر عدم الإجابة على سـؤالهم تـبريرا موضـوعيا واقعيا ، هي :

أوّلا : لأنّ من عظمة الساعة (ساعة الموت والقيامة) وأثرها في الإنسـان يكمن في أنّها مسـتورة ، ممّا يـدعوه لاجتنـاب الباطل واتبـاع الحق في كـلّ لحظة من حياته خشـية أن تحـلّ به السـاعة فيها فيلقى ربه على معصـية. وإلّا لكـان النـاس يسترسـلون في الباطل ويزعمـون أنّهم سوف يتوبون قبل موتهم بساعة!

وقد أشار الإمـام الصـادق ـ عليه السـلام ـ إلى ذلك بقوله : «**ثم (لو) عرف ذلك وثق بالبقـاء وانهمك في اللـذات والمعاصي ، وعمل على أنّه يبلغ من ذلك شـهوته ثم يتـوب في آخر عمـره ، وهـذا مـذهب لا يرضاه الله من عباده ولا يقبله**» [1]

ثانيا : أنّ الكـافر الـذي أركس في الغـرور والعتو والنفور عن الحق لا يغيّر فيه إخبار أحد له بموعد السـاعة ، بل لا يصدق أحدا لو أخبره ولو كان مصيبا ، لأنّ مشكلته أنّه لا يـؤمن بالأسـاس وهو السـاعة. فهب أنّ الرسـول ـ صلّى الله عليه وآله ـ قال له أنّك تموت بعد خمسين يوما ، أو أنّ السـاعة تقع بعد ألف عـام ، فهل يصـبح من المتقين؟ كلا .. إذ أنّ سـؤاله ليس بهـدف معرفة الحق والتسليم له عند ظهوره ، إنّما لمجرد الجدال والمعاندة.

ثالثا : انّ الرسول وكل داعية إلى الحق ليس مسـئولا أن يجاري الناس وبالذات الملحدين منهم في كل شـيء ، ويجيب على كل سـؤال ، فـإنّ الأسـئلة لا تنتهي ، ولو أنّه ينصب نفسه للرد والمجادلة فسوف يضيع الكثير من وقته وجهـوده في أمـور لا طائل منها ولا فائـدة دون أن يصل إلى ما يريد ، وبالخصوص أنّ من بين

---

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج 6 ص 38.

الناس من هو بارع في صناعة السؤال والذي لا يهدف من ورائه إلّا الجدل الفارغ ، إنّما مسئولية المؤمن الرسالي إبلاغ رسالة الله إلى الناس بأمانة ووضوح.

(**وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ**)

وتهدينا خاتمة الآية إلى حقيقتين في منهجية الدعوة السليمة إلى الله :

الأولى : أنّ على الفرد الرسالي التحرك وفق ما ترسمه له رسالته وتوحي به أهدافه في الحياة ، دون أن يلتفت كثيرا إلى ما يثيره الآخرون أعداء ومنافسين وجاهلين من إشكالات وأسئلة وملاحظات تافهة ، لأنّه لو التفت إلى ذلك فلن يصل إلى أهدافه.

الثانية : أنّ التواضع للحق مسألة مهمة في الدعوة ، فإذا سئل عمّا لا يعلم يجب أن يقول لا أعلم .. وإلّا أصيبت مقاتله كما يقول الإمام علي عليه السلام ، فليس العيب أن يعترف الإنسان بالجهل إنما العيب الكبير أن يقول ما لا يعلم. فهذا سيد البشر على عظمته يجيب وقد سئل عن الساعة التي لا يعلم ميعادها : (**إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ**) وإنّما للحصر ، فليس من أحد يعلم بميقات وعد الله غيره ، ولا يكتفي القرآن بهذه الإجابة بل يضع الكافرين أمام آثاره المريعة عند ما يحين أجله فتساء وجوههم ، ويعلمون إلى حدّ اليقين حقّا بالآخرة وصدق الرسول ، ويشهدون وقوعه الرهيب ، يوم لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل.

(**فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً**)

أي وقد اقترب منه الموت ، أو عند ما تظهر للناس علامات الساعة وآياتها كزلزلة الأرض ، هنالك يكتشفون فظاعة خطئهم ، فيتحسرون ويندمون على ما فرّطوا في جنب الله في أنفسهم ، ولكنّ الأمر لا ينتهي عند هذا والحد إنّما تعلوهم آثار الهوان والعذاب حتى تظهر على وجوههم التي طالما صدّوا بها عن الحق.

(**سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا**)

أي أساءها شيء أو أحد كالملائكة الذين هم خزنة جهنم ، ولا ريب أنّ تلك الآثار التي تظهر على وجوههم يومئذ وتسوؤهم هي بأعمالهم السيئة وعقائدهم الخاطئة. قال في المنجد : ساء الأمر فلانا أحزنه ، أو فعل به ما يكرهه [1] وكذلك يصنع بالكافرين.

(**وَقِيلَ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ**)

ولكلمة «تدّعون» في هذه الآية معنيان :

الأول : الادّعاء بمعنى الزعم والتكذيب ، أي تتحدثون بشأنه مما لم يكن في قلوبكم ، قال ابن عبّاس : أي تدّعون الأباطيل به ، ولا ريب أنّ الكافرون حينما كانوا يستعجلون وعد الله ما كان هدفهم البحث عن الحقيقة بل كان مجرد الإنكار والجدال ، ولعلّ في الآية إشارة إلى حقيقة واقعية وهي أنّ كثيرا من عقائد الكفّار ومواقفهم الضالة وهكذا أعمالهم السيئة كانت متأسسة على جحود الآخرة (وعد الله) ، فكأنّ إنكارها وسيلة مزاعمهم وادعاءاتهم.

الثاني : الادّعاء بمعنى المبالغة في الدعاء ، حيث يقال لهم من قبل الله أنّ هذه الساعة هي الوعد الذي كنتم تكفرون به ، وتطالبون مستعجلين وقوعه. ممّا يكشف عن مدى جحودهم واستبعادهم للساعة.

وهذا القيل وأمثاله عذاب نفسي إلى جانب العذاب المادي ، وقد يكون أشد أثرا منه ، لما ينطوي عليه من الاستهزاء والتبكيت وإثارة للحسرة في نفوسهم.

[28] وبعد حديث الآخرة بأمر الله رسوله أن يبيّن للكافرين خاصة وللناس

---

(1) المنجد مادة ساء.

عامة مجموعة من البصـــائر ذات الأثر المهم في إيمـــان الإنسان وواقعه في الحياة.

(**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنا**)

وللهلاك في القرآن معنيان : أحدهما : الموت والفنـاء ، قال تعالى : (**وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْـلُ بِالْبَيِّنـاتِ فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذا هَلَـكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُـولاً**) [1] أي حـتى إذا مـات ، والآخر : الموت بالعذاب والدمار ، قـال تعـالى : (**وَما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلَّا وَأَهْلُها ظالِمُونَ**) [2] وتهدينا هذه الآية إلى الحقائق التالية :

1 ـ أنّ الكفــار عــادة ، ما يتهربــون من مســئولية الحقائق الإلهية بتحويل قضية الرسالة إلى صراع شخصي بينهم وبين الرسول ، وكأنّ الرسالة قضية تهم النبي لذاته وأنّه يبحث عن مصلحته الذاتية لذلك فهو يخـوض الصـراع مع الذين لا يؤمنون بها. وهذه الآية تبيّن سـفه هـذا الـرأي وتذكّر بأنّ الرسالة في البدء قضية بين الإنســان وربه وما الرسـول إلّا واسـطة بينهما ، وعبد من عبـاد الله إن شـاء أهلكه وإن شــاء رحمه ، وقد حــذّر النــبي شـعيب ـــ عليه السـلام ـ قومه من الـدخول في هـذا النفق فقـال : (**وَيا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْـلُ ما أَصـابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَـوْمَ صـالِحٍ وَما قَـوْمُ لُـوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ**) [3]

2 ـ وتحـذّر الآية من الفهم الخـاطئ للشـفاعة سـواء الأوليــاء أو شــفاعة الشــركاء المزعــومين ، بــزعم أنّهم قـادرون على منع الله عمّا يشـاء أو التـأثير على قـراره ، الأمر الذي يـدعو الإنسـان إلى الاسترسـال في الانحـراف واللّامسؤولية. وذلك ببيان أنّ لله

---

(1) غافر 34.
(2) القصص 59.
(3) هود 89.

وحــده فيما يريد ، فهو بيــده أن يهلك الرســول ويعذّبه أو يرحمه لو شــاء. وهكــذا تنسف الآية الأفكــار الضــالة في الشفاعة ، حيث يقول النبي محمد ـ صلّى الله عليه وآله ـ وهو أقــرب الخلق إلى الله وأعظمهم عنــده وهو الموعــود بالشفاعة أنّه لا يملك من الله شــيئا ، فكيف بمن هو دونه من الأولياء الصالحين؟ وكيف بالشركاء الموهومين؟!

(**فَمَنْ يُجِيرُ الْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ**)

فالكافر إذن معذّب لا محالة لأنّ الشــفاعة والشــركاء الموهومين لا يملكون له من الله شيئا.

قــال البعض : إنّها تربط إجــارة الكــافرين من عــذاب أليم ببقاء الرسول هاديا ومبشّرا ونــذيرا [1] ويبــدو أنّ ذلك مســتوحى من قوله ســبحانه : (**وَما كـانَ اللـهُ لِيُعَـذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**).

[29] وبعد التخويف والتحـــــذير يفتح القـــــرآن على القلـوب بـاب الرجـاء بـذكر اسم الـرحمن حـتى لا تصـاب باليأس والقنوط.

(**قُلْ هُوَ الرَّحْمنُ آمَنَّا بِهِ**)

ويبــدو أنّ في الآية إشــارة لطيفة إلى أنّ الله لا يهلك الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ــ ومن معه إنّما يـرحمهم ، لأنّه الرحمن وقد آمنوا به وأطاعوه بالتوكل عليه وحده.

(**وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنا**)

---

(1) تفسير الفرقان ج 29 ص 53.

ولا يخيب من توكل على الـــرحمن ، فإنّه ســـيكون حســـبه ، يفيض عليه من بركاته ورحماته ، ويجـــيره من العذاب والهلاك. أمّا الكفّار والمشـركون فقد ضـلّوا ضـلالا مبينا حينما كفــروا بــربهم وبــالآخرة ، واعتقــدوا بالأنــداد المزعــومين واعتمــدوا عليهم ، وإذا كــانوا يجهلــون مــدى ضــلالتهم ، أو اســتطاعوا أن يخفوها عن الآخــرين ، فــإنّ الحقيقة ستظهر جلية في المستقبل ، وسيفتضحون أمــام النــاس عند الجــزاء ، بــالرغم من أنّهم يتهمــون المؤمــنين والقيادة الرسالية بــالانحراف ويحــاولون أن يقنعــوا الــرأي العام بذلك.

(**فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**)

[30] ويختم السياق سورة الملك مثــيرا الخشــية من الله بما يؤكد أنّه وحــده الــذي بيــده الملك وأنّه على كــلّ شيء قدير وأنّه الرحمن ، ويحــذّر بأنّه قــادر على الــذهاب بمائهم الذي ترتكز عليه الحيــاة ، فلا أحد حينئذ يقــدر على أن يأتيهم بماء. أترى لو جعل الله الماء أجاجا من الأساس بحيث لا يصـــلح للشـــرب والزراعة ، أو لا يمكن تفكيك أجزائه وتحليته ، أو قــرّب موقع الشــمس حــتى تبخّــرت المياه جميعا ، هل استمرت الحياة عليها ، ومن أين كــانوا يأتون بالماء؟

(**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً**)

والغور : القعر والعمق من كل شــيء ، وغــار المــاء : ذهب في أعمــاق الأرض واختفى فلا تصل إليه يد النــاس. وإنّ وقع هــذا الإنــذار في الوسط الــذي تــنزلت فيه يومئذ (شبه الجزيرة العربية) حيث يعزّ المــاء ، وفي تلك العهـود حيث الإنســان لم يكتشف بعد وســائل التنقيب عن المــاء وحفر الآبــار العميقة ، لا شك أنّه كــان عظيما ، ولا يــزال ولن يــزال كــذلك عند أولي الألبــاب من المؤمــنين الــذين يعرفــــون ربهم وقدرته المطلقة ، فهم يخشــــونه دائما ويخافون سطواته ، ويدركون الإجابة على

قوله تعالى :

(**فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ**)

أنّها النفي القــاطع الشــامل الأبــدي : لا أحد يا ربّ العالمين لأنّ الله وحده هو الرحمن والمالك والقادر الـذي لا يغلب. وقد قال المفسرون في معنى «معين» أنّه الماء الذي من كثرته يظهر على وجه الأرض ويرى بالعين ، فهو معين ، خلافا للغائر الذي شـحّ واختفى ، وقيل : هو المـاء الجاري من العيون.

وقد أعطى أئمة الهدى ـ عليهم السـلام ـ بعـدا عميقا للآية بتأويلها في إمــام الحق ، بأنّه المــاء بما يحمله من رسالة الله والهـدى للنـاس ، أو ليس المـاء عصب الحيـاة وعمادها؟ كذلك الإمام ، لأنّه يحـيي أتباعه ببصـائر الـوحي وبالهـدى إلى الحق في حيـاتهم. أو ليس الكفر والضـلال موتا؟

قال الإمام الصادق ـ عليه السـلام ـ : «**هذه نـزلت في الإمام القـائم ، يقـول : إن أصـبح إمـامكم غائبا عنكم لا تـدرون أين هو فمن يـأتيكم بإمـام ظـاهر يـــأتيكم بأخبـــار الســـماوات والأرض ، وحلال الله وحرامه؟**» [1] ، وقال الإمام موسى الكاظم ـ عليه السلام ـ : «**إذا فقدتم إمامكم فلم تروه فما ذا تصنعون؟**» [2].

---

(1) نور الثقلين ج 5 ص 387.

(2) المصدر.

سورة القلم

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الأعمـال بإسـناده عن أبي عبد الله ــ عليه السـلام ــ قـال : «**من قـرأ سـورة ن والقلم في فريضة أو نافلة آمنه الله عــزّ وجــلّ من أن يصــيبه فقر أبدا ، وأعاذه الله إذا مات من ضمّة القبر**»

نور الثقلين / ج 5 ص 387.

الإطار العام

يبلغ الصراع بين الرسالات الإلهية والجاهلية أوجه في القيادة ، واستقامة النبي وأتباعه تحسم الموقف لصالح الوحي. من هنا جاءت فاتحة السورة في عظمة الرسالة والرسول ، وانعطفت سريعا نحو رفض القيادات الجاهلية ، وبالذات تلك التي تقوم بقيمة الثروة ، وتبيّن الآيات الستة عشر الأولى مفارقات القيادتين ، فبينما الرسول مقام نعم الله ، وله عنده أجر لا ينقطع ، وهو على خلق عظيم ، وتتجلّى آيات حكمته على كلّ أفق ، ترى القيادات الجاهلية تتشكّل من كلّ دجّال حلّاف مهين ، يستهزأ بالناس يفرّق بينهم ، وهو منّاع للخير معتد أثيم .. قد أغلق منافذ قلبه دون أيّ شعاع من نور الحق ، فإذا تليت عليه آيات الله قال إنّها أساطير الأوّلين.

ولا بد أن يبقى التمايز بين الفريقين قائما أبدا ، فلا يجوز أن يداهن الرساليون مثل هذه السلطات الفاسدة التي تستعد لتقديم بعض التنازل من أجل هذه المداهنة.

ويمضي السياق في قصة أصحاب الحقل الذين منعوا المساكين حقّهم فأهلك الله زرعهم ، لعلّها تكون عبرة لأصحاب الثروة فلا يطغون بها ، ولكي يعلموا أنّ هذا

العذاب إشارة إلى العذاب الأكبر في الآخرة.

وفي الآيــات 34 يــبيّن الســياق عمق الفجــوة بين المتقين والمجــرمين ، وينسف أســاس تفكــير المبطلين بــأنّهم شــرع ســواء مع المتقين ، لأنّ العقل يــرفض ذلك ، ولا حجّة لهم بذلك لا من كتاب مدروس ولا عهد من الله ، ولا كفيل ولا شركاء ، ويحذّرهم الله من يوم القيامة الـذي لا ينفع فيه عمل أو ندم ، ويبيّن أنّ أموالهم قد تكــون لعنة عليهم ، لأنّ الله يســـــتدرجهم بها ، ويملي لهم بكيــــده المتين.

وإنّ بعضهم يخشى من أجر يعطيه إزاء الرســالة ، كلّا .. بل الرســالة تنفعهم في دنيــاهم .. وينهي الســياق هــذا الحديث بأنّهم لا يعلمون الغيب فكيف يتشبّثون بأفكارهم؟ وينعطف نحو الرسول وكل رســالي يتبعه أن يصــبر (حــتى يحكم الله) ، ولا يكون كصاحب الحوت الذي اسـتعجل في الـدعاء على قومه ، فلو لا أنّ نعمة من الله تداركته لكـان ينبذ بــالعراء (بعد التقــام الحــوت لــه) وهو مــذموم ، ولكنّ الله اجتباه بنعمته فجعله من الصالحين.

وتختم الســورة بــأنّ الــذين كفــروا يكــادون يزلقــون الرسول بأبصارهم التي يتطاير منها شــرر البغض والحسد وذلك حينما يسمعون الذكر ، ويتهمــون الرســول بــالجنون خشــية تــأثّرهم به ومن شــدة عــداوتهم له ، بينما هو ذكر للعــالمين يــذكّرهم بالله واليــوم الآخر ، ولو اتبعــوه لكــان شرفا لهم ومجدا.

وبهذا تنتهي سورة القلم التي فصلت بين خطّي العلم والجهل على صعيد الفكر وفي صميم الحياة حقا.

سورة القلم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**ن وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُونَ (1) ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (6) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (7) فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9) وَلا تُطِعْ كُلَّ**

---

6 [المفتون] : المبتلى بتخبيل الرأي ، كالمجنون.

9 [تدهن] : أي تجامل الكفّار وتلين لهم ، فكأنّ المجامل يستعمل الدهن ليتلائم مع الطرف المقابل كما يستعمل الدهن لتلائم الشيئين الخشنين حتى لا يصطدما ولا يصطكّا بعنف.

حَلاَّفٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّــــــاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُـلٍّ بَعْـدَ ذلِـكَ زَنِيمٍ (13) أَنْ كـانَ ذا مـالٍ وَبَنِينَ (14) إِذا تُتْلى عَلَيْـهِ آياتُنا قـالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُـومِ (16) إِنَّا بَلَوْنـــاهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْـــحابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَـــمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ (17) وَلا يَسْـتَثْنُونَ (18) فَطـافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ

---

11 [همّاز] : أي كثير الهمز للناس ، والهمز هو الطعن في الغير بشــدة ، وفي مفردات الراغب : الهمز كالعصر يقال همزت الشيء في كفّي ، وهمز الإنسان اغتيابه.
[مشّاء بنميم] : كثير المشي بين الناس بالنميمة.
13 [عتل] : العتلّ الجافي الغليظ.
[زنيم] : الــزنيم الــدعيّ الملصق بــالقوم وليس منهم ، وأصــله الزنمة وهي الهنيّة المتدلّية تحت حلق الجدي.
16 [سنسمه] : سنعلمه بعلامة يعرف بها أنّه مجرم.
17 [أصحاب الجنة] : أصحاب البستان الذي كان قرب صنعاء.
[ليصر منّها] : أي يقطعون ثمرها من الصرم بمعنى القطع.

وَهُمْ نائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّـرِيمِ (20) فَتَنـادَوْا مُصْـــبِحِينَ (21) أَنِ اغْـــدُوا عَلى حَـــرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صارِمِينَ (22) فَـانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخـافَتُونَ (23) أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (24) وَغَدَوْا عَلى حَـرْدٍ قادِرِينَ (25) فَلَمَّا رَأَوْها قالُوا إِنَّا لَضَـالُّونَ (26) بَـلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27) قالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَـوْ لا تُسَبِّحُونَ (28) قالُوا سُبْحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (29) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ (30) قـالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا طـــاغِينَ (31) عَسى رَبُّنا أَنْ يُبْـــدِلَنا خَيْـراً مِنْها إِنَّا إِلى رَبِّنا راغِبُـونَ (32) كَـذلِكَ الْعَـذابُ وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (33)

---

20 [كالصّريم] : أي كالمقطوع ثماره ، أو كالليل المظلم.

25 [حرد] : بمعنى المنع ، يقال : حاردت السنة ، إذا منعت قطرها.

ولا تطع كلّ حلّاف مهين

هدى من الآيات :

بالأدلة الدامغة يفنّد السياق تهمة المكذبين ، ثم يحذّر النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ ومن خلاله كـلّ قائد مـؤمن من التأثّر بقوى الضغط ، سواء الظـاهرة منها الـتي تكذّبه جهرا أو المنافقة التي لا يهمّها سوى مصلحتها الشخصية.

ثم يفضح القرآن فئة المنافقين ببيان صفاتهم السـيئة ، كالمبالغة في الحلف ، والمشي بالنميمة ، ومنع الخـــير عن الآخـرين ، وإذ يـولي الـوحي هـذا الاهتمـام بفضـحها بالتركيز على بيان صفاتهم تفصـيليّا فلأنّها الأبلغ أثـرا على المؤمـــنين بحكم ســرّيتها ، وتؤكّد الآية (14) على حقيقة أساســية وهي أنّ جــذر تلك الصــفات السـيئة يكمن في الافتتان بالمال والأتباع ، محذّرا المسلمين من مغبّة الفتنة بالثروة والأولاد.

ثم ينعطف السياق نحو قصة أصحاب الجنة مثلا سـيئا لأولئك الذين افتتنوا بزينة الحياة الدنيا ، إذ اسـتكبروا على الحق ، وتعالوا على المساكين ، إلّا أنّهم

اكتشفوا خطأهم فتابوا إلى ربهم (**قالُوا سُـبْحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظـالِمِينَ**) بل قـالوا : إنّنا تجاوزنا الحـدّ فطغينـا. وإنّنا نجد في هـذه القصة دعـوة للمـترفين إلى التوبة والحـذر من مغبّة الافتتـان بزينة الـدنيا لأنّ ذلك ينتهي إلى عـذاب الدارين.

بينات من الآيات :

[1] اختلفت أقوال المفسرين في معـنى «ن» فقائل أنّها الحــوت لقوله تعــالى في هــذه الســورة : (**وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ**) وقوله : (**وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً**) [1] ، وقائل أنّها اللـوح المحفـوظ الـذي كتبت فيه الأقـدار الإلهية ، وروي ذلك مرفوعا إلى النبي ، حيث ذكر أنّه لوح من نور ، واستدلوا من الآية على هذا الـرأي بـذكر القلم ، وقيل : هي الــدوات الــتي منها يأخذ القلم مــداده ، وفي الدّر المنثـور والتفسـير الكبـير أنّها إشـارة لاسم الـرحمن باعتبارها من حروفه ، وقيل : هي من أسماء رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ.

وقد سئل الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ عن «ن» ما هي؟ فقــال : ... وأمّا «ن» فكــان نهــرا في الجنة ، أشد بياضا من الثلج ، وأحلى من العسل ، قال الله تعـالى عـزّ وجـلّ له : كن مـدادا ، فكـان مـدادا [2] ، والـذي أعتقـده بالإضافة إلى ما سبق وأن بيّنا في شأن الحــروف القرآنية المقطّعة أنّ تفســــــير «ن» يتسع لبعض ما ذهب إليه المفســرون ، ولكن يبقى علمه عند الله والراســخين فيه لما علّمهم إيّاه من المعاني والتأويلات.

واختلف في القلم ما هــو؟ فقــالوا : إنّه القلم الــذي يكتب أقدار الله في اللوح المحفوظ ، قال الإمام الصـادق ـ عليه السلام ـ (يعني الله): ثم أخذ شجرة

(1) الأنبياء / 87.
(2) نور الثقلين / ج 5 ص 388.

فغرسها بيده ، ثم قـال : واليد القـوة وليس بحيث تـذهب إليه المشـبّهة ، ثم قـال لها : كـوني قلما ، ثم قـال له : اكتب ، فقال له : يا ربّ وما أكتب؟ قال : ما هو كائن إلى يوم القيامة ، ففعل ذلك [1] ، وفي حديث آخر قال لسفيان الثوري : «فنـون ملك يـؤدي إلى القلم وهو ملك ، والقلم يؤدي إلى اللوح وهو ملك ، واللـوح يـؤدي إلى إسـرافيل ، وإســـرافيل يـــؤدي إلى ميكائيل ، وميكائيل يـــؤدي إلى جبرئيل ، وجبرئيل يؤدي إلى الأنبياء والرسل صـلوات الله عليهم» [2].

ويبدو لي أنّ معـنى القلم يتسع لمصـداقها المعـروف عند الإنســان ، باعتبــار القلم وســيلة لنقل العلم وتثبيته بالكتابة ، والعلم قيمة اعتمــدها الــوحي ، فيكــون القسم بـالقلم كوسـيلة للعلم كاشـفا عن عظمته لأنّه يرفعه إلى مرتبة سائر الحقائق التي أقسم الله بها في القرآن ، وإذا كان الإنسان يستمد قوّة لحديثه بالقسم والمقسم به فإنّ كلام ربنا يعطي ما يحلف به قيمة وشـــــــأنا ، فنحن إذن نعرف عظمة القلم لأن ربنا أقسم به.

وهكـذا نسـتوحي من هـذا القسم دور القلم في منح المؤمنين الكرامة والعزة وفتح آفـاق العلم ، وأنّ علينا أن نملك ناصية القلم إذا أردنا امتلاك ناصية الحياة ، وقد قال ربنا سبحانه : (**عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ**) [3] ويدل على ذلك القسم بما يسطّر القلم (وهو العلم).

(**ن وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُونَ**)

قالوا : يعني الملائكة الذين يكتبون بـالقلم أقـدار الله في اللوح ، أي قسما باليراع

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 388.
(2) المصدر.
(3) العلق / 4 ـ 5.

وبما يكتبه سطرا بعد سـطر ، أو بما يسـطّره من العلـوم الحقّة ، فـإنّ العلم هو الآخر عظيم وحـريّ أن يقسم به ، وهكذا يأتي قسم القرآن بالقلم والعلم تمهيدا لتفنيد تهمة الكهانة والسحر والشعر من رسالة الله. وليعلم الناس أنّ العقل والـوحي صـنوان ، وأنّ الرسـالة والعلم كجنـاحي طائر تحلّق به الإنسانية عاليا ، وأنّ ما يتقوّله أدعياء الدين بـأنّ العلم ليس منه هـراء ، وما يزعمه أدعيـاء العلم بأنّه يتنافى مع الدّين ضلال بعيد .. فها هو الكتاب يشيد بـالعلم وبما يكتب به.

ونســـتوحي من كـــلّ ذلك أنّ موقع القلم هو خدمة الـدين والعلم لا تضـليل النـاس أو اسـتعبادهم ، ولا يكـون ذلك إلّا إذا تسـلّح به المؤمنـون وبـادروا للانتفـاع به قبل الجبّارين ومرتزقتهم السفلة.

[2] ويربط الـوحي بين حقيقة العلم الـذي يسـطّره القلم وحقيقة الرسـالة ، وقد ظهـرت هـذه الصـلة مـرة أخـرى في سـورة العلق عند قوله تعـالى : (**اقْـرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ**) [1] فما هي العلاقة بين الأمرين؟

إنّ هذا الربط يكشف بصـيرة مهمة وهي علاقة العلم بالإيمـــان ، وبتعبـــير آخر علاقة العقل بـــالوحي ، ذلك أنّ العقل هو الذي يذكّرنا بالوحي ويهدينا إليه ، كما أنّ الوحي هو الذي يسـتثير العقل ويسـتخرج كوامنه ويوجه مسـيرته نحو الحـق. وإنّ من يتعلّم ويقـرأ تجـارب العقل البشـري عبر التـاريخ لا ريب يهتـدي إلى أنّ الرسـالة الإلهية ليست جنونا ، ولا إلقاءات الشيطان ، ولا أسـاطير الأوّلين ، وأنّها لا يمكن أن تتـنزل إلّا من ربّ العـالمين ، لو أنصف الحق من نفسه وقصد سـواء السـبيل. إلّا أنّ المكـذبين يكيلـون التهم الباطلة الـتي يرفضـها كل عاقل ليـبرروا رفضـهم للحقيقة ، وتهـربهم من المسـؤولية الـتي تفرضـها. ثم هل اكتفوا بذلك؟ كلّا .. لقد حاولوا

(1) العلق / 3 ـ 5.

التأثير على الرسول ليـداهنهم في بعض قيم الرسـالة بما يحفظ مصـــــالحهم ويحوّلها إلى طائفة من الطقـــــوس الخفيفة الفارغة عن قيم الحق والتقوى والعدل والاجتهـاد ، فقـالوا له ما قاله الطغـاة لكـلّ مصـلح وداعية حق عـبر التاريخ. قالوا : إنّك لمجنون. لماذا؟ لأنّ القيم الـتي تـؤمن بها وتسعى لنشرها تتنـافى وقيم النخبة المسـتكبرة الـتي تتحكم بمصـائر النـاس ، ثم جنـدوا لنشر هـذه الـدعايات إمكانيــاتهم المادية والمعنوية ، وهكـــذا اســتهدفوا هزيمة المصلحين نفسيّا لعلهم يتنازلون عن بعض قيمهم.

وأمـــام الهجمة الـــتي يشـــنّها أولئك المضـــللون ضد الرسول والرسالة يقف الوحي مسـددا للرسـول ـ صلّى الله عليه وآله ـ ولكل الرساليين عبر التاريخ ومــدافعا عن قيم الحق حيث يؤكد القـــــــرآن أنّ ما يزعمونه ما هو إلّا كذب وافتراء ، وذلك بالتذكرة بالبصائر التالية :

أولا : إنّ الرسـالة الـتي يحملها الرسـول ويـدعو إليها نعمة إلهية لا يـدانيها جنـون ، لأنّها حيث يدرسـها الإنسـان ويتــــــدبر معانيها يجـــــدها قمّة العقل ، بل هي متقدمة بخطوات كثيرة على مسيرة العقل البشــري لأنّها من عند ربّ العقول.

(**ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ**)

لأنّ المجنون هو الذي سلب الله عقله ، بينما قد أنعم الله على رسوله بالوحي الذي يكمل العقل ، وكيف يكـون من يحمل للبشرية نور الحكمة والعلم والبصيرة مجنونا؟!

إنّ الرســالة الــتي تنظّم حيــاة الإنســان الشخصــية والاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسـية و.. و.. ، وتنطـوي على أسـرار الوجـود ، وتكشف للبشـرية السـنن الإلهية ، والأقدار التي تسيّر الخليقة ، وما أمر الخـالق به من خـير وما نهى عنه من ضر وسوء

وشر! بل وتتجاوز هذه الحياة إلى المستقبل الأبـدي البعيد لتحـدثنا عن العـالم الآخر وما فيه من حسـاب وجـزاء ، وتبيّن تفاصيل دقيقة متناسبة وعقل الإنسـان وأحاسيسه ، فهل يمكن أن تكون هذه الرسـالة طيشا ومن يحملها إلى الناس مجنونا؟!! وهل يتسنّى لغير المجنـون والمكـابر أن يتجاهل حقيقة الرسـالة الـتي هي نعمة ونـور ويـزعم بأنّها جنـون ونقمة وظلام؟! ولعلّنا نستشف من قوله سـبحانه «أنت» بـأنّ الـذي لا يكتشف الفـرق بينهما لهو المجنـون حقّا وليس أنت يا رسول الله.

وعند التأمّل في قوله الله : «**بِنِعْمَـةِ رَبِّكَ**» نهتـدي إلى فكرتين : الأولى : أنّ عظمة النـبي ـ صـلّى الله عليه وآله ـ ليست بذاته فهو بشر كسائر النـاس ، وإنما عظمته برسـالة ربه (نعمة الله عليـه) ، وقد قـدّم ربنا السـبب (نعمته) ربما لبيان أنّه ليس هناك سبب آخر غـير الرسـالة اسـتمد منه النـبي عظمته وبلوغه كمـال العقل ، والثانية : أنّ إضافة النعمة إلى الله سبحانه ينفي نفيا شديدا مزاعم الكفّار بأنّه قد تلقّى الـوحي من الجن (**فَقَـدْ جـاؤُ ظُلْمـاً وَزُوراً**) [1].

[3] ثانيا : إنّ النتائج والمعطيات العظيمة الـتي وصل إليها الرسـول في الـدنيا والـتي سـتكون له في الآخـرة أظهـرت بجلاء أنّ الرسـالة وحي ، وأنّ النـبي أعظم الخليقة ، وأنّ جهلهم هو الـذي جعلهم لا يفرّقـون بين العظمة والجنون ، ولا بين رسالة الغيب وأساطير الأولين. كيف ذلك؟

إنّ الكفّار والمشركين كانوا يعدّون الرسـول ـ صـلّى الله عليه وآله ـ مجنونا لأنه ينشد التغيـير الحضـاري الجـذري والشـامل ليس لمجتمع شـبه الجزيـرة العربية فقط بل للبشرية كلّها ، فيوحّد المجتمع المتمزق بالتنـاحر ، والمختلف بالأديان ، ويرقى به

(1) الفرقان / 4.

إلى قمّة التقدم الحضاري السـامقة ، وينتصر على أعدائه الأقويـاء والكثـيرين وهو اليـتيم العائل .. وما إلى ذلك من الأهــداف العظيمــة. كــانوا يعدّونه مجنونا لأنّه يطلب المســتحيل الــذي لا يخطر ببــال بشر ولا خياله ، ولكنّ القرآن جاء ونسف هذه المزاعم مؤكّدا بـأنّ النـبي يبلغ ما يريد بإذن الله ، كما قال في سـورة الضـحى : (**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى**) [1] وكما يقول في هذه السورة :

(**وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ**)

أي غير مقطوع ، فهو أجر متواصل يزداد مع الـزمن ، وما توسّع الأمّة التي بناها ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ إلّا جزء من ذلك الأجر ودليلا عليه ، فكيف وفي الآخـرة ما هو أعظم إذ يعطى من قبل الله الوســيلة والشــفاعة وأعلى درجات الجنة والثواب؟ إنّ بلـوغ الرسـول ـ صلّى الله عليه وآله ـ أهدافه الـتي تـراءت لهم بأنّها مسـتحيلة أوضح دليل على عقلانيته وسـلامة رسـالته الـتي حقّقت أهدافه باتباعها ، لأنّ وصـول الإنسـان إلى أهدافه يحتـاج إلى معرفة بسنن الحياة وقوانينها.

وكلمة أخـــيرة نقولها في الآية هي : أنّ تأكيد الله للنبي وكلّ رسالي يتبعه بأنّ له أجرا غير ممنون يصنع في الإنسان المـؤمن روح التعـالي على إغـراءات الـدنيا الـتي يقدّمها الأعداء والتي قد يثـني الافتتـان بها الرسـاليين عن أهدافهم الربّانية فيداهنون فيها.

[4] ثالثا : وآية أخـرى لعظمة الرسـول ـ صلّى الله عليه وآله ـ أخلاقه العظيمة التي فاق بها عظماء البشـرية وهم النـبيون والصـديقون مما يكشف مـدى كمـال عقله وعظيم حلمه وواسع علمه ونفاذ بصيرته.

---

(1) الضحى / 5.

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

وكفى بعظمة أخلاقه أن يصفه ربّ العـالمين بالعظمة ، وكيف لا يكون كذلك وقد أدّبه الله حتى قال ـ صلّى الله عليه وآله ـ : «لقد أدّبني الله فأحسن تأديبي» وقال الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ : إنّ الله عزّ وجلّ أدّب نبيه فأحسن أدبه ، فلمّا أكمل له الأدب قال : «وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ» [1].

ومن تأكيد الله أنّ الرسول «على» خلق عظيم يتبين أنّه ـ صلّى الله عليه وآله ـ ما كان يتكلّف الأخلاق ، ولا كانت عرضية تأتي وتزول ، بل هي سجايا وملكات اختلطت بكيانه فلا تفارقه ولا يفارقها ، وذلك من أفضل ما يصير إليه بشر في الأخلاق. وإنّما بلغ النبي تلك العظمة والمكانة الرفيعة لأنّه جسّد الدين في حياته ، قال الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ في قول الله : «الآية» : «هو الإسلام» [2] ، وقال : «على دين عظيم» [3] ، إذن فالطريق إلى العظمة موجود في القرآن ، ومن أرادها فإنّها ثمرة تطبيقه.

وحيث ندرس حياة حبيب الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ فإنّنا نهتدي إلى أنّ من أعظم أخلاقه وما يمكن لإنسان أن يبلغه هو سعة الصدر ، التي كانت آلته للرئاسة بعد الإسلام ، ووسيلته التي استوعب بها الناس في الدين ، وملك قلوبهم .. وفيهم العدو الحاقد ، والجلف الصلف ، والكافر الجاهل ، والمشرك الضال و.. و.. ، وإنّها لأهمّ ما يحتاجه المصلحون من الأخلاق ، ولذلك مدحه ربّ العالمين بها وثبّت ذكرها بالذات في كتابه من دون سائر الأخلاق فقال :

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 389.

(2) المصدر / ص 391.

(3) المصدر / ص 392.

(**وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**) [1] ، وروى الـبرقي عن أحد الأئمة ــ عليه السـلام ــ : إنّ الله تبـارك وتعـالى أدّب نبيه فأحسن تأديبه ، فقـال : «**خُـذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ**» فلمّا كـان ذلك أنزل الله «**إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**» [2] ، وهذه بعض أخلاقه ـ صلّى الله عليه وآله ـ : «كـان رسـول الله حييّا لا يسـأل شـيئا إلّا أعطـاه» [3] ، وكـان يقـول لأصـحابه : «لا يبلغني أحد منكم عن أصحابي شيئا ، فإنّي أحب أن أخـرج إليكم وأنا سليم الصدر» [4] ، و «كان أجـود النـاس كفّا ، وأكرمهم عشرة ، من خالطه فعرفه أحبّه» [5] ، «وكـانت له إذا شرب الماء ثلاثون سـنّة ، وليس من خلق حسن إلّا وكـان الأسـوة فيه ــ صـلّى الله عليه وآله ـ» [6] «بحيث اعترف له بذلك العدو والصديق ، والمسلم وغيره» [7].

[5] رابعا : ويبقى المســتقبل دليلا فصلا يكشف عن الحقيقة للجميع ، وهنالك يتـبيّن العاقل والمجنـون ، فهل هو أبو لهب وأعـداء الرسـالة الـذين خلّـدوا باللعنة ، أم الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ وأتباعه الصادقون؟

(**فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ**)

باعتبـار كل المقـاييس المادية والمعنوية عند ما يـأتي المستقبل بالحقيقة.

---

(1) آل عمران / 159.
(2) نور الثقلين / ج 5 ص 389 نقلا عن بصائر الدرجات.
(3) موسوعة بحار الأنوار / ج 16 ص 130.
(4) المصدر.
(5) المصدر.
(6) راجع المصدر من / ص 194 الى ص 294.
(7) راجع كتاب المائة الأوائل للدكتور مايكل هارت.

[6] (**بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ**)

أي المجنون [1] ، لأنّ افتتان الإنسان بأيّ شيء دليل اتباعه لغـير العقل ، فـإنّ العاقل لا ينهـزم في الابتلاءات وعند الفتن ، إنّما يتجاوزها وينتصر عليهـا. وهو المضـلل المصـدود عن الحق [2]. فـالمعنى أنّكم ستبصـرون في المستقبل بمن هو مجنون ومن هو عاقل ، أو تكـون البـاء بمعـنى في فيكـون المفهـوم أنّكم سـوف تـرون في أيّكم سكن الشيطان (المفتون عن الحـق) فأعمـاه عن رؤيته ، وفتنة مثله عنـه. وبالتـالي سـيظهر الطـرف المحق الـذي يتلقّى الهدى من ربه وهو الرسـول ، وأنّ الرسـالة ليست من إلقاءات الشيطان كما يزعم الجاهليون ، بل مواقفهم المعادية لها وللنـبي وبهتـانهم العظيم. ويبـدو لي أنّ البـاء هنا ضرورية وليس كما قال بعض المفسـرين أنّها زائـدة ، وذلك لأنّ الجنـون حقيقة معنوية لا يمكن أن يبصـرها الإنسان بذاتها ، وإنّما يبصـرها من خلال الـدلالات والعلائم الموحية بوجـوده ، فهو يبصر بالواسـطة ، ولعلّه لـذلك جـاءت البـاء في الكلمة «بـأيكم» كما جـاءت في قوله تعالى : (**وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَـيْناءَ تَنْبُتُ بِالـدُّهْنِ وَصِـبْغٍ لِلْآكِلِينَ**) [3] لأنّ الشـجرة لا تثمر دهنا وانّما تثمر ثمرة فيها الدهن.

ونستوحي من الآية أنّ المنهج السـليم لتقـييم الأمـور معرفة عواقبها ، لأن الإنسـان في بـادئ الأمر ومع المتغيرات قد يدخله الـريب والـتردد في استصـدار حكمه الأخـير على الأمـور ، ولكنّها حينما تسـتقر في مسـتقبل الزمن يرى بوضوح تام الموقف الواقعي الحق منها.

---

(1) المنجد مادة فتن.
(2) المصدر.
(3) المؤمنون / 20.

إذ الإحباطـــات الآنية الــتي يواجهها المؤمنـــون في مســيرتهم وانطلاقا من هــذه البصــيرة لا ينبغي أن تبعث فيهم اليأس أو التشكيك في صحة خططهم وسلامة قيادتهم ، فــإنّ المســتقبل مهما طــال الزمــان ورغم الظــواهر السلبية في صالحهم وفي صالح رســالتهم ، لأنّهم يتبعـون الحق.

[7] ومع أنّ هــذه من القواعد الأساســية الــتي يجب على الرساليين اعتمادها في تحركهم ، إلّا أنّهم يســتمدون مناعتهم بالحق ، وإيمانهم بسلامة الخط من الإيمــان بالله ، فليس المهم عندهم أن يكونوا في نظر الآخرين أصحاب حق ، أو أن يكشف لهم واقع الدنيا عن هذه القضية ، إنّما الأهم أن يكونـــوا عند الله من المهتـــدين ، ذلك أنّهم لا ينفعهم ثنــاء أحد إذا كــانوا عند الله من الضــالين ، كما لا يضــرهم شــيء لو كــانوا عنــده من أهل الهدايــة. وإنّ الرساليين إذا ما تمسكوا بهذا الأصل فلن يتأثروا بالضـغط أو الاعلام المضاد ، ولن ينال أحد من قناعتهم قيد شعرة.

(**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**)

والسؤال : كيف يكتشف الإنسـان واقع انتمائه هل هو إلى فريق الضالين أم إلى فريق المهتدين؟ وبتعبــير آخر : كيف يصل المؤمنـون إلى القناعة التامة والراسـخة بـأنّهم أهل الحق؟

والجــواب على ذلك : إنّ لله في هــذه الحيــاة ســبيلا واحــدا هو الصــراط المســتقيم (الحــق) الــذي يتجسد في رسالة الله وفي القيـادة الرسـالية وخططها السـليم ، فمن اتبع رســالته ودينه ، وســلّم لقيــادة الحق (الرسل وأئمة الهــدى الــذين يمثلـون امتـدادا حقيقيّا لهم عــبر التــاريخ) وانتمى لخطهم ، فهو من المهتـــــــــدين ، وإلّا فهو من الضالين.

ونهتــدي من الآية الكريمة إلى أنّ هنــاك علمين هما : علم الإنسان عبر عقله ،

العقل الـــذي يتجلّى في المســـتقبل ، وعلم الله الـــذي يكشفه الوحي ، وأنّ الإنسـان قد يعجز عن تميـيز الأشـياء بعقله ، بينما علم الله يجليه له تماما.

[8 ـ 13] ويمضي بنا السـياق إلى محـور أساسي في الســورة عند ما يــبيّن الموقف الســليم الــذي يجب على القيادة الرسالية اتخـاذه من قـوى الضـغط ، الـتي تحـاول التـأثير على القائد وتجيـير قراراته ومواقفه في صـالحها ، بتطويعه لخدمة أغراضــها من حيث يـــدري أو لا يـــدري ، وعادة ما تكون تلك القـوى من المـترفين أصـحاب المـال والقدرة الاجتماعية أو السياسية أو هما معا في المجتمع.

ويتوجه الـوحي بـالنهي إلى القائد بالـذات ، لأنّ قـوى المــترفين المســتكبرة تسـعى لإفســاد المجتمع ونظامه السياسي ، من خلال إفســاد جهــازه الــديني والســيطرة عليه ، لأنّ الســـيطرة عليه تجعلهم أســـرع نفـــاذا في المجتمع ، كما توفّر لفسادهم غطاء شرعيا. وهم يتسللون إلى الجهـاز الـديني ويـؤثّرون عليه بسـلاح المـال ، حيث يجعلونه يعتمد على أموالهم الـتي يقـدمونها خمسا وزكـاة وتبرّعا أو هدية ورشـوة. وإنّ هـذه الحقيقة تظهر بوضـوح حينما ندرس مسيرة الجهاز الديني عـبر التـاريخ وفي كـلّ المــذاهب والأديــان تقريبا ، فــالقوى المترفة هي الــتي حـوّلت الأحبـار إلى جماعة يكـنزون الـذهب والفضة وأداة طيّعة في أيدي أصحاب المـال والسـلطة. كما أنّ التحليل المتــأنّي لكثــير من الصــراعات الــتي كــانت تــدور بين القيــادات الدينية والمــترفين يؤكّد بــأنّ ســببها يكمن في رفض القيــادات الدينية لهم ولســيطرتهم على النــاس ، فهذا السامري ومن حوله بعض أصحاب المال في مجتمع بـني إسـرائيل يبغـون على موسى ــ عليه السـلام ــ لأنّه وقف ضد مطامعهم ومحـاولاتهم الخبيثة في تطويع الـدين لصالح شهواتهم وأهوائهم.

وموقف القرآن يبدو موقفا عنيفا وواضـحا في تحـذير الرسول

ـ صلّى الله عليه وآله ـ من المترفين ، لأنّ خطرهم عظيم وعادة ما يكـون متسـلّلا ، بعيـدا عن التحـديات والضـغوط المباشـرة الحـادّة ، فقد يظهر أحـدهم لـدى القـوة الدينية بمظهر التقوى والتأييد فإذا به يصارع الآخرين على الصفّ الأول من الجماعة ، ويبـذل الأمـوال الـتي تخـدم الجهـاز الـــديني ومشـــاريعه في المجتمع ولكن ليس لوجه الله وتقرّبا منه ، ولا عن قناعة بالقـــادة الـــدينيين أبـــدا ، بل لحاجة في نفسه هي أن يســـتغلهم لمصـــالحه وأهوائه ، اقتصـــادية أو سياســـية أو اجتماعية ، بإعطـــائهم الخط السياسي والاجتماعي الذي يناسبه من جهة ، وباسـتخراج الفتاوي التي تخدم أغراضه من جهة ثانية.

وتقسّم الآيات قوى الضغط المترفة إلى فريقين :

الفريق الأول : المكذّبون الـذين لا يؤمنـون بالرسـالة ولا بالرسـول ، كـالطواغيت الـذين يجـاهرون بالتكـذيب ، وكالقوى المستكبرة التي في عصرنا هـذا ، فهم أشـبه ما يكونون بالكفّار ، ولا ريب أنّ لهؤلاء أطمـاعهم تجـاه الأمة الإســلامية ، وبالتــالي فهم يســعون للتــأثير على قيــادة المجتمع الإسلامي الدينية وتطويعها.

إنّهم ـــ كما الفريق الثــاني ـــ لا يســعون في البــدء للقضــاء على الجهــاز الــديني إنّما يحــاولون الإبقــاء عليه ممســوخا ومفرغا من محتــواه الرســالي ، لكي يركبونه مطيّة إلى مصالحهم.

(**فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ**)

ويفضح القـــــــرآن خبثهم المتمثل في خطة المسخ والإفــراغ الــتي يتبعونها ، مبيّنا أنّهم يســعون لتغيــير بعض القيم ومواقف القيــادة لصــالحهم بمقايضة الــدين الحق بأموالهم ، وكأنّ قضية الحق كالتجارة تقبل البيع والشراء. فيجب أن تكون القيادة

الدينية (لكي تفشل المترفين في مـرامهم) على مسـتوى رفيع من تقوى الله فلا تخدعها زخـارف الـدنيا عن الحق ، وأيضا في مســتوى عــال من الــوعي السياسي والحنكة الإدارية والفطنة الاجتماعية ، ومستوى من الوعي يكشف مكرهم مهما كان خفيّا ومحكما ، ولذلك جـاءت النصـوص الدينية مؤكّدة على هذين الأمرين.

(**وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ**)

يبـدو أنّ أصل معـنى المداهنة جـاء من وضع الـدهن على الشـيء لكي يلين جانبه ويكـون مطواعا ، والمعـنى أنّهم يطمعـون لو أنّك يا رسـول الله تطيعهم في التنـازل عن بعض القيم الإلهية والمواقف فيبــادرون هم بالتنــازل عن بعض مواقفهم منك ومن الرسالة ، كما فعل من قبل بعض أحبار اليهود والنصارى.

وما أكثر ما تتعرض القيادات الرسالية لهذا اللـون من الضــغط المــاكر ، فما أحوجها لتقــوى اللــه. ولا ريب أنّ أعظم مداهنة يسـعى المـترفون لإيقـاع القيـادات الدينية فيها هي فصل الـــدين عن السياسة لكي يتســـنّى لهم التلاعب بمقـدرات الشـعوب بصـورة أفضل ، ولكي تبقى سـلطتهم في مـأمن من ثـورة المجتمع ، باعتبـار أنّ ربط الدين بالسياسة يبعثه نحو الثورة للتحرر والتغيير.

ويتـأثّر الإنسـان بالمداهنة عـبر أحد عـاملين : الأول : الافتتان بحطام الـدنيا الـذي يقدّمه المـترفون ، والثـاني : تغيير قناعة القائد بالقيمة الـتي يـداهن فيها فيتنـازل عنها بحثا عمّا هو أفضل منها ، ولـــذلك فـــإنّ المســـتكبرين يوظّفون جانبا كبـيرا من إمكانـاتهم الإعلامية لتحقيق هـذا الهـدف ، بمحاربة قناعــات الرسـاليين ليس في المجتمع وحسب بل في داخل أنفسهم أيضا ، فمثلا تـراهم يوحـون عـبر إعلامهم المضـلل بـأنّ المجاهـدين الـذين يسـعون للإصـلاح الشـامل إرهـابيون ، ويضـربون على هـذا الـوتر طويلا لعلهم يجـدون تجاوبا عند بعض المجاهـدين فيغيّـروا من خططهم بما

لا يتنافى ومصالح المستكبرين! كما كانوا أيّام رسـول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ حيث كـانوا يسـمّونه مجنونا لأنّه أراد تغيـير الواقع والإنسـان تغيـيرا جـذريا ، طمعا في هزيمته نفسيّا ثم تنازله عن ذلك الهدف العظيم.

ومن الجـدير ذكـره هنا أنّ من أسـباب تحريف الديانة المسيحية واليهودية في التـاريخ أنّ القيـادة الدينية تـأثرت بعاملين : أحدهما الخوف من المترفين الجبّـارين ، والآخر الرغبة في استقطاب المزيد من الجماهير في ظلّ حماية الدولة ، ممّا دعـاهم إلى المداهنة بحـذف بعض القيم والأحكام التي في الإنجيل والتوراة ، وإدخال بعض الأفكار والأحكام التي تتوافق مع أهواء الناس ، ونسوا أنّ ما بقي لم يعد دين الله ، بل دين الجبّارين ، وأنّهم بـذلك أصـبحوا خـدما في بلاط السـلاطين وليسـوا منقـذين لعبـاد الله المحرومين!

الفريق الثـاني : المنـافقون في المجتمع المسـلم ، الذين يتمسكون بقشور الدين ، كالصلاة الـتي لا تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والصوم الذي لا يورث تقوى ولا يعطي صاحبه إحساسا بألم الفقراء ، والإنفاق المحفـوف بالريـاء وحب السـمعة ، وهكـذا الممارسـات الـتي فـرّغت من محتوياتها الإصـلاحية ، وهـؤلاء لا ريب يكـذّبون بكثـير من الحقائق الإلهية كالجهـاد ، وحرمة الاسـتغلال ، ويـودّون لو تداهنهم القيادة الرسـالية ، ولكنّهم لا يجهـرون بـذلك. وما يبدو من الآيات التي تبيّن صـفاتهم أنّ أهمّ هـدف يسـعون لتحقيقه من تـزلّفهم للجهـاز الـديني في الأمة أن يجعلـوه مقمعا في أيـديهم يضـربون به الآخـرين ، كـالمحرومين المستضـعفين والمصـلحين المغيّـرين أفـرادا وجماعـات ، والسبب أنّهم لا يريـدون إلّا مصـلحتهم ، كما أنّهم أول من يعارض الإصلاح والتغيير ، ذلك أنّ وجود الأنظمة الفاسـدة والمنحرفة عن الحق عامل أساسي في اسـتغلالهم للطبقة المحرومة ووصولهم إلى مآربهم الماديـة. فما هي صفات هذا الفريق؟

1 ـ المبالغة في الحلف إلى حـدّ الاحـتراف ، من أجل إعطاء كلامهم قيمة شرعية ومن ثمّ التأثير به على موقف القيـادة ورأيها ، بالـذات وأنّ للأيمـان اعتبـار عظيم عند المؤمـنين ، ولا يعـني ذلك أنّ المـترفين من هـذا الفريق يقتصـرون على مجـرد الحلف ، فهم يكـذبون وينمّقـون الكلام بشتى الوسائل ، وما الحلف إلّا واحـدا منها ، وعلى القائد أن يحذرهم.

(**وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ**)

ويبدو أنّ كلمة «مهين» من الهـوان والضـعة حيث أنّ الحلّاف إنّما يلجأ إلى ذلك لكونه حقـــيرا في نفسه وعند النـــاس ، وانطلاقا من ذلك يحس على الـــدوام ويظنّ أنّ كلامه لن يعطى اعتبـارا وقيمة عند الآخـرين ، الأمر الـذي يلجـؤه إلى المبالغة في الأيمـان ليصـطنع قيمة لكلامه بها لعله يكون مقبولا.

وعادة ما يحاول الوضـعاء الـذين تمكّنت من أنفسـهم عقـدة الحقـارة أن يوصـلوا أنفسـهم بمراكز القـوى في المجتمع دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية ليغطّوا على ضـعتهم ويجـبروا نقصـهم ، وإنّك لو فتشت في أجهـزة القمع والتجسس الطاغوتية فلن تجد إلّا أمثال هؤلاء.

2 ـ الهمز والمشي بالنميمة في المجتمع ، وبالخصوص عند القيادة ، وذلك لأهداف ثلاثة :

الأول : لكي يبقوا هم في المجتمع الشخصية الأفضل ، فتجدهم يسقطون شخصيات ويضـعفونها بتقليل قـدرهم عند القيـادة وتلصـيق التهم ضـدهم ، ولقد ثبت في علم النفس أنّ أصحاب عقدة الهوان والحقـارة تنمو فيهم روح الانتقام من المجتمع ، ويسعون لكي يكون مجتمعا ساقطا مثلهم فلا يحسبون شاذّين.

الثــاني : فصل القيــادة عن المجتمع حــتى تظل أذنا صـاغية لهم وحـدهم فتكـون قراراتها ومواقفها لصـالحهم فقط ، بل لا يريدون أحدا سواهم يتصل بمركز القــوّة في الأمة ، لتكـــون لهم اليد الطــولى فيهـــا. ولأنّهم عـــادة ما يكونـــون من الطبقة المســـتكبرة المترفة فإنه يهمّهم أن يوجـدوا فاصـلة بين الأمة وبين القيـادة لكي يبقى النـاس فريسة لسياســاتهم الاســتغلالية والمنحرفة دون علم من القيادة يدعوها للتدخل ضدهم.

الثالث : ضـرب القـوى الإصـلاحية والمنافسة ، فـأنّى ظهـرت بـوادر الإصـلاح تصـدوا لها ، وسـوّدوا الصـفحات بالتقـارير المضـللة الـتي لا تحـوي سـوى الطعن والكـذب على الآخـــرين ، وملأوا بيت القيـــادة وأذنها بالشـــائعات المغرضة وبالتهمة والبهتـــان ، وكـــلّ ذلك ليصـــير القائد مقمعا في يدهم يضربون به يمينا وشمالا هذا العالم وذلك الثائر وتلك الحركة الرسالية.

(**هَمَّازٍ**)

قيل : الهمّـــاز هو المغتـــاب ، وفي المنجد : الطعّـــان العيّـــاب النخّـــاس [1] وقـــال صـــاحب البرهـــان : لكن في الصحاح همـزه أي دفعه ، وقـوس همز أي شـديدة الـدفع للسهم ، وفي النهاية : كل شيء دفعته فقد همزته ، وفي سورة المؤمنين : (**أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ**) أي وساوسهم ونخساتهم وغمـزاتهم [2] وأضـاف مجمع البيـان قـائلا : والأصل فيه الـدفع بشـدة اعتمـاد ، ومنه الهمـزة حرف من الحروف المعجمة فهي نـبرة تخـرج من الصـدر بشدة اعتماد [3] ، ويبدو لي أنّ الهمّاز هو الذي يثير الناس ويستحثهم ويحرّكهم ضد الآخـرين بـالكلام أو الفعل ، وآلة الهمز حديدة

---

(1) المنجد مادة همزة.
(2) تفسير البرهان / ج 4 ص 340.
(3) مجمع البيان / ج 10 ص 331.

في مؤخّر خف الرائض ، أو عصا في رأسها حديدة تنخس بها الدابة [1] فتستثار لتحث المشي. وما أكثر ما جرّ المترفون بهمزهم القيادات عبر التاريخ إلى مواقف وآراء راح ضحيتها الأبرياء والصالحون. ولعلّ من وسائل همزهم النميمة التي يبالغون فيها وفي المشي بها بين الناس كما تمشي جراثيم الأوبئة بالمرض.

(**مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ**)

فأنّى ما حلّ وارتحل حمل معه داء التفرقة ، والنميمة هي نقل كلام الناس على بعضهم عند بعض ممّا يميت الألفة ويحيي الفتنة ، وهي بذلك تعدّ من أعظم الذنوب وأخطرها لأنّه يهدّد وحدة الأمّة وصفاء أجوائها ، وإلى هذه الحقيقة وردت الأحاديث الإسلامية : قال رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ : «يا علي كفر بالله العظيم من هذه الأمة عشرة (منهم :) العيّاب والساعي في الفتنة» [2] ، وقال ـ صلّى الله عليه وآله ـ : «**ألا أخبركم بشراركم؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : المشّاؤون بالنميمة ، المفرّقون بين الأحبة ، الباغون للبراء العيب**» [3] ، وقال الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ : «**ثلاثة لا يدخلون الجنة : السفّاك للدم ، وشارب الخمر ، ومشّاء بنميمة**» [4].

3 ـ منع الخير عن الغير والاعتداء عليهم وممارسة الإثم ، وهذه كلّها من الصفات اللصيقة بالمنافقين إذ أنّهم يريدون الخير لأنفسهم فقط ، لذلك يقفون أمام أيّ محاولة من قبل القيادة للإصلاح ، ويمنعونها بالتعويق والتثبيط عمليّا وبالرأي ، فليس من صالحهم أن يعمّ الرفاه الاقتصادي كل أفراد المجتمع ، وأن تزال

---

(1) المنجد مادة همز.
(2) كتاب المواعظ للشيخ الصدوق / ص 11.
(3) نور الثقلين / ج 5 ص 393.
(4) الخصال / ص 180.

الطبقية ، لأنّ قـوّتهم الاجتماعية والاقتصـادية قائمة على معادلة الاستكبار والاستضعاف ، والغـنى والفقر ، وبعبـارة : على دماء الآخرين وحرمانهم.

(**مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ**)

وتتسع الكلمة إلى مصـاديق كثـيرة منها أنّ هـؤلاء حينما يتحلّقون حول القيـادة يعملـون على حصر اعتمادها فيهم ، وسد الأبواب أمـام أيّة كفـاءة سياسـية أو إدارية أو اقتصـادية ناشـئة. وأعظم خـير يمنعونه أئمة الهـدى أن يأخذوا مواقعهم الشرعية في المجتمع .. وقد أشار القمّي في تفسـيره إلى ما ذكرنا مـؤوّلا فقـال : (الخـير أمـير المؤمنين) [1].

ولا يكتفي المنـافقون بمنع الخـير عن الآخـرين ، بل يتمـادون في غيّهم إلى حـدّ الاعتـداء على حـدودهم وحقوقهم ، ماديّا بضربهم إذا كانوا منافسين أو معارضـين ، وباسـتغلالهم إذا كـانوا من المحـرومين ، ومعنويّا بـالتهم المغرضة وتشوية سمعتهم و.. و..

(**مُعْتَدٍ أَثِيمٍ**)

ولأثيم تفسـيران : الأول : بـالنظر للكلمة كشـيء مستقل فيكون المعـنى أنّهم في حـدود علاقتهم مع الغـير يتّصـفون بمنع الخـير والاعتـداء ، وفي حـدود أنفسـهم يتّصـفون بمخالفة أحكـام الله (الإثم) كشـربهم الخمر وظنهم السـوء والحقد والحسد ، وبصـورة مبالغة كمّا ونوعا ، لأنّ أثيم صيغة مبالغة من الآثم.

والثاني : بالنظر إلى الكلمة متصلة بما قبلها «معتـد» وفي ذلك معان منها : أنّ اعتـداءهم لا يقـوم على الحق ، فهناك تجاوز على الآخرين بالحق كالذي أمر الله به في

(1) تفسير القمي / ج 2 عند الآية.

قوله : (**فَمَنِ اعْتَـدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَـدُوا عَلَيْـهِ بِمِثْـلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ**) [1] ، وهناك تجاوز بالباطل والإثم ، ومنها : أنّ اعتداءهم ليس عرضا بل هو من طبيعتهم ومتجـذّر في نفوســهم الــتي جبلت عليه ، فما هو إلّا مظهر يعكس ما انطــوت عليه أنفســهم من الإثم العــريض ، ومنها : أنّهم حين يعتدون يوغلون في الاعتداء بالمبالغة في آثامه.

وإنّه لثــابت علميّا وعمليّا أنّ المعتــدي لا يعتــدي في الواقع الخــارجي ويتجـاوز الحـدود حـتى يكـون قد تجـاوز الحدود في داخل نفسه ، وأسـقط اعتبـار الحق والآخـرين قبل ذلك في نفسه وتفكــيره. فلاعتــداء هــؤلاء فلســفة تتأسس عليها حيــاتهم حيث أنّهم لا يعــترفون بوجــود حق يجب الالـتزام به واحترامه وبوجـود حـدود وقـوانين تفصل بين الناس.

4 ـ وكما تتداعى صفات الخير في الصالحين تتــداعى صــفات الشر في المفســدين ، فهم يبــدءون من الحلف ولكنّهم لا ينتهــون عند الاعتــداء والإثم بل يتســافلون بعد ذلك إلى صفات سيئة أخرى.

(**عُتُلٍّ بَعْدَ ذلِكَ زَنِيمٍ**)

فما العتل وما الزنيم؟

ألف : العتل ، قالوا : إنّه شـخص عظيم الجثة ، قـبيح المنظر ، ناقص الخلقة.

ولعلّ ما ذهب إليه المفسرون كان بسـببين : أحـدهما : بـــــــــــــــــــــــــــــالنظر إلى تأويل الآية في (الوليد بن المغــيرة) واتخــاذه مقياسا لصــفاته المعنوية والمادية السيئة ، والآخر :

---

(1) البقرة / 194.

استلهامهم هـذا المعـنى من الحـديث المـأثور عن رسـول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ لمّا سـئل عن العتل الـزنيم : «هو الشديد الخلق ، الشحيح ، الأكـول الشـروب ، الواجد (شـديد الحب) للطعـام والشـراب ، الظلـوم للنـاس ، الرحيب الجوف» بيد أنّ هـذه الصـفات ـ حسـبما يبـدو ـ ليست مقصـودة بـذاتها ، بل هي في حقيقتها كنايـات عن صـفات معنوية أو مقارنـات معها تتصل بـأخلاق الإنسـان ، والشاهد على ذلك ما جاء في اللغة من جـذر هـذه الكلمة حيث نقرأ في اللغة : عتله : جذبه وجرّه ، يقـال عتله إلى السـجن أي دفعه بعنف [1] ، وقـال الله يـأمر خزنة النـار بعذاب الأثيم : (**خُـذُوهُ فَـاعْتِلُوهُ إِلى سَـواءِ الْجَحِيمِ**) [2] أي ألقوه بدفع وعنف ، والعتل : الجافي الغليظ [3] ، وفي بعض الروايـات قـال رسـول الله (ص): «رحب الجـوف ، سيء الخلق ، أكول ، شروب ، غشوم ، ظلـوم [4] ، وعن ابن مسـكان عن محمد بن مسـلم قـال : قلت لأبي عبد الله الصادق ـ عليه السلام ـ : ما معنى قول الله عزّ وجلّ : «الآيـة»؟ قـال : «**العتل العظيم الكفر**» [5] ، والـذي يبـدو لي أنّ الكلمة تتسع إلى الكثـير من صـفات الشر والباطل ، ولا يكون الإنسان عتلا حـتى يعظم انحرافه كما قال الإمـام الصـادق (ع) ، وتتـداعى فيه الصـفات السـيئة تسـافلا نحو الحضـيض ، وذلك ما يشـير إليه السـياق القرآني حيث جعل (العتل) من آخر الصفات ، وقـال مبيّنا أنّها تأتي بعد اجتماع كثير من الصفات السيئة في الإنسان «بعد ذلك» فهي غاية الشر ، ومجمع الأخلاق الدنيئة.

باء : الزنيم .. هو اللصيق والمزنّم اللاحق بقـوم ليس منهم ولا هم يحتاجون إليه

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 394 عن المجمع.
(2) الدخان / 47.
(3) المنجد مادة عتل.
(4) مجمع البيان / ج 10 عند الآية.
(5) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 394 نقلا عن عيون الاخبار.

فكأنّه فيهم زنمة [1] ، وسمّي الـدّعي زنيما لأنّه شـاذ عن المجتمع ولا ينسجم معه فكأنّه من غير جنسه ، ولعلّ هذه الكلمة تتسع للعملاء الـــدخلاء على المجتمع الإســـلامي ، والمتصـــلين بأعدائه العــاملين لمصـــالحهم ، وما أقـــرب المنافقين من حقيقة الكلمـة. أو ليسـوا في الأمة وليسـوا منها ولا معها؟

وكلمة أخـــيرة نقولها في الآيـــات : أنّ نهي الله عن الطاعة للـذين مـرّ ذكــرهم هو نهي عن اتخــاذهم بطانة للقيــادة وأعضــاء في جهازها الـديني والسياسي لما في ذلك من أخطـــار عظيمة على واقع الأمّة ومســـتقبلها ، وعلى مســيرة القيــادة الفكرية والإيمانية والسياســية ، ومكانتها الجماهيرية في المجتمع.

[14] ويـبيّن السـياق جـذور الصـفات السـيئة عند المنافقين وهما اثنان :

الأول : الافتتان بالـدنيا. وقد ذكر الأمـوال والأولاد من زينة الدنيا لأنّهما غاية ما فيها ، والمـال لا يقصد به الـدينار والدرهم بل هو كل ما يملكه الإنسان من حطامها والمـال رمزه ، كما أنّ الأولاد لا ينحصرون في الأبنـاء من الصـلب وحسب بل هم كل أتبـــاع المـــترفين ، والأولاد أقـــرب المصـاديق في التبعية والطاعة ، وهـذا ما أكّـده الله في قوله :

(**الْمالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا**) [2] ، وافتتان الإنسان بهما يعني حبه للدنيا و «رأس كل خطيئة حب الدنيا» [3] ، كما قـال الإمـام الصـادق (ع) ، أو كما قـال رسـول الله (ص): «**حب الدنيا أصل كل معصـية وأول كل ذنب**» [4].

---

(1) المنجد / مادة زنم.
(2) الكهف / 46.
(3) موسوعة بحار الأنوار / ج 73 ـ ص 7.
(4) تنبيه الخواطر / ص 362.

(**أَنْ كانَ ذا مالٍ وَبَنِينَ**)

يعني أنّ أصل صفات المنافقين والمترفين الذين نهى الرسـول عن طـاعتهم والـتي ذكرها القـرآن في الآيـات السـابقة (الحلف والمهانة والهمز والنميمة ومنع الخـير والاعتـداء والإثم والعتالة والزنامـة) كلّها الافتتـان بالـدنيا (المـال والبـنين). إذن فطريق تكامل أخلاق الخـير في شخصـية الإنسـان ، وبالتـالي التسـامي إلى قمة الفضـيلة السـامقة (أعـني التوحيـد) لا يكـون إلّا بتجـاوز فتنة الـدنيا بأموالها وبنيهـا. وليس تجـاوز الفتنة بنبذ المـال والأتبـاع ، لأنّها حينما يحسن البشر التصرف فيهما يكونان خير معين له على الرقي في سلّم الكمال الأخلاقي والإيماني ، ففي الحديث الشريف عن النبي (ص): «نعم العون على تقوى الله الغـنى» [1] ، وعن الإمـام الصـادق (ع): «نعم العـون الـدنيا على الآخـرة» [2] ، أو ليس العـوز سـبب التبعية ، والحاجة تؤدي إلى الذل؟

ونهتدي إلى فكرة أخـرى هامة حينما نربط هـذه الآية بنهي القيـادة عن طاعة المـترفين ، وهي : أنّ القائد قد ينخـدع هو الآخر بما عنـدهم من حطـام الـدنيا (أمـوالا وأتباعا) فيطيعهم أو يداهنهم طمعا فيهما أو خشية منهما ، ويجب عليه أن يتجـاوز هـذه العقبة بالتوكل على ربه والرغبة فيما عنده.

[15] الثاني : نبذ رسالة الله وراء ظهـورهم. وما هي رسالة الله؟ إنّها الحق والفضيلة ، وحيث رفضوها واتبعـوا أهـواءهم وشـهواتهم فقد اختـاروا الباطل على الحق ، والرذيلة على الفضيلة.

(**إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ**)

---

(1) فروع الكافي / ج 5 ـ ص 71.

(2) المصدر / ص 72.

أي ؛ انها قيم رجعية لا تنســـــجم مع الواقع المعاصر فهي أسـاطير تشـبه ما يسـطّره الأولـون بخيـالاتهم من القصص البعيــدة عن واقع الحيــاة وحقائقها ، وهــذه من طبيعة الإنســان حينما يتكــبر ويعاند لا يبحث عن صــحة الفكــرة ، ولا كونها حقّا أم بــاطلا ، وإنّما يبحث قبل ذلك وبعده عن التـبرير بغضّ النظر عن سـلامته .. فـالمهم أن يقدّم عذرا مبرّرا ، ولكن هل درس المـترفون رسـالة الله دراسة موضـوعية عقلانية أو صـلتهم إلى هـذا الحكم ، أم أنّهم وجـدوها لا تتفق مع أهــوائهم ، ووجـدوا الرســول لا يـــداهنهم ولا يطيعهم فقـــالوا ذلـــك؟ بلى. إنّهم ربطـــوا الرسالة بمصدر بشـري (الأولين) ولم يربطوها بالله حـتى يهربـوا من مسـئولية الحق ، ولكن هل يصـير الحق بـاطلا بمجرد أن يقول أحد أنّه أسطورة أو باطـل؟ كلّا .. وهكـذا لا تغيّر أباطيل المـترفين من حقيقة الرسـالة شـيئا أبـدا ، ودليل ذلك أنّهم لن يفلتوا من الجزاء.

[16] بل سيتأكد لهم يوم الجزاء أنّ الرســالة حقـائق واقعية عند ما يجازيهم الله ويعـذّبهم ، وهـذا ما يوضّـح لنا العلاقة بين قــول المـترفين أن الرسـالة أسـاطير الأولين وبين قول الله مباشرة :

(**سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ**)

والوسم : العلامة الـتي يعـرف بها الشــيء ، ويقــال للكي وســما لأنّ العــرب كـانت تحمي حديـدة تكـوي بها الدواب لتكون فيها علامة مميزة ، والميسم هو آلة الوسم ، وإنّ المترفين ليكوون يـوم القيامة بمياسم خزنة النـار ، الـتي تـترك عليهم علامة يعـرفهم بها الخلائق فيفتضـحون ويعيبونهم على أفعالهم وذنوبهم الدنيئة. وقد نستوحي من هــذه الآية أنّ الإنســان وحــتى المــترف لا يعــترف وهو يمــارس الــذنب كــالهمز والنميمة ومنع الخــير أنّه على الباطل ، بل يخفي الحقيقة بشــتى الوســائل والمــبررات عن الآخرين ، ولذلك كان من جزائه في الآخـرة الفضـيحة بالوسم على

الخرطوم ، فما هو الخرطوم؟

في المنجد : خــراطيم القــوم ســاداتهم وأبــرزهم ، يسمّى بذلك الأنف ، ويستعمل خصوصا للفيل [1] ، وقيل للأنف خرطوما لأنّ الوجه أبــرز ما في الإنســان ، والأنف أبرز ما في الوجه ، وربما وصف القـرآن أنـوف المـترفين بـالخراطيم (أنــوف الأفيــال الطويلــة) لأنّهم عــادة ما يشـمخون بها على النـاس اسـتطالة وتكبّـرا ، حـتى لتكـاد تطول لو أمكنها. وقد تمحورت كنايـات العـرب عن التكبّر حــول الأنف ، يقولــون : شــمخ بأنفه ، وأرغم الله أنفه ، وآتي بــرغم أنفه [2] ، وحيث يعــذّبهم الله بالوسم على أنوفهم فذلك إهانة لهم باعتبارها مقياس العـزة والتكـبر ، يقال : أعزّ الله أنوفهم إذا رفع القـوم شـأوا. ولعل الكلمة تتسع إلى اللســان الــذي يحلفــون به ، ويهمــزون به ، وينمّون ، ويمنعون الخير ، ويحاربون به الرسول والرسالة ، وما إلى ذلك من سائر المعاصي التي يلعب اللسان فيها دورا رئيســيا ، وإنّما يطيل الله أنــوفهم أو ألســنتهم في الآخرة لتستوعب بمساحتها قدرا أكبر من العذاب.

قصة أصحاب الجنة :

[17 ـ 20] ويشبّه القرآن واقع المترفين مذكّرا بقصة أصـحاب الجنة ، لأنّهم كهـؤلاء افتتنـوا بزينة الحيـاة الـدنيا فاتبعوا الأهواء وخالفوا الحق واستكبروا على المحــرومين ، لو لا أنّهم بعد طــائف من الله عليها اكتشــفوا خطــأهم وبادروا إلى التوبة خشية العذاب الأكـبر في الآخـرة. قـال ابن عباس : (إنّه كان شيخ كـانت له جنّة ، وكـان لا يـدخل بيته ثمرة منها ولا إلى منزله حتى يعطي كلّ ذي حقّ حقّه ، فلمّا قبض الشــيخ وورثه بنــوه ـــ وكــان له خمسة من البنين ـ فحملت جنتهم في تلك

(1) المنجد / مادة خرط (12) بتصرف.
(2) مجمع البيان / ج 10 عند الآية.

السنة الـتي هلك فيها أبـوهم حملا لم يكن حملته من قبل ذلك ، فراحــــــوا الفتية إلى جنتهم بعد صـــــــلاة العصر ، فأشرفوا على ثمرة ورزق فاضل لم يعاينوا مثله في حياة أبيهم ، فلما نظروا إلى الفضل طغوا وبغوا ، وقال بعضهم لبعض : إنّ أبانا كـان شـيخا كبـيرا قد ذهب عقله وخـرف فهلّمـــوا نتعاهد ونتعاقد فيما بيننا أن لا نعطي أحـــدا من فقراء المسلمين في عامنا هذا شيئا ، حتى نستغني وتكثر أموالنا ، ثم نسـتأنف الصـنعة فيما يسـتقبل من السـنين المقبلة ، فرضي بذلك منهم أربعة وسخط الخامس ، وهو الذي قال تعالى : (**قالَ أَوْسَـطُهُمْ أَلَمْ أَقُـلْ لَكُمْ لَـوْ لا تُسَبِّحُونَ**).

فقـال لهم أوسـطهم : اتقـوا الله وكونـوا على منهـاج أبيكم تسلموا وتغنموا ، فبطشوا به فضربوه ضربا مبرحا ، فلمّا أيقن الأخ أنّهم يريــــــــــــدون قتله دخل معهم في مشورتهم كارها لأمرهم ، غير طائع ، فراحوا إلى منازلهم ثم حلفوا بالله أن يصرموه إذا أصبحوا ولم يقولوا إن شاء الله ، فـابتلاهم الله بـذلك الـذنب ، وحـال بينهم وبين ذلك الرزق الذي كانوا أشرفوا عليه) [1].

ولعـلّ في القصة إشـارة إلى أنّه تعـالى أجـرى نفس السنّة على المترفين أو طالهم منه شيء من العـذاب في الدنيا ، وفي رواية أبي الجارود عن الإمام الباقر (ع) تأكيد لــذلك ، قـــال : «إنّ أهل مكة ابتلــوا بـــالجوع كما ابتلي أصحاب الجنـة» [2] ، وإذا لم يكن أهل مكة بـأجمعهم فلا أقل مصاديق الآيات السابقة كالمغيرة وآخرين ممّن نزلت في شأنهم يومذاك. قال تعالى :

(**إِنَّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ**)

أي اختبرنـــاهم بـــالثروة بمثل ما اختبرنا أصـــحاب المزرعة وما دامت السنن الإلهية في

---

(1) تفسير القمي / ج 2 ـ ص 381.
(2) المصدر / ص 382.

الحياة واحدة فيجب إذن أن يعتبر الإنسان بالآخرين سـواء المعاصـرين له أو الـذين سـبقوه ، وأن يعيش في الحيـاة يتّلمذ فإنّها مدرسة وأحـــداثها خـــير معلّم لمن أراد وألقى السمع وأعمل الفكر وهو شـهيد ، وبهـذه الهدفية يجب أن نطالع القصص ونقرأ التـاريخ ، فهـذه قصة أصـحاب الجنة يعرضها الـوحي لتكـون أحـداثها ودروسـها موعظة وعـبرة للإنسانية.

والقرآن في عرضه لهـذه القصة الواقعية [1] لا يحـدثنا عن الموقع الجغـرافي للجنة هل كـانت في اليمن أو في الحبشة ، ولا عن مسـاحتها ، ونـوع الثمـرة الـتي أقسم أصحابها على صرمها ، لأنّ هذه الأمور ليست بذات أهمية في منهج الـــــــــوحي ، إنّما المهم المواقف والمواعظ والأحداث المعبّرة سواء فصّل العرض أو اختصر وأوجز.

(**إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ**)

أي أول الصـــباح ، وخلافا لعـــادة الفلّاحين الـــذين يصـــرمون بعد طلـــوع الشـــمس ، وذلك لكي لا يعلم المسـاكين بـالأمر فيحضـرون طلبا للمعونة ، ويظهر أنّهم تعاقـدوا على ذلك ليلا. والصـــرم أصـــله القطع ، يقـــال : تصـارم القـوم إذا تقـاطعوا وهجر بعضـهم بعضا ، وسـيف صـارم يعـني شـديد القطع ، والرجل الأصـرم الـذي قطع طـرف أذنيه ، وصـرم النخل إذا قطع عروقها .. ولعل في الآية إشـارة إلى نـوع شـجر الجنة بأنّه مما يصـرم كالنخل والعنب وليس مما يحصد كالحنطة أو يجـــنى كالفاكهـــة. والقسم هو غاية العـــزم والإصـــرار. ولعلهم إنّما تحـــالفوا وتعاقدوا لكي لا ينفـرد بعضـهم بإعطـاء شـيء للفقـراء أو إفشـاء سر مـؤامرتهم حيث يبـدو أنّ بعضـهم كـان مخالفا لمثل هذه العملية وهو أوسطهم.

(1) أقول واقعية لأنّ بعض المفسرين والـذين درسـوا القصص القرآنية حـاولوا تصـويرها بأنّها قصص خيالية وهمية وضـعها الله لتكـون وسـيلة لأفكار القرآن ، وليس في ذلك مقدار من الصحة.

(**وَلا يَسْتَثْنُونَ**)

وتنطوي هذه الآية على معنيين : أحدهما : الاستثناء بمعنى أخذ مشيئة الله والمتغيرات بعين الإعتبار ، فإنّه نهى سبحانه أن لا يعلّق أحد عزمه وقراره بمشيئته فقال : (**وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ**) [1] وهذه حقيقة علمية واقعية أنّ الإنسان العاقل حينما يخطط لأمر ما يجب أن يضع في فكره الاحتمالات الممكنة التي قد يواجهها في المستقبل ، ولقد أثبتت التجارب العلمية ما نعايشه يوميّا من احتمالات الخطأ ومخالفة ما نخططه عمّا يقع فعلا ، مما يكشف أمرين : الأول : جهلنا بكلّ الحقائق التي قد تقع ، والثاني : أنّ هناك إرادة فوق القوانين والأنظمة الواقعية يمكن أن تخرقها وتخرب الحسابات والخطط في أيّة لحظة بحيث لا يملك الإنسان إلّا الاستسلام لها ، أو يكون قد استعد للأمر سابقا ووضع الخطط المناسبة ، وتعرّفنا البصائر الإسلامية بتلك الإرادة أنّها مشيئة الله عزّ وجلّ .. يقول الإمام علي ـ عليه السلام ـ : «**عرفت الله سبحانه بفسخ العزائم ، وحل العقود ، ونقض الهمم**» [2] ، وما أكثر البحوث الفلسفية التي تفتح هذه الآية آفاقها أمام المتدبر ، والتي خاض فيها المفسرون والفلاسفة.

الثاني : الاستثناء بمعنى الاقتطاع والعزل من الثمر للفقراء والمساكين. ولقد أغفل أصحاب الجنة قول «**إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ**» كما عقدوا العزم بالأيمان المغلّظة أن لا يعطوا ولا فقيرا واحدا شيئا مما يصرمون ، ولكن هل أفلحوا في أمرهم؟ كلّا ..

(**فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نائِمُونَ**)

---

(1) الكهف / 23 ـ 24.

(2) نهج البلاغة / حكمة 250.

قبل حلول موعدهم الـذي تعاقـدوا على أن يهبّـوا فيه للصرم (أول الصباح) ، وما يـدريك لعلهم نـاموا أول الليل طمعا في الجلـوس مبكّـرين. بلى. إنّ الله الـذي لا تأخـذه سنة ولا نوم ما كان ليغفل عن تـدبير خلقه وإجـراء سـننه في الحياة ، فقد أراد أن يجعل آية تهـديهم إلى الإيمـان به والتسـليم لأوامـره حيث أمر بالاسـتثناء (إنشـاء اللـه) وبالإنفاق على المساكين ، وأن يعلم الإنسان بـأنّ الجـزاء حقيقة واقعية وأنّه نتيجة عمله.

والطواف هو المرور بالشيء وحوله ، والطائف الـذي يقـوم بـذلك الفعل ، ولقد قـال المفسـرون أنّه العـذاب ، وقد يكون تأويله بـالريح المـدمّرة ، أو طوفـان الرمل ، أو الماء العاتي ، أو الجراد تأكل الثمر وكأنّها تصـرمه ، ولعـلّ الأخـير أقـرب الاحتمـالات .. يقـال : طـاف الجـراد إذا ملأ الأرض كالطوفان [1].

(**فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ**)

وكـأن أحـدا سـبقهم إلى صـرمها ، وهكـذا يواجه مكر الله مكر الإنسان فيدعه هباء منثورا (**وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللـهُ وَاللـهُ خَيْـرُ الْمـاكِرِينَ**) [2] ، وإذا اسـتطاعوا أن يخفـوا مكرهم عن المساكين فهل استطاعوا أن يخفوه عن عالم الغيب والشـــــهادة؟ كلّا .. وأرسل الله طائفة ليثبت لهم هـذه الحقيقة ، وربما جعله ليلا «**وَهُمْ نـائِمُونَ**» لتكـون القضـية أعمق أثـرا حيث يعلمـون أنّ الجـزاء من جنس العمل ، فكما أنّهم أخفـوا مكـرهم عن أولئك كـذلك أخفى الله مكره عنهم فما جعلهم يعاينونه.

[21 ـ 23] ولأنّ من طبيعة الإنسان أنّه سريع الانتبـاه من الرقاد عند انتظار أمر هام ، فإنّهم كانوا ـ فيما يبـدو ـ أيقاظا قبيل الصبح.

---

(1) المنجد / مادة طاف.
(2) آل عمران / 54.

(**فَتَنادَوْا مُصْبِحِينَ**)

نـادى بعضـهم بعضا ، وأجمعـوا بالفعل على ضـرورة التبكير في الذهاب إلى الجنة وصرمها ، واستحثّ بعضـهم بعضا.

(**أَنِ اغْدُوا عَلى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صارِمِينَ**)

أي إذا كنتم تريـدون الـوقت الأنسب للصـرم من دون اسـتثناء فلا أنسب من الغـدو ، وهو السـعي أول الصـبح. وأصل الحـــرث من قلب الأرض بآلة الحراثة ، وحـــرثكم يعنـون الـذي أتعبتم أنفسـكم حـتى حرثتمـوه ، وفي ذلك استثارة للـذات ، بـأنّكم الـذين أجهـدتم أنفسـكم وحـرثتم الأرض وزرعتموها وناضــلتم منذ البداية حــتى أثمــرت .. فـأنتم وحـدكم إذن الـذين يجب أن يكـون لكم النتـاج لا يشارككم فيه أحد من الناس.

(**فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخافَتُونَ**)

في ســـرعة متأنّية محفوفة بالحيطة والحـــذر من الفضـيحة ، لكي ينجـزوا المهمة لو أمكنهم قبل اسـتيقاظ المساكين ورواحهم إلى حوائجهم. والتخافت نقيض الجهر والإعلان فهو التّســار ، ويبــدو أنّهم يــدعون بعضــهم إلى المزيد من الكتمان والتخفّي. أو كـانوا في أثنـاء انطلاقهم إلى الصرم يتناجون الحديث والتـآمر. وعملـوا المسـتحيل من أجل همّهم الشــاغل الــذي تخــافتوا به طيلة الطريق إلى جنتهم ، وهو إخفــاء الأمر على المعــوزين حـــتى لا يسألوهم شيئا ممّا يصرمون.

(**أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ**)

والمسكين هو المعوز الذي لا يملك حتى قوت يومه ، والآية تدل على مدى شحّهم

إذ لا يريدون أن يتعطفوا ولا على واحد ولو كان من أحـوج النـاس! وأكّـدوا على ذلك اليـوم بالـذات لأنّه يـوم الصـرم والقسمة ، فلا يضرهم أن يدخل المساكين بعـده إذ لا ثمر ولا قسـمة ، والآية تعكس ظـاهرة كـانت شـائعة في ذلك المجتمع وهي أنّ المساكين والمعـوزين يـدخلون المـزارع والبساتين في مواسم الجـني والحصـاد والصـرم ، ولعلهم كانوا يحاولون التعرف على اليـوم الـذي يبـادر فيه الملّاك إلى ذلك فيطوفـــــون عليهم في حقـــــولهم طمعا في المساعدة والإعانة ، ولعل والد الأخـوة الخمسة (أصـحاب الجنة) الذي تـوفّى وأورثهم إيّاها كـان قد عـوّد المسـاكين على المعونة يوم الصرم من كلّ عـام ، وقد أخذ أصـحاب الجنة ذلك بعين الإعتبار في خطتهم واحتاطوا للأمر بحيث أنّهم من الناحية الظاهرية ما أغفلوا شيئا.

(**وَغَدَوْا عَلى حَرْدٍ قادِرِينَ**)

في ظنّهم إذ أحكمـــوا خططهم وكيـــدهم من كـــلّ الجوانب. واختلف في معنى الحرد فقيل : هو القصد [1] ، فـالمعنى غـدوا على قصـدهم الـذي قصـدوا أي الصـرم والمنع قادرين عند أنفسهم ، وقيل : الغضب [2] ، وقيل : المنع ، وقيل : الجد [3] ، ويبـدو لي أنّه المنع المقصـود الجاد والمشرب بالحقد والغضب على المسـاكين والنفـور منهم. وإنّما تصوّروا أنفسهم قادرين على ذلك لأنّهم أخذوا بكلّ الأسباب التي من شأنها إيصالهم إلى الهدف ، وغـاب عنهم ـ بسـبب تـرفهم وضـعف إيمـانهم ـ أنّ قـدرة الله المطلقة فوق كلّ شيء ، وأنّه وحده الـذي لا يمنعه مـانع. ومشوا نحو جنتهم وكلّهم ثقة بأنّ ما أرادوه سوف يتحقّق.

(**فَلَمَّا رَأَوْها قالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ**)

---

(1) في مجمع البيان والكشاف وتفسير البصائر عند الآية.
(2) المنجد / مادة حرد.
(3) في الدر المنثور عند الآية.

عن الحق ، وإن شيئا لا يصـير إلّا أن يشـاء الله ، وإنّه يعلم حـتى السر ، وإنّ في الإنفـاق في سـبيل الله خـيرا عظيما وبركة ، وقيل : ضـــالون أي أنّنا ضـــيّعنا الطريق وصـرنا إلى غـير جنتنا إذ لم يصـدّقوا أنفسـهم أنّ الأرض الـــتي تركوها أمس بأفضل حالة قد تحـــوّلت إلى بلقع فزعمـوا أنّهم قد ضـلوا الطريق إلى أرضـهم إلى غيرها ، ولكن كيف يضيّع الإنسان أرضه؟! كلّا .. إنّها أرضهم بعينها ، وإنّهم ضـالون عن الحقيقة وليسـوا ضـالين عن جنتهم ، وإنّهم حرمهم الله بمشيئته وحكمته.

(**بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ**)

وثمّة علاقة بين ضـــلالهم وحرمـــانهم وهي أنّ بلـــوغ الإنسان تطلعاته وأهدافه المعنوية والمادية متصل بالمنهج الـذي يتبعه في الحيـاة ، فحينما يخطئ اختيـار المنهج أو يضل عن المنهج الصـحيح فإنّه بصـورة طبيعية مباشـرة سيحرم ليس من معطياته المعنوية بل حتى المادية منها ، وهذا ما وقع فيه أصحاب الجنة ، وفي الحديث قال الإمـام الباقر ـ عليه السلام ـ : «**إنّ الرجل ليذنب الذنب فيدرأ عنه الرزق**» [1].

ونستوحي من الآية بصيرة أخـرى وهي : أنّهم اهتـدوا إلى أنّ الحرمـــان الحقيقي ليس قلّة المـــال والجـــاه بالمســكنة ، وإنّما الحرمـــان والمســكنة قلّة الإيمـــان والمعرفة بالله بالضلال.

وهكـــذا أصـــبح الحـــادث المريع بمثابة صـــدمة قويّة أيقظتهم من نومة الضـــلال والحرمـــان ، وبداية لرحلة العـروج في آفـاق التوبة والإنابة ، والـتي أوّلها اكتشـاف الإنسان لخطئه في الحياة. وهكـذا نهتـدي إلى أنّ من أهمّ الحكم التي وراء أخذ الله

(1) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 395 نقلا عن الكافي.

للناس بالبأساء والضراء وألوان من العذاب في الـدنيا هي تصحيح مسيرة البشر ، بإحياء ضميره واسـتثارة عقله من خلال ذلك ، كما قــال تعــالى : (**فَأَخَــذْناهُمْ بِالْبَأْســاءِ وَالضَّـــــرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَـــــرَّعُونَ**) [1] .. فما أحوجنا نحن المسـلمين أن نتأمّل قصة هـؤلاء الأخـوة الـذين اعتـبروا بآيــات الله وراجعــوا أنفســهم بحثا عن الحقيقة لمّا رأوا جنتهم وقد أصبحت كالصريم ، فنغيّر من أنفسنا ليغيّر الله ما نحن فيه ، إذ ما أشـــــبه تلك الجنة وقد طـــــاف عليها طائف من الله بحضارتنا الـتي صـرمتها عوامل الانحطـاط والتخلف.

ولو أنّهم استمعوا إلى نداء المصلحين لما ابتلــوا بتلك النهاية المريعة .. وهكـــذا كل أمّة لا تفلح إلّا إذا عــــرفت قيمة المصــلحين الثــائرين ، فاســتمعت إلى نصــائحهم ، واستجابت لبلاغهم وإنـذارهم. ولهـذا الـدور تصـدّى أوسط أصـــحاب الجنة ، فعارضـــهم في البداية حينما أزمعـــوا وأجمعوا على الخطيئة ، وذكّـرهم لمّا أصـابهم عـذاب الله بالحق ، وحمّلهم كامل المسؤولية ، واستفاد من الصــدمة التي أصابتهم في إرشادهم إلى العلاج الناجح.

(**قالَ أَوْسَطُهُمْ**)

وهو يذكّرهم ويلومهم ، ويرشدهم في آن واحد :

(**أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لا تُسَبِّحُونَ**)

أي أنّ التسبيح هو السبيل لعلاج الضـلالة والحرمـان ، فهو إذن ليس كما يتصــــوّر البعض مجــــرد قــــول الواحد سبحان الله ، إنّما هو شريعة نظـام ومنهجية حيـاة ، تتسع لعلاج كـلّ انحـراف ومشـكلة لـدى الإنسـان ، وهدايته إلى الحق والصواب في كلّ

---

(1) الأنعام / 42.

ميدان وجـانب ، حيث أنّه بالتسـبيح يقـدس المـرء ربه فلا ينسب الـذنب إليه وإنّما إلى نفسه ، ولهـذا يـأتي التسـبيح عند الاعـتراف بالـذنب ، مثل قوله سـبحانه في قصة ذي النـــــون وعلى لســــــانه : (**سُـــــبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**) والـذي ذهب إليه البعض من تفسـير للتسـبيح هنا بأنّه الاستثناء (بالعطاء للمساكين ، وقول إنشـاء اللـه) أو التوبة بعد الــــذنب صـــــحيح ولكنّه من المصــــــاديق والمفردات التي إلى جانبها الكثير مثيلاتها.

وتتساءل : من هو أوسطهم؟

قال أكـثر المفسـرين أنّه أوسـطهم في السن ، وذلك ممكن إلّا أنّ الأقرب للمعـنى أنّه أعـدلهم وأرجحهم عقلا ، ذلك أنّ السن في مثل هذه القضية ليس بذي أهمية حتى يـذكر ، وإلى ذلك ذهب ابن عبـاس وقد سـأله سـائل : يا ابن عباس كـان أوسـطهم في السـن؟ فقـال : لا بل كـان أصغر القوم سنّا وكان أكبرهم عقلا ، وأوسط القـوم خـير القـوم ، والـدليل عليه في القـرآن أنّكم يا أمّة محمّد خـير الأمم ، قال الله : «**وَكَذلِكَ جَعَلْنـاكُمْ أُمَّةً وَسَـطاً**» [1] ، وإنّما يكتشف الإنسان الطريق السوي باعتداله في العقل والبصيرة لا بمقدار عمره ، وحيث كان أخوهم هذا صاحب بصـيرة نافـذة فقد سـبقهم إلى معرفة الحق ونصـحهم ، وقرأ النتائج المستقبلية قبل وقوعها ، وكذلك يكـون أولـوا الألباب من القادة الصالحين.

ومن موقف أوسط أصحاب الجنة نهتـدي إلى بصـيرة هامة ينبغي لطلائع التغيـير الحضـاري وقادته أن يـدركوها ويأخذوا بها في تحركهم إلى ذلك الهـدف العظيم ، وهي : أنّ المجتمعـــات والأمم حينما تضل عن الحق وتتبع النظم البشـــرية المنحرفة تصـير إلى الحرمـــان ، وتحـــدث في داخلها هزّة عنيفة (صحوة) ذات وجهين : أحدهما :

(1) تفسير القمّي / ج 2 ـ ص 381.

القناعة بخطإ المســـيرة الســـابقة ، والآخر : البحث عن المنهج الصالح ، وهذه خير فرصة لهم يطرحوا فيها الرؤى والأفكـار الرسـالية ويوجهـوا النـاس إليهـا. وإنّها لظـروف أمتنا الإسـلامية الـتي جـرّبت اليمين واليسـار وتعيش الآن مخــاض العــودة إلى الخيــار الإلهي الأول بــروح عطشة لتلقّي الرســالة والطاعة لحملتها والقــادة إليهـا. وكـذلك وقف أصــحاب الجنة من أوســطهم ودعوته للعــودة إلى الحق :

(**قالُوا سُبْحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ**)

فالقيم الإلهية إذن صحيحة لا خطأ فيها لأنّها تتنزل من عند الله صـاحب الكمـال المطلق ، إنّما الخطأ والـداء في الإنسان الـذي يظلم نفسه بـالانحراف عن الحـق. وكـذلك ينبغي للأمة الإسلامية أن تقيّم واقعها وهي تبحث عمّن هو المسؤول عن تخلّفها ، هل الإسلام أم المسلمين؟

وهكـذا سـبّحوا ربهم لكي لا يلقـوا بمسـؤولية خطئهم على الأقـدار ، لأنّ ذلك كـان يعيق انطلاقتهم نحو التغيـير والإصلاح.

(**فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ**)

يلقي كــلّ واحد المســؤولية على غــيره ، وهــذه من الطبائع البشرية أن يدّعي الإنسان المكاسب ويتهـرّب من التبعـات والنكســات ، وعلى ذلك مضى المثل : «الهزيمة يتيمة وللانتصـار ألف أب» ، ولكنّ أصـحاب الجنة تجـاوزوا هــذه العقبة أيضا ، واعــترفوا جميعهم بالمســؤولية إيمانا منهم بأنّها الحقيقة الواقعية ، والســـبيل النـــافع الوحيد للتغيير الجذري الشامل.

(**قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا طاغِينَ**)

أي الويل (العـذاب) لنا وبسـببنا إذ طغينا ، والطغيـان أعظم من الظلم لأنّه تجـاوز الحد فيه ، وهكـذا يجب أن يعترف الإنسان (فردا وأمة) بحجم الخطيئة الـواقعي دون تصـغير يـدعو إلى التـبرير ، ولا تضـخيم يبعث روح اليـأس من الإصـلاح ، بل اعـتراف الشـجعان الـذي ينفخ في النفـوس روح التوبة النصـوح إلى الله ، ورجـاء المتطلعين إلى الإصلاح والخير.

(**عَسى رَبُّنا أَنْ يُبْدِلَنا خَيْراً مِنْها**)

في الدنيا والآخرة.

(**إِنَّا إِلى رَبِّنا راغِبُونَ**)

وبالرغبة إلى الله يتجاوز الإنسان فتنة الـدنيا وأسـرها الذي يقع فيه بالرغبة الطاغية إليها.

وفي نهاية القصة يضع القـرآن أمامنا أعظم المواعظ والعـبر الـتي تهـدي إليها وهي : ضـرورة أن يتخذ الإنسـان حوادث الدنيا وأحداثها علامة وآية هادية لما في الآخرة.

(**كَـذلِكَ الْعَـذابُ وَلَعَـذابُ الْآخِـرَةِ أَكْبَـرُ لَـوْ كـانُوا يَعْلَمُونَ**)

قيل : يعـني لو كـانوا يعلمـون عـذاب الآخـرة ، وهو صحيح ، والأقـرب منه أنّ صـاحب البصـيرة والعلم يعـرف وهو في الـدنيا بإيمانه وبصـيرته أنّ ما في الآخـرة أعظم حينما يـرى العـذاب في الـدنيا. وهنا يتضح الفـرق بين صـاحب البصـيرة الـذي يـرى الحقـائق بعقله (كأوسط أصحاب الجنـة) وبين أصـحاب الجنة الـذين اهتـدوا لعظمة عذاب الآخرة بما وقعوا فيه من الويل الـدنيوي ، أو يكـون ضالا فلا يهتدي

رغم الآيات والمواعظ.

ولعلّنا نســـــتوحي من عمـــــوم القصة أنّ بعضا من المكذّبين والمترفين الذين كانوا في محيط الرسول آنذاك تــرجى لهم التوبة والهداية كأصــحاب الجنة ، بالــذات وأنّ الله في الآيات القادمة يدعو النبي ــ صــلّى الله عليه وآله وســلّم ــ أن لا يتعجّل كصــاحب الحــوت في الحكم على قومه بل يصــبر لحكم الله الــذي ســيظهر في المســتقبل فقد يتوبون كما تاب قوم يونس ـ عليه السلام ـ ومن هذه الفكرة يجب على الدعاة أن يستمدوا سعة الصــدر وكظم الغيظ إذ يواجهـــون الـــرفض والعنـــاد في طريق نشر الرسالة بين الناس.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْــدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (34) أَفَنَجْعَــلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُـونَ (36) أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ (38) أَمْ لَكُمْ أَيْمــانٌ عَلَيْنا بالِغَــةٌ إِلى يَــوْمِ الْقِيامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ (39) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِـذلِكَ زَعِيمٌ (40) أَمْ لَهُمْ شُــرَكاءُ فَلْيَــأْتُوا بِشُــرَكائِهِمْ إِنْ كانُوا صادِقِينَ (41) يَوْمَ يُكْشَـفُ عَنْ سـاقٍ وَيُـدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (42) خاشِـعَةً أَبْصـارُهُمْ تَـرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَـدْ كـانُوا يُـدْعَوْنَ إِلَى السُّـجُودِ وَهُمْ ســالِمُونَ (43) فَــذَرْنِي وَمَنْ يُكَــذِّبُ بِهــذَا الْحَــدِيثِ سَنَسْـتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُـونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45) أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ

---

43 [تـــــرهقهم] : الرهق لحــــاق الأمر ، ومنه : راهق الغلام إذا لحق بالرجـــال ، وقـــال البعض : الرهق اسم من الإرهـــاق وهو أن يحمل الإنسان على ما لا يطيقه ، ومنه : «سأرهقه صعودا».

مِنْ مَغْــرَمٍ مُثْقَلُــونَ (46) أَمْ عِنْــدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُــونَ (47) فَاصْــبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصــاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى وَهُـوَ مَكْظُـومٌ (48) لَـوْ لا أَنْ تَدارَكَـهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَبـاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَــهُ مِنَ الصَّــالِحِينَ (50) وَإِنْ يَكــادُ الَّذِينَ كَفَــرُوا لَيُزْلِقُونَــكَ بِأَبْصــارِهِمْ لَمَّا سَــمِعُوا الــذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) وَما هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعـالَمِينَ (52))

---

46 [مغـرم] : ما يلـزم من الـدين الـذي يلح في اقتضـائه ، وأصـله من اللــزوم بالإلحــاح ، ومنه قوله : (**إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً**) أي لازما ملحّا.

48 [مكظوم] : المكظوم هو المحبوس عن التصرّف في الأمور ، ومنه : كظمت رأس القربة إذا شـددته ، وكظم غيظه إذا حبسه بقطعه عمّا يدعو إليه ، وكظم خصمه إذا أجابه بالمسكت.

فاصبر لحكم ربّك

هدى من الآيات :

في هــذا الــدرس تعــالج الآيــات أســباب التكــذيب بالرسالة والتهرب من مسئولياتها ، وهي :

أولا : الأمنيات الباطلة التي تحلم بتساوي النــاس في الجزاء ، الأمر الذي يبرر للمترفين عدم التصديق بالرسالة والعمل بمضامينها وتحمل المسؤولية في الحيـاة ، ولمـاذا يكلّف الإنسان نفسه ما دام الجزاء واحدا؟

والقـــــرآن بعد أن يؤكّد على عظيم ثـــــواب المتقين وشــديد عــذاب المجــرمين ، يســفّه الحكم الباطل لــدى البعض بتساوي الفـريقين عند الله ، وذلك بأدلة وجدانية لا بد للإنسان السويّ من التسليم لها.

ثم تبيّن الآيـات بـأنّ جـزاء الآخـرة ليس إلّا تجسـدات واقعية لأعمال الإنسان

الــتي اختارها بتمــام وعيه وإرادته في الــدنيا ، لــذلك لا يســتطيع أحد ســجودا يــوم يكشف عن ســاق الجد رغم الـدعوة الإلهية له إلى ذلك ، وتغطّي وجهه الذلـة. لمـاذا؟ لأنّه أعـــرض عن الســجود وقد كـــان في ســلامة مادية ومعنوية في الـدنيا ، وإنّ هـذه الحقيقة تبعث في وجـدان المؤمـنين روح المسـؤولية الـتي يعمّقها الـوحي بتحـذير الإنسان من أنّه لو كذّب بهـذا الحـديث فسـوف يسـتدرجه من حيث لا يعلم ، الأمر الذي يصير به إلى سوء العـذاب ، ولا يكون له في الآخـرة من خلاق ، وذلك من مـتين كيـده عزّ وجلّ الذي يحسبه المترفون خيرا.

ثانيا : الموقف الخـاطئ من الرسـالة والإعتقـاد بأنّها مغــرم ، لما فيها من مســئولية وبالــذات واجب الإنفــاق المفـــروض على أصـــحاب الــثروة ، وإنّها لكبـــيرة على المترفين الذين أسرتهم الأموال ويتضـاعف حرصـهم كلّما فتح الله لهم أبوابا من الدنيا وأملى لهم.

ثالثا : البطر الذي يجعل الإنسان لا يشعر بالحاجة إلى الرســول والرســالة ، بل قد تــراه يــزعم أنّه قد أعطي الغيب بيده! الآية (47).

وهذه الأسباب الثلاثة ذاتها تجعل الحركة التغييرية في أوساط المـترفين وفي ظـلّ هيمنتهم حركة بطيئة وصـعبة مما يوجب على كلّ مصلح رسـالي أخـذها بعين الإعتبـار ، فيصبر لحكم ربه ، مستقيما على رسالته لا يــتراجع عنها ، ولا يصاب بردّة فعل سـلبيّة قد تقـوده إلى تكفـير مجتمعة أو هجرته ، كما فعل النبي يونس بن متى ـ عليه السلام ــ الذي يئس من التغيير فـدعى على قومه فـابتلي بالسـجن في بطن الحوت ، فإنّه يجب على كلّ رسـالي الصـبر في طريق الرســالة وإن كـان المكـذّبون يكـادون من الحقد والبغض يزلقونه بأبصارهم ، ويمارسون ضده حربا إعلامية شـعواء سـلاحها الشـائعات والتهم والـدعايات المغرضة ، الآيات (48).

وكما يجب أن يســـتقيم الداعية على أهدافه الربانية دون يئس من إصلاح الناس ، كـذلك يجب أن لا يفقد ثقته برسالته فيشكك نفسه في قيمها لعدم تجاوب الناس معه أو لإعلام المترفين والمتسلطين ضدها.

بينات من الآيات :

[34 ـ 38] بعد التحـذير من العـذاب في الـدنيا ومن العــذاب الأكــبر في الآخــرة يرغّبنا الســياق في الجــزاء الحسن الــذي أعـدّ للمتقين دون ســواهم ، وذلك بالتأكيد على أنّه لا يشـمل كـلّ من هبّ ودبّ ، لأنّ للجـزاء الإلهي مقاييس دقيقة حيث يتناسب بنوعه وقدره ودرجات الناس الإيمانية وأعمالهم الصالحة.

(**إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ**)

ولم يقل (جنـــــــات نعيم) لأنّ الألف واللام يجعلان الكلمة أوسع معنى ، فبينما يـدل قولنا : (نعيم) على جـزء منه يتسع النعيم لتمـــام المعـــنى مما يتناسب ومعالجة السياق لموضـوع الـترف حيث يسـمو بـالمؤمنين عن فتن الدنيا ويفتح أمامهم أفقا من النعيم الذي لا ينتهي عند حـدّ ولا زمـان فتتصـاغر عنـده الـدنيا ، فلا يجـدون ضـيرا لأنّها زويت عنهم ، لأنّ الآخــرة خالصة لهم ، كما قـال تعـالى : (**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّبــاتِ مِنَ الـرِّزْقِ قُـلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُـوا فِي الْحَيـاةِ الـدُّنْيا خالِصَةً يَـوْمَ الْقِيامَـةِ**) [1] ، وبهـذا تتعـادل الصـورة في أذهـان المتقين بـأنّهم إن لم يملكـوا في الـدنيا من متاعها فالآخرة خالصة لهم.

وببيان هذه الحقيقة أنّ الجنـات للمتقين يمهّد القـرآن لإبطــال أمــاني المجــرمين بتســاويهم مع المؤمــنين في الجزاء ، وتلك الأماني عامل من عوامل تكذيب المترفين.

---

(1) الأعراف 32.

الرسـالة يعالجها القـرآن الكـريم في هـذا السـياق ، وهي التالية :

أولا : الأمنيـــات الباطلة بالتســـاوي في الجـــزاء مع المؤمنين.

هل يتساوى الصالح والطالح؟ كلّا .. إنّه مرفــوض عند كل عاقل.

(**أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ**)

والمســـلم هو الـــذي ســـلّم نفسه لله بتطويعها وفق أوامره. والسؤال : لماذا قدّم المسـلمين على المجـرمين بينما يفـــترض العكس باعتبـــار الســـياق ينفي مـــزاعم المجرمين بأنّهم متساوون مع المتقين في الثـواب؟ ولكنّ المتـــدبر حينما يمعن النظر يهتـــدي إلى لطـــائف بلاغية لترتيب الكلمات في الآية :

1 ـ أنّه تعـــالى في نهاية قصة أصـــحاب الجنة أكّد حقيقة العـــذاب وأنّه في الآخـــرة أكـــبر ، ممّا يـــرجّح كفّة الرهبة في النفس ، فجاءت الآيتان (34) لتحقيق المعادلة عند المؤمنين بالتأكيد على أن لهم جنات النعيم ، وأنّهم لا يعذّبون كالمجرمين ، ويرفع الله رجاء المتقين إلى أقصـاه حينما ينفي تسـاوي المجـرمين مع المسـلمين الـذين هم أقل شأنا من المؤمنين فكيف بالمتقين الأرفع درجة حـتى من المؤمنين؟ ومن جـانب آخر يزيد من يـأس المجـرمين من الثـواب حينما لا يفسح مجـالا حـتى لمجـرد الاحتمـال بأنّهم يمكن أن يتساووا مع المسـلمين بتقـديمهم في الآية (المجرمين كالمسلمين) وجعل مدارها حول الثـواب بـدل العقـاب ، فـإنّ الآية على حالها تجعل العـذاب مسـلّما به للمجـــرمين ويبقى التســـاؤل عن مصـــير المســـلمين هل يتبعونهم فيه أم لا؟

2 ـ إنّ الجـزاء في واقعه ذات العمل الـذي يقـوم به كل إنســـان خـــيرا أو شـــرا ، ولو أنّه ســـبحانه أعطى للمجـرمين جنـات النعيم كما يعطي المسـلّمين له لكـان الأمر من

أحد جهاته جعلا لهم كـالمجرمين ، وكـأنّهم لم يعملـوا ما يتميّـزون به عنهم ، بل وكـأنّهم عملـوا أعمـالهم الإجرامية الـتي سـاوت المصـير والجـزاء بين الفـريقين ، وهـذا ما ينكره كلّ عاقل سليم ، ويستنكره السياق :

(**ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**)

يعـني على أيّ أسـاس ومنهج؟ ولا يملك المـترفون المجرمون أمام هذا المنطق إلّا التسليم له ونبذ الأمنيـات الباطلة بـالعودة إلى الحق وتحمل المسؤولية في الحيـاة كضرورة وجدانية وعقليـة. وإنّه ليضعهم أمـام واحـدة من إجابتين : فإما أن يحكموا بالتسـاوي ، وهـذا ما يرفضه كل عاقل ، وإمّا أن يحكمـوا بـالاختلاف وأنّ الثـواب للمسـلم والعـذاب للمجـرم (كما يحكم العقلاء) فلا بد إذن أن يضـربوا بظنـونهم عـرض الحائط ، ثم كيف يتمنـون على ربهم ذلك الحكم الجـائر وهو المـنزّه عن الظلم والجهـل؟ وما أظهر تسفيه هاتين الآيتين لبعض الفلسفات الصـوفية المفرطة في الرجاء ، الـتي يسـتبعد دعاتها أن يعـذّب الله أحدا من الناس وهو الرؤوف الرحيم ، بل ويفسرون آيـات العذاب القرآنية على أنّها لمجـرد التخويف وسـوق النـاس نحو العمل بالحق ليس إلّا!!

إنّ أماني المترفين بالتسـاوي مع المؤمـنين عند ربهم من العوامل الخطرة الـتي تـدعوهم إلى التكـذيب بـالحق والحياة اللامسؤولة ، والتي تعيق فيهم أيّ سعي جـاد ، بل وتبعث فيهم أسـباب الاجـرام. وأيّ قيمة تبقى للأحكـام والحدود الإلهية إذا كفر الإنسـان بحقيقة الجـزاء وبأنّه من جنس العمل؟! وأيّ حافز للالتزام بـأوامر الله ، والارتـداع عن نواهيه يظـلّ إذا كفرنا بـالآخرة أو فصـلنا بينهما وبين الدنيا؟! ولذلك يتصدى السياق حـتى الآية (45) للـرد على تلك الأماني والظنون .. وهكذا بعد أن أوضح بأنّها لا تستند إلى أيّ دليل وجداني ولا عقلي ينفي استنادها إلى الوحي

المصـدر الثـاني للعلم الحق ، بل حـتى إلى كتـاب معتـبر لدى العقلاء.

(**أَمْ لَكُمْ كِتـابٌ فِيـهِ تَدْرُسُـونَ* إِنَّ لَكُمْ فِيـهِ لَما تَخَيَّرُونَ**)

والكتاب الذي يدرسه الإنسان هو العلم الثـابت الـذي يعتمـده منهجا في الحيـاة فيعكف على دراسـته بـالبحث لفهمه وتطـبيق ما فيه ، وليس ثمّة كتـاب إلهي ولا حـتى بشري معتـبر لـدى النـاس يسـاوي في قوانينه وقيمه بين البريء والمجرم مهما اختلفت الكتب البشـرية والقـوانين الوضعية في تحديد مصـاديق المجـرم ، لأنّ الكتـاب الـذي يخالف كلّ قيم العرف لن يكون مقبـولا عند النـاس ، وإذا يحكم المترفون بالتساوي عند الله بين المجرم والمسـلم فإنّما ينطقون من الأهواء والأماني الـتي لا اعتبـار لها عند العرف العام.

وهذه الآية تستثير فطرة الإنسان ووجدانه وتستشـهد بما تعارف عليه الناس على اختلاف مذاهبهم وقوميـاتهم ، كما الآيـات القرآنية الأخـرى الـتي تفـرّق بين المسـلمين والمجرمين كالآية (35) ، وبين الجاهل والعالم [1] ، وبين الأعمى والبصير [2] ، وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار [3].

والآية (38) تكشف عن حقيقة يمكن لكـلّ إنسـان أن يلمسـها في واقع المـترفين المسـتكبرين السياسي والاجتمـاعي ، وهي أنّهم لا يريـدون أن تحكم شـريعة أو نظام قانون أنّى كان نوعها ، فحتى الدستور الذي يضعونه بأنفسـهم ، وحسب القياسـات الـتي يختارونها لحكمهم تـراهم يتهربـون منه ، ولا يرضـون به حكما بينهم وبين الناس. لماذا؟ لأنّ ذلك الدستور مهما كان ظالما ومنحرفا لا بد أن ينطوي على نسبة

---

(1) الزمر 9 (**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**).

(2) فاطر 19 (**وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ**).

(3) الحشر 20 (**لا يَسْـتَوِي أَصْـحابُ النَّارِ وَأَصْـحابُ الْجَنَّةِ أَصْـحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ**).

من القيم حـتى يكـون مقبـولا عند العـرف العـام ، وتلك النسـبة تـدين طائفة من تصـرفاتهم فلا يريـدونها ، وهكـذا كـــانت مخالفة حكم العقل والقـــانون من أظهر ســـمات المجـرمين ، كما أنّ تحكيم الهـوى والشـهوات من أعظم بواعث الجريمة.

ولعلنا نهتـدي من ذلك إلى أنّ من عظمة الإسـلام أنّ فيه قيما أساســية ثابتة لا يمكن تبــديلها وتحويلها ، بل أن تبقى هي الميزان في المجتمع ، وهذه القيم لا يعطي الله لأحد (من رسول وإمام أو حـاكم شـرعي أو دولـة) الحـقّ في خرقها تحت أيّ عنـــوان ، ولأيّ ســـبب بـــالغ ما بلغ ، والحكمة في ذلك أنّها فـــــــوقهم جميعا ، وأنّ دورهم هو التنفيذ وليس التشريع ، كما أنّ الرسـالة تفقد مصـداقيتها وقيمتها لو بـــدّلت فيها هـــذه القيم ، بلى. إنّ المصـــلحة العامة قد تقتضي تغيير بعض القـوانين ولكن ضـمن إطـار قانوني معيّن.

[39 ـ 43] وبعد أن نفى السـياق أيّ شـاهد من عقل أو نقل (كتاب) يؤيد مساواة المسلمين والمجرمين ، ينفي أن تكون للمجـرمين أيمـان على الله تقتضي بـراءتهم من النار وتحللهم عن أيّة مسئولية تجاه أعمالهم.

(**أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ**)

والأيمـــان البالغة إمّا بمعـــنى التامة من جميع جهاتها وشروطها ، نقول : بلغ الصبي إذا تمّت رجولته واسـتوى ، أو بمعنى الأيمان التي لا تنقض والتي تتصل ..

(**إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ**)

وتقضي أن يكون الأمر كما يقولون بضرس قـاطع أنّ لهم براءة من العذاب.

(**إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ**)

فـأنتم مفوّضـون من قبل اللـه؟! وهـذا لا دليل عليه ، فلو كـــانت ثمّة يمين حلف بها الله فإنّها ســتكون في رسالته والحال أنّ فيها أيمـان مناقضة بـأن يملأ جهنم من المجرمين ، ولعل قوله تعالى (**إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ**) يهـدينا إلى أنّهم في الظـاهر يحكمـون رقـاب النـاس في الـدنيا ولكنّ الوضع يختلف تماما في الآخـــرة إذ لا تبقى لهم أيّة ســلطة ، فهنالك الولاية لله الحق وله الحكم ، بل في الـدنيا أيضا ليس بالضـرورة أن يكـون لهم ما يتمنـون ويحكمـون ، لأنّهم لا يقـدرون على شـيء إلّا بـإذن الله القاهر فوق عباده.

بلى. هناك وعد عند الله للمؤمنين بـالمغفرة والجـزاء الحسن إذا مـاتوا مؤمـنين ، وليس إلى يـوم القيامة دون شرط أو قيـد. وما يتوهّمه بعضـهم من أنّ السـلطان ظل الله في الأرض ، أو أنّه يعفى عن مســئوليات أفعاله ، لا يعدو مجرد تمنيات تفرزها الأهواء ، وهي تتبخر عند الحجة العقليـة. من هنا يتحـدى السـياق أن يملك أحد الشـجاعة على تبنّي ذلك القول والدفاع عنه والمجادلة بشأنه.

(**سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذلِكَ زَعِيمٌ**)

والـزعيم : الكفيل الـذي يقـوم بـالأمر ويتصـدى له ، ومنه زعيم القـوم ، ولا أحد يتكفّل هـذا الأمر لأنّه لا يعتمد على دليل منطقي ، إنّما ينطلق من الخيال والظن ، وهذه الآية تتشابه وقوله تعالى : (**فَمَنْ يُجادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً**) [1].

ويمضي السـياق قـدما في تسـفيه الـزعم الـواهي بتساوي المجـرمين مع المسـلمين ، حيث تـرى كثـيرا من المجـرمين والمـذنبين يتّكلـون على الشـركاء والأنـداد ، ويزعمـون بـأنّهم ينقـذونهم من جـزاء أفعـالهم المنكـرة ، ويزعمون بأنّهم يستطيعون التأثير على

---

(1) النساء 109.

حكم الله بحكم الشـــــراكة معه في الملك والتـــــدبير ، سبحانه ، وهكذا تـراهم يعتقـدون بالشـفاعة الحتمية الـتي تقتضي نجاتهم من العذاب يقينا بفعل تـأثير الآلهة الصـغار كالأصـنام والملائكة والجن والأوليـاء الـذين يتـوهم البعض أنّهم يتقاسمون الله الربوبية سبحانه وتعالى.

(**أَمْ لَهُمْ شُـرَكاءُ فَلْيَـأْتُوا بِشُـرَكائِهِمْ إِنْ كـانُوا صادِقِينَ**)

والمشـــركون حينما يعـودون إلى وجـــدانهم ، أو عند المواجهة العلمية بالجـــدال أو الواقعية حيث يجـــازي الله الناس ، يعرفون أن لا حول للشركاء ، وأنّهم إنّما يخدعون أنفسهم ويخادعون الآخرين إذ يتظاهرون بعقيدة الشرك ، ولقد رأينا كيف أفحم نـبيّ الله إبـراهيم ـ عليه السـلام ـ المشركين في عصره عند المجادلة ، (**قالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ* قـالَ بَـلْ فَعَلَـهُ كَبِـيرُهُمْ هـذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ* فَرَجَعُـوا إِلى أَنْفُسِـهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ* ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ لَقَـدْ عَلِمْتَ ما هـؤُلاءِ يَنْطِقُـونَ* قـالَ أَفَتَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللــهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَـيْئاً وَلا يَضُـرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ**) [(1)].

وفي هذه النهاية القوية يتضح لنا أنّه تعالى في الآية (41) من سـورة القلم إنّما طـالبهم بـأن يـأتوا بشـركائهم استثارة لوجدانهم وعقـولهم للتحقيق في زعم الشـركاء ، باعتبـــار أنّ بطلانه لا يحتـــاج إلى أكـثر من ذلك ، فهنـــاك مزاعم كثـيرة يسترسل معها الإنسـان ويعتبرها مسـلّمات بل مقدّســـات ولكن بمجـــرد عرضـــها على عقله ووجدانه والتفكير فيها بجدّ يتبين له مدى سخفها ، وإنّما كانت هذه المســـلّمات تســـتمد قوّتها من التمنيـــات ومن الغفلة والجهل.

وإذا كـان الإنسـان قـادرا على فضح باطل الشـركاء بالوجدان والعقل في الدنيا

---

(1) النساء 62 / 67.

فـإنّ كـذب كل مـزاعمهم وظنـونهم الباطلة يتـبين بـأجلى صورة في الآخرة.

(**يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ**)

وللكشف عن الساق تفاسير أهمّها :

ألف : قيل أنّه سـاق العـرش يكشف الله عنه يـوم القيامة ، وقال الإمـام الرضا ـ عليه السـلام ـ : «**حجاب من نور يكشف فيقع المؤمنون سجّدا**» [1].

باء : وأوغل البعض في الـوهم إذ قـالوا أنّه سـاق الله سبحانه عمّا يصفون ، ورووا عن النـبي ـ صـلّى الله عليه وآله ـ أنّه قال : (يكشف الله عزّ وجلّ عن سـاقه) وأخـرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن منده عن ابن مسـعود .. قـال : عن سـاقيه تبـارك وتعـالى .. وضـعّفه الـبيهقي [2] ، ويبـدو أنّ ذلك من أفكـار المجسّـمة الـتي تسرّبت إلى الثقافات الدينية لـدى بعض المسـلمين ، كما اختلطت مع الأفكـار المسـيحية من قبـل. وقد ردّ الفخر الرازي ردّا مفصّلا على هذه الخرافة في التفسير الكبـير [3].

جيم : وقد يكـون الكشف عن السـاق كناية عن أنّه يوم الجد والشـدة ، وفي المجمع عن القتيـبي : أصل هـذا أنّ الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتـاج إلى الجـدّ فيه يشمّر عن ساقه ، فاستعير الكشف عن الساق في موضع الشـدة .. تقـول العـرب : قـامت الحـرب على سـاق ، وكشـفت عن ساق يريـدون شـدّتها .. قـال الشـاعر : قد شـمّرت عن سـاقها فشـدّوا وجـدّت الحـرب بكم فجـدّوا والقوس فيها وتر

(1) نور الثقلين ج 5 ص 395.
(2) الدر المنثور ج 6 ص 254.
(3) التفسير الكبير عند الآية في المجلد 30.

عردّ [1].

دال : ويمكن القـــــول أنّه كناية عن تجلّي أصـــــول الحقائق ، وإنما استخدم القرآن الكشف عن الساق لأنّ ساق الشيء أصله ، وعلى هذا قيل ساق الشجرة. ويوم القيامة هو يوم الكشف عن أصل الحقائق فهنالك يكشف للناس الحق الأصل وأعمالهم ، قال علي ابن إبراهيم : يوم يكشف عن الأمور التي خفيت [2] ، ولعلّنا نلمس تلويحا إلى هذا المعنى في قوله تعالى : (**لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**) [3]. إذن فيوم القيامة هو يوم سقوط الحجب عن الحقيقة ليراها الناس كما هي ، وهل ترى الساق إلّا حينما يكشف عنها ما يمنع الرؤية عنها؟

وكذلك يتضح للمجرمين بطلان حكمهم بالتساوي مع المسلمين ، وأنّه ليس من كتاب يؤيّد ذلك ، ولا يمين بالغة قطعها الله على نفسه لصـــالحهم ، ولا شـــريك موجـــود فينفعهم يوم القيامة إن لم يكتشفوا ذلك بأنفسهم في الـــدنيا ، فيهتـــدوا للحق ، ويسـلّمون لله بـــدل ممارسة الجريمة حيث الفرصة قائمة لا تزال ، وإلّا فإن شيئا من ذلك لا ينفعهم قيد شـــعرة في الآخـــرة لأنّها دار جـــزاء لا عمل فيها.

(**وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ**)

دعوة تشريعية يوجّهها منادي الحق يومئذ ، وتكوينية يفرضها هول الموقف وعظمة تجليات الحقيقة ، وهنالك يستجيب المؤمنون لربّهم بطبيعة التسليم التي كانوا عليها في الدنيا ، وبفعل الخشية من مقام الله ، بل لا يملك أحد من أهل المحشر

(1) مجمع البيان ج 10 ص 339.
(2) تفسير القمي ج 2 ص 383.
(3) ق 22.

إلّا الاســتجابة لــدعوة الحق لو لا أنّه تعــالى بحكمته يمنع المجرمين من ذلك.

(فَلا يَسْتَطِيعُونَ)

جاء في الحديث المأثور عن النـبي ــ صـلّى الله عليه وآله ـ : «تبقى أصلابهم طبقا واحدا» [1] أي فقارة واحدة ، وفي نور الثقلين عن الإمام الرضا ـ عليه السلام ـ «تـدمج أصلاب المنافقين فلا يستطيعون السجود» [2] ، وبالاضافة إلى هذا المعنى الظـاهري تتسع الآية لمعـنى أعم وهو أنّ المجـرمين لا يملكـون يـوم القيامة أيّة حرية ، ليعلمـوا أن ليس لهم ما يتخيّرون ولا ما يحكمـون كما كـانوا يظنـون ، وليسوا كوضعهم في الدنيا حيث أطلقـوا العنـان لأهـوائهم فلم يراعـوا حلال الله وحرامه ولا حقّا وبـاطلا ، وبالــذات أولئك الــذين تســلّطوا على رقــاب النــاس فتمــادوا في الجريمة طغيانا وظلما.

ويصـوّر لنا القـرآن حـالهم حيث الهـوان الظـاهر على جــوارحهم ووجــوههم ، والذلة الباطنة الــتي تكـاد تقتلهم إرهاقا في المحشـر. وقد شـمخوا بـأنوفهم حـتى كـادت تستطيل مثل الخرطوم ، واستكبروا وبـالغوا في التظـاهر بالعزة في الدنيا لأنّهم في أيديهم المال والسلطة وحولهم الأتباع.

(خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ)

مرســلة إلى الأســفل لا يرفعونها بين النــاس لما هم فيه من ذلّ الموقف الذي لا يســتطيعون معه حــتى النظر إلى الآخرين.

(تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ)

---

(1) الكشّاف ج 4 ص 595.

(2) نور الثقلين ج 5 ص 395.

أي تغشاهم وتعلو وجوههم ذلة ، ويحتمل أن يكون المعنى أي تحمّلهم الذلة مالا يطيقون من الأذى المعنوي ، وتتعبهم كما تتعب الكلاب الصيد ، يقال : أرهقه أي حمله على ما لا يطيق ، وحكمة الله في منع المجرمين عن السجود بعد أمرهم به فضيحتهم في المحشر حيث يمتاز بامتحان السجود المسلم عن المجرم ، قال قتادة ذكر لنا أنّ النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ كان يقول : «يؤذن للمؤمنين يوم القيامة في السجود فيسجد المؤمنون ، وبين كل مؤمن منافق فيتعسّر ظهر المنافق عن السجود» [1] ، وبذلك يعرف الناس حقيقته ، حيث أنّ الآخرة في حقيقتها انعكاس لأعمال الإنسان في الدنيا ، وبالتالي فإنّ التمايز في الجزاء هناك هو صورة للتمايز في الأعمال والصفات هنا في الدنيا ، وهذا يعمّق المسؤولية في النفوس ، ويدفعها باتجاه التسليم لربها واستغلال فرصة الدنيا لمستقبل الآخرة.

(**وَقَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سالِمُونَ**)

معنويّا وماديّا بحيث لم يكن عندهم عذر يبرر عدم تسليمهم لدعوة الله سوى اتخاذهم الهوى إلها من دونه عزّ وجلّ ، ولعلنا نستوحي من الآيتين (42 ـ 43) فكرة هامة تتصل بسلوك الإنسان في الدنيا ، وهي : أنّه حينما لا يستغل نعم الله عليه كالصحة والغنى فإنّها قد تسلب منه فيفوته الانتفاع بها ، أو يسلبه الله توفيق الطاعة بسبب تماديه في المعصية والجريمة حتى يصل به الأمر أنّه قد يفكّر في التوبة والاستجابة لدعوة ربه ولكنّه لا يوفّق لذلك لأنّه قد طبع على قلبه.

[44 ـ 45] ولأنّ المترفين يعتبرون تتالي النعم عليهم دليلا على رضاه تعالى عنهم ، فيتمادون في التكذيب بالرسالة ومحاربة الرسول اعتمادا على ذلك ، جاءت الآيات تؤكّد بأنّ الحقيقة عكس ذلك تماما لأنّ الله يكيد لهم عبر خطة حكيمة ،

---

(1) الدر المنثور ج 6 عند الآية.

وأيّ كيد أعظم من ذلك الذي يحسبه الإنسان خيرا وهو شر وبيل ، وينطوي على حرب مباشرة بين الخالق العظيم الجبّار شديد العقاب وبين المخلوق الحقير الضعيف المسكين يمشي إليها برجله ويقع في فخاخها بغتة؟!!

(**فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ**)

يعني الرسالة التي هي حديث الله إلى الإنسان ، ومن الرسالة حديث الآخرة والعذاب ، وما أخوف هذه الآية للمكذبين أن يبارزهم ربّ العزة مباشرة ، وما أسوء مصير من لا تبقى بينه وبين ربه رحمة!

وما أرجى هذه الآية في نفس الوقت للرساليين الذين يواجهون تحديات المترفين في مسيرتهم الجهادية ، فإنّها تثلج صدورهم وتزرع فيها الاطمئنان والسكينة بأنّهم منتصرون ومحميّون لأنّ الله يدافع عنهم ، وأنّ الله سيدمّر المكذبين بدعوتهم الصادقة والمعارضين لها ، إنّ خطة الحرب الإلهية ضدهم تمرّ خلال كيد متين (قوي لا يستطيع أحد تحدّيه والإنتصار عليه ، ومحكم لا يجد الطرف الآخر ثغرة ينفذ فيها حينما يواجهه) بحيث يدخل هو كعنصر فعّال ضد نفسه دون أن يعلم ومن حيث لا يتوقع.

(**سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ**)

في المنجد : تدرّج إلى كذا تقدم إليه شيئا فشيئا ، واستدرجه صار به من درجة إلى درجة وخدعه [1] ، وفي هذه الآية إشارة واضحة إلى أنّه تعالى يجعلهم يتقدمون للوقوع في المكيدة من خلال نقاط ضعف عندهم ، هم قاصرون عن وعيها ، بحيث يصيّرها الله عاملا يستحثّهم للوقوع في عذابه. ومن أهمّ نقاط ضعفهم ما أترفوا فيه

(1) المنجد مادة درج بتصرف.

من الأحوال والأتباع الذي يزيد لهم فيه ليطغـوا في الـدنيا ويأتوا يوم القيامة لا خلاق لهم.

(**وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**)

وكلّما أترفهم الله ظنـوا ذلك دليلا على رضـاه عنهم ، وأنّ مسـيرتهم سـليمة ، فيتمـادون في الانحـراف ولا يعلمـون أنّ الإملاء كيد مـتين ضـدهم ، (**فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ* أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَبَنِينَ* نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ**) [1] ، (**وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ**) [2] ، والإملاء هو الزيـادة في النعم والإمهال في الأخذ ، ولماذا يستعجل الله وهو لا يفوته أحد وله الأولى والآخرة؟

وفي النصوص تحذير من حالة الاستدراج الـذي يـأتي نتيجة لاسترسـال الإنسـان ، قـال الإمـام الصـادق ـ عليه السلام ـ : «إذا أحـدث العبد ذنبا جـدّد الله له نعمة فيـدع الاستغفار فذلك الاستدراج» [3] وقال ـ عليه السلام ـ : إذا أراد الله عزّ وجلّ بعبد خيرا فأذنب ذنبا تبعه بنقمة ويذكّره الاستغفار ، وإذا أراد الله عـزّ وجل بعبد شـرّا فـأذنب ذنبا تبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمـادى به ، وهو قـول الله عزّ وجلّ : «**سنستدرجهم من حيث لا يعلمون**» بـالنعم عند المعاصي [4] ، وفي رواية : «**أنّ رجلا من بني إسرائيل قال : يا ربّ كم أعصيك وأنت لا تعاقبني؟! فـأوحى الله إلى نـبيّ زمـانهم أن قل له : كم من عقوبة لي عليك وأنت لا تشـعر ، إنّ جمـود عينيك وقسـاوة قلبك اسـتدراج مـني وعقوبة لو عقلت**» ، وفي

---

(1) المؤمنون 54 ـ 56.

(2) آل عمران 178.

(3) مجمع البيان ج 10 عند الآية.

(4) نور الثقلين ج 5 ص 397.

الكشّـاف قـال الزمخشـري : قيل : «**كم من مسـتدرج بالإحسان إليه ، وكم من مفتـون بالثنـاء عليه ، وكم من مغرور بالستر عليه**» [1].

ثانيا : الاعتقاد بأنّ الرسالة مغرم.

[46] وثمّة مـرض عضـال يسـتولي على قلـوب المترفين يدعوهم للتكذيب بالرسالة والرسول وكل حركة إصـلاحية في المجتمع وهو شـعورهم الخـاطئ بـأنّ الاستجابة لها واتبـاع المصلحين مغـرم يخـالف مصـالحهم ومن طبيعة رؤوس الأمـوال وأصـحابها الجبن. ولكن هل الرسـالة جـاءت لتأخذ منّا شـيئا أم جـاءت لتعطينا الكثـير وفي مختلف جـوانب الحيـاة الفردية والاجتماعية والحضارية؟

بلى. قد يتصـوّر الإنسـان حينما يلاحظ بـرامج الإنفـاق التي تفرضها رسالة الله وتـدعوا القيـادات الرسـالية إليها أنّ الاستجابة لذلك مغرم ، ولكنّ البصيرة النافـذة تنـاقض ذلك تماما ، فـإنّ المجتمع حينما تحكمه القـوانين الإلهية سوف ينمو اقتصاديّا وحضاريّا لصالح الناس وحـتى لصـالح أصـحاب الـثروة ، لما في الرسـالة من بـرامج لتنميتها وتـدويرها. وليس أدلّ على ذلك من دراسة تجربة مجتمع الجاهلية المتخلف في شـبه الجزيـرة العربية ومقارنتها بواقع الإسلام حينما آمنوا بمناهجه وكيف تطوّرت حياتهم ، فلما ذا إذن يكذّب المترفون؟!

(**أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ**)

والمغرم في التجارة الخسارة أو ما يعطى من المـال على كره (ه) ، والتجارة التي يدل الرسول الناس عليها لا خسارة فيها ، بل هي مشتملة على أرباح الدنيا والآخـرة ، كما أنّه (ص) لا يسـأل أحـدا أجـرا على تبليغ الرسـالة لأنّه (ص) (وكـذلك كل قيـادة رسـالية) إنّما يبلّغ لوجه الله لا يريد جزاء ولا شكورا ، ولا يطالب بمال ولا منصب ،

(1) المنجد مادة غرم.

إنّما لأجر الله عـزّ وجـلّ الـذي وعـده وكل مصـلح مخلص فقال : (**وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُـونٍ**) كما مـرّ في مطلع السورة.

نعم. إنّ دعـــوة الرســـول (ص) خالصة من أيّ تطلّع نحو حطام الدنيا ، فلا مبرّر يدعو المترفين للتكـذيب به أو التشكيك في سلامة رسـالته ، وحيث يتثـاقلون عن اتباعه فلمرض في صدورهم.

ثالثا : البطر.

[47] إنّ المترفين ينظرون إلى الحياة ويقيّمـون كـلّ شـيء فيها من خلال المـادة (المـال والـثروة) وكأنّها كل شـيء ، وما دامت في أيـديهم فـإنّهم لا يحسّـون بالحاجة إلى العلم أو القائد العـــالم الـــذي يهـــديهم إلى الحق ، ويرشدهم في جوانب الحياة المعنوية ، والقرآن ينفي ذلك فيتساءل مستنكرا :

(**أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ**)

كلّا .. إنّ علم الغيب يختص بالله ، وإذا أخرجه الله فهو إمّا في رسالاته وإمّا عند رسله الـذين يرتضي ، لأنّهم وحدهم الذين يتصلون به عبر الـوحي. والـذي يريد اتصـالا بالغيب فلا طريق له إليه إلّا بالتصديق بالرسالة والرسـول (**وَما كانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُـلِهِ مَنْ يَشـاءُ فَـآمِنُوا بِاللـهِ وَرُسُـلِهِ**) [1] ، والمترفون يكذبون بهما فكيف يدّعون علم الغيب؟!

إن علم الغيب عند الله وهو وحده الـذي يسـتطيع أن يكتبه بـــالقلم على لـــوح الأقـــدار ، لأنّه لا يتبع الظن أو التخمين. أمّا البشر فإنّهم ولو ادّعوا ذلك

---

(1) آل عمران 179 ولقد جـاءت هـذه الآية الكريمة في سـياق مفصل للترف والمترفين.

(كالمنجّمين والكهنة) فهم لا يثبتونه بمثل الكتابة باعتباره لا قطع به. وإنّ المترفين ليدّعون علم الغيب حيث يظنّون في أنفسهم بأنّ أموالهم باقية وسوف تزداد في المستقبل ، ولا يدرون لعلّها في علم الله تزول ، قال تعالى : (**أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا وَقالَ لَأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَداً* أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً* كَلَّا سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا**) [1].

وما داموا لا يملكون ناصية العلم فهم بحاجة ماسة إلى مصادره (الرسالة) وما تكذيبهم بهما إلّا دليل على ما هم فيه من العتو والجحود.

[48 ـ 50] والأسباب الثلاثة التي مرّ ذكرها تجعل الحركة التغييرية في أوساط المترفين تواجه تحدّيات صعبة من شأنها أن توحي للبعض بأنّ التغيير مستحيل البتة ، وفي ذلك خطران على المصلحين :

الأول : خطر التراجع عن المسيرة ، كنتيجة طبيعية لليأس من الوصول إلى الأهداف المنشودة من الحركة التغييرية ، أولا أقل التنازل عن بعض القيم والتطلعات ، والاستسلام للتحديات المضادة ، ومن ثمّ المداهنة فيها ، وإلى ذلك أشار الله في قوله : (**فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**) [2].

الثاني : خطر اليأس من الناس ، ممّا يؤدي إلى اعتزالهم والانطواء على الذات ، ومن ثمّ إصدار حكم الكفر عليهم ممّا يفقد المصلحين الفاعلية التغييرية.

وهكذا يحتاج الرساليّون إلى مزيد من الصبر في مواجهة تكذيب المترفين. الصبر

(1) مريم 77 / 79.
(2) هود 12.

كصـفة نفسـية تعطيهم روح الاسـتمرار والاسـتقامة على طريق الرسالة.

(**فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ**)

أي أنّ ذلك ليس أمــرا شــاذا ، بل هو من القــوانين والســـنن الطبيعية الـــتي حكم الله بها أن تكـــون في المجتمعات ، ومعرفة هذه الحقيقة من شأنه أن ينفخ روح الصبر والاسـتقامة في نفـوس المصـلحين فلا يسـتعجلون النتائج أو يكفّرون المجتمع ، ولا حتى يكونـون كيـونس بن متى ـ عليه السلام ـ الّذي زرعت تحديات قومه في نفسه الغيظ والغضب لرسالة ربه فدعا عليهم بالهلاك.

(**وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ**)

قال الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ «أي مغمـوم» [1] ، وفي تضاعيف الآيتين (48 ـ 49) تحـذير للمؤمـنين من أنّ عـدم الصـبر لحكم الله ليس لا يخـدم الرسـالة فقط ، بل ويضرّ بهم أنفسهم ، كما أضرّ بيونس ـ عليه السلام ـ.

(**لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ**)

فسبّحه واعترف أنّ النقص كان فيه إذ تعجّل بالـدعاء على قومه ، ولم يصـــبر لحكم ربه فظلم نفسه ، وليس في تدبير الله ولا في حكمه.

(**لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ**)

من قبل ربه أو عند قومه وعبر التاريخ بسـبب موقفه ، ونبذ الله له بـالعراء يـدل على عـدم رضـاه عنه ، ولكنّه تعــالى تداركه بنعمة منه معنوية حيث تــاب إليه ، ومادية حيث أخرجه من بطن الحـــوت وأنبت عليه شـــجرة من يقطين تظلّه عن ذلك العراء.

---

(1) نور الثقلين ج 5 ص 399.

(فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)

والاجتبـاء هو الإختيـار والاصـطفاء ، وقد بيّن الله ذلك حتى لا تصير قصة يونس ـ عليه السـلام ـ مع قومه سـببا للطعن فيه ، والنيل من شخصــيته. والآية تهــدينا إلى أنّ الإنســان بعد الخطيئة والتوبة يمكن أن يسـمو بنفسه إلى مقام يجتبيه ربه ، فيصيّره في عداد أئمة الصلاح والتقــوى ، كما تهــدينا عمــوم قصة يــونس إلى أنّ الله يمتحن الرساليين بعناد أقوامهم ليرى هل يصبروا لحكمه أم لا.

وهــذا جــانب من القصة نقلها العيّاشي في تفسـيره بالتفصيل : عن الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ قـال : «كتب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ قـال : حـدّثني رسـول الله ـ صـلّى الله عليه وآله ـ أنّ جبرئيل حدّثه أنّ يــونس بن مــتى بعثه الله إلى قومه وهو ابن ثلاثين سنة ، وكان رجلا تعتريه الحدّة ، وكـان قليل الصـبر على قومه والمـداراة لهم ، وأنّه أقـام فيهم يـدعوهم إلى الإيمان بالله والتصديق به واتباعه ثلاثا وثلاثين سـنة ، فلم يــؤمن به ولم يتبعه من قومه إلّا رجلان : اسم أحــدهما روبيل والآخر تنوخا ، وكــــان روبيل من أهل بيت العلم والنبوّة والحكمة ، وكان قديم الصحبة ليونس بن متى من قبل أن يبعثه الله بــالنبوة ، وكــان تنوخا رجلا مستضـعفا عابـدا زاهـدا منهمكا في العبـادة وليس له علم ولا حكم ، وكان روبيل صاحب غنم يرعاها ويتقوّت منها ، وكان تنوخا رجلا حطّابا يحتطب على رأسه ويأكل من كسـبه ، وكـان لروبيل منزلة من يــونس غــير منزلة تنوخا لعلم روبيل وحكمته وقـديم صـحبته ، فلمّا رأى أنّ قومه لا يجيبونه ولا يؤمنون ضجر ، وعرف من نفسه قلّة الصـبر ، فشـكا ذلك إلى ربه ، وكان فيما شكا أن قال : يا ربّ إنّك بعثتني إلى قومي ولي ثلاثون سـنة فلبثت فيهم أدعـوهم إلى الإيمـان بك والتصـديق برسـالتي وأخـوّفهم عـذابك ونقمتك ثلاثا وثلاثين سـنة فكـذّبوني ، ولم يؤمنـوا بي وجحـدوا نبـوتي واستخفّوا برسالتي ، وقد توعّدوني

وخفت أن يقتلـوني ، فـأنزل عليهم عـذابك فـإنّهم قـوم لا يؤمنـــون ، فـــأوحى الله إلى يـــونس : إنّ فيهم الحمّل والجــنين والطفل والشــيخ الكبــير والمــرأة الضــعيفة والمستضعف المهين وأنا الحكم العـدل ، سـبقت رحمـتي غضبي ، لا أعذّب الصغار بذنوب الكبار من قومك ، وهم يا يونس عبادي وخلقي وبريّتي في بلادي وفي عيلتي ، أحبّ أن أتأنّــاهم وأرفق بهم وأنتظر تــوبتهم ، وإنّما بعثتك إلى قومك لتكـون حيطا عليهم ، تعطف عليهم سـخاء الرحمة الماسّة منهم ، وتتأنّاهم برأفة النبوّة ، فاصبر معهم بأحلام الرســالة ، وتكــون لهم كهيئة الطــبيب المــداوي العــالم بمــداواة الــدواء ، فخــرجت بهم ولم تســتعمل قلــوبهم بالرفق ، ولم تمسســهم بسياسة المرسـلين ، ثم سـألتني مع سوء نظرك العذاب لهم عند قلة الصبر منك ، وعبـدي نـوح كـان أصـبر منك على قومه ، وأحسن صـحبة ، وأشد تأنّيا في الصبر عندي ، وأبلغ في العـذر ، فغضـبت له حين غضب لي ، وأجبته حين دعاني ، فقال يونس : يا ربّ إنّما غضــبت عليهم فيك ، وإنّما دعــوت عليهم حين عصــوك ، فوعزّتك لا أنعطف عليهم برأفة أبـــــــدا ، ولا أنظر إليهم بنصـيحة شـفيق بعد كفـرهم وتكـذيبهم إيّـاي ، وجحــدهم نبوّتي ، فأنزل عليهم عذابك فإنّهم لا يؤمنون أبـدا ، فقـال الله : يا يـــونس إنّهم مائة ألف أو يزيـــدون من خلقي ، يعمرون بلادي ، ويلدون عبادي ، ومحبتي أن أتأنّاهم للـذي ســبق من علمي فيهم وفيك ، وتقــديري وتــدبيري غــير علمك وتقــــديرك ، وأنت المرسل وأنا الـــربّ الحكيم ، وعلمي فيهم يا يـونس بـاطن في الغيب عنـدي لا تعلم ما منتهــاه ، وعلمك فيهم ظــاهر لا بــاطن له ، يا يــونس قد أجبتك إلى ما سـألت ، أنـزل العـذاب عليهم ، وما ذلك يا يونس بأوفر لحظّك عنـدي ، ولا أحمد لشـأنك ، وسـيأتيهم العـذاب في شــوّال في يــوم الأربعــاء وسط الشــهر بعد طلوع الشمس ، فأعلمهم ذلك ، فسـرّ يـونس ولم يسـؤه ولم يدر ما عاقبته» [1].

[51 ـ 52] وبعد أن يـأمر الله نبيّه (وعـبره كـلّ داعية رسالي) بالصبر لحكم

(1) تفسير العياشي ج 2 ص (129 / 130).

الله ، مشــيرا إلى قصة صــاحب الحــوت النــبي يــونس وتجربته مع قومه ، ومحــذّرا له من الوقــوف كموقفه في هذا الجانب ، يوصل الكلام بذلك الأمر ، مؤكدا على الصبر في طريق الرســالة ، مهما كــانت التحــديات المضــادة والضــغوط مــدعاة للتخلّي عن الرســالة أو ردّات الفعل العشواء ضد المكذبين والكافرين.

(**وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصـارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ**)

أي اصــبر لحكم ربك بــالرغم من ذلك ، والزلق من الانحراف ، قال صاحب المنجد : أزلقه : أزلّه وأبعـده عن مكانه ونحّــاه ، وزلقت القــدم : لم تثبت ، والفــرس : أجهضت وألقت ولــــــدها قبل تمامه ، والأرض الزلقة : الملسـاء الـتي لا شـيء فيها [1] ، ولا تثبت عليها قـدم .. فـيزلقوك إذن بمعـنى يزلّـون قـدمك عن مسـيرة الحق ، ســواء بالمداهنة الــتي يودّها المكــذّبون أو بالمواجهة والتحدي.

ولقد ذهب أكــثر المفســرين إلى أنّ معــنى الإزلاق بالإبصار هو الحسد الّذي يؤثّر في الإنسان بصــورة غيبية ، ونقلوا عن الرسول ــ صـلّى الله عليه وآله ــ : «إنّ العين تدخل الرجل إلى القبر ، والجمل إلى القـدر» وقوله يعـوّذ الحســنين : «أعيذ كما بكلمــات الله التامة ، وأســمائه الحسنى كلّها عامة ، من شرّ السـامّة والهامّة ، ومن شـرّ كــلّ عين لامّة ، ومن شــرّ حاسد إذا حســد» [2] ، وقد يكتشف البشر أسرار ظاهرة الحسد إذا تقـدموا في العلم ودراسة الحالات النفسية ، ولكنّ الأقرب من هـذا المعـنى أنّها كناية عن المواقف الحاقـدة الـتي تعبّر عنها نظـراتهم الحادة كالسهم النافد وكحدّ الحسـام المرهـف. ونحن من هذه الظـاهرة البصـريّة يجب أن ننطلق لمعرفة ما وراءها وما تعبّر عنه من الضـــــغوط ، والمواقف النفســــية والاجتماعية والسياسية للكفّار ضد

(1) المنجد مادة زلق.
(2) نور الثقلين ج 5 ص 400.

كلّ قيادة رسالية تنشد التغيير ، وبالذات إعلامهم الموبـوء بمختلف الدعايات والتهم الباطلة.

(**وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ**)

وقـــولهم هـــذا يعبّر عن ذلك الفيض الّـــذي امتلأ به قلوبهم والموقف الّذي أظهرته أبصـارهم ، وهكـذا كلمـات القـرآن يفسّـر بعضـها بعضا ، فقوله سـبحانه (**لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصـــارِهِمْ**) يفسّـــر قوله ســـبحانه : (**وَيَقُولُـــونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ**) ، فعبر أبصارهم الحادة وكلماتهم النابية يريدون ابعادك عن الصراط المستقيم.

واليـوم ومع تطـور الوسـائل الإعلامية ينبغي أن يتوقّع كـلّ مصـلح رسـالي أن يواجه المزيد من الضـغوط في مسـيرته ، وبالتـالي عليه أن يصـبر في نفسه ، ويسـتقيم في حركته وعمله لوجه الله وتســليما بقضــائه وحكمه ، فأنّى كـانت الضـغوط والتهم لا يمكنها أن تغـير من الواقع شيئا ، فهل يصـبح العاقل مجنونا والـذكر أسـاطير الأولين بمجـرد أن يقـول الكـافرون ذلـك؟ كلّا .. لأنّ الحقـائق لا تتغيّر بقول المكـذبين المنكـرين ، وإنّ الـدارس للقـرآن لا يمكنه إلّا التسليم بأنّه رسالة من الله إلى الناس.

(**وَما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ**)

والـــذكر في مقابل الغفلة والنســـيان ، وقد ســـمّي القرآن بذلك لأنّه يـذكّر البشر بـربّهم وبـالحق في جـوانب الحيـــاة المختلفة ، بل ويكشف لهم من أســـرار الوجـــود وقوانينه ، ويـذكّرهم بعقـولهم الـتي تسـتثيرها آياته ، فهو الّذي يحافظ على مسيرة الإنسان مستقيمة على الفطرة والحق ونحو الهـدف السـليم دون غفلة أو انحـراف ، (**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ* لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ**) [1].

(1) التكوير 27 / 28.

وحينما يكـون القـرآن ذكـرا للعـالمين (وليس لقـوم النـبي وحـده) يتـبيّن أنّه يتجـاوز البيئة الجاهلية الضـيّقة والموبـوءة بتلك الـدعايات التافهة ، ويتسـامى فـوق تلك الحواجز التي وضعها الجـاهليّون حـول أنفسـهم ، ومجـرّد هـذا التجـاوز يـدل على أنّ القـرآن ليس وليد تلك البيئة ، وأنّ النبي ليس مجـرّد حكيم عظيم أفـرزه ذلك المحيط ، بل هو رسـول الله ربّ العـالمين. تـرى كم هي المسـافة شاسعة بين قولهم أنّه مجنون وبين الحقيقة؟

سورة الحاقة

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي عبد الله (ع) قـــال : «**أكـــثر من قـــراءة «الحاقـة» فـإن قراءتها في الفـرائض والنوافل من الايمـان بالله ورسـوله ، لأنها إنّما نـزلت في أمـير المؤمـنين ــ عليه السـلام ــ ومعاوية ، ولم يسـلب قارئها دينه حتى يلقى الله عزّ وجل**»

تفسير نور الثقلين ـ ج 5 ص 401

وفي مجمع البيـان ، بإسـناده عن جـابر الجعفي ، عن أبي عبد الله (ع) قـــــــــــــــــــــــال : «**أكثروا من قـراءة الحاقّة في الفـرائض والنوافل ، فــإنّ قراءتها في الفــرائض والنوافل من الإيمــان بالله ورسـوله ، ولم يسـلب قارئها دينه حـتى يلقى الله**»

مجمع البيان / ج 10 ص 342

الإطار العام

ثلاث آيـات غـرر في هـذه السـورة ترسم معالمها ، وتحـدّد ــ فيما يبـدو لي ــ إطارها : فاتحتها : «الحاقـة» ، وعند الخاتمة : «**وَإِنَّهُ لَحَــقُّ الْيَقِينِ**» ، وأوســطها «**إِنَّهُ لَقَـوْلُ رَسُـولٍ كَـرِيمٍ**» ، وحين ينفتح القلب على أشـعة السـورة يلامس الحقيقة ــ كـلّ حقيقة وكـلّ الحقيقة ــ بلا حجــاب ، وكــذلك ســور القــرآن جميعا هي الجسر بين الإنسان والحقيقة ، يتجاوز المتدبرون فيها كـلّ الحـواجز ، ولكن كل سورة تسقط عنّا حاجزا.

وسورة الحاقة ـ كما آيات أخرى مبثوثة في كتاب ربنا العزيز ــ تسـقط حـاجز التهـاون ، ذلك أنّ الإنسـان بطبعه يعيش الغفلة عن الحق ، والتهاون فيه ، وعدم الجدّيّة في التعامل معه ، واتخـاذ أمـره بسـذاجة بل وبسـفاهة. كلّا .. إنّه حق وللحـــقّ ثقله ، وللحق اقتـــداره ، وللحق حقيقته وطاقته الــتي تثبته وتجعل مخالفيه في حــرج عظيم ـ ألم تسمع بقصة عاد وثمود وفرعون وقوم نوح

والمؤتفكـات مـاذا حـدث بهم حينما اتخـذوا موقف اللاهي عن الحق فصـارعوه كيف نـزلت بهم القـوارع فـتركتهم صرعى؟!

أو تـدري ما الحكمة في ذلك العـذاب العـريض؟ لكي يذكّرنا (فلا نبقى سـادرين في غيـاهب الغفلـة) ولكي تعيه أذن واعية ..

وتتجلّى الحقيقة بكلّ جلالها وعظمتها في يوم القيامة ، وحين نتصور أهوالها نزداد وعيا بها في الدنيا أيضا.

وأصـعب المواقف وأشـدها جدية وهـولا عند اسـتلام الكتـاب المصـيري ، فمن أوتي كتابه بيمينه فطـوبى له ، ومن أوتي بشماله فيقول من فرط حسـرته : يا ليتـني لم أوت كتابيه ، ويقول : يا ليتها كانت القاضية.

إنّها عاقبة المتهـاونين الـذين لم يكونـوا جـدّيّين في وعي الحقيقة ، وفي الإيمـــان بالله والحض على طعـــام المساكين.

ويقسم القرآن بكلّ حقيقة نبصرها وكـلّ حقيقة قائمة ولكن لا نبصرها بأنّ القرآن حق ، وهو قول رسول كريم.

وإنّه بالتالي ليس خيالات باطلة ولا ظنون كاهن.

وتتجلّى حقّانية الرسالة في شـدّة الله الجبّـار مع من يخالفها ، بل ومع المرسل بها لو افـــترض التقـــوّل عليه ببعض الأقاويل ، فإنّه ليأخذ منه بـــــاليمين ثم ليقطع منه الوتين.

ويبدو أنّ من يتهاون في شـأن الحق أو يكـذّب به أولا يعيه أولا يـوقن به حـقّ اليقين .. يبـدو أنّه لم يعـرف ربه الّذي يضمن الحق ويجريه بقوّته الشديدة وقدرته

الواســعة ، لــذلك فنحن بحاجة إلى تقــديس الله وتنزيهه حـتى نقـترب من معرفته ومعرفة الحـقّ به ، ولعله لـذلك اختتمت السورة المباركة بقوله سبحانه : (**فَسَبِّحْ بِاسْــمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**)

سورة الحاقّة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ (3) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعادٌ بِالْقارِعَةِ (4) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (5) وَأَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ (6) سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ (7) فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ (8)

---

6 [صرصر] : أي ذات صوت ، وباردة ، لفظه من الصّرّ أي الشدّ ، فالصرصر يرجع إلى الشدّ لما في البرودة من التعقّد ، وقال البعض في الريح الصرصر : كأنّه تصطكّ الأسنان بما يسمع من صوتها لشدّة بردها.

وَجاءَ فِرْعَـوْنُ وَمَنْ قَبْلَـهُ وَالْمُؤْتَفِكـاتُ بِالْخاطِئَةِ (9) فَعَصَـوْا رَسُـولَ رَبِّهِمْ فَأَخَـذَهُمْ أَخْـذَةً رابِيَـةً (10) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمـاءُ حَمَلْنـاكُمْ فِي الْجارِيَـةِ (11) لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَــذْكِرَةً وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَــةٌ (12) فَــإِذا نُفِخَ فِي الصُّـورِ نَفْخَـةٌ واحِـدَةٌ (13) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبـالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً (14) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَــةُ (15) وَانْشَـقَّتِ السَّـماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَـةٌ (16) وَالْمَلَـكُ عَلى أَرْجائِها وَيَحْمِـــلُ عَـــرْشَ رَبِّكَ فَـــوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ (17) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُـونَ لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَـةٌ (18)

---

9 [والمؤتفكات] : المنقلبات بأهلها ، جاء في مفردات الــراغب : الإفك كلّ مصروف عن وجهه الّذي يحقّ أن يكون عليه ، وقيل للريــاح العادلة عن المهابّ مؤتفكة.

10 [رابية] : زائدة في الشدّة ، وقيل : زائدة على عذاب الأمم.

16 [واهية] : شديدة الضعف ، وقال الـراغب في مفرداته : كـلّ شـيء اســترخى رباطه فقد وهي ، وقيل : إنّ الســماء تنشــقّ بعد صــلابتها فتصير بمنزلة الصوف في الوهي والضعف.

وتعيها أذن واعية

هدى من الآيات :

الحق والجــزاء تومــأن لا ينفصل أحــدهما عن الآخر ، فإنّما تحكم الحيـاة مجموعة من القـوانين والسـنن الـتي وضــــعها وأجراها الله فيها فهي مخلوقة بــــالحق ، ولأنّها كذلك فإنّ الجزاء واقع لأنّه حق ، وإيمـان الإنسـان بـالحق مرهــون بمــدى إيمانه بالحســاب والجــزاء ، إذ لا تعــني الدعوة للإيمان به شيئا ولا تعكس اسـتجابة في النفس لو لا ذلك ، وهكذا جـاء التعبـير القـرآني عن كفر ثمـود وعـاد ببيــان كفــرهم بــالجزاء (القارعــة) مع أنّهم كــذّبوا أيضا بالرسل ، لأنّ الكفر بالجزاء يساوي الكفر بالحق.

وفي هذا المحور تنتظم آيات الفصل الأول من سورة الحاقة في سياق التأكيد على حقيقة الجـزاء في الحيـاة ، كقضــية تشــريعية وتكوينية ، تتصل بــالحق اتصــالا متينا ، ففي مطلعها وحتى الآية الثانية عشرة يـبيّن لنا صـورا من الجزاء الّذي حلّ بـالأقوام السـالفة نتيجة تكـذيبهم بـالحق واتباعهم الباطل ، كدلالات واقعية على هذه السـنّة الإلهية ، وكآيات هادية إلى الجزاء الأكبر في الآخرة.

ولكن تبقى (الواقعـة) أجلى آيـات الجـزاء والحق معا بالنسـبة للإنسـان ، حيث ينفخ في الصـور، وتحـدث التحـولات الكونية الهائلة والمفزعة ، وتتجلّى الملائكة المقرّبـون يحملـون عـرش الله ، ويعـرض يومئذ النـاس بكيـانهم وأعمـالهم لا تخفى منهم خافية ، ولعله لـذلك جاءت تسمية القيامة في هذه السورة بالحاقة .. باعتبارها ذات وجهين : يتصل الأول بـالجزاء الـتي هي عرصـته وأعظم آياته ، ويتصل الثاني بـالحق ، إذ هي جـزء لا ينفك من أعظم حقـائق الوجـود ، ولقد سـمّاها ربنا في نهاية الـدرس بالواقعة للمبالغة في التأكيد على أنّها حقيقة واقعية لا بد أن تقع ، ومن ثم فإنّ التكذيب بها لا ينفيها ولا يمنع وقوعها أو حتى يغيّر أجلها.

وتبقى الآية (**لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَـذْكِرَةً وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ**) محورا في هذا السياق بل في سياق السورة كلها ، إذ لا تـدرك غـور الآيـات بما تتضـمنه الحقـائق إلّا تلك القلوب الزاكية التي صيّرها الإيمان والعلم أذنا لـوحي الله وآياته.

بينات من الآيات :

[1 ـ 3] إنّ الايمان بالآخرة ـ وكما أكّدنا مـرارا ــ حجر الأساس في الإيمان بسائر القيم والمبادئ ، ولذلك لا تكاد تخلو سـورة قرآنية من التأكيد عليها ، بل وإنّ الحـديث بشـأنها ترهيبا وترغيبا أصـبح السـمة الأساسـية للجـزئين الأخـيرين (تبـارك وعمّ) المكـيين في الأغلب عـدا سـورة (الإنسان الزلزلة والنصر) ، وإذ يوليها الربّ هـذا الاهتمـام فلعلمه بموقعها في بناء شخصية الإنسان.

والّـذي يتتبع حـديث القـرآن عن الآخـرة يجد أنه عبّر عنها بعـدة أسـماء تختلف في ظاهرها وبعض مضـامينها ، كأن يكون كلّ اسم يعبّر عن جـانب أو مرحلة زمنية منها ، إلّا أنّ هـدفها واحد لا يتجـزأ ، وهو زرع الإيمـان بـالآخرة وتعميقه في النفـوس لتتبصر من خلالها بسـائر الحقـائق. وهنا تطالعنا أولى الآيات باسم من أسماء القيامة

وعبر بلاغة فائقة ، تهتز لها القلـوب ، وتقشـعرّ منها جلـود المؤمنين.

[الحاقّة]

وللمفسـرين أقـوال كثـيرة في معـنى هـذه الكلمة ، ولماذا سميت القيامة بها؟ وأبرزها التفسـيرات التالية أولا : اللازمة الواجبة الوقــوع ، قــال تعــالى : (**وَلكِنْ حَـقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ**) [1] أي وقع فأوجبته ، وقــال : (**أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَـةُ الْعَـذابِ أَفَـأَنْتَ تُنْقِـذُ مَنْ فِي النَّارِ**) [2] أي وجب ولـــــزم ، ثانيا : المحيطة ، جـــــاء في المنجد : حـاق بهم العـذاب : نـزل وأحـاط ، والحيق : ما يشتمل على الإنسان ويلزمه من مكروه فعله ، قال تعالى (**وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِـهِ**) [3] أي لا يقع ويحيط إلّا بهم ، وقال : (**أَلا يَوْمَ يَـأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْـرُوفاً عَنْهُمْ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ**) [4] يعني وقع وأحاط.

والّـذي يبـدو لي من معـنى الكلمة بالإضـافة إلى ما تقدم : أنّها الحق الّذي يقع فيكشف عن الحقائق ويظهرها ، كما قال الله : (**وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِـهِ**) [5] يعـني يثبته ويظهـره ويجعل الغلبة له على الباطـل. ونحن إذا عرفنا بأنّ أكـثر النـاس محجوبـون بـألوان الأغطية عن معاينة الحق فسـنهتدي بسـهولة إلى معـنى «الحاقّـة» إذ هي الــتي تكشف عن الإنســان غطــاءه ، وتجعل بصــره حديدا يرى الحقـائق ، حقيقة ما جـاءت به الأنبيـاء والكتب الإلهية ، وحقيقة نفسه وأعماله ، هل هو من أصــــــحاب الحق «اليمين» أم من أصــــحاب الباطل «الشــــمال»؟ وحقيقة

---

(1) السجدة / 13
(2) الزمر / 19
(3) فاطر / 43
(4) هود / 8
(5) الأنفال / 7

مصـيره .. والقيامة ليست تجعل الحق حقّا فهي المحقّة ، لأنّ الحق والباطل شيئان واقعيـان لا تصـنعهما الأحـداث ، إنّما دورها الكشف عنه ، وسوق النفـوس إلى التسـليم له ، حيث تنسف بأحداثها المريعة كل الحجب عن قلبه وعينه ليرى الحق ، كما قلنا في معـنى يـوم التغـابن ، فإنّه ليس بيــوم يتغــابن فيه النـاس ، وإنّما يكشف عنه ، ويؤكد ربّنا عظمة القيامة وهذه الصفة منها إذ يقول :

(**مَا الْحَاقَّةُ**)

إنّها أمر عظيم ماديّا ، حيث الوقـائع الكونية المهولة ، ومعنويا بآثارها في النفــوس ـــ كل النفــوس ـــ وكيف لا تــرهب الإنســان الضـعيف تلك الأحــداث الفظيعة الــتي أشـــفقت منها الســـموات والأرض ، وكيف لا يخشى وهو يلاقي ربه ، ويرى عمله ، ويمضي إلى مصيره الأبدي؟!

إنّ الحاقة ليست كلمة تقال ، فهـذه الحـروف عنـوان لأمر عظيم ، تزلزل به الأرض ، وتمـور السـماء ، وتسـجّر البحــار ، وتتلاشى الجبــال ، و(**تَـذْهَلُ كُـلُّ مُرْضِـعَةٍ عَمَّا أَرْضَـعَتْ وَتَضَـعُ كُـلُّ ذاتِ حَمْـلٍ حَمْلَها وَتَـرَى النَّاسَ سُكارى وَما هُمْ بِسُـكارى وَلكِنَّ عَـذابَ اللـهِ شَـدِيدٌ**). وتساؤل القرآن ب «ما» يأتي في سياق التعظيم والتذكير والتحذير والإلفات ، ولا يقف عند ذلك بل يضيف :

(**وَما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ**)

وهذه الآية تفيد التعظيم ، كما تـبيّن أنّ أحـدا لا يـدرك حقيقة القيامة ، وقد يعلم بعض المجملات عنها : بأنّها حق ، وأنّ من أحـــداثها زلزلة الأرض ، وحشر النـــاس ، ودكّ الجبال ، ولكنّه لا يعلم ميقاتها ، كما لا يملك أدوات يتمكّن بها وعي أحداثها العظيمة.

[4 ـ 8] إذن فكيف نؤمن بالحاقة؟

إنّنا لسنا مطـالبين بمعرفة دقـائق القيامة وتفصـيلات وقائعها ، فـإذا عجزنا عن ذلك كفرنا بهـا. كلّا .. إنّما يكفي لكي يأخذ الإيمـــان بها دوره في حياتنا أن نســـلّم بأصل وجودها ، وكونها حقّا لازما مفروضا من قبل الله عزّ وجلّ .. وانّ نظرة معتبرة إلى التاريخ تهدينا إلى ذلك ، حيث أنّ كلّ ما حلّ بالأقوام الأولين صورة مصغّرة عن سنّة الجزاء التي تتجلّى بكامل حجمها ومعناها يوم القيامة ، والدراسة الموضـــوعية لحضـــاراتهم وبالـــذات عند منعطف النهاية والــدمار تكشف بوضــوح أنّ حركة التــاريخ ليست عفوية تــدور في الفــراغ ، بل هي محكومة بقــوانين وســنن ومن أبرزها ـ على صعيد الأمم ـ سـنّة الجـزاء ويضـرب القـرآن أمثلة على ذلك رابطا بين دمار الأقوام بالعذاب وتكـذيبهم بالحق.

(**كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعادٌ بِالْقارِعَةِ**)

وثمــود قــوم صــالح (ع) بينما عــاد قــوم هــود (ع) ، والقارعة التي تقرع الناس ، وأسـاس القـرع في اللغة هو الضرب ، يقال : قرعت البـاب إذا دقّت وضـربها ضـارب ، وقرعته بالعصا : أي ضــربته ، وســواء كـانت القارعة هي الواقعة التي قـرعت حيـاتهم في الـدنيا ، أو الآخـرة الـتي سوف تقرع الدنيا عند الساعة ، فأصلها واحد وهو الجــزاء ، وحيث نــدرس حيـاة عـاد وثمـود نجد أنّهما كـذّبوا ليس بـالجزاء وحسب ، بل كـذّبوا بالرسل والرسـالات وسـائر آيات الله ، ولكنّهم في الحقيقة إنّما انطلقوا إلى كـلّ ذلك التكـذيب العـريض والشـامل من خلال التكـذيب بـالجزاء وبالذات الآخرة ، الأمر الذي دعاهم بالإضافة إلى التكذيب بالحقائق الأخـرى إلى الطغيـان في الانحـراف ، وممارسة الذنوب ، وهـذه نتيجة طبيعية للتكـذيب بـالجزاء أن يتحلّل البشر من قيود المسؤولية وحدودها.

ولكن هل بقيت ثمود وعاد على التكذيب بلا رادع؟ كلا ..

(**فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ**)

وفي الطاغية قولان قريبان من المعنى :

الأول : أنّها الصيحة التي أرسلها الله عليهم ، فجعلتهم غثاء خامدين ، وسوّى بها بيوتهم ، وسمّيت بالطاغية مبالغة في وصف عظمتها ، وإشارة إلى أنّها جاءت خارج السياق المعتاد للظواهر ، وزائدة عن حدّ القوانين الطبيعية ، فإنّا نقول : طغى الماء : إذا تجاوز الحد ، وفاض به النهر.

الثاني : ولعلّها اسم لحالة الطغيان ، قال تعالى : (**كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها* إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها* فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ناقَةَ اللهِ وَسُقْياها* فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها* وَلا يَخافُ عُقْباها**) [1] ، والذي يبدو أنّ الكلمة تعبّر عن المعنيين في آن واحد ، ونهتدي منها أنّ الجزاء الإلهي حكيم للغاية ، فهو من جنس العمل وبحجمه.

(**وَأَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ**)

أي ريح باردة وذات صوت ، جاء في المنجد : الصرصر من الرياح : الشديدة الهبوب أو البرد ، وصرصر الرجل : صاح شديدا ، وسمّي الصرصور بذلك لأنّه يصيح صياحا رقيقا في الليل [2].

وأمّا العاتية ففيها أقوال : أحدها أنّها التي خرجت عن أمر الملائكة الموكّلين

---

(1) الضحى / 11 / 15.

(2) المنجد مادة صر.

بالريح (الخزنة) بـأن أوحى الله لها مباشـرة أن تهلكهم بلا واســـــطة ، والآخر : أنّها الــــــتي لا قبل لأحد بمواجهتها ومقاومتها ، فهي تعتو على كـلّ أحد وكـلّ وسـيلة ، قـال الزمخشـري : شـديدة العصف والعتو ، أو عتت على عـاد فما قدروا على ردّها بحيلة ، من اسـتتار ببنـاء ، أو التجـاء بجبل ، أو اختفاء في حفرة [1]. والمعنى الأصيل : أنّها التي بلغت من الشـــدة ما تجــاوزت به القـــوانين والمقـــاييس الطبيعية ، وبكيفية لا يمكن البشر تصـــــــورها ، لأنّ أصل العتو هو الخــروج عن الحد ، قـال تعـالى : (**وَكَـأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَرُسُلِهِ**) [2] ، وقـال : (**فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ**) [3] ، وإنّما جعل الله الـريح عاتية على عـاد لكي يعكس عتـوّهم عن أمـره عـزّ وجل ، فإنّه لو أراد أحد تصوّره في عالم التكوين فسيجده تماما كـالريح الصرصر حينما تتجـاوز الحد المتعـارف ، بل هي أعظم من ذلك لأنّ ريــــاح الشـــــهوات العاتية في الحقيقة هي الـتي دمّـرتهم ، ولم تكن الـريح الظـاهرة إلّا تجسيدا وعاقبة لها.

(**سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً**)

فهي لم تأتهم صدفة بسبب نحس أو تغيّر كوني خارج عن الحســاب والســنن ، إنّما جـاءت الـريح بـإرادة إلهية سخّرتها ، وكذلك ينظر المؤمنون إلى الأحداث ويحلّلونها ، أمّا غـــيرهم فـــإنّهم لا تفيـــدهم عـــبرة ، لأنّهم يفســـرونها بالصـدفة أو بتغيّـرات مبتـورة تعكس جهلهم أو تجـاهلهم ، ولا يفكّـرون بعقـولهم الـتي لو اسـتثاروها لهـدتهم إلى يد التدبير التي تهيمن على الخليقة!

قال الفخر الـرازي : وذلك لأنّ من النـاس من قـال : إنّ تلك الرياح إنّما اشتدت لأنّ اتصالا فلكيّا نجوميّا اقتضى ذلك ، فقوله : «سخّرها» فيه إشارة إلى

(1) الكشّاف / ج 4 ص 599
(2) الطلاق / 8
(3) الذاريات / 44

نفي ذلك المذهب ، وبيـان أنّ ذلك إنّما حصل بتقـدير الله وقدرته ، فإنّه لو لا هـــــــذه الدقيقة لما حصل التخويف والتحذير عن العقاب [1] ، والكلمة نفسها تنفي الوهم بأن العاتية هي التي خرجت عن التقدير والتدبير ، كذلك تجاوز الخطر عن النـــــبي هـــــود والـــــذين آمنـــــوا معه (حيث كـانت تمـرّ عليهم كالنسـيم) دليل على أنّها كـانت مسخّرة مدبّرة.

ونتسـاءل : لمـاذا لم يجعل الله الـريح لحظة واحـدة وهو قـادر على إهلاكهم بهـا؟ ربما صـيّرها الله سـبع ليـال وثمانية أيام (قالوا : من صباح الأربعاء إلى مساء مثله من قابـل) [2] لأنّه أبلغ أثـرا في نفـوس المعـذّبين حيث المـدة أطـــول ، كما أنّه أفضل موعظة في قلـــوب المؤمـــنين والمعاصرين لهم ، وأشد تحـذيرا للّاحقين ، ولعل في ذلك إشارة عبر التاريخ إلى مدى تحصّنهم وأسباب البقاء الـتي كـانت في حضـارتهم ، قـال الطبرسي في مجمع البيـان : الحســوم : المتوالية ، مــأخوذة من حسم الــداء بمتابعة الكي عليه ، فكأنّه تتـابع الشر عليهم حـتى استأصـلهم ، وقيل : هو من القطع ، فكأنّها حســـمتهم حســـوما ، أي أذهبتهم وأفنتهم ، وقطعت دابـرهم [3] ، وسـمّي السـيف حاسما لأنه يحسم الأمر ويقطعه (ويقطع المضروب بــه) [4].

(**فَتَرَى الْقَـوْمَ فِيها صَـرْعى كَـأَنَّهُمْ أَعْجـازُ نَخْـلٍ خاوِيَةٍ**)

أي في تلك الأيـام والليـالي ، أو في قـراهم ، وحيث وقعوا صرعى فهم أشبه ما يكون بجذوع النخل المنتشـرة على الأرض والخالية بالنخر من داخلها فهي لا تنفع

---

(1) التفسير الكبير / ج 30 ص 104.
(2) كذلك في النصوص.
(3) مجمع البيان / ج 10 ص 344
(4) التحقيق في كلمات القرآن / مادة حسم.

لبناء ولا لغيره [1] والمنظر صورة للحديث الشريف : «**من أبـدى صـفحته للحق هلك**» [2] ، والآخر «**من صـارع الحـقّ صـرع**» [3] ، وإنّها لعاقبة كل من يكـذّب بـالحق ويتنكّب عن طريقه.

واللطيف في تعبـــير القـــرآن مخاطبته المباشـــرة «فترى» للرسول (ص) ومن خلاله كل تال للآيـات ، وذلك أنّ الله لا يريد من نقل القصص مجرد المعرفة أو التسلية ، بل يريد من سامعها الاتعاظ والإعتبار ، والذي يتم بتخيّل القصص ومشـــاهدها والحضـــور في أحـــداثها وخلفيّاتها ، وبعبارة أخرى : أن يكون نفسه شاهدا عليها ، ولا شك أنّ القلب والعقل أعظم شـهادة وحضـورا ، والإنسـان قـادر على الحضـــور بهما ، ورؤية حـــتى الماضي والمســـتقبل ، فالخطاب هنا موجّه للأذن الواعية ، ثم يؤكّد ربنا بالتساؤل : أن قوم عاد أهلكوا جميعا ، فلم يبق منهم أحد.

(**فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ**)

قيل : لم يبق لهم أثر من نفس وغيرها ، وقيل : بل المعـنى لا تـرى من نفس باقية فقط [4] وهكـذا حصـروا الهلاك في النفـــوس لقوله تعـــالى عن قـــوم عـــاد : (**فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلَّا مَساكِنُهُمْ**) [5] ، وهذا هو الأقرب.

إذن فتكذيبهم بالقارعة لم يغيّر من الحقـائق الواقعية شـيئا ، بل قـرعتهم في الـدنيا قبل الآخـرة ، ونحن الـذين نقف على أخبار الأقدمين يجب أن نتخذها حاقّة تكشف لنا عن سنّة الجزاء ، ومن ثم حقيقة الساعة والقيامة والبعث (الآخرة).

---

(1) مرّ بيان مفصل في معنى (**أَعْجـازُ نَخْـلٍ خاوِيَـةٍ**) في الآية 20 من سورة القمر فراجع.
(2) موسوعة بحار الأنوار / ج 70 ص 107 عن الإمام علي (ع)
(3) المصدر / ج 77 ص 420.
(4) الدر المنثور والكشاف والرازي.
(5) الأحقاف / 25

[9 ـ 10] ويضع السياق صورا أخرى تكشف عن ذات الحقائق : هيمنة الله على الحياة ، وسنّة الجزاء ، والآخرة .. وإنّما يكثر القـرآن الأمثـال لكي لا تبقى عنـدنا ذرّة شك أو شـبهة أنّ تلك الحـوادث كـانت صـدفة ، وبالتـالي لكي يتعمّق في نفوسنا الإيمان بالله والجزاء.

(**وَجاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكاتُ بِالْخاطِئَةِ**)

أي بـالقيم والأعمـال البعيـدة عن الحق والصـواب ، كالظلم والعلو والشرك وادّعـاء الربوبية ، وقد اختلف في الــذين قبل فرعــون إلى قــولين : أحــدهما : أنّهم الأمم والقرون الـتي سـبقته وأهلكها الله ، والآخر ـ وهو صـحيح أيضا ـ : أنّ فرعـون كـان حلقة من نظـام سياسي كـان يحكم مصر ، والـذين قبله يعـني الحلقـات الأخـرى منه ، قـال الإمـام البـاقر (ع) في قوله : (**وَجـاءَ فِرْعَـوْنُ**) : «يعـني الثـالث ومن قبله الأولين» [1] ، وإلى ذلك تشـير الآثـار والدراسـات العلمية للتـاريخ السياسي لمصر [2] ، وربما الأولى الجمع بين الرأيين ، والقول بأنّ «من قبلـه» تشمل كلّ من كان قبل فرعون من ملوك مصر وغيرهم.

وأمّا «المؤتفكـات» فهي قـرى لـوط الـتي جعل الله عاليها سـافلها جـزاء شـذوذهم الجنسي ، ومشـيتهم المقلوبة في الحياة ، حيث كانوا يأتون الرجال شـهوة من دون النساء ، وإنّما خصّ الله قوم لوط بالذكر مع شـمول «من قبله» لهم لأنّهم من أظهر شواهد الانحراف ، ولعـلّ أعظم الخطيئـات الـتي جـاءت بها تلك الأقـوام هي اتبـاع المناهج والقيادات المنحرفة ، ومن ثمّ التكـذيب برسـالات الله ورسله.

---

(1) البرهان / ج 4 ص 375.

(2) راجع كتاب (مدخل في علم السياسة) لمؤلفه بطـرس غـالي وزير داخلية مصر الأسبق ، ومدرس العلوم السياسية في جامعة القاهرة.

(**فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ**)

كنتيجة مباشرة لذلك. وماذا يعني عصيان الرسول؟ إنّه الانحراف عن الحق والسنن الطبيعية في الحياة ، ومحاربة الله .. وهل ينتهي ذلك إلّا إلى الانحطاط والهلاك؟!

(**فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رابِيَةً**)

وأصل الرابية : الزيادة ، ويسمّى ما ارتفع من الأرض رابية لأنّه في حقيقته زيادة فيها بالارتفاع ، وأمّا الأخذة الرابية فهي : إمّا التي زادت على غيرها من عذاب الله وأخذه ، أو التي نمت وتعاظمت بسبب تراكم الخطيئات ، وهذا قريب ، وفيه دلالة على أنّه تعالى أملى لهم وأمهلهم ليزدادوا إثما ، فيزيدوا بأنفسهم غضب الله عليهم في الدنيا والآخرة.

[11] ويذكّرنا القرآن بأعظم ما شهده تاريخ البشرية من الجزاء الإلهي ، وهو ذلك الطوفان الذي تفجّرت به ينابيع الأرض ، وانفتحت أبواب السماء بماء منهمر ، فابتلع اليابسة كلّها في عصر نوح (ع) ، ولكنّه في نفس الوقت يوجّهنا إلى لطف الله بالبشرية كلّها حين حفظ وجودها بحملها في السفينة ، هذه الآية التي يهدينا التفكير فيها وبصورة مسلّمة إلى أنّ سنة الجزاء ليست صدفة ، إنّما هي تحت هيمنة الله الحكيم في تدبيره.

(**إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ**)

أي السفينة التي تجري على الماء ، وطغيان الماء : زيادته عن المعتاد وعن حاجة الناس والنبات إليه ، ويقال للبحر : طغى : إذا تجاوز على اليابسة ، وفي الدر المنثور عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، قال : طغى على خزّانه فنزل ، ولم ينزل من

السماء ماء إلّا بمكيال أو ميزان إلّا زمن نوح (ع) فإنّه طغى على خزّانه ، فنزل من غير كيل ولا وزن [1] ، وأخرج بن جرير عن الإمام علي (ع) قال : «لم تنزل قطرة من ماء إلّا بمكيال على يدي ملك ، إلّا يوم نوح فإنّه أذن للماء دون الخزّان فطغى على الخزّان فخرج» [2] ، ولا يعني ذلك أنّه لا مكيال ولا وزن معلوم له عند الله ، كلا .. وإنّما المعنى أنّ الله لا ينزل الأمطار إلّا عبر حسابات دقيقة ، تتناسب مع حاجات الخلق ، أمّا في الطوفان فقد أمر السماء والأرض أن تتفجّر ماء مّا تستطيعان.

ولم يقل الله : (حملناهم) يعني الذين ركبوا السفينة مع نوح ، بل قال : «حملناكم» موجّها الخطاب للبشرية جمعاء ، لأنّها يوم الطوفان كانت منحصرة فيهم ، وليس الناس بعدها إلّا نسل أولئك ، فنحن معنيّون بالحمل أيضا ، إذ لو لا السفينة لما كنّا الآن موجودين.

[12] وبعد العرض الموجز لقصة الطوفان في آية واحدة يوجّهنا القرآن إلى العبرة الهامّة منها ، والتي يقتضي الإشارة إليها ، وهي : أنّ بقاء السفينة ونجاة ركّابها في ذلك الطوفان المروّع آية إلهية عظيمة ، تذكّرنا بكثير من الحقائق الإيمانية ، إذا كانت ثمّة أذن واعية تستوعب ما تذكّر به.

(**لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً**)

وإنّ مرورا سريعا بآية (الجارية) يذكّرنا بهيمنة الله على الوجود ، وسنّة الجزاء ، ولطف ربّنا ، ودور الإيمان به ، واتباع رسله ورسالاته في نجاة الإنسان ، وفضل الأنبياء على البشرية .. وهكذا الكثير من الحقائق التي من شأنها زراعة تقوى الله

---

(1) الدر المنثور / ج 6 ص 260

(2) المصدر / ص 259

وتعميقها في النفس ، وما أحوج البشرية أن تـدرس هـذه الآية لتتذكّر بها لتتجنّب الأخطاء ، وتبني الحيـاة السـعيدة ، إلّا أنّنا لا نعيرها اهتماما ولا جـــزء من تفكيرنا ، بل نمـــرّ عليها مرور الغافلين اللّاأباليين ، وكأنّها مجـرد قصة خياليّة أو قصة تروى للتسلية.

بلى. إنّ الآيات والحقائق كما الماء والكائنات الأخـرى تحتـاج إلى وعـاء يسـتوعبها ، ولكن من جنس آخـر. إنّه القلب المزكّى بالإيمان والعرفـان هو وحـده وعاؤها ، وإنّ في قصة الإعـدام الجمـاعي للبشـرية بالطوفـان لدرسا يجب أن يبقى نصب أعين النـاجين ، يعمّق فيهم الخشـية من ربهم ، ويحـيي ضـمائرهم ، ويسـتثير عقـولهم باتجـاه الحق أبد الدهر.

(**وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ**)

أي تعي التـذكرة. ومن وصل هـذه النهاية بالشـطر السـابق للآية نهتـدي إلى أنّ المسـيرة الطبيعية للبشـرية هي مسـيرة التقـدم ، حيث تـتراكم خبراتها وتجاربها عـبر الزمن ، ممّا يزيد وعيها ومعارفها وإيمانها ، هـذا إذا كـانت من الناحية المعنوية سـليمة وذات أذن واعية ، أمّا إذا لم تصل بنفسـها إلى مسـتوى القـدرة على عقل الحقـائق واسـتيعابها فإنّها لن تتقـدم إلى الامـام ، بل سـتهوي في ذات المزالق الـتي دفع فيها السـابقون ، وسـتواجه ذات المصـــير. بلى. إنّ تلك القصص نـــداءات موجّهة إلينا لا يسمعها الصمّ ، وقال تعالى «أذن» لأن السـمع هو نافـذة المعرفة الإنسانية على التاريخ ، ووصفها ب «واعية» لكي يهدينا بأنّ منهج القـرآن في بيـان الحق والتـذكير به منهج كامل لا نقص فيه ، فإذا لم يسـتوعبه الإنسـان أو لم يقبله فإن الإشكال فيه ، لأنّ أذنه غير واعية ، وليس في رسالة الله ، ولا شك أنّ المقصـــــود هو ما وراء الأذن وليست الأذن بـذاتها ، لأنّها ليست وعـاء للعلم بل وسـيلة موصـلة إلى وعائه وهو

القلب ، ومن أهم شروط استيعاب الحق :

أ ـ جعله هدفا ومحورا ، مقـدّما على كـلّ اعتبـار آخر ، فمتى وجده سلّم له.

ب ـ الطهارة من الحجب الـتي تمنع اتصـال القلب به كالغفلة والجحود ، ومن أبرزها الأفكار والمواقف المسبقة ، وذلك أنّ القلب لا يمكن أن يستوعب الحق والباطل معا ، فهو إمّا يكون وعـاء للحق وإمّا يكـون وعـاء للباطل ، ولا بد أن يطرد الباطل من القلب حتى يستوعب الحق.

د ـ أن تكون قدرة الإسـتيعاب كبـيرة ، وذلك أنّ بعض الحقائق عظيمة لا يستوعبها كلّ قلب ، بل تختلف درجات المعرفة بالحقائق باختلاف القدرات العلمية والإيمانية عند الإنسـان .. وجـاء في الحـديث الشـريف عن الإمـام علي (ع): «**اعلموا أنّ الله سـبحانه لم يمـدح من القلـوب إلّا أوعاها للحكمة ، ومن النــاس إلّا أسـرعهم إلى الحق**» [1] ، وقال (ع): «**إنّ هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها**» [2]

ولقد اجتمعت هذه الشروط وغيرها في شـخص أمـير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) فاستوعب رسـالة الله ، وأصبح أعرف النـاس بعد النـبيّ بها ، ولـذلك أجمع الـرواة والمفسـرون على تأويلها فيه (ع) كـأعظم مصـداق للأذن الواعية .. قال الإمام علي (ع) يخاطب أصحابه وخاصـته : «ألا وإني مخصوص في القرآن بأسماء احـذروا أن تغلبـوا عليها فتضــلّوا في دينكم ـــ الى أن قــال ـــ : وأنا الأذن الواعيــة» [3] ، وقــال النــبي (ص) يخــاطب عليّا (ع) : «**دعوت الله ـ عزّ وجلّ ـ**

---

(1) غرر الحكم.

(2) نهج حكمة / 147.

(3) نور الثقلين / ج 5 ص 402 نقلا عن معاني الاخبار.

أن يجعلها أذنك يا علي» [1] وفي تفسير القرطبي روى مكحول : أنّ النبي (ص) قال عند نزول هذه الآية : «سألت ربّي أن يجعلها أذن علي» قال مكحول : فكان علي (رض) يقول : «ما سمعت من رسول الله (ص) شيئا قطّ فنسيته إلّا وحفظته» [2] أي ما كنت أنساه وما كنت إلّا أحفظه. وعن الحسن نحوه ذكره الثعلبي ، قال : لمّا نزلت «الآية» قال النبي (ص) : «سألت ربي أن يجعلها أذنك يا علي» قال علي : «فما نسيت شيئا بعد وما كان لي أن أنسى» [3] ، وإنّما طلب النبي ذلك من الله لأنّه يعلم بأنّ عليّا هو الامتداد الحقيقي له ولحظة ، فلا بد أن يستوعب رسالته .. وتتسع الآية لمصاديق أخرى وبدرجات متفاوتة ، إذ أنّ كلّ أذن واعية هي مصداق لها.

إنّ التاريخ معلّم للبشرية ، ويجب أن تتلمذ في مدرسته ، لأنّ ذلك هو السبيل للتقدم والسعادة في الدارين ، فهي لو درست تاريخها وتفكرت في حوادثه ومنعطفاته فسوف تهتدي إلى الحق في كلّ صعيد وجانب من الحياة .. تهتدي إلى ربها لأنّ التاريخ كله آيات موصلة إلى الإيمان به ، وتهتدي إلى الكثير من السنن والقوانين والحقائق الحضارية التي من شأنها لو وعتها أن تتجنب الأخطاء والأخطار ، وتجد طريقها إلى المجد والفلاح.

[13 ـ 14] ثم ينعطف السياق للحديث عن الآخرة لأنّها الحاقة العظمى ، وأجلى صورة لسنّة الجزاء في الوجود .. وإنّ الأذن الواعية ليتذكر صاحبها بحوادث التاريخ ، وما لقيته الأقوام في الدنيا عن الجزاء الإلهي فيعي بذلك حقيقة الآخرة ،

---

(1) المصدر

(2) القرطبي / ج 18 ص 264.

(3) المصدر ذكر ذلك وذكره الكشاف ، الرازي ، فتح القدير ، الدر المنثور ، شواهد التنزيل للحسكاني ، أسباب النزول للنيسابوري / عند تفسير الآية فراجع.

وإنّها حقّا لأذن واعية تلك الـــتي تعـــاين الغيب من خلال الشهود ، وتتسع آفاقها لرؤية المستقبل عـبر الحاضر ، فلا تفاجأ بالواقعة ، إنّما تـأتي مسـتعدة لتجـاوز عقبتها بـزاد التقوى وذخيرة العمل الصالح. بلى. إنّ الـواعين يعيشـون في الدنيا ولكنّ أرواحهم في الآخرة ، بل إنّ حضـورها في قلوبهم أعظم من حضور الـدنيا ، فـتراهم لا يغفلـون عنها لحظة واحدة ، وحيث ينقل لهم القرآن مشاهد منها فكأنّها قائمة بين أعينهم وقلـوبهم ، كما وصـفهم صـاحب الأذن الواعية الإمام علي (ع) بقوله : فإذا مرّوا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعا ، وتطلّعت نفوسهم إليها شـوقا ، وظنـوا أنّها نصب أعينهم ، وإذا مرّوا بآية فيها تخويف أصـغوا إليها مسامع قلوبهم ، وظنّوا أنّ زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم ، فهم حانون على أوساطهم ، مفترشـون لجبـاههم وأكفّهم وركبهم ، وأطـراف أقـدامهم ، يطلبـون إلى الله تعـالى في فكـاك رقـابهم [1] ، وكل ذلك ينعكس على سلوكهم في الحياة.

ولقد جـــاءت الآية (12) مؤكّـــدة على دور الآذان الواعية بين الحديث عن تاريخ الأقوام السـالفة (الآيـات) ، والحـــديث عن الآخـــرة (الآيـــات 13) في هـــذا الـــدرس وامتـــدادها حـــتى الآية (37) في الـــدرس اللاحق ، لأنّها وحـــدها القـــادرة على اســتيعاب مواعظ التـــاريخ وآياته ، والإيمـــان بحـــديث الـــوحي عن الآخـــرة ووعيه ، فحقـــائق الغيب ـ سواء غيب التاريخ أو غيب الآخرة ـ حقـائق كبـيرة ، بحاجة إلى أذن مرهفة تنفذ بسـمعها من الآيـات إلى ما تهدي إليه ، وقلب واسع كبير يحتمل أن يكون وعاء لها.

(**فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ**)

ويبـدو أنّها النفخة الثانية لأنّها الـتي يقـوم فيها النـاس للحساب والجزاء ، قال

---

(1) نهج البلاغة / ج 193 ص 304

تعالى : (**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّـماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيـهِ أُخْـرى فَـإِذا هُمْ قِيـامٌ يَنْظُـرُونَ**) [1] ، وما يؤكد أنّها الثانية أنّ السياق هو سياق الحديث عن الجزاء ، مما يستلزم الكلام عن النفخة الثانية الـتي يكـون الجـزاء بعـدها ، ونقـرأ هنا بعض الأخبار عن أئمة الهدى في شأن النفخ في الصـور ، قال الإمـام علي (ع): «**وينفخ في الصـور فـتزهق كل مهجة ، وتبكم كل لهجة ، وتــذل الشــمّ الشــوامخ ، والصــمّ الرواسخ ، فيصــير صــلدها ســرابا رقراقا ، ومعهدها قاعا سملقا (مستويا) فلا شـفيع يشـفع ، ولا حميم ينفع ، ولا معـذرة تـدفع**» [2] ، وفي صـلاته على حملة العرش قال الإمام زين العابدين : «وإسـرافيل صاحب الصور الشاخص الـذي ينتظر منك الإذن ، وحلـول الأمر ، فينبّه بالنفخة صـرعى رهـائن القبـور» [3] ، وعن وهب بن منبه عن الإمـام الصـادق (ع) قـال : «خلق الله الصور من لؤلـؤة في صـفاء الزجاجة ، ثم قـال للعـرش : خذ الصـور ، فتعلق به ، ثم قـال : كن ، فكـان إسـرافيل ، فـأمره أن يأخذ الصـور فأخـذه ، وبه ثقب بعـدد كـلّ روح مخلوقة ، ونفس منفوسة ، لا تخرج روحان من ثقب واحد ، وفي وسط الصــور كــوّة (فتحــة) كاســتدارة الســماء والأرض ، وإسرافيل واضع فمه على ذلك الكوّة ، ثم قـال له الرب تعالى : قد وكّلتك بالصور فأنت للنفخة وللصـيحة ، فدخل إسرافيل في مقدم العرش ، فأدخل رجله اليمنى تحت العرش ، وقدّم اليسرى ، ولم يطـرف منذ خلقه الله ينظر متى يؤمر به» [4] ، وفي رواية : «**مخافة أن يؤمر بالصــيحة قبل أن يرتد إليه طرفه ، كــأنّ عينــاه كوكبان درّيّان**» [5]

---

(1) سورة الزمر / 68
(2) نهج البلاغة / ج 195 ص 310.
(3) موسوعة بحار الأنوار / ج 59 ص 217
(4) المصدر / ص 261.
(5) المصدر / 362.

وهو لا يحتــــاج حــــتى يهلك الأحيـــاء بالنفخة الأولى ويبعثهم قياما بالثانية إلى أكـثر من مجـرد نفخة واحـدة ، لما أعطـــاه الله من القـــدرة العظيمـــة. قـــال العلامة الطباطبـائي : وفي توصـيف النفخة بالواحـدة إشـارة إلى مضي الأمر ، ونفوذ القدرة ، فلا وهن فيه حتى يحتـاج إلى تكرار النفخة [1].

ويا لها من نفخة صـاعقة مخيفة ، لا تـذهب بـالأنفس وحسب بل تزلـزل الكائنـات وكأنّها ترليونـات الترليونـات من القنابل النووية الـتي تنفجر في دفعة واحـدة ، فتـدمّر الكـــون ونظامه ، بحيث تخـــرج الأرض عن مـــدارها ، وتستأصل الجبـــال الراســـية من فوقها ، ثم يـــدكّها الله ببعضها.

(**وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً**)

وأصل الـدك هو الهـدم ، يقـال : دك الجـدار إذا هدمه وسوّاه مع الأرض ، ولا ندري هل يضرب الله أجزاء الأرض والجبال ببعضها بتركيز الجاذبية تركيزا هائلا بين أجزائهما ، أو برفعها تماما مما يسـبب تلاشـيها ، أم يضـرب الجبـال بـالأرض والعكس ، أم يرطمهما معا بكـوكب آخـر؟ المهمّ أنّهما يتـــداكّان .. وفي الآية إشـــارة إلى حقيقة علميّة جيولوجية : إذ لم يقل الله : «وحملت الأرض» فقط ، باعتبار أنّ الجبال جزء منها ، وذلك لأنّها في الواقع كيانات شـبه مسـتقلّة ، جعلها الله فيها ، فنصـبها وأرسـاها أوتـادا للأرض [2] ، فهي كما الشجرة لها هيكلها وجذورها الضاربة في التخـوم .. كما نهتـدي إلى أنّ الأرض تكـون مسـتوية بالـدكّ يـوم القيامة ، ولـذلك خص القـرآن الجبـال بالـذكر لأنها الزوائد المرتفعة على سطحها.

ويـــتزامن بعث النـــاس للحســـاب مع تلك الأحـــداث الكونية الرهيبة لكي تتجلى

---

(1) الميزان / ج 19 ص 397.

(2) راجع الآيات : الغاشية 19 ، النازعات 32 ، النبأ 7

لهم قدرة الله ، وتتساقط عنـدهم كل الحجب والتـبريرات هنالك ، بل في الدنيا أيضا لمن يؤمن بالآخرة ويعي آياتها.

[15 ـ 17] وبعد أن يصـوّر لنا القـرآن مشـهدا من القيامة يؤكّد بأنّها أعظم الوقائع التي تمر بالإنسـان ، لأنّها تدمّر الكائنات ، وتسوق الإنسان إلى مصيره الأبدي.

(**فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ**)

والتعريف بـالألف واللام يعظّمها في ذهن السـامع ، ويؤكد بـأنّ للإنسـان معها عهـدا أودعه الله في فطرته ، فهي ليست نكـرة للبشر السـوي .. وإنّ في تسـميتها (القيامة) بالواقعة يأتي للتأكيد باللفظ على كونها حقيقة لا بد من حصـولها ، فكـون الشـيء الـواقعي في الغيب ، ويفصل الإنسـان عنه الـزمن المسـتقبل لا ينفي أصل وجوده ، وهذه مسلّمة فطرية وعقلية ، وكأنّ الآية تقول : بـأنّ تكـذيبكم أيها البشر بـالآخرة لن يغـير شـيئا فيها ، ولا في ما يتصل بها من الاحداث ، فهل يمنع تكـذيبنا ـ مثلا ـ من تأثير نفخة إسرافيل في الأرض والجبال؟ كلا ..

ويوصلنا كتاب الله بالغيب ، إذ يضع أمامنا مشهدا آخر من مشـاهد الواقعة وهو انشـقاق السـماء المحبوكة والمتينة الخلق إلى حـدّ تكـون فيه واهية كالخرقة البالية التي تصير رمادا أو هباء.

(**وَانْشَقَّتِ السَّماءُ**)

المحبوكة التي لا فروج فيها ولا ضعف.

(**فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ**)

أي شديدة الضعف وقليلة التماسك ، ليس في هيكلها وحسب بل في جزئيّـات كيانها ، مما يجعلها تتبـدل شـيئا آخر كالمهل أو الدهان كما قال الله : (**يَوْمَ تُبَـدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ**) [1] ، وهكذا لا تبقى السـماء سـقفا محفوظا يمنع عن الأرض النيازك والأخطار.

ومشـهدا آخر عظيم هو منظر الملائكة على الأرجـاء والملائكة الثمانية العظـام الـذين يحملـون عـرش الله فوقهم.

(**وَالْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها**)

أي أطرافها ونواحيها ، قـالوا : بـأن الضـمير عائد إلى السماء التي تشقق وتصير قطعا وأجـزاء على كل واحـدة منها ملائكة كثيرون.

(**وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ**)

من أعظم ملائكة الله ، وربما أعظمهم على الإطلاق ، ولفوقهم تفسيران : أحدهما : فوقهم بالمسافة ، والآخر : فـوقهم بالمرتبة ، فالثمانية يحملـون العـرش من أركانه ومعهم من الملائكة من يحملونه من أطرافه الأخـرى ، أو أنّ الثمانية لهم الرئاسة على بقية الملائكة فهم فـــوقهم مرتبة ، وبهـذا نجمع بين الروايـات القائلة : بـأنهم ثمانية ، والقائلة : بأنهم أكثر من ذلك.

قـال الإمـام علي بن الحسـين (ع) في صـفة خلق العـــرش : «له ثمانية أركـــان ، على كـــلّ ركن منها من الملائكة ما لا يحصي عددهم إلّا الله ـ عزّ وجلّ ـ يسـبّحون الليل والنهـار لا يفـترون» [2] ،وقـال الإمـام الصـادق (ع) : «إنّ حملة العرش

(1) إبراهيم / 48
(2) نور الثقلين / ج 5 ص 404.

أربعة : أحدهم على صورة ابن آدم يسترزق الله لبني آدم ، والثـاني : على صـورة الـديك يسـترزق الله للطـير ، والثالث : على صورة الأسد يسترزق الله للسباع ، والرابع : على صـورة الثـور يسـترزق الله للبهـائم ، ونكس الثـور رأسه منذ عبد بنو إسرائيل العجل ، فإذا كان يـوم القيامة صاروا ثمانية» [1]

ولقد خاض بعض المفسرين في مواضـيع لا داعي لها ، واختلفوا مع بعضهم في عـدد الملائكة وأشـكالهم ، وهي بحـوث لم نكلّف بها ، بينما توجّه أئمة الهـدى ــ عليهم السلام ــ للـرد على الأفكـار المادية الـتي حـاول أصـحابها إثبـات معتقـداتهم التجسـيدية والتشـبيهية من خلال الفهم الخـاطئ لهـذه الآية الكريمة ، حيث شـبهوا عـرش الله بعروش السـلاطين الـتي يـتربعون عليهـا. تعـالى الله عما يصفون علوّا كبيرا.

قـال سـلمان المحمـدي : سـأل بعض النصـارى أمـير المؤمـنين علي بن أبي طـالب (ع) قـال له : أخـبرني عن ربك أيحمـل؟ فقـال (ع) : «ربنا جل جلاله يحمّل ولا يحمـل» ، قـال النصـراني : وكيف ذلك ونحن نجد في الإنجيل : «**وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ**»؟ فقـال علي (ع) : «إنّ الملائكة تحمل العـرش ، وليس العـرش كما تظن كهيئة السـرير ، ولكنّه شـيء محـدود مخلـوق مـدبّر ، وربك ــ عـزّ وجـلّ ــ مالكه ، لا أنّه عليه ككون الشيء على الشيء ، وأمر الملائكة بحمله يحملون العرش بما أقدرهم عليه» قال : النصراني صدقت رحمك الله [2]

وقال الإمـام الرضا (ع): «والمحمـول ما سـوى الله ، ولم يسمع أحد آمن بالله وعظمته قط قـال في دعائه : يا محمول» فقال له أبو قرّة : فإنّه قال : «**وَيَحْمِـلُ عَـرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ**»؟ وقـال : «**الَّذِينَ يَحْمِلُـونَ الْعَرْشَ**»؟! فقال أبو

---

(1) المصدر
(2) المصدر نقلا عن كتاب التوحيد.

الحسن (ع) : «**العـرش ليس هو الله ، والعـرش اسم علم وقـدرة ، وعـرش فيه كل شـيء ، ثم أضـاف : الحمل إلى غيره ، خلق من خلقه لأنّه اسـتعبد خلقه بحمل عرشه وهم حملة العلم**» [1]

والعـــــرش هو رمز الهيمنة والســــلطان والعلم ، والموضع الذي يتجلّى فيه علم الله وقدره وقضاؤه وأمـره للملائكة ، الـذين هم بـدورهم يمضـون ما يـؤمرون به ، ولعل أهم حكمة لخلق العـــرش أنّه تعـــالى قد أوكل إلى الملائكة إنفاذ مقاديره وتدبيره للخلق ، وهو الذي لا يحـدّه مكـان ما كـان لهم أن يتصـلوا به ، وكيف يتّصل المخلـوق المحدود بالخالق لو لا خلق الأسماء والأشياء كالبيت الذي يكـون مركز عبادته ، والعـرش الـذي يكـون مركز إدارته للكائنات وهيمنته.

وقد أوّلت بعض النصـوص الحملة في خـير خلق الله قال الإمـام الصـادق (ع): «حملة العـرش ثمانية أربعة منّا وأربعة ممن شـاء اللـه» [2] ، وفي حـديث آخر : «**حملة العـــــــرش ثمانية : أربعة من الأولين وأربعة من الآخرين ، فأما الأربعة من الأولين : فنوح وإبـراهيم وموسى وعيسى ، وأمّا الآخـــرون : فمحمد وعلي والحسن والحسـين ـ عليهم السـلام ـ ومعـنى «يحملون» يعني العلم**» [3]

وإذا كــان الظــاهر أنّ الملائكة هم الــذين يحملــون العــرش فــإنّ البــاطن هو أولئك الــذين خلقت الملائكة لأجلهم وهم الصفوة من عباد الله. أليس قد خلق الأشـياء لأجل الإنسان ، وأيّ إنسان أعظم من الأنبياء والأوصياء؟

[18] وأعظم مشـهد في القيامة هو عــرض النــاس للحساب والجزاء ، لأنه أشدّ

---

(1) المصدر / ص 405

(2) المصدر / ص 406.

(3) المصدر

رهبة ، حيث يلقى الإنسان حسابه ومصيره الأبــدي ، ولأنه الهدف الأساسي من وراء كلّ أحداثها ومشـاهدها المرعبة ..

(**يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ**)

وإذا كـانت لا تخفى عند الحسـاب والجـزاء ولا حـتى واحـدة من الأعمـال الـتي أخفاها الإنسـان وقـام بها في السر ، فكيف بالظـاهر منهـا؟ فالحسـاب اذن دقيق ، لأنه يتأسس على علم الله المحيط بكـلّ شـيء ، وبالحسـاب يوم القيامة يتجلّى عدل الله ولطفه وغضـبه وعلمه ، قـال رسول الله (ص): «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدي الله حـتى يسـأله عن أربع خصـال : عمـرك فيما أفنيتـه؟ وجسـدك فيما أبليتـه؟ ومالك من أين اكتسـبته وأين وضـعته؟ وعن حبّنا أهل الـبيت**» [1] ، ويعــــرض أعمــــال العبــــاد ليظهر الحق جليّا ، كما تتأكد القارعة والواقعة بوقوعها ، ولــــذلك ســــمّيت القيامة بالحاقة.

وكلمة أخيرة :

إنّنا نلاحظ في القرآن أنّه لا يكـاد يتحـدث عن التـاريخ ومصـير الأقـوام السـالفة إلّا ويوصل ذلك بالحـديث عن الآخرة ، فما هو السر في ذلك وما هي العلاقة بينهما؟

1 ـ لأنّ الإسـلام لا يريد للإنسـان أن يعيش لحظته الراهنة فقط ، إنّما يعيش الحاضر على ضــــوء الماضي والمسـتقبل معا ، فيتحــرك من حيث انتهى الآخــرون ، ويتعظ بتجـاربهم لبنـاء حيـاة سـعيدة في الحاضر ، وفي نفس الوقت يخطط ويعمل لكي يربح المستقبل.

2 ـ ولأنّ الآخـرة كما التـاريخ غيب لا سـبيل للإنسـان إلى معرفته إلّا بالآيات

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج 7 ص 259.

والآثــار الدالّة عليه ، والــذي يكفر بــالآخرة لأنّه لا يعاينها بذاتها كالـذي يكفر بالتـاريخ لأنه لم يعاصر أحداثه ، مع أنّ الأدلة قائمة تهدي إليه.

3 ـ ويتشابه التاريخ مع الآخرة في كون الإثنين عرصة تكشف عن سنة الجزاء الحاكمة في الحيــاة ، وهيمنة الله عليها ، وتمايز المؤمـنين عن سـواهم ، وهكـذا الكثـير من الحقــائق ، بل أنّ التــاريخ هو الآية المادية العظمى الــتي تهدي إلى الإيمان بالآخرة والجزاء.

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَــهُ بِيَمِينِــهِ فَيَقُــولُ هــاؤُمُ اقْــرَؤُا كِتابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ (20) فَهُــوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ (22) قُطُوفُها دانِيَــةٌ (23) كُلُــوا وَاشْــرَبُوا هَنِيئــاً بِما أَسْــلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخالِيَــةِ (24) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَــهُ بِشِــمالِهِ فَيَقُــــولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَــــهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ (26) يا لَيْتَها كـانَتِ الْقاضِـيَةَ (27) ما أَغْـنى عَنِّي مالِيَــهْ (28) هَلَــكَ عَنِّي سُــلْطانِيَهْ (29) خُـذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَــلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِــلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كانَ لا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ (33) وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْـكِينِ (34) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ (35) وَلا طَعــامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْـــــــــــــــــــــــــــــــلِينٍ (36) لا يَأْكُلُهُ

36 [غســلين] : الصــديد الــذي ينغسل بســيلانه من أبــدان أهل النــار ، ووزنه فعلين من الغسل.

إِلاَّ الْخاطِؤُنَ (37) فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِــرُونَ (38) وَما لا تُبْصِـرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَـوْلُ رَسُـولٍ كَـرِيمٍ (40) وَما هُـوَ بِقَـوْلِ شـاعِرٍ قَلِيلاً ما تُؤْمِنُـونَ (41) وَلا بِقَـوْلِ كاهِنٍ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (42) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (43) وَلَـوْ تَقَـوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيـلِ (44) لَأَخَـذْنا مِنْهُ بِـالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْـهُ الْـوَتِينَ (46) فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَـــدٍ عَنْـــهُ حـــاجِزِينَ (47) وَإِنَّهُ لَتَـــذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (48) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (49) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكـافِرِينَ (50) وَإِنَّهُ لَحَـقُّ الْيَقِينِ (51) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (52))

وإنّه لحقّ اليقين

هدى من الآيات :

يـأتي كـلّ إنسـان إلى الـدنيا وأمامه طريقـان وفرصة واحــدة : طريق الحق الــذي ينتهي به إلى الجنة والنعيم ، وطريق الباطل الـذي ينتهي به إلى النـار والعـذاب ، وأمّا الفرصة فهي عمره الـذي يفنيه في أحد الطـريقين ، فإمّا يختار الجنة ويسعى لها سعيها أو العكس ، فالـدنيا وحـدها هي دار الابتلاء والعمل وحيث تقع الواقعة ويعـــــــرض للحسـاب فإنّه لا يملك تبـديلا ولا تحـويلا ، لأنّ الآخـرة دار الحساب والجزاء فقط.

وفي الدرس الأخير من سـورة الحاقة يضـعنا القـرآن وجها لوجه أمام هـذه الحقيقة مؤكّـدا بـأنّ هنـاك عـاقبتين وفريقين ، فإمّا العيشة الراضية في الجنة التي هي نصيب أصــحاب اليمين ، وإمّا تصــلية الجحيم جــزاء لأصــحاب الشمال. وبعد أن يبين في الأثناء بأنّ المصـير في الآخـرة متأسس على موقف الإنسان وعمله في الدنيا يوجّهنا ربنا إلى رسالته الحقة الصـادقة باعتبارها الصـراط المسـتقيم والنهج الذي يقود إلى الفوز والفلاح يـوم القيامة ، مـدافعا عنها ضد ضلالات أعدائه وأعداء رسوله الذين

قالوا بأنّها شعر تارة وكهانة تارة أخرى جحودا واستكبارا ، وإنّها لتـذكرة للمتقين وحسـرة على الكـافرين ، وإنّه لحق اليقين ، فسبحان الله عمّا يصفون ويشركون.

بينات من الآيات :

[19] بعد عــرض النــاس للحســاب تظهر حقيقتهم ، وتتعين مصـائرهم على أساسـها في ظل الهيمنة المطلقة للحق ، ولعله لـــذلك ســـمّيت القيامة بالحاقّة ، فإمّا أن يكـون الحق مع الإنسـان فيقـوده إلى الفـوز بالجنة ، وإمّا أن يكــون ضــده فيســوقه إلى بئس المصــير في جهنم. ويكشف لنا القرآن عن غيب الآخرة ليضعنا أمام مصـيرين لا ثـــالث لهما بعد أن وضـــعنا في أجـــواء القيامة وأحضر مشاهدها في قلوبنا لكي نختار أحد الإثنين ، وبالطبع نــرى السـياق القـرآني يـرجّح لنا بعرضه الحكيم خيـار أصـحاب اليمين.

(**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ**)

ممّا يعــني فــوزه بالجنة والرضـوان ، لأنّ اليمين رمز ذلك ، وكناية عن اليمن والبركة والخير.

(**فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ**)

قـال العلامة الطبرسي «هـاؤم» أمر للجماعة بمنزلة هاكم (وأضـاف :) بمنزلة خـذوا ، وإنّما يقـول ذلك سـرورا لعلمه بأنّه ليس فيه إلّا الطاعــات ، فلا يســتحي أن ينظر فيه غيره [1] ، وقال الـرازي : دلّ ذلك على أنّه بلغ الغاية في السرور فأحبّ أن يظهره لغيره حتى يفرحوا بما ناله [2] ، ولعل خطابه موجّه لإخوانه من أصحاب

---

(1) مجمع البيان / ج 10 عند الآية.
(2) التفسير الكبير / ج 30 عند الآية.

الجنة ، وبالخصوص أئمة الحق الذين ينصبهم الله مـوازين للأمم عند الحساب ، كما قال تعـالى : (**يَـوْمَ نَـدْعُوا كُـلَّ أُنـاسٍ بِإِمـامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَـهُ بِيَمِينِـهِ فَأُولئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً**) [1].

قال الإمام الصادق (ع): كل أمّة يحاسبها إمـام زمانها ، ويعرف الأئمة أولياءهم وأعـداءهم بسـيماهم ، وهو قوله تعالى : «**وَعَلَى الْأَعْـرافِ رِجـالٌ يَعْرِفُـونَ**» وهم الأئمة «كلّا بسيماهم» فيعطوا أولياءهم كتابهم بيمينهم ، فيمـرّوا إلى الجنة بلا حساب ، ويعطوا أعـداءهم كتـابهم بشـمالهم فيمـروا إلى النـار بلا حسـاب ، فـإذا نظر أوليـاؤهم في كتابهم يقولون لإخوانهم : الآيتان 19 [2]

وكتـاب المؤمـنين الـذي سـجّلت فيه صـالحاتهم هو جوازهم على الصراط إلى الجنة ، وشـهادتهم في الانتمـاء إلى الصـالحين والأبـرار ، وتسـجيل الله لهـذه اللقطة «**اقْرَؤُا كِتابِيَهْ**» يأتي للتأكيد على أنّ أحدا لا يـدخل الجنة من دون ثمن ، بل إنّ الله خلق كـلّ واحد وأعطـاه الإرادة والإختيـار بـأن يكتب بنفسه حياته ومسـتقبله المصـيري ، وصـفحات الإنسـان الـتي يتـألّف منها كتابه هي سـاعات عمـره الـتي يكتب فيها ما يشـاء من الأعمـال الـتي تحـدّد مصيره في الآخرة ، وفي الخـبر النبـوي أنّه : «يفتح للعبد يوم القيامة على كلّ يوم من أيّام عمـره أربعة وعشـرون خزانة (عدد ساعات الليل والنهار) فخزانة يجـدها مملـوءة نورا وسرورا ، فيناله عند مشـاهدتها من الفـرح والسـرور ما لو وزّع على أهل النـار لأدهشـهم عن الإحسـاس بـألم النـار ، وهي السـاعة الـتي أطـاع فيها ربه ، ثم يفتح له خزانة أخـــرى فيراها مظلمة منتنة مفزعة ، فيناله عند مشاهدتها من الفـزع والجـزع ما لو قسم على أهل الجنة لنغّص عليهم نعيمها ، وهي الساعة الـتي عصى فيها ربه ، ثم يفتح له خزانة

(1) الإسراء / 71.
(2) نور الثقلين / ج 5 ص 407.

أخــرى فيراها فارغة ليس فيها ما يســره ولا ما يســؤه ، وهي الـتي نـام فيها ، أو اشـتغل فيها بشـيء من مباحـات الــدنيا ، فيناله من الغبن والأسف على فواتها حيث كــان متمكّنا من أن يملأها حســنات ما لا يوصــف» [1] ، أمّا المتقـون الـذين لا يفـترون عن طاعة الله ويذكرونه دائما وعلى كل حـال (**قِيامـاً وَقُعُـوداً وَعَلى جُنُـوبِهِمْ**) فـإنّ أكـثر صـفحات كتبهم تتـألق بنـور الأعمـال الصـالحة الـتي يستبشرون بها ، ويدعون الآخرين لقراءتها يوم القيامة.

[20] ويؤكّد الله أنّ الإيمـان بـالجزاء (الآخــرة) أصل كلّ خير ، وأسـاس كـلّ عمل صـالح في حيـاة المؤمـنين ، فهو الدافع الذي يقف وراء الصالحات ، والجامع المشترك بينها كلها ، وهــذه الحقيقة تتضح لو قمنا بعملية اســتقراء دقيقة لحياة واحد من أصحاب اليمين ، الذين يعلن الواحد منهم هذه الحقيقة في صفوف المحشر يومئذ.

(**إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ**)

ولا يقول : سأعرف أو سأعلم حسابيه ، لأنّ الإنســان على نفسه بصــيرة فهو الــذي يكتب كتابه بنفسه .. إذن فهو يعلم بحسابه ولو بصـورة مجملة ، فكيف والمؤمنـون يحاسبون أنفســهم؟ إنّما يريد سـألاقي من يحاسـبني وهو الله وسأجازى ، لأنّ ما بعد الحسـاب هو المقصـود لذاتـه. والمعنى أنّ كلّ ما تقرؤونه في الكتاب من الصــالحات هو ثمـرة لشـجرة الإيمـان بـالآخرة ، ونبتة جـذرها يعـود إلى ذلك.

وفي معـنى الظن اختلفت تعـابير المفسـرين ، فقـال الزمخشـــري وتابعه الفخر الـــرازي : أي علمت ، وإنّما أجـري الظن مجـرى العلم لأنّ الظن الغـالب يقـوم مقـام العلم في العادات والأحكام ، ويقال : «أظن ظنّا كــاليقين أنّ الأمر كيت

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج 7 ص 262

وكيت» [1] ، وهو ضعيف ، لأنّ فيه تضعيف لكون الظن هنا بمعنى العلم واليقين الذي ذهب إليه أغلب المفسرين وهو الأقرب ودلّت عليه النصوص ، قال الإمام علي (ع) وقد سأله رجل عما اشتبه عليه في القرآن : «وأمّا قوله : «**إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ**» ، وقوله : «**وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا**» فإنّ قوله : «**إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ**» يقول : إنّي ظننت أنّي أبعث فأجاب ، وقوله للمنافقين : «**وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا**» فهذا الظن ظن شك ، وليس الظن ظن يقين ، والظن ظنان : ظن شك وظن يقين ، فما كان من أمر معاد من الظن فهو ظن يقين ، وما كان من أمر الدنيا فهو ظن شك» [2].

ويبدو لي أنّ الظن في هذه الآية مرحلة متقدمة من العلم واليقين ، لأنّه بمعنى الاستحضار والتصور ، فإنّ المؤمنين المتقين ليركزون الفكر في أمر الآخرة ويتخيّلون مشاهدها الغيبية قائمة في الشهود أمام أعينهم ، فتارة يتصورون الجنة وما فيها من النعيم ، وأخرى يتصورون النار وما فيها من شديد العذاب ، ممّا يزرع فيهم الخوف والرجاء ، بل ويرون الجنة والنار بكلّ وضوح في الأعمال الدنيوية.

وإنّ يقين المؤمنين بوجوب الحساب يجعلهم يتحركون في الحياة على أساس ذلك ، فإذا بهم يحاسبون أنفسهم ويسعون جهدهم أن تكون صحائفهم منوّرة بالصالحات ، فلغتهم في الحياة لغة رياضية ذات حسابات دقيقة في علاقاتهم ، وأوقاتهم ، وجهودهم ، وإنفاقهم و.. و..

[21 ـ 23] ويبيّن الوحي جانبا من نعيم كل صاحب يمين فيقول :

(**فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ**)

---

(1) الكشاف / ج 4 ص 603.

(2) التوحيد للصدوق / ص 267.

أي كاملة لا يعتريها نقص ولا عيب ، فـــــإنّ الرضى لا يحصل إلّا إذا وجد الإحســـاس بالكمـــال وعـــدم النقص ، وكـــون المـــؤمن في عيشة راضـــية دليل على بلوغه قمة الرضى لأنّ رضى المحيط والعيشة جـــــزء من رضـــــاه ويعزّزه ، فليس ثمّة في محيطه شـــيء ولا أحد غـير راض يبعث في نفسه عـــدم الرضى والراحة النفســـية ، فنعيم الجنة وحورها وكل شيء فيها ليفرح بالمؤمن ويرضى به.

وفي الآية فكرة عميقة وهي : أنّ المؤمن أين ما حـلّ يحبّه المحيط ، وتسـتأنس به الحيـاة ، لأنّه مبـارك أين ما كان ، يرضى عنه الناس والحيـوان والنبـات وحـتى الأرض والجمـــادات الـــتي تربطه بها رابطة ، فهو يخـــدم النـــاس ويتعب نفسه من أجلهم ، ويرفق بــــالحيوان ، ويـــــرعى النبات ، ويصـلح الأرض ، ويسـتخدم كـلّ شـيء في طاعة ربه ولأهدافه المحدّدة ، ممّا يسبب شـعورا داخله بالرضى ، ويضـفي جـوّ الرضا على ما حوله ، بينما الكـافر العكس من ذلك تماما ، نفسه ساخطة ، وكل شيء سـاخط منه ، لأنّ علاقته ليست سليمة بما حوله.

قال الرسول (ص): «الناس اثنان : واحد أراح ، وآخر استراح ، فأمّا الذي استراح فالمؤمن إذا مات استراح من الـــدنيا وبلائها ، وأمّا الـــذي أراح فالكـــافر إذا مـــات أراح الشجر والدواب وكثيرا من الناس» [1] ، فهم غير راضين به ، ولا مستأنسين لوجوده ، بعكس المؤمن الـــذي ترضى به عيشته حـتى إذا مـات تـأثّر له وحـزن عليه كل شـيء ، حتى جاء في الأخبار أنّه : «ما من مؤمن يمــوت في غربة من الأرض فيغيب عنه بواكيه ، إلّا بكته بقـاع الأرض الـتي كـان يعبد الله عليها ، وبكته أثوابه ، وبكته أبـواب السـماء التي يصعد بها عمله ، وبكاه الملكـان المـوكّلان بـه» [2] ، هـــذا في الـــدنيا ، أمّا في الآخـــرة فالنصـــوص كثـــيرة ومستفيضة تحدثنا عن

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج 6 ص 151.
(2) المصدر / ج 67 ص 66.

رضى الجنة ونعيمها حـــتى الفاكهة والطـــير والقصــــور بسكّانها من المؤمنين ، فقد جاء في الروايـات أنّ الفاكهة تخاطب ولي الله أن كلني قبل هذه وتلك ، وأنّ الطير بعد أن يأكله يعــود ســويّا فيطــير في الجنة فرحا يفتخر على سائر الطيور قائلا : من مثلي وقد أكل مني وليّ الله؟ [1].

وفكرة أخرى نفهمها من الآية وهي : أنّ المؤمن لفي عيشة راضية حتى في الـدنيا بسـبب تسـليمه لما يقسـمه ربه له فيها ، وبســـبب تطلعه إلى الآخـــرة ونعيمها ، فلا يسأم من فقر ، ولا تعكّر صفو عيشه مصيبة ، قال الإمــام الصـــادق (ع): «ما من مـــؤمن إلّا وقد جعل الله له من إيمانه أنسا يسـكن إليه ، حـتى لو كـان على قمة جبـل» ولرضاه في الدنيا لله فإنّه يجعله في كمال الرضى معنويا وماديا في الآخرة.

(**فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ**)

في درجتها ومقامها المعنوي ، وفي ارتفاعها فإنّ خير الجنان منظرا وثمرا ما نبت على الروابي وما كان شجرها عاليا رفيعا ممّا يزيـــدها روعة وظلالا ، ولكنّ علـــوّ الجنة ليس بالذي يجعل ثمارها لا تطالها الأيــدي ، كلّا .. إنّما هي أقرب ما تكون ثمرة من قاطفها وجانيها.

(**قُطُوفُها دانِيَةٌ**)

بحيث لا يحتـاج المؤمنـون لبـذل جهد وعنـاء من أجل جنيها وأكلها ، وللدانية بالإضـافة إلى معـنى القــرب (من الـــدنو) معـــنى النضج والبلـــوغ ، فهي مقتربة من حين قطافها وقطعها من شجرتها.

---

(1) المصدر راجع المجلد الثامن عن الجنة ونعيمها.

قـال رسـول الله (ص): «**من قربها منهم يتنـاول المؤمن من النوع الذي يشتهيه من الثمار بفيه وهو متكئ ، وإنّ الأنـواع من الفاكهة ليقلن لـولي الله : يا وليّ الله كلني قبل أن تأكل هذا قبلي**» [1].

[24] وهنالك يـــدعى المؤمنـــون إلى مأدبة الله ، والمشتملة علي ما لذّ وطـاب من أنـواع الأكل والشـراب التي لا يعلمها إلّا هو عزّ وجلّ.

(**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً**)

لا ينغّصه عيب فيه ولا ســـــبب خارجه ، وإنّما يبعث الهناء بمنظره (هو وآنيته ومائدته) وبطعمه اللذيذ وفوائده الجمّة. وفي الدعوة بفعل الأمر «**كُلُوا وَاشْرَبُوا**» إشـارة إلى فكرتين : الأولى : الإباحة ، فكلّ شـيء هنـاك مـأكول ومشروب حلال مباح للمؤمنين لا حرام فيه ، والثانية : أنّ الله يعطي أصحاب الجنة القدرة الواسـعة على الاسـتلذاذ بنعيمها فهم يســتطيعون الأكل والشــرب كلّما شــاؤوا لا يمنعهم مـــــــانع ، قـــــــال رســـــــول الله (ص): «**والـذي نفسي بيـده إنّ الرجل منهم ليـؤتى قـوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع**» [2]

ولأنّ منهج الرسالة يهدف إصلاح الإنسان فهو لا يذكر قصص التـــاريخ ولا مشـــاهد القيامة إلّا ويوجد رابطا بينه وبينها ، ليحـدّد لنا الموقف السـليم تجـاه ما يـذكره ، كما سـبق وأن قلنا : بـأنّ القـرآن يريـدنا أن لا نعيش اللحظة الراهنة فقط ، إنّما نعيش الحاضر على ضـــــوء الماضي والمســتقبل .. كـذلك يـبيّن الـوحي أنّ نعيم الجنة نتيجة للعمل الصالح في الدنيا.

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 216.
(2) مجمع البيان / ج 10 ص 346.

(**بِما أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخالِيَةِ**)

وبهذا ينسف الأماني والظنون الكاذبة ، ويضع الإنسان أمـام المسـؤولية. وقد ذهب أكـثر المفسـرين إلى القـول بـأنّ «أسـلفتم» تعـني الصـيام ، واستشـهد الـدر المنثـور بقول الله في حديث قدسي : «يا أوليـائي! طالما نظـرت إليكم في الــدنيا وقد قلصت شـــفاهكم عن الأشـــربة ، وغارت أعينكم ، وجفّت بطونكم ، كونوا اليوم في نعيمكم ، وكلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيّام الخاليـة» [1] ، والتفت الفخر الـرازي إلى معــنى لطيف للكلمة فقــال : والاسـلاف في اللغة تقـديم ما ترجو أن يعـود عليك بخـير فهو كالإقراض ، ومنه يقال : أسـلف في كـذا إذا قـدّم فيه ماله [2].

والـذي أراه أنّ الصـيام أحد مفـردات الاسـلاف ، أمّا الكلمة فهي عامة تتسع لكل الصالحات كالإنفـاق والجهـاد والصلاة و.. التي هي ثمن الجنة بعد فضل الله و: «شـتّان ما بين عملين : عمل تــــذهب لذته وتبقى تبعته ، وعمل تـذهب مؤونته ويبقى أجـره» [3] ، وذلك هو الفـرق بين أصحاب النار وأصحاب الجنة.

[25 ـ 27] ويمضي السـياق قـدما في تصـوير جـزاء الكفار الذين تعطى كتبهم في شـمالهم دلالة على الشـؤم وسوء المصير ، وذلك لتتوازن معادلة الخوف والرجاء في ذهن الإنسـان ويسـمو بنفسه في آفـاق القـرب من الله ، يدفعه الرجاء للمزيد من العمل الصـالح ، ويردعه الخـوف عن محارم الله واقتراف السيئات.

(**وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ**)

---

(1) الدر المنثور / ج 6 ص 262

(2) التفسير الكبير / ج 30 عند الآية.

(3) نهج البلاغة / حكمة 121.

الذي اختطّه وألّف ما فيه بنفسه.

(**بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ**)

وتعكس هـذه الآية مـدى الفـارق بين الإثـنين : الأول الذي يكاد يطير فرحا بكتابه ، ويدعو الآخرين لقراءته حتى يشـاركوه السـرور ، والآخر الـذي ليس لا يـدعو الآخـرين لقـراءة كتابه بل يتعـذّب هو خجلا وحسـرة ممّا فيه ، إلى حدّ يتمنّى لو ذهب به إلى العذاب دون أن يقرأ كتابه.

قـــال الفخر الــــرازي : واعلم أنّه لمّا نظر في كتابه يذكر قبائح أفعاله خجل منها ، وصـار العـذاب الحاصل من تلك الخجالة أزيد من عـــذاب النـــار ، فقـــال : يا ليتهم عذّبوني بالنار وما عرضوا هذا الكتاب الـذي ذكّـرني قبـائح أفعالي ، حتى لا أدفع هـذه الخجالة ، وهـذا ينبّهك على أنّ العذاب الروحاني أشد من العـذاب الجسـماني [1] ، وإلى مثل هذا ذهب أكثر المفسرين. ثم يضـيف القـرآن بلسـان حال أصحاب الشمال قائلا :

(**وَلَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ**)

ممّا يدل على وجـود ثلاثة أنـواع من العـذاب : عـذاب الفضـيحة بين النـاس والـذي يحـلّ بأصـحاب الجحيم فـور إعطائهم كتبهم بشمالهم ممّا يعرفهم لأهل المحشر بأنّهم من الخاســرين المعــذّبين ، والعـــذاب النفسي (بالخجل والندم) الذي يحلّ بالنظر في صحائفهم المسودّة بالقبـائح والسيئات التي اكتتبوها لأنفسهم ، والعـذاب الـذي يتلقّونه عند ورودهم النـار ، ولـذلك فـإنّهم يتمنّـون لو أنّ مـوتتهم الدنيوية كـــانت النهاية ، فلا بعث ولا حســـاب ولا جـــزاء بعدها.

---

(1) التفسير الكبير / ج 30 عند الآية

(**يا لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ**)

والقاضـية الـتي ينتهي بها كـلّ شـيء. وحينما تـدقّق النظر في الآيـات قد تهتـدي إلى حقيقة لطيفة وذلك من تكرار صيغة التمنّي على لسان أصحاب النار (الآيـات 25 وهي : أنّ من أهم أسـباب الخسـران هو التمنّي الـذي يعتمد عليه الكافر بدلا عن العمل والسعي ، والذي لا يغيّر في الواقع شيئا ، لا في الدنيا ولا في الآخـرة .. وإنّه قـادر على النجـاة من سـوء العاقبة والجـزاء والانتقـال من أصحاب الشـمال إلى أصحاب اليمين ولكن عـبر السـعي والعمل ، وليس بالتمنيـات الخادعة الـتي يلوكها بلسـانه حتى في عرصة القيامة.

[28] وحيث أنّ القيامة ــ كما سـبق وبيّنا ــ سـمّيت بالحاقة لكونها تحقّ الحق (تظهـره وتغلّبـه) فـإنّ أصحاب الشـمال الـذين حجبهم ضـلالهم عن معرفة الحقـائق والتسـليم لها في الـدنيا تزيل حـوادث الآخـرة وأهوالها الغشاوة التي على قلوبهم فيرون الحق بكلّ وضوح وجلاء ، ويكتشفون أخطـاءهم الفادحة الـتي طالما أصـرّوا عليها وحسـبوا أنّهم يحسـنون بها صـنعا. وتـبرز هنا المفارقة الرئيسـية بين المـؤمن الـذي لا يفاجئه البعث والجـزاء ، باعتباره كان حاضرا عند هـذا الغيب وهو في الـدنيا «**إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسـابِيَهْ**» ، وبين الآخر الـذي كـذّب بـالآخرة ، ووجد نفسه أمـام حقيقتها يومئذ فاكتشف أخطاءه في وقت لا تنفع المعرفة ولا ينجي الإيمـان. ومن أفـدح الأخطـاء الـتي يقع فيها الإنسـان ، وبالتـالي يـدخل بسببها أكـثر النـاس نـار جهنم ، هو الاعتمـاد على المـال ، والحـال أنّه لا ينفع أحـدا في الآخـرة ، لأنّ العمل الصـالح وحده زاد النجاة والفلاح فيها.

إنّ المال بذاته لا يغني ، وإنّما ينفع إذا عمل به أعمال خـير وصـلاح بالإنفـاق في سـبيل الله .. ولم يفعل ذلك أصحاب الشمال لأنّهم كفروا بالحساب والجزاء.

والآية توجّهنا إلى معنى لطيف للغنى فهو لا يتحقق بوجـود المــــال وكثرته ، إنّما بأدائه دوره ، وهدفه في الحيـــاة ، فأصل الغـنى من ارتفـاع الحاجة ، ومع أنّ المـال يقضي للمـــترفين والمخـــدوعين بعض الحاجـــات الظاهرية ، وتستطيل به أيديهم إلى كثير من بهـارج الـدنيا وزخارفها ، إلّا أنّ ذلك لا يعـدّ غـنى إنّما الغـنى حقّا يكـون بانقضـاء الحاجـــات الحقيقية للبشر ، وأهمّها رضى الله والزحزحة عن النـــار الــتي لم يوظّف أصــحاب الشــمال وبالــذات المترفون منهم أموالهم من أجل قضائها.

(**ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ**)

ولقد بيّنت أحاديث أئمة الهدى المعنى الأصـيل للغـنى ، قـال الإمـام علي (ع): «الغـنى والفقر بعد العـرض على الله» [1] ، وجاء رجل إلى الإمام الصـادق (ع) فشـكا إليه الفقر ، فقـــال : «ليس الأمر كما ذكـــرت ، وما أعرفك فقيرا» ، فقال : والله يا سـيدي ما اسـبنت (ما عـرفت) ، وذكر من الفقر قطعة والصـادق (ع) يكذّبه ، إلى أن قـال (ع) : «خبّــرني لو أعطيت بــالبراءة منا مائة دينــار كنت تأخـذ؟» قـال : لا ، إلى أن ذكر ألـوف الـدنانير ، والرجل يحلف أنّه لا يفعل ، فقال له : «من معه سلعة يعطى هـذا المـال لا يبيعها هو فقـير؟» [2] ، والعمل الصـالح والولاية هما اللــذان يبقيــان مع الإنســان ويغنيانه يــوم القيامة ، وليست الأموال التي تفنى أو يرتحل عنها خالي اليدين.

ويضيف القـرآن على لسـان من يـؤتى كتابه بشـماله قوله :

(**هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ**)

---

(1) نهج البلاغة / حكمة 452.

(2) موسوعة بحار الأنوار / ج 67 ص 147.

ولعل من أسباب تقديم الحديث عن المال على الحديث عن السلطان أنّ المال هو طريق الإنسان للسلطة والحكم والهيمنة في أغلب الأحيان. وفي معنى السلطان ذهب أكثر المفسرين القدماء والجدد إلى أنّه الحجّة ، باعتبارها تعطي صاحبها الحق والهيمنة ، وتجعل الآخرين يسلّمون له ، قال القمي : «سلطانية» أي حجته ، ومثله الدر المنثور والكشّاف والتبيان ، وزاد الرازي بقوله : ضلّت عني حجتي حين شهدت عليّ الجوارح بالشرك [(1)] ، وما أرجحه أن تصرف الكلمة إلى عموم السلطان ، بينما (الحجة) من مصاديقه ، وهناك مصداقان أساسيان آخران نجد الإشارة إليهما :

الأول : السلطان بمعنى الهيمنة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي عادة ما ترافق المال والثروة عند المترفين ، فتزيدهم بعدا عن الحق وغرورا ببقائها ، فإنّها تسلب بالموت وفي الآخرة بصورة أشمل ، وقد أشار إلى هذا المصداق العلّامة الطبرسي بقوله : «سلطانية» أي ملكي وتسلّطي على الناس [(2)] ، وما أحوج الحكّام والمترفين إلى استحضار ذلك المشهد في أذهانهم لعلّه يدعوهم إلى العدل وتوجيه السلطة في مرضاة الله عزّ وجلّ .. وإنّ الآيتين «**ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ**» لهما أيضا لسان حال كلّ طاغية وحاكم قرعته يد القدرة والجزاء في الدنيا قبل الآخرة.

الثاني : السلطان بمعنى الإرادة ، إذ أنّ الوجه البارز من الكلمة هو الهيمنة التي تجعل إرادة المتسلّط ماضية ونافذة ، وهذه هي الأخرى تسلب بكلّ ما تؤدي إليه الكلمة من معنى ، لأنّ السلطة هنالك للحق ولمن تمسك به.

---

(1) راجع التفاسير المذكورة عند الآية.

(2) مجمع البيان / ج 10 ص 348.

وتؤكّد الآية اللاحقة هـذا المعـنى حيث يـأتي أمر الله لملائكة العـذاب بوضع الأغلال على أعدائه كرمز لسـلبهم الحرية ، فلا يسـتطيعون حـتى حراكا وهم يعـذّبون. وإنّه ليقطع عليهم تمنيـــاتهم وملامتهم لأنفســـهم بنقلهم إلى عذاب النار.

(**خُذُوهُ فَغُلُّوهُ**)

«فيا له من مـــأخوذ لا تنجيه عشـــيرته ، ولا تنفعه قبيلتـه» ، قـال رسـول الله (ص): «**ثم تجيء صـحيفته تطـير من خلف ظهـره فتقع في شـماله ، ثم يأتيه ملك يثقب صدره إلى ظهـره ، ثم يفتل شـماله ، ثم يقال له : اقرأ كتابك ، قـال : فيقـول : أيها الملـك! كيف أقـرأ وجهنم أمـامي؟ قـال : فيقـول الله : دقّ عنقه ، واكسر صلبه ، وشـدّ ناصـيته إلى قدميه ، ثم يقــول خــذوه فغلّــوه فيبتــدره لتعظيم قــول الله ســبعون ألف ملك غلاظ شــداد ، فمنهم من ينتف لحيته ، ومنهم من يحطّم عظامه ، قـال : فيقـول : أما ترحمــوني؟ قــال : فيقولــون : يا شــقي كيف نرحمك ولا يرحمك أرحم الـرّاحمين؟ أفيؤذيك هـذا؟ فيقول : نعم أشدّ الأذى ، قال : فيقولون : يا شقي وكيف لو قد طرحنـــاك في النـــار؟ قـــال : فيدفعه الملك في صدره دفعة فيهـوي سـبعين ألف سـنة**» [1] ، وقال أمير المؤمنين (ع): «وأمّا أهل المعصية فخذلهم في النـار ، وأوثق منهم الأقـدام ، وغـلّ منهم الأيـدي إلى الأعنـاق ، وألبس أجسـادهم سـرابيل القطـران ، وقطّعت لهم منها مقطّعـات من النـار» [2] ، ولعمـري إنّ أمر الله بالأخذ ليخصّ بالذات الطغـاة من الحكّـام الـذين تسـلّطوا على رقــاب النــاس فــراح ضــحية لأوامــرهم بالســجن والتعذيب والقتل الكثير من الأبرياء والصالحين .. وقد ذكر صــاحب الكشّــاف (أنّها نــزلت في أبي جهــل) لأنّه كــان سلطانا يتعظّم على الناس [3].

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج 8 ص 320.
(2) المصدر / ص 292.
(3) الكشّاف / ج 4 ص 604.

[31 ـ 37] وبعد أن يغـلّ المجرمـون تـؤمر الملائكة بواحدهم أن تصليه بالنار.

(**ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ**)

ومن طبيعة الإنســان أنّه يهبّ للــدفاع عن نفسه أو الهـرب عند مواجهة الخطر ، أمّا المجرمـون الـذين تغـلّ أيـديهم وأرجلهم فـإنّهم يقاســون عـذاب جهنم وعــذاب الأغلال في نفس الـوقت ، وذلك من أشـدّ ألـوان العـذاب أن يصــطلي الواحد بالنـــار ولا يجد ســبيلا للخلاص والمقاومة.

قال الرازي عن المبرّد : أصليته النار إذا أوردته إيّاها [1] ، وقال القمّي : (أي) أسكنوه [2] ، ويبـدو لي أنّ أصل الاصطلاء من الصلة والوصـول ، و «صلّوه» ، أي اجعلـوا النار واصلة إليه كأكثر ما يكون وصـولها لأحد واتصـالها به كيفا وزمنا ، وقيل صلة الرحم لأنّ المـراد العلاقة الحميمة المتصلة فلا انقطاع فيها.

(**ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ**)

أي طولها ســبعون ذراعا ، والــذراع ما يســاوي 18 بوصة 70 1260 بوصة ، وهــذا الطــول كــاف لتلتف السلســلة على جميع أجـــزاء البـــدن ، فكيف وبعض المفســرين يعتـبر السـبعين للمبالغة ، كقـول الله : (**إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ**) [3] ؟!

وقد ذهب البعض إلى أنّها ســـبعون ذراعا ولكن من أذرع الملائكة الطويلة الــتي لا نعلم قياســها ، وقيل بــأن الحلقة الواحــــدة منها ما بين الرحبة في الكوفة ومكّة ، ونحن

---

(1) التفسير الكبير / ج 30 عند الآية.

(2) القمّي / ج 2 عند الآية.

(3) راجع الكشاف والتفسير الكبير / ج 30 عند الآية.

لا نخوض في هذا الأمر بل نورد حديثا عن السلسلة مرويّا عن الإمـام الصـادق (ع) قـال : «لو أنّ حلقة واحـدة من السلسـلة الـتي طولها سـبعون ذراعا وضـعت على الـدنيا لذابت الدنيا من حرّها» [1] ، ويحتمل أنّها سلسلة عظيمة تمتد في كـــلّ جهنم إلّا أنّ لها أذرعا طـــول الواحد منها سبعون ذراعا يسلك كل مجرم في أحـدها (والله العـالم).
أمّا كيف يسلكون فيها؟ فهناك احتمالان :

الأول : أنّها تخترق أبدانهم ، كأن تـدخل من أفـواههم وتخـرج من أدبـارهم وتخـرق بها أبـدانهم من كل ناحية ، فأصل السـلك من إدخـال الشـيء في الشـيء ، كإدخـال الإبرة في الخيط ، وكذلك ينظم فيه الخرز ونحوه ، ويقال دخل السلك العسكري أي انسلك في الجندية [2].

الثاني : أنّه يطوّق بالسلسلة وتلفّ عليه فكأنّه يسـلك فيها ، قال الزمخشري في الكشّاف : أي تلوى عليه حـتى تلتف عليه أثناؤها [3].

وقبل أن ننطلق مع الآيـــــات في بيانها للـــــذنوب الأساسية التي صـارت بهم إلى ذلك العـذاب المقيم نقف عند اللهجة القرآنية المتفـردة بها هـذه السـورة ، أعـني إضـافة الهـاء في الكلمـات : (كتابيه ، حسـابيه ، ماليه ، سلطانية) وما هو وزنها من الناحية اللغوية؟

لقد اختلف المفسـرون والقـرّاء أمـام هـذه الظـاهرة القرآنية فقيل :

1 ـ أنّ الهـاء للسـكت والاسـتراحة ومن ثمّ يجب الوقف عندها بين الآيات

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 409.
(2) المنجد مادة سلك.
(3) الكشاف / ج 4 عند الآية.

لتصح القــراءة ولتثبت الهــاء ، ثم تــرى البعض قد أوجب الوقف معتبرا الهاء جزء من القرآن لا يجوز حذفه بالوصل عند القراءة ولا بغير ذلك.

2 ـ وقـــال البعض : أنّها جعلت لنظم رؤوس الآي ، وذلك ممّا لا يليق نســــبته لكلام الله عز وجل ، لأنّه كما تؤكّد الآية (41)ـ «**وما هُوَ بِقَوْلِ شـاعِرٍ**» ، لأنّ الشـاعر يعتــبر القافية أصلا فــإذا عجز من نظمها تخبّط في النحو والصـرف ، والمعـنى من أجل حفظها واحـدة ، وحاشا لله أن لو أراد النظم أن تعجــزه القــوافي ، ثم من قــال أنّ القرآن يلتزم بالقافية في سوره وآياته؟ فهـذا قوله تعـالى : (**لِلْكـافِرينَ لَيْسَ لَـهُ دافِـعٌ* مِنَ اللـهِ ذِي الْمَعـارِجِ* تَعْرُجُ الْمَلائِكَـةُ وَالـرُّوحُ إِلَيْـهِ فِي يَـوْمٍ كـانَ مِقْـدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ* فَاصْبِرْ صَـبْراً جَمِيلاً* إِنَّهُمْ يَرَوْنَـهُ بَعِيـداً* وَنَـراهُ قَرِيبـاً* يَـوْمَ تَكُـونُ السَّـماءُ كَالْمُهْـلِ* وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ* وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً**) [1].

3 ـ والذي يبدو لي أنّ الهاء ليست زائدة حتى تحـذف بالوصل في القـراءة ، وأنّها لم توضع لنظم نهايـات الآي ، وليست إضـافتها خارجة عن لغة القـرآن (العربيـة) الـتي أنزل بها ، ولقد أخطأ أولئك الذين حـاولوا تقـييم كلام الله بشـعر العــرب وكلامهم ، ويجب أن لا يــدعونا عجزنا عن إدراك بعض المعاني القرآنية إلى افتراضات بعيــدة ، على أنّ للصــيغة (كتابيه ، حســابيه) إيحــاء نفســيّا قد يبلغه البـاحثون في يـوم من الأيّـام. وما يهمـني التأكيد عليه أنّنا لم نؤت من العلم إلّا قليلا ، فـالموقف السـليم عند العجز عن فهم الآيــات هو الاعــتراف بالجهل والتواضع للحق لا الخوض فيما لا نعلم أو الطعن في كلام الله.

ونعــود إلى الآيــات الكريمة ، ونســتمع إلى صــفات أصحاب الشمال ، فما هي؟ الأولى : عدم الإيمان بالله.

---

(1) المعارج / 2 ـ 10.

(**إِنَّهُ كانَ لا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ**)

وعند ما كفروا بالله العظيم استحقّوا جزاء الضعف من العذاب. لماذا؟

أولا : لأنّ الله عظيم انتشرت آيات قدرته وجلاله في كلّ شيء ، فكيف جاز لهم الكفر به مع ذلك؟!

ثانيا : إنّ الذنب يزداد قبحا حينما يكون عصيانا لربّ عظيم.

ولقد عبّر أئمة الهدى عن هذه الحقيقة بقول الإمام السجاد عليه السلام : «لا تنظر إلى الذنب ، ولكن أنظر إلى من عصيت» [1] ، فكيف وأنّ عدم الإيمان بالله أصل كلّ خطيئة وذنب؟!

إنّ عدم الإيمان جذر كلّ فساد وضلال وفاحشة وزيغ ، فمن كفر بالله أشرك به ، لأنّ من لا يؤمن بالله سيتبع غيره ويتألّه إليه بشرا أو حجرا أو هوى نفس ، ومن لم يؤمن بالله ضلّ ضلالا بعيدا ، لأنّه لم يتبع رسالته فتراه يتخبّط في ظلمات الباطل ، ومن كفر بالله أوغل في الفواحش بغير حساب حيث أنّ الإيمان هو الذي يحجز البشر عن الزيغ ويردعه عن المعاصي.

وقد وصف القرآن ربنا بالعظمة هنا لأمرين : أحدهما : لكي لا يظن أحدا بأنّه تعالى حينما يعذّب المجرمين بذلك العذاب الغليظ الذي وصف آنفا في الآيات (30 ـ 32) أو ما سيأتي بيانه في الآيات (35 ـ 36) فإنّه يظلمهم ، كلّا .. إنّ الجزاء يبقى أبدا أقل من الذنب ، الثاني : ربما لكي نهتدي إلى أنّ مشكلة الكثير من أصحاب الشمال وربما كلهم ليس محض الكفر بالله ، ولكنّ مشكلتهم عدم الإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته المثلى ، كما قال تعالى : (**ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ**

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج 73 ص 154.

لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) [1] ، فأشركوا بالله أو آمنوا بصفات تعـالى ربنا عنها : جسّـدوه أو زعمـوا انه مغلـول اليـدين أو أنّه ــ سـبحانه ــ ظـالم للعبيد أو هـازل في الوعيد أو ما أشـبه وكـان ذلك مسـاوقا لعـدم الإيمـان به رأسا ، وهـذه كلّها جرّتهم إلى واد سحيق من الانحـراف والضلال في الـدنيا والعذاب في الآخرة.

من هنا نستطيع القول بـأنّ حقيقة التسـليم والعبودية لله عــزّ وجــلّ تتأسس بصــورتها السـليمة على المعرفة بعظمته من خلال آياته وأســـــمائه الحســـــنى ومن ثمّ استشعار عظمته في القلب.

الثانية : وثمّة صفة سيئة أخرى عند أصحاب الشــمال تتصل بعلاقتهم مع عباد الله ، وهي عـدم قضـاء حـوائجهم بل عدم الحث على قضائها.

(**وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ**)

فهو يـرتكب ذنـبين عظيمين : أحـدهما : الامتنـاع عن الإنفـاق على المحتـاجين الـذين فـرض الله لهم حقًّا في أمـوال النـاس ، والآخر : تركه لـواجب الأمر بـالمعروف ، والأخـــير نتيجة طبيعية للأوّل ، ذلك أنّ الـــذين يبخلـــون بـأموالهم على النـاس يتمنّـون أن يكـون المجتمع مثلهم حتى يبرّروا موقفهم.

وللمتـدبّر أن يتصـور مـدى صـلافة من لا يحض على طعام المسكين وانعـدام العاطفة والوجـدان عنـده ، حيث يـرى مسّ الجـوع والحاجة عند أضـعف طبقة اجتماعية ثم لا يبالي بالأمر ، ولا يتحمّل المسؤولية ، مع وجـود أمر الله بالإنفـاق ، وكـون ما عنـده من نعمه وفضـله الـذي يـأتمن عليه خلقه.

ولقد ربط الإســلام بين الإيمــان بالله والنفع لعبــاده وكأنّهما صنوان لا ينفكّان ،

---

(1) الحج / 74.

قال رسول الله (ص): «أحب عباد الله إلى الله جلّ جلاله أنفعهم لعبـاده ، وأقـومهم بحقّـه» [1] ، جـاء في حـديث قدسي أنّ الله عزّ وجـلّ قـال : «الخلق عيـالي ، فـأحبّهم إليّ ألطفهم بهم ، وأسـعاهم في حـوائجهم» [2] ، وحيث ننعم الفكر في العلاقة بين الكفر بالله وعـدم الحض على طعام المسـكين نهتـدي إلى أنّ المعـنيّين بـالآيتين لا خلاق لهم في الآخـرة ، ولـذلك يعـذّبون دون رحمة ، لأنّهم لا إيمـان لهم بالله يـدعوهم إلى العمل الصـالح من الزاوية الدينية ، ولا إنسـانية تـدعوهم إلى الإحسـان ، فقد يكـون الإنسـان كـافرا بالله أو مشـركا ولكن تبقى فيه بقيّة من الإنسـانية تحثّه على بعض الخـير ، فهو إن لم يخفّف عنه العـذاب لإيمانه فسـوف يخفّف عنه لإنسـانيته ، حيث لا يضيع الله أجر المحسنين.

وإذا آمنّا بهذه الفكـرة في ضـوء الإيمـان بـأنّ الجـزاء الأخـروي صـورة لعمل الإنسـان واختيـاره في الـدنيا فـإنّ تعامل أصحاب الشـمال الصـلف مع عيـال الله المسـاكين فيها هو الذي يحدّد نوع تعامل الله معهم يوم الجزاء. قـال الزمخشري : دليلان قويّان على عظم الجـرم في حرمـان المسكين : أحـدهما : عطفه على الكفر وجعله قرينة له ، والثـاني : ذكر الحض دون الفعل ، ليعلم أنّ تـارك الحض بهذه المنزلة فكيف بتارك الفعل؟ [3].

(**فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ**)

وهو القـريب الـذي يهتم بالإنسـان ويحـامي عنه ، فأمثاله من المجـرمين مشـغولون بأنفسـهم عن غـيرهم ، وأمّا المؤمنـون فإنّه عـدوّهم وهم أعـداؤه لكفـره بالله ، ومن يجرأ

---

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج 77 ص 152.
(2) أصول الكافي / ج 2 ص 199.
(3) الكشّاف / ج 4 ص 605.

على الشـفاعة لمن غضب الله العظيم عليـه؟ ولعـلّ للآية ظلالا يتصل بعلاقـات الإنسـان الاجتماعية ، وأنّه ينبغي أن يبحث عمّا يدوم منها وينفعه في الـدّارين ، فـإنّ لأصـحاب الشـمال أخلّاء كثـيرين وأصـدقاء بالخصـوص المـترفين وأصـحاب السـلطة منهم ولكنّهم لا يحمـونهم ولا حـتى يسـألون عنهم يـوم القيامة ، (**الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ**) [1].

أمّا طعـامهم فـإنّ المجـرمين يكـادون يموتـون جوعا لأنّهم لا يجدون طعاما ، وحيث يمضّ بهم الجوع ويطلبـون ما يأكلونه يؤتى لهم بطعام هو لون من أشدّ العذاب.

(**وَلا طَعامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ**)

قـال القميّ : عـرق الكفـار [2] لأنّه غسـالة أبـدانهم ، وفي الـدر المنثـور عن ابن عبـاس : أظنّه الزقـوم ، وفي خبر آخر : (هو) الدم والمـاء الـذي يسـيل من لحـومهم [3] إثر التعذيب ، وفي التبيان : وقال قطرب يجـوز أن يكـون الضريع هو الغسلين ، فعبّر عنه بعبارتين [4] ، ولعل أقرب المعـاني ما يخـرج من أبـدانهم من جراحة أو أنّه يتصف بمجموعة الصفات السـيئة الـتي يمكن أن يحويها الطعـام الـرديء لونا ورائحة ومـذاقا ، ولعل النفي ب «لا» يـوحي بأنّ أصحاب الشمال لا يجدون الطعام بسهولة ، بل يبقون مدة طويلة يتضوّرون جوعا ، وإذا جيء لهم بطعام فإنّه لا يكـون إلّا من «غسـلين» ، وهـذا يتناسب مع مـوقفهم من المسـاكين في الـدنيا ، حيث كـانوا لا يشـعرون بجـوعهم وعـوزهم ، فهم بـذلك يـذاقون عـذاب الجـوع مما يكشف لهم مـدى قبحهم إذ لم يطعمـوا المسـاكين ولم يحضّـوا على إطعامهم.

---

(1) الزخرف / 67.

(2) تفسير القمّي / ج 2 عند الآية.

(3) الدر المنثور / ج 6 ص 263.

(4) التبيان / ج 10 ص 106.

إنّ الجزاء في الآخرة هو الصورة الحقيقية لعمل كـلّ إنسان في الدنيا ، فهو في الواقع الذي يطعم نفسه هناك ما يقدّمه هنا ، فـالمؤمنون يـأكلون من قطـوف الجنـات العالية بما أسـلفوه من الصـالحات ، والمجرمـون يـأكلون طعام الغسلين بما قدّموا من الخطيئات والمعاصي.

(**لا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخاطِؤُنَ**)

فهم إذن كما وصف الله : (**إِنَّما يَـــــــــأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً**) [1] حيث يمارسـون الخطيئـات ، ولكنّهم ــ وقد عميت بصـــائرهم عن الحق ـــ لا يـــرون ذلك إلّا في الآخـــــرة حين تقع الحاقّة وتكشف الحجب عن كـــلّ حق كشفا معنويّا وماديّا.

[38 ـ 41] وفي الفصل الأخير من هذه السورة الـتي سـمّيت بالحاقة يوجّهنا الله إلى كتابه العظيم الـذي يـذكّر بها ويسبقها في الهداية إلى الحق وإحقاقه ، وكأنّ السياق يقول لنا بأنّ القرآن حاق لأنّه كالحاقة يجلّي كلّ الحقـائق. كما أنّه تعـالى أخّر الحـديث عن أصـحاب الشـمال على الحديث عن أصحاب اليمين ليكون لصيقا بكلامه عن كتابه ، وذلك لأنّ الحديث عن أصحاب النـار سـوف يسـتثير في السـامع السـؤال عن النهج الـذي فيه الخلاص من غضب الله وعذابه ، والفوز بأجر أهل اليمين وعيشتهم الراضية.

(**فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ وَما لا تُبْصِرُونَ**)

والتمهيد لأيّ حديث بالقسم أو بالإشـارة للقسم يؤكّد أهميته وعظم شأنه ، وإذ لا يقسم الله فذلك يدلّ على أنّ ما يريد قوله وبيانه غاية في الوضـــوح ، بحيث لا يحتـــاج لإقناع الآخرين به إلى القسم ، ولكنّه في الأثناء يلفتنا إلى حقيقة عملية

---

(1) النساء / 10.

واقعية ، وهي : أنّ الحيـاة لا تتلخّص في ما يـراه الإنسـان ببصره ، بل لها جانبان : جانب ظاهر يحضر عنده بحواسه المادية ، وآخر خفي مغيّب يحتـــاج إلى العلم والبصـــيرة النافـذة لكي يشـاهده ، وكأنّه بـذلك يسـتحثّنا نحو توسـيع معارفنا والتطلّع إلى الوجه الآخر من الحيـــاة ، فهل نكفر بوجود الميكروبـات والفيروسـات لأنّنا لا نراها بأعيننـا؟ كلّا .. لأنّ ذلك لا يغيّر من الواقع شـــيئا ، فهي موجـــودة رغم ذلك .. وهكـــذا فـــإنّ من يكفر بـــالآخرة لأنّه لا يراها بعينه فإنّه من الخاطئين [1].

ومن هـــذه الزاوية يوصل القـــرآن الآيـــتين الآنفـــتين بتأكيـده على أنّ الرسـالة ليست من بنـات أفكـار النـبي (ص) ، إنّما هي متصلة بـالغيب حيث جبريل الأمين يتـنزّل بمفرداتها كلمة كلمة وبحروفها حرفا حرفا ، بل وبحركاتها دون نقيصة أو تغيير ، فإنّ للرسالة جانبين : ظـاهرا يتمثّل في القرآن الذي يبصره الناس بأعينهم وتدركه حواسـهم ، وغيبا لا يبصـــــــــرونه ولا يدركونه ولا ينبغي لهم ذلك وهو جبرئيل الواسـطة بين المرسل والرسـول ورب العـالمين الـذي يتـنزّل من عنـده القـرآن ، وعـدم إبصـارنا بالجـانب الغيبي منها لا يبرّر الكفر بها ، وذلك لسببين :

الأول : أنّ قصـــور الإنســـان عن الإحاطة علما بغيب الحيـاة من المسـلّمات البديهية الـتي يقبلها كـلّ عاقل ، وهكـــذا لا يمكن للبشر الإحاطة بـــالوحي الالهي ، وبـــذلك ينسف القرآن الشيئية المادية عند البعض ، كالذين كفـروا بالرسالة لأنّهم لم يروا جبرئيل (**وَقالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْـهِ مَلَكٌ**) [2] (**أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ**) [3].

الثاني : أنّ الجانب الظاهر (القرآن) دليل قاطع يهدي كلّ ذي عقل إلى

---

(1) تقدّم الحديث حول القسم في الآية 75 من سورة الواقعة فراجع.
(2) الأنعام / 8.
(3) هود / 12.

الإيمان بالجانب الآخر (الوحي) ، فـإنّ المتـدبر في الآيـات القرآنية لا بد وأن يســلّم بأنّها من عند الله ، لأنّه يجـــدها معجـــزات لا تتـــأتّى إلّا للخـــالق العظيم ببلاغتها ونظمها ومعانيها الهادية للحق ، كما قال الله :

(**إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ**)

أي رفيع المنزلة عند الله ، مـــنزّه ، وغاية في الأمانة والأخلاق فهو لا يقصّـــر في التبليغ ولا يحـــرّف ، ممّا يؤكّد بأنّ الرسالة وصلت سالمة وتامّة كما أرادها الله وأنزلها ، وهـذا الأمر يعطينا الثقة والاطمئنـان بها ، والاعتمـاد عليها بضـرس قـاطع. وفي الآية تأكيـدان لهـذه الحقيقة : «إنّ» واللّام في «لقــول» ، وبالإضــافة إلى هــذين التأكيــدين اللفظيين هناك ثلاثة تأكيدات معنوية على أنّ الرسالة هي من عند الله :

ألف : كلمة «قـول» ، فالرسـول دوره لا يتعـدّى نقل الرسالة إلى الناس ، فهو يقولها وليس يؤلّفها أو يخلقها.

باء : إنّه تعالى لم يقل فلانا (جبرئيل أو محمد) بل لم يقل نـبي ولا ملك .. إنّما اختـار كلمة «رسـول» لأنّها أدلّ على المعـنى المـراد من سـواها .. فالرسـول هو الـذي يحمل الرسالة من عند غيره.

جيم : وإذ امتـدح الله رسـوله بأنّه «كـريم» دلّ ذلك على أمانته ووصول الرسالة كما أراد المرسل ، وإذا كـان نكران الذات من أبرز صفات الكريم فإنّنا نفهم من وصف الله لرسوله بذلك أنّه تنـازل عن ذاته في قضـية الرسـالة لله ، وبالتالي ليس فيها شيء من عند نفسه.

ولقد اختلفت الأقوال في المقصود بالرسـول ، فقـال فريق : أنّه جبرئيل الـذي يتـنزل بـالوحي من عند الله إلى النبي (ص) فهو رسول الله إلى نبيه ، وقال آخرون :

أنّه النبي محمد (ص) ، وما أذهب إليه أنّ الكلمة منصـرفة إلى الإثـــنين ، لأنّهما رســـولان من عند الله وفيهما ذات الصفات الرسـالية ، ولأنّ المقصـود هنا إثبـات أنّ القـرآن من عند الله وليس من عند أحد كـــالنبي أو جبرئيل ، ممّا يستوجب التأكيد على الصفات المذكورة في الإثنين.

(**وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ**)

لأنّه لا يشبه أقوال الشـعراء لا في أوزانه وقوافيه ولا في بلاغته ، إذ المسافة بين بلاغته وأدبه الرفيع وبين بلاغة الشـــــعراء وأدبهم مســـــافة لا يعلمها إلّا الله ، فهي كما وصفها الرسول الأعظم (ص) بقوله : «فضل القرآن على سـائر الكلام كفضل الله على خلقـه» [1] ، ولا في معانيه لأنّ الشـــــاعر قد يهمّه ظــــاهر الكلام فقط فيتخبّط في المعنى ، ولو كان الرسول كالشعراء لكان يضـخّم الأمـور حتى إذا نقل رسالة الله ، فتلك طبيعة الشعراء.

وأعظم مفارقة بين رسـالة الله والشـعر أنّها تنطـوي على الحق وتهـدي إليه ، بينما ينطـوي أغلب الشـعر على الباطل ، وأنّها تعبّر عن الحقــــائق الواقعية ، بينما يطلق الشعراء لعـواطفهم وظنـونهم العنـان دون حسـاب ، فهم يعتمـدون على المشـاعر والأحاسـيس بينما تعتمد رسـالة الله على علمه الواسع ، من هنا نستطيع القول بـأنّ كلمة الشاعر لا تنحصر في الذي ينظّم الأبيـات والقصـائد ، وإن كان من مصاديقها الجلية ، إنّما تتسع لكل من يتبع الثقافة البشرية المنطلقة من الظنون والمشـاعر البشـرية لا من العلم الإلهي كأصحاب النظريات والفلسفات ، ولعل هـذه المفارقة هي السر في فشل النظريات البشـرية وتزلزلها ، وثبات القيم الإلهية ونجاحها ، وإلّا

(1) موسوعة بحـار الأنـوار / ج 93 ص 19 .. ولا يعـني ذلك أنّ القـرآن في منزلة الخالق لأنّه مخلوق له عزّ وجلّ وإنّما يعـني أنّ كل فضل في الكلام من قبل القرآن فهو كفضل من الله لأنّه كلامه.

لماذا تتبع الملايين جيلا بعد جيل رسول الله ورسالته بينما لا تتبع الشعراء ولا تعتدّ بكلامهم؟

نعم. إنّ إقبال الناس منذ بعث النـبي (ص) إلى اليـوم وحتى المستقبل ـ الذي هو لرسالات الله ــ على الإسـلام وإيمانهم به لآية بالغة على أنّها من عند ربّ العالمين.

(**قَلِيلاً ما تُؤْمِنُونَ**)

قالوا : إنّ «ما» هنا بمعنى العدم ، أي أنّكم لا تؤمنون البته ، وأضافوا : العرب تقول : قلّما يأتينا يريـدون لا يأتينا [1] ، ولكن يبدو أنّ القلة هنا بمعناها حيث ينسجم ذلك مع سائر الآيات التي تنفي الإيمان عن الكثرة (**إِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِـلُّوكَ عَنْ سَـبِيلِ اللـهِ**) بينما تثبته للقلة (**وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ**).

وكلمة أخيرة : إنّ الفـرق بين الرسـول وبين الشـاعر هو الفرق بين الكريم الذي يتنازل عن ذاته وبين من تكون ذاته هي المحور في كلامه وتحرّكه ، فالشاعر يسأل الأجر والرسـول يعطي ولا يسـأل ، والرسـول يقـول الحق ولو على نفسه بينما الشاعر لا يملك هذه الشجاعة والإخلاص. كما أنّ قلّة إيمـان النـاس لن يكـون في يـوم من الأيّـام مقياسا للحق ، لأنّ الرسالة ذاتها حق ، وبالتالي فإنّ الداء في من لا يـؤمن وليس فيها ، لأنّها قمّة سـامقة قـلّ أن يصل ذروتها أحد.

[42] وينفي القـرآن أن تكـون الرسـالة من أقـوال الكهنة.

(**وَلا بِقَوْلِ كاهِنٍ**)

---

(1) الرازي / ج 30 ص 117.

فما هي العلاقة بين نفي الشعر والكهانة؟

أولا : لأنّ الشـعر والكهانة من الظـواهر الـتي كـانت شـائعة في المجتمع الـذي تـنزّلت فيه الرسـالة يومئذ ، وكان الشعراء والكهّان يمثّلـون طبقة المثقفين والـواعين بين النـاس ، وإذ ينفي الله كـون القـرآن من أفكـار أوعى أفراد المجتمع فإنّه ينفي كونها من عند أيّ أحد من الناس ، لأنّ ما يعجز عنه الأقدر لا يستطيع الإتيان به غيره.

ثانيا : لأنّ أيّ ثقافة يـأتي بها الإنسـان فإنّما يحصل عليها عن أحد طـريقين أو عنهما معا : فإمّا تكـون ذاتية يتفتّق بها عقله وخياله كالشـعر ، وإمّا تأتيه عـبر الآخـرين كالكهانة الـتي يتلقّى الكهّـان أفكارها من القـوى الـتي يتصـلون بها أمثـال الشـياطين والجن ، بغضّ النظر عن الصحة والخطأ. وحيث ينفي القرآن الإثنين فإنّما يؤكّد بأنّ الرسـالة ليست من عند نفس الرسـول (ص) ولا مصـدر آخر يتصل به سوى وحي الله عزّ وجلّ.

إنّ الرسـالة هي الحق المرتكز في فطـرة الإنسـان وعقله ، وآياتها تـترى وتتواصل الحجج الدالة عليها حـتى يقتنع الإنسان بها ، ثم أنّها تقوم بدور تـذكرة البشر وتنمية عقله وإرادته.

(**قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ**)

والقليل هنا حسبما يبدو لي بمعناه المعروف.

ولعل الـترتيب في النفي بتقـديم نفي الشـعر ثم نفي الكهانة ب «ولا» يهدينا إلى أنّ الكهانة في عرف المجتمع أرفع وأعجب من الشـعر ، كما في قـول الله : «**قُـلْ ما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللهْوِ وَمِنَ التِّجارَةِ**» [1].

(1) راجع تفسير هذه الآية في سورة الجمعة.

والكهانة من حيث المعـــنى هي التحـــدّث بـــالغيب ، والكهّـــان هم الـــذين يـــدّعون العلم به ، أمّا من حيث اشـــتقاقها اللفظي فيبـــدو أنّها من الأســـماء الدخيلة لأنّ أصلها دخيل على المجتمع العـربي من الثقافـات الجاهلية التي تسرّبت إلى الديانات السماوية كاليهودية والنصـرانية ومن خلالهما انتقلت إلى العــرب ، ويشــير إلى أنّ الكلمة مستعربة صـاحب المنجد إذ يقـول : واللفظة إمّا من كهن بالعبرانية ، أو من كهنا بالسريانية [1] ، والأقرب أنّها قدمت اســـما وحرفة من الشـــعب العـــبري ، لأنّ اليهـــود كـــانوا يســـكنون شـــبه الجزيـــرة ، وكـــانت لهم محـــاولات لنشر مبادئهم وأفكارهم فيها.

وثابت تاريخيّاً أغلب روّاد الكهانة من اليهود والنصارى وقد اتخذوها سبيلا للوصول إلى الزعامة الروحية.

أمّا كيف يقضي الكهّـــان بما يحســـبه النـــاس غيبـــا؟ الجواب للأسباب التالية :

أولا : الـــذكاء المتميّز الـــذي يســـاعدهم على التقـــاط إشارات الحقائق وإرهاصات الظـــواهر كبعض الجواســـيس المتفوّقين اليوم.

ثانيا : القـــدرة على استشـــفاف المســـتقبل والتنبّأ به ، وهـــذه القـــدرة يمتلكها أغلب النـــاس إلّا أنّ الكهنة ينمّـــون هذه القدرة في أنفسهم شأنهم شأن السياسيين الكبار أو لاعبي الشطرنج ومن أشبه.

ثالثا : الاتصـــال بـــالجن والأرواح الشـــيطانية عـــبر رياضيات روحية معينة شأنهم شأن المرتاضين اليوم.

رابعا : معـــرفتهم بالثقافـــات والعلـــوم الغربية عن ذلك المجتمع الجـــاهلي ، وهـــذه العوامل كـــانت تســـاعد الكهنة على التعـــرّف على بعض الحقـــائق المجهولة عند النـــاس والتي كانوا يخلطونها بكثير من الأكاذيب والأساطير.

---

(1) راجع المنجد مادة كهن.

وحول أصل الكهانة جاء في الخبر المأثور في كتاب الإحتجاج : إنّ الزنديق سأل الإمام الصادق (ع) فمن أين أصل الكهانة ومن أين يخبر الناس بما يحدث؟ قال (ع) : «إنّ الكهانة كانت في الجاهلية ، في كلّ حين فترة من الرسل ، كان الكاهن بمنزلة الحاكم يحتكمون إليه يشتبه عليهم من الأمور بينهم فيخبرهم عن أشياء تحدث ، وذلك من وجوه شتّى : فراسة العين ، وذكاء القلب ، ووسوسة النفس ، وفتنة الروح ، مع قذف في قلبه ، لأنّ ما يحدث في الأرض من الحوادث الظاهرة فذلك يعلم الشيطان ويؤديه إلى الكاهن ، ويخبره بما يحدث في المنازل والأطراف» [1] ، وتهدينا هذه النهاية إلى أنّ نسبة الصدق لدى الكهّان فيما يتصل بأسرار الناس تكون أكبر من نسبتها في الحديث عن الغيب ، لأنّ الأسرار قد وقعت واطّلع عليها الجن الذين يتصلون بهم ويخبرونهم ، وليس الغيب كذلك ، ولا سيما فيما يتصل بوضع برنامج حياتي متكامل في بصائر العقل وتزكية القلب وتنمية الإرادة ونظام الحياة ، فإنّه لم يبلغه أيّ كاهن عبر التاريخ. إنّه فقط معاجز الرسل!

[43] إنّ التمايز بين خط الرسالة والثقافات البشرية واضح لا غموض فيه ، ولذلك فإنّ نظرة فاحصة للقرآن تهدينا إلى أنّه ليس شعرا ولا كهانة إنّما رسالة الله إلى خلقه.

(**تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ**)

أولا : أنّ القرآن معجزة الله الخالدة ، لفظا بأدبه وبلاغته ونظمه و.. و.. ، ومعنى بهداه ومعانيه ، والذي يدر القرآن من جانبيه (الظاهر والباطن) يتيقّن بلا أدنى شك أنّه فوق قدرات العالمين إنسا وجنّا ، وهذا ما توحي به كلمة «تنزيل» إذ لا ينزل الشيء إلّا من المكان العلي ، وبتعبير آخر : إنّه تعالى لو لم ينزل الرسالة

(1) الاحتجاج / ج 2 ص 339.

بلطفه لما كان العالمون ـ مهما تفتّقت عبقريّـاتهم وبلغت قدراتهم ـ قادرين على السموّ إلى مقام الإتيان بمثل آيات القـــــرآن .. لا بالشـــــعر ولا بالكهانة ، ولو بلغ الأمر أن تظـافرت القـوى والتقت الحضـارتان ، حضـارة الإنس والجن (**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَـأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَـأْتُونَ بِمِثْلِـهِ وَلَـوْ كـانَ بَعْضُـهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً**) [1].

ثانيا : أنّ الله تعالى يتجلّى في كتابه بصفاته وأسمائه الحسـنى ، وكتابه يهـدي الله من بدايته حـتى نهايته ، وإنّ القـارئ آياته والمتـدبّر كلماته لـيرى ربه ببصـيرة الإيمـان واليقين ، قال الإمـام الصـادق (ع): «لقد تجلّى الله لخلقه في كلامه ولكنّهم لا يبصرون» [2] ،وقـال الإمـام علي (ع): «**فبعث الله محمّدا .. بقرآن قد بيّنه وأحكمه ، ليعلم العباد ربهم إذ جهلـوه ، وليقـرّوا به بعد إذ جحـدوه ، وليثبتـوه بعد إذ أنكـروه ، فتجلّى لهم سـبحانه في كتابه من غير أن يكونـوا رأوه بما أراهم من قدرته ، وخـــــوّفهم من ســـــطوته ، وكيف محق من محق بالمثلات ، واحتصد من احتصد بالنقمات**» [3]

إنّ المســافة بين كلام الله وكلام المخلــوقين ليست بالتي تخفى على ذي لبّ وفطرة حـتى يجهل أحد التميـيز بين الرسالة وأفكار المخلوقين.

ولنا وقفة هنا على العلاقة بين الحـديث عن الرسـالة وأنّها من ربّ العالمين بالـذات ، فلم يقل الله : تنزيل من الله .. أو ما إلى ذلك من أسمائه الحسنى الأخرى.

إنّ أصل كلمة «ربّ» من التربية بما تعني الكلمة من نماء وتزكية ولطف ،

---

(1) الإسراء / 88.

(2) بحار الأنوار / ج 92 ص 107.

(3) نهج البلاغة / ج 147 ص 204.

ورســــالة الله هي أظهر آية على علاقة الــــرب الخــــالق بــالمخلوق المربــوب ، لأنّها وسـيلة الله في تــأديب خلقه وتربيتهم ، وطريقهم لكلّ خير ونماء وبركة إذا عملوا بها ، كما أنّها علامة حنانه وتلطّفه بهم.

وننقل هنا بعض الأخبار الـتي وردت في شـأن الآيـات الأربع (40) فيما يتصل بشأن نزولها عند المفسـرين ، من ذلك ما رواه ابن إســحاق عن الوليد ابن المغــيرة ، وعن النضر ابن الحــارث ، وعن عتبة ابن ربيعة ، وقد جــاء في روايته عن الأول :

«ثم إنّ الوليد ابن المغيرة اجتمع إليه نفر من قـريش ، وكـان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم ، فقـال لهم : يا معشر قـــريش! إنّه قد حضر هـــذا الموسم ، وإنّ وفـــود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فـأجمعوا فيه رأيا واحـدا ، ولا تختلفـوا فيكـذّب بعضـكم بعضا ، ويردّ قولكم بعضه بعضا ، فقـالوا : فـأنت يا أبا عبد شمس فقل ، وأقم لنا رأيا نقل به ، قال : بل أنتم فقولـوا أســمع ، قــالوا : نقــول : كـاهن ، قــال : لا والله ، ما هو بكـــاهن ، لقد رأينا الكهّـــان فما هو بزمزمة الكـــاهن ولا سجعه ، قالوا : فنقول : مجنون ، قـال : ما هو بمجنـون ، لقد رأينا الجنــون وعرفنــاه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته ، قالوا : فنقول : شاعر ، قـال : ما هو بشـاعر ، لقد عرفنا الشـــعر كلّه رجـــزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر ، قالوا : فنقول : ساحر ، قال : ما هو بســـاحر ، لقد رأينا الســـحار وســـحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم ، قـالوا : فما نقـول يا أبا عبد شـمس؟ قـــال : والله إنّ لقوله لحلاوة ، وإنّ أصـــله لعـــذق ، وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شـيئا إلّا عـرف أنّه باطل ، وإنّ أقرب القول فيه لأن تقولوا : هو ساحر ، جاء بقول هو سحر يفرّق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشـيرته ، فتفرّقـوا عنه بــذلك ، فجعلــوا يجلســون بسـبل النــاس ــ حين قــدموا الموسم ـ لا يمرّ

بهم أحد إلّا حذّروه إيّاه ، وذكروا لهم أمره ...» [1]

وحكي عن الثاني (النضر ابن الحارث) قال :

«فقال : يا معشر قـريش! إنّه والله قد نـزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعـد. قد كـان محمد فيكم غلاما حـدثا ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حـديثا ، وأعظمكم أمانة ، حـتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جـاءكم به قلتم : سـاحر! لا والله ، ما هو بسـاحر ، لقد رأينا السـحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم كاهن! لا والله ما هو بكـاهن ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم ، وسمعنا سجعهم ، وقلتم : شـاعر! لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشـعر ، وسـمعنا أصـنافه كلّها هزجه ورجزه ، وقلتم : مجنـون لقد رأينا الجنـون فما هو بخنقه ولا وسوسـته ولا تخليطـه. يا معشر قـريش! فـانظروا في شـأنكم ، فإنّه والله قد نـزل بكم أمر عظيم ..» [2]

[44 ـ 47] ونعـود للآيـات الكريمة حيث تؤكّد أمانة الرسول وصحّة الرسالة ، بنفي أيّ إضـافة منه (ص) إليها نفيا قاطعا ، ممّا يهـــــدينا إلى حقّانيّة الحق ، وأنّ الله يفرضه على الإنسـان فرضا دون أن يتسـاهل حـتى مع حبيبه وأقرب خلقه إليه النبيّ محمّد (ص).

(**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ**)

قـال الزمخشـري : التقـوّل افتعـال القـول كـأنّ فيه تكلّفا ، من المفتعل ، وسـمّيت الأقـوال المتقوّلة أقاويل تصغيرا بها وتحقيرا ، كقولك الأعاجيب والأضاحيك ،

---

(1) في ظلال القرآن / ج 8 ص 216.

(2) المصدر.

كأنّها جمع أفعوله من القول [1] ، والمعنى ولو نسب إلينا قولا لم نقله [2] ، والافتراض هنا افـتراض جـدلي يفيد أنّ النـبي (ص) لم يتقـوّل ـ حاشـاه ـ إذ لم نر الوعيد الإلهي تحقّق في هـذا الشـأن. والآية تزكية للرسـول ليس فيما يتصل بـالقرآن وحسب بل في كـلّ نطقه وكلامـه. وهـذه الشـهادة الإلهية البيّنة آية على عصـمة نبينا (ص) ، وأنّ سـنته كـالقرآن ليست من أهوائه إنّما هي بعلم الله وحكمته أجراها على لسانه.

(**لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ**)

معنويّا بسلب سمة النبـوة منه ، وماديّا بمجازاته أشد الجزاء ، لأنّ خطأ الإنسـان يكـون أفظع وأسـوأ كلّما كـان في موقع أهم ، وهذا ما يجعل ثواب نساء النبي وعقـابهنّ مضاعفا عند الله. ولعمري إنّه إنذار ووعيد لكلّ من يخون أمانة الله ، وبالذات أولئك الذين حمّلهم مسئولية الرسالة .. أعـني العلمـاء ، فيا ويل الـذين يفـترون منهم الكـذب ، ويحرّفون الكلم عن مواضعه.

وقد اختلف في الأخذ بـاليمين ، فقـال جماعة : أنّه كناية عن الأخذ الشديد باعتبار اليمين رمز القدرة ، وقـال آخرون : أنّه أخذ القوة منه أي سـلبنا منه القـوة [3] ، لأنّ القـوة في اليمين ، فـإذا أخـذت انتفت ، وفي المجمع : لأخذنا بيده الـتي هي اليمين على وجه الإذلال ، كما يقـول السلطان : يا غلام خذ بيده ، فأخذها إهانة ، وقيل : معناه لقطعنا يده اليمنى [4] ، ويبدو لي أنّه الأخذ الشديد ، وأخذ الله دائما يكـون شـديدا. أمّا كيف يأخذ اللـه؟ فـذلك من شأنه.

---

(1) الكشّاف / ج 4 ص 607.

(2) التفسير الكبير / ج 30 عند الآية.

(3) التفسير الكبير / ج 30 عند الآية.

(4) مجمع البيان / ج 10 ص 350.

(**ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ**)

في الدر المنثور : عرق القلب (عن ابن عبـاس) وعن عكرمة قـال : نيـاط القلب [1] ، وفي المنجد : عـرق في القلب يجري منه الـدم إلى العـروق كلّها [2] ، والمهم أنّه العرق الـذي لو قطع لما بقي الإنسـان حيّا .. ولو أخذ الله أحـدا بيمينه فقطع منه الـوتين فمن يسـتطيع أن يمنع عنه إرادة الله؟

(**فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ**)

أي ما نعين يمنعــون نفــاذ أمر الله في شــأنه. والآية قمّة في البلاغة إذ تتحـــدى البشر فـــرادى «من أحــــد» ومجتمعين «حـــــاجزين» في آن واحد ، وذلك لكي يمس التحدي أفرادها واحدا واحـدا دون اسـتثناء تأكيـدا للمـراد. وربما يقـرأ المتـدبر في تضـاعيفها أنّ هنـاك قـوى تسـعى للضغط على القيادة الرسـالية للتغيـير من نهجها والتقـوّل على الله ، فيجب أن لا تستجيب لها أو تنخدع بما عنـدها ، لأنّها لا تنفع شـيئا ولا تحجز إرادة الـربّ عـزّ وجـلّ. وحيث أنّ الرسـول (ص) مطمئن لهـذه الحقيقة فإنّه لا يتوكل إلّا على الله ، ولا ينتمي إلّا الى الحق ، ولا يقول إلّا الوحي.

وكفى بقول الرسول (ص) هذه الآيات وإعلانها للناس مع ما فيها من شــديد اللهجة دليلا على نقله بأمانة ، إذ لو كان يتقوّل على الله لكان يحـذفها أو يعـزّز نفسه بصـورة مطلقة دون حدّ ولا شـرط ، كما يعـزّز الكثـير من الـدعاة والحكّام أنفسهم حتى على الحق ، وما أحوج القــادة وكل رسالي إلى هذه الشجاعة تأسيا بسيرة حبيب الله (ص).

---

(1) الدر المنثور / ج 6 ص 263.

(2) المنجد مادة وتن.

[48 ـ 52] وبعد أن أثبت القـرآن بأنّه قـول رسـول كريم بالمعالجة الموضـوعية الدقيقة ، وبالتـالي كونه كلام الله عزّ وجلّ ، ينثني لبيان صفة أخرى لنفسه.

(**وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ**)

أو كما قـال تعـالى في سـورة البقـرة : (**هُـدىً لِلْمُتَّقِينَ**) [1] ، لأنّ المتقي وحـده الـذي يرتفع بنفسه وعقله إلى مسـتوى فهم آياته ، وهو وحـده الـذي يخشى ربه فيلزم نفسه ما في كتابه من الحدود والأحكـام والقيم لكي لا يتعـرض لغضـبه وعذابه ، وهم وحـدهم الـذين يملكـون الاسـتعداد للتسـليم له ، لأنّهم يحـافظون على فطرتهم سـليمة كما أودعها الله فيهم ، فـإذا بهم يجـدون آياته تلتقي بتطلعاتهم السـامية في الحيـاة. ويتأكد لنا بـأنّ القرآن تذكرة للمتقين إذا عرفنا أنّ التقـوى ليست مجـرد الخشـية والخـوف .. إنّما هي مجموعة من الصـفات النفسـية والعقلية والاجتماعية الـتي تجعل الإنسـان في مستوى التـذكر بالآيـات وفهمها .. فـالمتقون كما وصـفهم ربهم : «**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنـاهُمْ يُنْفِقُـونَ* وَالَّذِينَ يُؤْمِنُـونَ بِما أُنْـزِلَ إِلَيْـكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**» [2] ، فالذي لا يؤمن بالغيب كيف يؤمن بالرسـالة الـتي مصـدرها غيب السـموات والأرض؟ والـذي لا يـؤمن بـالجزاء كيف يلـتزم بها؟

إنّ هذه الآية تهدينا إلى إحدى خصائص الـوحي الإلهي المتميّز بها عن الأفكـار الأخـرى والفلسـفات ، وهي أنّه لا يسـتطيع التفاعل معه وفهمه إلّا المتقـون فقط ، فـإذا به (**شِـفاءٌ وَرَحْمَـةٌ لِلْمُـؤْمِنِينَ وَلا يَزِيـدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً**) [3] ،

---

(1) البقرة / 3.
(2) المصدر / 3 ـ 4.
(3) الإسراء / 82.

(وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى) [1] ، ولذلك خاطب الله رسوله فقال : (وَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً* وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً) [2] ، ولقد اعترف بهذه الحقيقة الكافرون والمشركون منذ قبل : (وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ) [3] ، وهذه الخصيصة في الرسالة تفسر ظاهرة التكذيب بها من قبل بعض الإنس والجن ، لأنّ الرسالة في مرتبة عالية قلّ أن يسموا إليها البشر ، والله يعلم بأنّ جبلا كثيرا منهم سوف يكذّبون بها.

(وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ)

بتأكيدات لفظية ثلاثة «إنّ» واللام في «لنعلم» و «أنّ» ، وإذ يكذّبون فلأنّهم لم يسموا إلى درجة المتقين الذين يتذكرون بالوحي ويسلمون لآياته ويستوعبون حقائقه الكبيرة ، وليس لعيب في القرآن.

(وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكافِرِينَ)

والحسرة بنت الخسارة ، والأثر المعنوي المترتب عليها ، وبذلك يكون القرآن قد أشار إلى الأمرين معا ، وإنّما يكون كذلك لأنّه الحق الذي يدمغ باطلهم فإذا هو زاهق في الدنيا ، كما أنّه ميزان لأعمال الخلق في الآخرة ، والشافع المشفّع والماحل المصدّق ، وحيث كذّبوا به يريهم أعمالهم حسرات عليهم يوم القيامة ، ولا يشفع لهم ، بل يمحلهم بالشهادة عند الله ضدهم.

---

(1) فصّلت / 44.
(2) الإسراء / 46.
(3) فصّلت / 5.

ومن هنا نكتشف خلفية تأويل الإمـام الصـادق ــ عليه السـلام ــ للآية في الإمـام علي بن أبي طـالب أنّه الـذي يكون حسرة على الكافرين بقوله : «يعني عليّا» [1] ، فإنّ إمــام الحق في كـلّ أمّة جنبا إلى جنب القيم الإلهية حجّة الله على خلقه عند الحســـاب والجـــزاء حين يحشر كل أناس بإمامهم ، ممّا يجعله هو الآخر حسرة على الكافرين إذ يكون شاهدا وحجّة عليهم.

(**وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ**)

أي حق يفرض نفسه على الإنسان فيصـبح موقنا به ، فهو حق في عــالم الواقع ويقين في عــالم النفس. قــال صاحب الكشّـاف : إنّ القـرآن اليقين حق اليقين ، كقولك هو العالم حق العالم ، وحدّ العالم ، والمعـنى لعين اليقين ومحض اليقين [2] ، وقال الرازي : أي حق لا بطلان فيه ، ويقين لا ريب فيه [3] ، ويـأتي التأكيد على هـذه الصـفة القرآنية في سياق نفي الشعر والكهانة عن آياته كتعريض من طرف خفيّ بـالإثنين الأخـيرين اللـذين ملؤهما الخيـال والكذب والرجم بالغيب ، وهذه من المفارقـات الأساسـية بين رسالة الله وثقافة الشعراء والكهنة ، أنّها تحتوي على الحق والعلم بـــــأعلى درجاته (اليقين) من دونهما حيث ينطويــان على التنــاقض والباطل وحيث يعتريهما الخــواء الفكري والعلمي.

ونهتــدي من نعت القــرآن بأنّه «**لَحَــقُّ الْيَقِينِ**» أنّ انتهاج القرآن هو الشـرط الأساسي في مسـيرة الإنسـان نحو اليقين إيمانا وعلما ، وأنّه الواجب الذي يفــرض نفسه على العقل حينما يتطلع إلى الكمــال المعنــوي والمــادي باليقين ، أي أنّ الإنسان يبقى في حيرة وشك لا يصل إلى الإيمان التام ليس بالحقائق العلمية والحياتية وحسب ،

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 410.
(2) الكشّاف / ج 4 ص 607.
(3) التفسير الكبير / ج 30 ص 120.

بل بأصل الوجــود ، وجــود نفسه والكــون من حوله بكــلّ مفرداته ، حتى يكتمل نور عقله بنور وحي الله ، لأنّه الذي يعرّفه بالخالق الموجد ، ويــرتقي به إلى آفــاق اليقين به ، فتنكشف عن بصــره وبصــيرته الحجب والأغطية ، وتــنزاح الغشاوة .. إذ لا معنى للإيمان بــالمخلوق (ماديّا كالإنســان والطبيعة ، أو معنويّا كالحقائق والقــوانين) إلّا بعد الإيمــان بالخالق ، وذلك ما يحقّقه اتّباع القرآن.

ونقف قليلا ننعم الفكر في حكمة الحديث عن القرآن بهــذا التعبــير : (**وَإِنَّهُ لَحَــقُّ الْيَقِينِ**) في ســياق ســورة الحاقة التي تحدّثنا عن الجزاء.

إنّ نقطة التلاقي بين الحاقة والقــــرآن تكمن في أنّ كلّا منهما يحــقّ الحــقّ ويظهــره ، ويهــدي الإنســان إليه ، ويرفعه إلى أعلى درجات الإيمان والتسليم (حقّ اليقين) ، ولكن يبقى القرآن هو الوسيلة العظمى والأقــوم للهداية ، أعظم حــتى من الحاقة نفســها ، لأنّه يهــدينا في الــدنيا والآخــــرة حيث تنفع الهداية ، بل هو طريقنا للإيمــــان بالساعة والقيامة (الحاقة).

ولكي نفهم القرآن فهما صحيحا ، فنؤمن به ، ويكــون لنا تذكرة وسبيلا إلى اليقين الخالص ، يجب أن نتطهر من الشــرك بالله عــبر تســبيحه ، لأنّ كــلّ انحــراف في حيــاة الإنسان مظهر من مظاهر الشرك وظلال له ، وكلّما سبّح ربه أكــثر فــأكثر تســبيحا ســليما كلّما تميّــزت في نفسه وفكــره حقــائق الــوحي عن وســاوس النفس ، وإلقــاءات الشيطان ، ثم أنّ التســبيح هو الوســيلة لاجتنــاب القــوارع الإلهية في الــدنيا والابتعــاد عن أصــحاب الشــمال في الآخرة.

(**فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**)

وقال «**بِاسْمِ رَبِّكَ**» لأنّه السبيل لتسبيحه تعــالى ، إذ لا يجد الإنسان وسيلة للاتصال بربه لو لا أسماؤه. وقــال : «العظيم» بالذات لأسباب منها :

1 ـ أنّه رمز التسـبيح الصـحيح ، حيث معرفة عظمة الله شرط رئيسي في تقديره حقّ قدره. أوليست مشكلة كلّ صاحب شمال «**إِنَّهُ كانَ لا يُـؤْمِنُ بِاللـهِ الْعَظِيمِ**»؟ بلى. ولو أنّنا فتّشـنا في أي إنسـان لما وجـدناه خاليا من الإيمان بربه ، ولكن أصحاب الشمال (مشركين وكافرين) لا يؤمنـون بالله كما هو عظيما منزّها عن كـلّ ما لا يليق بمقامه ، مما يـدعوهم لاتخـاذ الأنـداد له من خلقه الـذين يجدون فيهم بعض العظمة أو يظنونهم عظماء .. وهذا هو مكمن الداء الذي انطلقت منه الفلسفات البشرية الضالة .. تجسـيدية تشـبيهية وشـركية وما إلى ذلك .. ولعلّه من هنا أصبح تسبيح الله بذكر عظمته في الركـوع وعلـوّه في السـجود (سـبحان ربي العظيم وبحمـده ، سـبحان ربي الأعلى وبحمـده) فرضا واجبا في الصـلوات ، بل أصـبحت الصلاة من بدايتها حتى نهايتها تسبيحا لله عزّ وجلّ.

2 ـ لأنّ السـياق يـدور حـول القـرآن وهو أظهر آيـات عظمة الله على الإطلاق ، ففيه تتجلّى عظمته تعـالى .. أوضح وأوسع وأعظم من تجلّيها في الطبيعة وفي النفس وفي كلّ شيء آخر.

سورة المعارج

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

في كتاب ثواب الأعمـال بإسـناده عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ قال : «**أكثروا من قراءة «سأل سـائل» فـإنّ من أكـثر قراءتها لم يسـأل الله تعـالى يـوم القيامة عن ذنب عمله ، وأسـكنه الجنّة مع محمّد إنشاء الله**»

نور الثقلين / ج 5 ص 411

الإطار العام

كما هو سـياق غـالب السـور المكية تعـالج سـورة المعـارج الأمـراض القلبية الـتي تمنع الإيمـان ، كما ترسم منهاجا لبنـاء الشخصـية الربّانية ، ففي الثلث الأول حـتى الآية (18) يحـدّثنا السـياق عن مشـاهد من الآخـرة حيث الأحـــداث الكونية المريعة ، وما تخلّفه من الآثـــار على نفوس المجرمين ، فإذا بواحدهم يتمنّى النجاة ولو يفتـدي بأعزّ الناس وأقربهم إليه ، بل بهم جميعا.

ومن خلال الحـديث تعـالج مـرض التسـويف بتصـحيح رؤية الإنسان إلى الزمن عبر وعي الزمن الأبـدي الـذي لا بد أن يعايشه البشر.

وانطلاقا من ذلك يشير القـرآن إلى صـفة الهلع لـدى الإنسـان ، والـتي تبعثه على الجـزع حين الشر والمنع عند الخير ، فتجعله متقلّب الشخصية ، متغيّـرا حسب المحيط والظروف ، مؤكّـدا بأنّها ليست في المصـلّين بحق ، لأنّهم تساموا إلى أفق الخلود فلم يعيشوا لحظتهم الراهنة فقط ، ولم يتأثّروا بعواملها فحسب.

ثم تعـالج الآيـات حالة التمنّي الـتي يعيشـها الإنسـان فيطمع أن يـــدخل الجنة بلا إيمـــان أو ســـعي ، كلّا .. إنّ النجاة من العـذاب لا تحصل بـالتمنّي والـودّ ، إنّما بالعمل الصالح والسعي ، وإنّ الصلاة لهي سفينة نجاة المؤمنين ، وهي مفتـــاح شخصـــيتهم الإلهية الـــتي تتسم بالإنفـــاق والصــدقة وخشــية العــذاب ورعاية الأمانة والعهد وحفظ الفـروج إلّا من حلال والقيـام بالشـهادة والمحافظة على الصــلوات ، وهــذا في الواقع البرنــامج المســتوحى من الصلاة لبناء شخصية الإنسان الربّانية.

وفي الخاتمة (الآيات 36 ـ 44) ينسف الوحي مـركب الأحلام والتمنّيــات الـــذي يركبه الهلكى من المجـــرمين والكافرين ، فلا يرسو بهم إلّا في بحر لجّيّ من عذاب الله وغضبه ، وخسـران الـدنيا والآخـرة .. لأنّ التمنّيـات تـدخل أصـحابها في نفق الخـوض واللعب ، فـإذا بهم وقد حــان اليوم الذي يوعدون ، ولم يستعدوا للقاء الله ، ولم يمهّدوا للمســـــتقبل عملا وزادا. وإنّها لعاقبة كـــــلّ منهج يعتمد التمنّيات بديلا عن السعي والعمل.

سورة المعارج

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ (1) لِلْكـافِرينَ لَيْسَ لَـهُ دافِـعٌ (2) مِنَ اللـهِ ذِي الْمَعـارِجِ (3) تَعْـرُجُ الْمَلائِكَـةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَـنَةٍ (4) فَاصْـبِرْ صَـبْراً جَمِيلاً (5) إِنَّهُمْ يَرَوْنَـهُ بَعِيـداً (6) وَنَـراهُ قَرِيبـاً (7) يَـوْمَ تَكُـونُ السَّـماءُ كَالْمُهْـلِ (8) وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ (9) وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمـاً (10)**

---

8 [كالمهل] : قيل : هو الـزيت المغلي ، وجـاء في مفـردات الـراغب : درديّ الزيت.

9 [كـالعهن] : هو الصـوف المنفـوش ، وقـال الـراغب في مفرداته : العهن الصـــوف المصـــبوغ ، قـــال : (**كَالْعِهْنِ الْمَنْفُـوشِ**) ، وتخصـيص العهن لما فيه من اللـون ، كما ذكر في قوله : (**فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ**)

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْـرِمُ لَـوْ يَفْتَـدِي مِنْ عَـذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيــهِ (11) وَصــاحِبَتِهِ وَأَخِيــهِ (12) وَفَصِــيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيـهِ (13) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعـاً ثُمَّ يُنْجِيـهِ (14) كَلاَّ إِنَّها لَظى (15) نَزَّاعَـةً لِلشَّـوى (16) تَـدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (17) وَجَمَعَ فَأَوْعى (18)

فاصبر صبرا جميلا

هدى من الآيات :

يعـــايش الكـــافرون لحظتهم الزمنية الراهنة معايشة حـــادّة ، لأنّهم لا يعـــون الماضي بتجاربه ولا المســـتقبل بتطلعاته ، ولا يؤمنــون بــالآخرة. أمّا المــؤمن الــذي يعيها حيث الـــزمن هنـــاك طويل طويل لا ينتهي ، ويعي حقيقة الخلـــود ، فإنّه يعيش في عقله ونفسه وعمليّا توازنا زمنيّا .. فلا ينهـزم أمـام التحـديات والمشـاكل إنّما يصـبر صـبرا جميلا ، لأنّها وإن استوعبت كـلّ عمـره الـدنيوي فهي أقل من ساعة من ساعات الآخرة ، التي مقدار يوم واحد منها خمســـون ألف ســـنة ، ولأنّه لا يـــدع لحظة تمـــرّ عليه إلّا ويملأها بالعمل الصـالح ، ويســتغلّها في ســبيل مســتقبل سعيد ، ليوازن بين فرصة السعي والعمل القصيرة (أعني الـدنيا) ، وبين مسـتقبل الجـزاء والحصـاد الخالد (أعـني الآخرة) ، فإنّك حيث تراه وتـدرس حياته تجـده شـعلة من النشـــاط والســعي المتواصل ، ومهما فتّشت في ســـنيّ حياته فلن تجد إلّا شذرا تلك الساعات الضائعة التي تملأ

عــادة حيــاة ســائر النــاس. وكيف يســمحون لأنفســهم بـالخوض واللعب وكل لحظة من عمـرهم هي خطـوة إلى اللقـاء مع اللـه؟! إنّهم لا يحتملـون غضب الله عليهم ، ولا أن ترهقهم ذلة عند لقائه ، ولذلك تركوا التمنّيات والأحلام إلى السعي الدؤوب ، لأنّه ليس في أنفسهم ذرّة من شك في حقيقة الآخرة وعذابها الواقع حتى يطلقـوا لشـهواتهم العنان ، أو يعيشوا عيشة الهازل!!

بينات من الآيات :

[1 ـ 4] قـال الإمـام الصـادق ــ عليه السـلام ــ : لمّا نصب رسـول الله (ص) عليّا يـوم غـدير خم قـال : «من كنت مولاه فعلي مولاه» طار ذلك في البلاد ، فقـدم على النبي (ص) النعمان بن الحارث الزهري فقال : أمرتنا عن الله أن نشـهد أن لا إله إلّا الله وأنّك رسـول الله ، وأمرتنا بالجهاد والحج والصـوم والصـلاة والزكـاة فقبلناها ، ثم لم ترض حتى نصبت هذا الغلام فقلت : من كنت مولاه فعلي مولاه؟! فهذا شيء منك أو أمر من عند اللـه؟! فقـال : لا والله الـذي لا إله إلّا هو إنّ هـذا من الله ، فـولّى النعمـان بن الحارث وهو يقول : (**اللهُمَّ إِنْ كـانَ هـذا هُـوَ الْحَـقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجـارَةً مِنَ السَّـماءِ**) ، فرمـاه الله بحجر في رأسه فقتله [(1)] ، وفي رواية أخرى قال أبو بصـير عن الصـادق (ع): بينما رسـول الله (ص) جالسا إذ أقبل أمـير المؤمـنين (ع) فقـال له رسـول الله (ص) : إنّ فيك شبها من عيسى بن مـريم .. قـال : فغضب الحـارث بن عمرو الفهدي فقال : «(**اللهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْـدِكَ**) أنّ بــني هاشم يتوارثــون هــرقلا بعد هرقل (اسم ملك الروم أراد بني هاشم يتوارثون ملكا بعد ملـك) فأرسل علينا حجــارة من الســماء أو ائتنا بعــذاب أليم» فـأنزل الله عليه مقالة الحـارث ونـزلت هـذه الآية : «**وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَما كانَ اللـهُ مُعَـذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**» ثم قال له : يا عمرو إمّا

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 411.

تبت وإمّا رحلت ، فقال : يا محمّد بل تجعل لساير قـريش شـيئا ممّا في يـديك فقد ذهبت بنو هاشم بمكرمة العـرب والعجم ، فقـــال النـــبي : ليس ذلك إلي ، ذلك إلى الله تبـارك وتعـالى ، فقـال : يا محمد قلـبي ما يتـابعني على التوبة ولكن أرحل عنك ، فـدعا براحلته فركبها فلمّا صـار بظهر المدينة أتته جندلة (أي حجـــرة) فرضّـــت هامته ثم أتى الـــوحي إلى النـــبي (ص) فقــال : الآيــات الاولى من سورة المعارج [1].

(**سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ**)

وســؤال الســائل يكشف ليس عن شك في وعد الله عــزّ وجــلّ وحسب ، بل يكشف أيضا حالة من الاســتهزاء والتحدي دعته إليهما الثقافة الجاهلية التي جاءت الرسالة لتحرير الإنســـان منها ، كما دعته إليهما الضــغائن الدفينة على الرسول والرسالة.

والآية الكريمة ـ كسائر آيات القرآن ـ أوسع من حادثة تاريخية ، أو مصـــداق واحد بذاته ، بل هي شـــاملة لكـــلّ موقف استهزاء بالحق ، وتكذيب بـه. ولا يصف ربّ العـزة عظمة العــذاب ومــدى هوله ، بل يؤكّد واقعيته فيقــول : «واقع» ، وذلك يهـدينا إلى حقيقة فطرية وعقلية لا يـتردّد في قبولها أحد وهي أنّ جهل الإنســان بالحقــائق القائمة في الواقع ، أو تجاهله بها (تكذيبه) لا يغيّر من أمرها شيئا. أترى أنّ عقيدة الوجوديين الذين زعموا بأنّ الوجود خيــال يتراءى للإنسان كالسـراب أعـدمت الوجـود أو غيّـرت من الواقع شـــيئا؟ هل ينفي عـــــدم رؤية الأعمى لما حوله وجــــوده؟ كلّا .. وإذا قلنا أنّ كلمة «واقـــع» تـــدل على الماضي فإنّها تــأتي هنا للتأكيد من حيث أنّه حتمي لا شك فيه ولا تردّد في وقوعه ، لأنّ الله قد قدّره وقضاه تقـديرا حتما وقضاء مبرما.

---

(1) المصدر / ص 412 ذكره أبو عبيدة والثعلبي والنقـاش وسـفيان بن عيينة ، وأشـار إليه الـرازي والنيسـابوري ، ونقل القرطـبي نص الرواية في تفسيره والحسكاني في شواهد التنزيل.

ويبدو أنّ السؤال لم يكن سؤال مستفهم ، بل سـؤال مكذّب مستهزء ، ولهذا عدّي الفعل بالباء فأعطى معنى التكذيب ، فكأنه قال : سأل سائل مكذّب بعذاب واقع. وهكذا أوحى النص بأنّ الدافع إلى السؤال لم يكن المعرفة وإنّما التشكيك به.

وإذ يقع عذاب الله فإنّه ـ وإن كان ـ يبدّل وجه الكون وعلاقات أجزائه ببعضها فتكون السماء كالمهل والجبال كالعهن ولا يسأل حميم حميما ، إلّا أنّه لا يخرج عن إطار حكمة الله وإرادته إلى حالة الفوضى ، وإنّما يكون بقدر ، ولا يصيب إلّا من يشاء الله ، فإذا بك تراه وقد حان حينه لا يقع إلّا على الكافرين ، الذين لا يجدون ما يدفعونه به عن أنفسهم.

(**لِلْكافِرينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ**)

يحجزه عنهم ويدفعه عن ساحتهم ، وما عسى أن تبلغ قدرة أحد حتى يكون قادرا على دفع عذاب يصيّر السماء كالمهل والجبال كالعهن ، ويقطع الروابط الحميمة بين الأخلّاء والأنساب لهوله وشدّته! والإنسان هناك لا يفكّر إلّا في خلاص نفسه ، فلا يسأل عن غيره ، فكيف السعي لدفع العذاب عنه؟! بلى. يستطيع الإنسان دفع العذاب عن نفسه يومئذ بفضل الله ورحمته ، وبعمله الصالح ، ولم يترك الكافرون بينهم وبين الله صلة كي يرحمهم ، بل سدّوا عن أنفسهم كلّ أبواب الرحمة بكفرهم وعتوّهم عن الحق والرسل ، ولم يقدّموا لآخرتهم ومستقبلهم عملا صالحا.

وعلى ضوء هذه الآية الكريمة ينبغي للإنسان أن يكشف عن نفسه وعقله حجب الضلال والشرك المتمثلة في العقائد السفيهة التي تجنح به نحو الموبقات والشهوات ومخالفة الحق ، ظنّا بأنّ أحدا من الجن أو الإنس أو الأصنام يخلّصه من عذاب الله وسطوته ، أو العقيدة الباطلة بأنّ الله لن يعذّب عباده لأنّه رحيم ودود ، فإذا به يودّ ويطمع أن يدخل الجنة على جناح التمنيات بلا أيّ سعي وعمل!

ونفهم من قوله «للكـافرين» أنّهم ليس لهم يـوم يقع العـــــذاب دافع يدفعه عنهم لا من عند أنفســــهم أو من أشـركوا بهم ولا من عند اللـه. وأيّ قـوّة يمكن أن تتحـدى إرادة الله العظيم حـتى يتشـبّث بها الكفّـار؟ إنّ العـذاب ليس من بشر مثلهم حـــتى يقـــدروا على دفعه ، ولا من مخلوق. إنّه من ربّ العزة المتعال الجبّار.

(**مِنَ اللهِ ذِي الْمَعارِجِ**)

قـال البعض : إنّ كلمة «ذي المعـارج» ليست اسـما لله سـبحانه ، وجـاء في الـدر المنثـور : أخـرج أحمد وابن خزيمة عن سـعد بن أبي وقّـاص أنّه سـمع رجلا يقـول : لبيك ذي المعارج ، فقال : إنّه لـذو المعـارج ، ولكنّا كنّا مع رسول الله (ص) لا يقول ذلك [1] ، ولكنّ الأظهر أنّه اسم لله لوروده في أدعية الحج حيث قالوا : يستحب أن يقـول في التلبية : «لبّيك ذا المعـــــارج لبّيـــــك» ، على أنّ نص القرآن ظاهر في ذلك وهو المقياس.

وفي معـنى المعـارج أقـوال منها : الفواضل ، وعليه جلّ المفسـرين ، وزاد صـاحب المجمع : والـدرجات الـتي يعطيها للأنبيـاء والأوليـاء في الجنة ، لأنّه يعطيهم المنـازل الرفيعة ، والدرجات الطيبة [2] ، وفي التبيان قال العلّامة الطوسي : هي معارج أو مراقي السماء [3] ، وقال صاحب الميزان : وهي مقامات الملكوت ، وقال : الدرجات الـتي يصـعد فيها الإعتقـاد الحق والعمل الصـالح ، قـال تعـالى : «**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**» [4] ، وقيل : هي مصـاعد الملائكة .. ويمكن أن تكـون الأقـوال كلها صحيحة ، ويجمعها الأصل اللغوي للكلمة .. فالمعـارج مواضع العروج

(1) الدر المنثور / ج 6 ص 264.
(2) مجمع البيان / ج 10 ص 353.
(3) التبيان / ج 10 ص 114.
(4) الميزان / ج 20 ص 7.

وهي مرتبة بعد مرتبــة. ويبــدو أنّ تأويلها هنا ذات العــروج المتواصل ، وذلك يظهر من الآية التالية.

ولكي ينسف الســياق أسس التفكــير الخــاطئ عند أولئك السفهاء الذين استعجلوا عـذاب ربهم العظيم ، تلك الأسس القائمة على حسابات قصيرة ، يهدينا القـرآن إلى حقائق الـزمن اللّامتنـاهي الـذي سـوف يعيشه الإنسـان ، لكي يمتد وعي الــزمن لــدينا من مقــاييس اللحظــات الحاضـرة إلى آفـاق الآبـاد المطلقة والمسـتقبل الـذي لا ينتهي ، وهنــاك نعيش حقيقة أنفســنا وحقيقة الظــواهر المحيطة بنا.

إنّ من يتخذ المقــاييس الدنيوية معيــارا في معادلة الـزمن يظنّ أنّ مائة سـنة شـيئا كثـيرا ، ولكنّه حين يطلع على الأفق الواسع للــــزمن عند الله حيث الحســـــاب بمليــارات الســنين وحيث الخلــود فــإنّ المعادلة تختلف بالنسبة إليه لحتى يكاد يـرى وعد الله بـالآخرة واقعا أمـام عينيه .. فهؤلاء الملائكة يسبقهم الروح يعرجـون خمسـين ألف ســنة إلى الله في الآفــاق الواســعة ، ولأنّها حسب فهمنا الأرواح النورانية ذات القـدرات الهائلة فـإنّ عروجها ليس بحسابنا نحن في السرعة ، بل بحسـاب لا يسـتوعبه عقل البشر .. ومع ذلك فإنّ خمسـين ألف سـنة يعرجـون فيها ليست عنده تعالى إلّا كيوم واحد لا أكثر!

(**تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**)

والعروج عروجان : عـروج مـادي في آفـاق الوجـود ، وعروج معنوي في آفاق القرب من الله ، وليس لله مكان ، تعالى أن يخلو منه مكان أو يحويه مكان ، ومن هنا فــإنّ عروج الملائكة والروح إليه عروج في القـرب منه ، قــرب الفضيلة ، ولا ينفي ذلك حقيقة عــروجهم ماديّا في منـازل السموات وإلى العرش ، بل هذا العروج بذاته رمز للقرب المعنــوي منه ســبحانه ، ومن هنا اختلفت الملائكة فمنهم من يعرج إلى السماء

الرابعة ، ومنهم من يعـرج إلى العـرش بـاختلاف فضـلهم عند ربّ العالمين.

أما الروح فهو أعظم من الملائكة ، ولعلّه الخلق الذي يؤيّد به الله ملائكته الكـرام وأنبيـاءه وأوليـاءه الأبـرار ، ولعلّه سمّي جبريل ب «الروح الأمين» لكونه مؤيّدا ـ عليه السلام ـ بالروح.

[5 ـ 8] ومن فتح آفاق المتدبر على الـزمن بالحـديث عن العروج يعالج القرآن مسألتين :

الأولى : تتصل بالداعية إلى الله ، وهو يواجه تحـديات الكفّـار بالرسـالة ، وبالضـبط يواجه تحـدي الـزمن في الاستقامة على الحق ، والاستمرار في الطريق حتى يفتح الله. فإنّ أكثر الناس قادرون على اتخاذ قـرار الجهـاد في سـبيل الله ، ولكنّ القليل منهم يقـدرون على الاسـتقامة مع طول الأمد وتراكم التحديات المضادة.

وإنّما يفتح القـــرآن آفـــاق المؤمـــنين على المعادلة الحقيقية للـزمن ، ويؤكّد على أنّ الـزمن الـدنيوي ليس المقيـاس ، وإنّما معادلة الـزمن تقـاس بـاليوم الواحد خمســين ألف ســنة ، كل ذلك ليســهّل الاســتقامة في أنفسهم ، فلا يعدّ واحدهم حتى الصبر سنيّ عمره مجاهدا في سبيل الله شيئا كثيرا ، بل يعتبر عنـده ـ أنّى طـال به الزمن وامتد ـ أيّاما قصـيرة يصـبر فيها على الأذى لتعقبه راحة طويلة ، وهكـذا جـاء الحـديث بعد بيـان الـزمن عن الصبر فقال ربّنا :

(**فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً**)

وهو الصـبر الـذي يكـون لوجه الله ، والبعيد عن أيّ ضـــعف أو هزيمة ، والـــذي لا خـــروج معه عن الحكمة والصواب. قال أكثر المفسرين : هو الصبر الذي لا شكوى فيه على ما يقاسـيه الرسـول من أذى قومه ، وتكـذيبهم إيّاه فيما يخبر به من الآخرة.

وما أعظم ما تعطيه هــذه الآية بســياقها من روح الصــبر والاسـتقامة والمقاومة للمؤمـنين والمجاهـدين في سـبيل الله.

الثانية تتصل بالكافرين الـذين يسـتبعدون عـذاب الله ووعـــده ، وربما إلى حـــدّ التكـــذيب البتّــه. ولو بحثنا عن السبب وراء هذا الموقف من وعد الله فسنجده اعتمادهم على مقـــاييس الـــزمن الدنيوية في التقـــييم والنظر إلى المستقبل. ويعالج القرآن هذه العقدة بأمرين :

أحدهما : السعي لتوعيتهم بالمقياس الحقيقي للزمان ، حيث مقــدار يــوم واحد خمســين ألف ســنة ، ممّا يغيّر رؤيتهم المحدودة برؤية ربّانية واسعة لو أنّهم آمنوا واتبعوا الآيات.

(**إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً**)

لمحدودية أفكــارهم الــتي تتصــور الزمــان محــدودا. أرأيت الطفل كيف يسـتبعد وعـدا مدته سـاعات؟ كـذلك الكفّار يـرون وعد الله بعيـدا لأنّ منهجية الرؤية ووسـيلتها عنـدهم محـدودة. أمّا المنهجية الربّانية الـتي تتلاشى فيها الأرقام الزمنية لسـعتها فـإنّ ملايين السـنين ليست بـذات شــأن حــتى يكــون أمــدها بعيــدا .. وكيف يكــون ذلك والمؤمنون يطّلعون بها على عالم الخلود؟!

(**وَنَراهُ قَرِيباً**)

لا فــرق بين أجل المــوت ، أو النصر للمؤمــنين ، أو عــذاب الكــافرين في الــدنيا ، أو قيــام الســاعة ووقــوع الآخرة.

الثــاني : التـذكير بالوقـائع والمشـاهد العظيمة الـتي ترافق وقوع وعد الله ، الأمر

الـذي يهـزّ النفس ، ويلقي عنها حجبها وعقـدها ، ويجعلها ماثلة في وعيهم.

(**يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ**)

قال القمّي : الرصاص الذائب والنحـاس [1] ، وقيل : الزيت المغلي ، وفي المنجد : ما كان ذائبا من المعـدنيّات [2].

(**وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ**)

أي الصـوف المتفـرّق ، قـال في التبيـان : فـالعهن الصـوف المنفـوش ، وذلك أنّ الجبـال تقطع حـتى تصـير بهذه الصفة [3] ، وزاد صاحب المجمع : وقيل : كالصـوف الأحمر ، وقيل : إنّها تلين بعد الشـــدة ، وتتفـــرق بعد الاجتمـاع [4]. وعلّق العلّامة الطباطبـائي بقوله : في هـذه الآية وما قبلها تعليل للصـبر ، فـإنّ تحمّل الأذى والصـبر على المكـاره يهـوّن على الإنسـان إذا اسـتيقن أنّ الفـرج قريب [5].

ولا يحدّثنا القـرآن عن صـفة الأرض يومئذ ، لأنّ دمـار السماء وهي السقف المحفوظ الذي يؤمّن للأرض ولأهلها الحماية ، وكذلك تدمير الجبال التي تحفظ توازنها أن تميد بنا ، هذين الأمرين يهديانا إلى ما تكـون فيه أرضـنا يومئذ من الزلزال والخطر العظيم.

وما هو حـال الإنسـان الضـعيف وموقفه حينما يعاصر هـذه المشـاهد الرهيبـة؟ فهـذه السـماء على عظمتها أصبحت كالمهل ذائبة ، وتلك هي الجبال الراسيات صارت عهنا

---

(1) تفسير القمي / ج 2 ص 386.
(2) المنجد / مادة مهل بتصرف.
(3) التبيان / ج 10 ص 116.
(4) مجمع البيان / ج 10 ص 353.
(5) الميزان / ج 20 ص 9.

يحرّكها النسـيم! إنّه حينئذ يعـرف صـدق وعد الله ، وتقع من على بصيرته كلّ الحجب .. فيـترك الهـزل والاسـتهزاء الذي قاد الكافرين إلى السؤال عن العذاب واسـتعجاله .. وهل يسـتعجل عاقل أمـرا إرهاصـاته تصـنع هـذا الصـنيع بالطبيعة والوجود من حوله؟!

إن العـذاب الإلهي إذا وقع يـذهل الإنسـان عن كـلّ شـيء ، وتتقطّع به الأسـباب والروابط ، فينسى أقـرب المقـرّبين إليه بحثا عن الخلاص ، فلا يجد فرصة حـتى للسؤال عنهم.

(**وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً**)

والحميم هو الأقرب للإنسان ، وعدم سؤاله عنه دليل على شـدّة الموقف ، وذلك أنّ نفس الإنسـان أقـرب إليه من كـلّ أحد .. وحيث يهتم بها يغفل عن سـواها ولو كـان أقرب المقربين كالولد والصـاحبة. وفي الروايـات أنّ الأم يوم القيامة توزن أعمالها فتنقصها الحسنة الواحـدة حـتى تـدخل الجنة أو تصـير إلى النـار ، فتـذهب إلى ولـدها تستعطفه وتطلب منه التنازل لها عن حسـنة من حسـناته فلا يقبل. وقد جاء في الدعاء (بعد صـلاة الليـل): «**يا من لم أزل أتعرّف منه الحسـنى ، يا من يغـذّيني بـالنعم صباحا ومساء ، ارحمني يوم آتيك فردا شاخصا إليك بصري ، مقلّـدا عملي ، قد تـبرأ جميع الخلق مـني ، نعم. وأبي وأمي ومن كان له كدّي وسعيي**» [1].

ومن أهمّ ما يقع يومئذ هو رفع الحجب عن المجرمين حتى يروا الحقائق التي عميت عنها أبصارهم وقلوبهم في الدنيا ، كما يرون أيضا أقرباءهم الذين يتهرّبون منهم.

---

(1) مفاتيح الجنان / دعاء صلاة الليل.

(**يُبَصَّرُونَهُمْ**)

قيل : يرون الملائكة والروح الذين يعرجون إلى الله ، وقيل : أئمة الهـدى والحق ، وقيل : الأحمـاء ، لبيـان أنّ عدم سؤالهم عنهم يومئذ ليس لعدم رؤيتهم إيّـاهم ، وإنما لانشغال نفوسهم وأفكارهم ، وإلى ذلك ذهب الزمخشري والرازي وصاحب الميزان ، وهذا أقرب إلى السياق. وبني الفعل للمجهـول لأنّ المجـرمين يحشـرون عميانا أعينهم وقلـوبهم كما كـانوا في الـدنيا عميانا لا يـرون الحقـائق ، وإنّما يبصرهم الله أو ملائكته بأمره .. وهناك تبلغ نـدامتهم ذروتها لما يرون من واقع العذاب الذي كـذّبوا واسـتهزءوا به في الدنيا إلى درجة العتوّ والتحدي.

(**يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ**)

وهم أقرب الناس إليه ، وأعزّهم لديه.

(**وَصاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ**)

في الدرجة الثانية.

(**وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ**)

قيل : هي العشـــيرة والقبيلة ، وقيل : هي المنقطعة عن جملة القبيلة برجوعها إلى أبـوّة خاصة ، في التبيـان والمجمع والميزان ، وزاد المجمع والكشّاف : أي عشيرته التي تؤويه في الشدائد وتضمّه ، ويأوي إليها في النسب.

(**وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ**)

أمّا المؤمنون فإنّهم على العكس يسألون عن بعضهم ، ويسعون في خلاص

بعضـهم البعض بالشـفاعة والسـؤال من الله ، وقلـوبهم مطمئنة إلى ربّ الأربـاب لأنّهم لم يتورّطـوا في الجـرائم حتى يهولهم الأمر .. إلّا خشية الإيمان.

بلى. إنّهم آمنوا بوعد الله ، فسعوا لخلاص أنفسـهم ، أمّا المجرمون الذين كفروا ، وتمـادوا في الجريمة بسـبب الكفر بالآخرة والجزاء ، فـإنّهم يجـدون أنفسـهم بين يـدي عذاب شديد.

(**كَلَّا إِنَّها لَظى**)

و «لظى» اسم من أسماء جهنم ، وهي النـار شـديدة التوقد ، وقـال في المجمع : هي الدركة الثانية من النـار ، وقـال الـرازي : اللهب الخـالص ، يقـال : لظّت النـار ، وتلظّت تلظّيا ، والمعنى أنّه لا مصـير للمجـرمين إلّا جهنم والعذاب ، ولا مفرّ لهم .. تشويهم حرقا ، وتنزع ما ينشوي منهم نزعا.

(**نَزَّاعَةً لِلشَّوى**)

قيل : الشـوى فـروة الـرأس ، وقيل : محاسن الوجه وعموم الجلـد. وقـال صـاحب التبيـان : ومعـنى «نزّاعـة» كثيرة الـنزع ، وهو اقتلاع عن شـدة ، والاقتلاع أخذ بشـدّة اعتماد [1] ، وفي المجمع : تنزع الأطـراف فلا تـترك لحما ولا جلدا إلّا أحرقته ، وقيل : تنزع الجلد واللحم عن العظم [2]. ولعلّ الشوى هو عموم ما يعدّ للشواء بالنـار ، فيكـون المعـنى أنّ لظى تجـذب المجـرمين وتـنزعهم نزعا (وهم شواؤها) فتحرقهم.

(**تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى**)

---

(1) التبيان / ج 10 ص 118.
(2) مجمع البيان / ج 10 ص 356.

أدبر عن الحقّ إلى الباطل ، وتولّى عن طاعة القيادة الربّانية إلى طاعة غيرها ، وإنّ النـــــار لتتطـــــاول على المجـرمين وتجـرّهم إلى قعرها وحريقها مكـرهين ، لأنّهم قد رفضوا دعوة الرسول إلى الإيمان فأدبروا وتولّوا.

(**وَجَمَعَ**)

حطام الدنيا وأموالها حلالا وحراما.

(**فَأَوْعى**)

وقد قـال المفســرون أنّ المعـنى : جمع المـال ولم يخرج حـقّ الله ، فكأنّه جعله في وعـاء على منع للحقـوق منه ، وقـــال العلّامة الطبرسي : جمعه من باطل ، ومنعه عن الحق [1].

---

(1) المصدر / ص 356.

إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذا مَسَّهُ الشَّـرُّ جَزُوعـاً (20) وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلى صَـــلاتِهِمْ دائِمُـــونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُـومٌ (24) لِلسَّـائِلِ وَالْمَحْـرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَـدِّقُونَ بِيَـوْمِ الـدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَـذابِ رَبِّهِمْ مُشْـفِقُونَ (27) إِنَّ عَـذابَ رَبِّهِمْ غَيْـرُ مَـأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُـرُوجِهِمْ حـافِظُونَ (29) إِلاَّ عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمـانُهُمْ فَـإِنَّهُمْ غَيْـرُ مَلُـــومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِـــكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُـونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَـــهاداتِهِمْ قـــائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ

---

19 [هلوعا] : شديد الحرص ، شديد الجـزع .. وقيل : الهلع هو الخـوف وقلق القلب.

(34) أُولئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُـــونَ (35) فَما لِ الَّذِينَ كَفَـــــرُوا قِبَلَـــــكَ مُهْطِعِينَ (36) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّـمالِ عِـزِينَ (37) أَيَطْمَـعُ كُـلُّ امْـرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (38) كَلاَّ إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (39) فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ (40) عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَما نَحْنُ بِمَسْـبُوقِينَ (41) فَـذَرْهُمْ يَخُوضُـوا وَيَلْعَبُـوا حَتَّى يُلاقُـوا يَـوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَـــدُونَ (42) يَـــوْمَ يَخْرُجُـــونَ مِنَ الْأَجْـــداثِ سِـــراعاً كَـأَنَّهُمْ إِلى نُصُـــبٍ يُوفِضُـــونَ (43) خاشِـعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ (44))

---

36 [مهطعين] : المهطع : المقبل ببصره على الشـيء لا يزايله ، وقيل : الإهطاع الإسراع.

37 [عزين] : أي جماعـات متفـرّقين ، عصـبة عصـبة وجماعة جماعـة. وجـاء في المفـردات : أصـله من عزوته فـاعتزى أي نسـبته فانتسب فكـأنّهم الجماعة المنتسب بعضـهم إلى بعض إمّا في الـولادة أو في المظاهرة ، وقيل : عـزين من عـزا عـزاء فهو عز إذا تصـبّر وتعـزّى أي تصبّر وتأسّى فكأنّها اسم للجماعة التي يتأسّى بعضهم ببعض.

43 [الأجداث] : القبور.

الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ

هدى من الآيات :

نستوحي من القرآن أنّ الشخصية البشرية نوعان :

الأول : الشخصــية المتقلّبة الــتي تتــأثّر بــالظروف المحيطة ، وتنعكس عليها كــلّ الظــواهر ، لا فــرق بين ما يسرّو ما يحزن ، أو بين الخير والشر. وهذه طبيعة السواد الأعظم من الناس.

الثانية : الشخصـية المسـتقرة الـتي تصـوغها الصـلاة (والصــلة الوثيقة بــربّ الكائنــات) ويســتمدّ أصــحابها استقامتهم في الحيـاة من الإيمـان بـربّ العـالمين ، الأمر الذي يجعلهم يتسامون على المؤثرات الســلبية ، ذلك لأنّ الصلاة في بصائر القرآن ليست الركـوع والسـجود فقط ، بل هي منهج شامل يستوعب كلّ بعد من حياة الإنســان ، وهكذا ترى المصلّي هو المنفق في سبيل الله ، والمصدّق بــالآخرة ، والخــائف من عــذاب ربه ، والحافظ لفرجه ، والراعي لعهده وأماناته ، والقائم بالشهادة

الحـقّ على نفسه وفي المجتمع ، وبالتـالي المحافظ على صـلاته (أوقاتها ومظاهرها وجوهرهـا) ، وبهـذه الصـورة ينبغي أن نعي الصلاة ، ونعـرف المصلّين ، ونسـعى لكي نكون منهم.

إنّ الصـــلاة الحقيقية ثمن الجنة والكرامة عند الله ، لأنّها كما بيّنت الآيـات مجمع كـلّ صـفة حسـنة ، وسـعي صـــالح. ومن أراد الجنة والكرامة فإنّها شـــرطهما ، أمّا التمنّيات التي تفرغ حياة الإنسان من أيّ سعي وفضـيلة ، وتسـوقه إلى الخـوض واللعب ـ غفلة عن الآخـرة ـ فإنّها تجعل أصـحابها خاشـعة أبصـارهم ، تـرهقهم ذلّة في يـوم القيامة!

بينات من الآيات :

[19 ـ 21] لأنّ القــرآن رســالة الله وعهـــده إلى الإنسـان فإنّه أودع تبيانا لكـلّ شـيء حـتى لا تكـون لأحد حجة على ربه في الإدبـــار عنه إلى غـــيره من الســبل والمناهج ، ففيه يقرأ الإنسـان سـنن الخـالق في الحيـاة ، ويقـــرأ الخـــير والشر ، والحق والباطل ، والجنة والنـــار ، والدنيا والآخرة ..

ومن أبرز ما في القرآن تعريف الإنسان بنفسه ، ذلك أنّ الإنسـان قد خلق جهـولا ، يجهل أقـرب الأشـياء إليه (وهي نفســه) وفي ذلك خطر عظيم عليه ، فقد يـدعوه الجهل بـــالنفس إلى الشـــرك بالله ، وقد يـــدعوه إلى ممارسة الأخطـاء الفظيعة في قيادتها وتربيتها .. ومن هنا وجد توجّها أساسـيّا في القـرآن اختص بمعالجة موضـوع الذات الإنسانية ، وبيان أهمّ صفاتها وطبائعها ، كما الآيـات التالية من هذه السورة.

(**إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً**)

قيل الهلع شدّة الحرص ، وقلّة الصبر ، وقيل : الهلوع الضـجور [1] ، وفي البصـائر : أي البخل والحـرص ، أو الخوف وقلق القلب ، واضطرابه من كـلّ صـوت وحـدوث أمر [2] ، والذي يبدو أنّ أصل الهلع هو الخـوف ، فـالهلوع يخـاف عند الشر فيجـزع ، ويخـاف عند الخـير من نفـاذه وانتقاله إلى غيره من يديه فيمنع ، وهي الصفة التي تفقد الإنسان توازنه وثباته أمام الظـروف والعوامل والحـوادث المحيطة.

ويبقى بيان القرآن لمعـنى الهلع أجلى وأبلغ من بيـان كلّ مفسّر وأديب حيث يقول تعالى :

(**إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً**)

فإذا به يصبح طعمة لحالات الخـوف النفسـية ، فيفقد توازنه النفسي والفكـري والسـلوكي ، إلى حـدّ الهزيمة واليـأس. و «الشـر» الـذي تقصـده الآية شـامل لكـلّ الحـوادث السـلبية معنوية ومادية ، فالخسـارة الاقتصـادية شر ، وفقدان الأحبة شر ، والمرض شر ، و.. و..

ولو أنّنا حقّقنا في حوادث الانتحار والحـالات النفسـية في العـالم فسـنجد أنّ معظمها عائـدة إلى صـفة الهلع (الجـزع) عند الإنسـان. ويقـول الله «مسّـه» لأنّ المس أدنى ما يصيب الإنسان من الشر أو الخير.

(**وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً**)

والسـبب حبّه المفـرط لذاته ، وشح النفس الـذي يجعله يريد الخير لنفسه فقط ،

---

(1) التفسير الكبير / ج 30 ـ ص 612.
(2) تفسير البصائر / ج 49 ـ ص 120.

(**وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ**) [1] وحــقّ ما جـاء في الرواية : «ما فتح الله على عبد بابا من أمر الـــــــدنيا إلا وفتح الله عليه من الحرص مثله» [2] ، وفي الآية بصيرتان :

الأولى : إنّ المتتبع لكلمة الإنســـان في اســـتخدام القرآن يجدها ترد دائما عند الحديث عن الصفات السـلبية فيه ، قال تعـالى : (**وَخُلِقَ الْإِنْسـانُ ضَـعِيفاً**) [3] (**وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَـةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْـهُ إِنَّهُ لَيَـؤُسٌ كَفُـورٌ**) [4] (**إِنَّ الْإِنْســانَ لَظَلُــومٌ كَفَّارٌ**) [5] (**وَكـانَ الْإِنْسانُ عَجُولاً**) [6] (**وَكانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً**) [7] (**وَحَمَلَهَا الْإِنْسـانُ إِنَّهُ كـانَ ظَلُومـاً جَهُـولاً**) [8] .. وهكــذا تــرد الكلمة عند الحــديث عن الصــفات الذاتية للإنسان.

الثانية : إنّ المفســرين اختلفــوا في معــنى الخلق ، وجرى بينهم بحث كلامي وفلسفي حـول صـفة الهلع كيف خلقها الله وهي ذميمة أم هي صـفة يوجـدها الإنسـان في شخصــيته بنفســه؟ فصـاحب التبيـان أكّد كونها من فعله تعـالى فقـال : وإنّما جـاز أن يخلق الإنســان على هــذه الصـفة المذمومة لأنّها تجـري مجـرى خلق شـهوة القـبيح ليجتنب المشـــــــتهى ، لأنّ المحنة في التكليف لا تتم إلّا بمنازعة النفس إلى القــبيح ليجتنب على وجه الطاعة لله تعـــالى ، كما لا يتم إلّا بتعريف الحسن من القـــبيح في العقل ليجتنب

---

(1) العاديات / 8.
(2) أصول الكافي / ج 2 ـ ص 319.
(3) النساء / 28.
(4) هود / 9.
(5) إبراهيم / 24.
(6) الإسراء / 11.
(7) الكهف / 54.
(8) الأحزاب / 72.

أحدهما ويفعل الآخر [1].

وفي التفسير الكبير : قال القاضي قوله تعالى : «الآية» نظير لقوله (**خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ**) وليس المراد أنّه مخلوق على هذا الوصف ، والدليل عليه أنّ تعالى ذمّه عليه ، والله تعالى لا يذم فعله ، ولأنّه تعالى استثنى المؤمنين الذين جاهدوا أنفسهم في ترك هذه الخصلة المذمومة ، ولو كانت هذه الخصلة ضرورية حاصلة بخلق الله تعالى لما قدروا على تركها [2] ، وعلّق الفخر الرازي مفصّلا بأنّ الهلع واقع على أمرين : أحدهما نفسي باطن ، والآخر فعلي ظاهر ، وهو يدل على ما خفي .. وقال : أمّا تلك الحالة النفسانية فلا شك أنّها تحدث بخلق الله تعالى ، فهي مخلوقة على سبيل الاضطرار (والجبر) ، والأفعال الظاهرة من القول والفعل يمكنه تركها والإقدام عليها ، فهي أمور اختيارية [3].

والظاهر أنّ صفة الهلع صفة ذاتية مركوزة في الطبائع الأولية للإنسان ، وإنّما يبيّنها الله ويذمّها لكي يعرّفنا بها ويحذّرنا منها فنجتنبها ، وليس في ذلك شيء من الجبر لأنّ الله سبحانه قد خلق الإنسان في أحسن تقويم إلّا أنّ ذاته المرتكزة في الجهل والجهالة والضعف والعجلة وما أشبه لم تتغيّر. أرأيت الذي يشعل شمعة في الليل فتضيء ما حولها يحمد عليها ولا يذمّ على الظلام المحيط لأنّه ليس من صنعه ، وهكذا تركّب الإنسان من صنفين : النور (من الله) والظلام (من نفسه) ، قال ربنا سبحانه : (**ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ**) [4] ، وسائر ما في الإنسان من جوانب القوة والضعف والخير والشر فإنّما هي ظلال لهذين

(1) التبيان / ج 10 ـ ص 121.
(2) التفسير الكبير / ج 30 ـ ص 128 ـ 129.
(3) المصدر / 129 بتصرف.
(4) النساء / 79.

الصـنفين ، إلّا أنّ على الإنسـان أن يسـعى جاهـدا للتغلّب على الظلام وظلاله في نفسه ، وتنمية النور ، وإشـعاعاته ، والهلع واحد من ظلال الظلام الذي يجب أن يتغلّب عليه بسعيه وعزم إرادته.

والله تعالى عرّف البشر كـوامن نفسه شـرها وخيرها ، وأعطـاه إرادة الإختيـار الـتي يتجـاوز بها صـفات السـوء وطبائعه إن شــــــاء أو يسترسل معها ، ورسم له المنهج الـذي يسـلم بتطبيقه منهـا. فما هو المنهج القـرآني لعلاج صفة الهلع عند الإنسان؟

أولا : حضور الآخرة في وعيه نفسيّا وفكريّا ، فإنّ من يتذكر أهوالها ومشـاهدها لا يجزعه من الـدنيا شر بـالغ ما بلغ ، لأنّه يكون أبدا مشغولا عنه بذلك الشـرّ المسـتطير ، بل تراه يعيش السـكينة والاطمئنـان كـالمؤمنين : (**الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُـونَ**) ، كما لا يبطره خير فيمنع خشية العذاب وطمعا في الثـواب .. ولعل هــذه الفكــرة تفسر لنا العلاقة بين الحــديث عن مشاهد القيامة (الآيات 8) وبين الحديث عن الإنسان (19 ـ 21). والمستقرئ للآيات القرآنية يجد أنّ الوحي ما يكـاد يحــدّثنا عن صــفات الإنســان الســلبية إلّا ويمهّد لــذلك بالحــديث عن الآخــرة ، أو يلحقه بالتــذكير بها ، لأنّه علاج ناجح لها.

[22 ـ 35] ثانيا : الصـلاة الـتي هي معـراج المؤمـنين إلى الفضيلة ، ووسيلتهم للتزكية والتربية الذاتية. أوليست هي الوسيلة الـتي دعانا الله أن نبتغيها إليـه؟ أوليست هي حبل الله وسـفينة نجـاة الإنســان من الباطل والشــر؟ .. بلى. ولكن يجب أن نفهم الصــلاة ونقيمها بشــروطها كما يبيّنها القرآن حتى نخلص من صـفة الهلع وسـائر الصـفات السيئة ، ونعرج بأنفسنا روحيّا وسلوكيّا إلى آفـاق الكمـال والفضيلة ، فإنّ الإنسان كإنسان متورّط في الهلع.

(**إِلَّا الْمُصَلِّينَ**)

الـــذين عرفـــوا الصـــلاة على حقيقتها فأقاموها في حياتهم .. عرفوا الصلاة بأنّها الاتصال الدائم بلا انقطاع مع الله ، والكـــون في طاعته كـــلّ ســاعة ولحظة .. عرفـــوا الصـــلاة برنامجا متكـــاملا يتصل بكـــلّ شـــؤون الحيـــاة ومفرداتها الخاصة والعامة ، الفردية والاجتماعية والتربوية والاقتصادية والأخلاقية والقضائية و.. و.. ، لا صلاة القشور المحصورة في الركوع والسجود وبعض المظاهر. فما هي الصلاة الحقيقية في مفهوم القرآن؟!

إنّ القـــرآن لا يفصّـــل لنا في كيفية الصـــلاة ولا عـــدد ركعاتها وســـجداتها ، وإنّما يعرفنا الصـــلاة الربّانية ببيـــان صفات المصلّين الواقعيين عند الله ، وهي :

الأولى : الدوام على الصلاة.

(**الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ**)

قـال الزمخشـري : يواظبـون على أدائها ، ولا يخلّـون بها ، ولا يشغلون عنها بشيء من الشواغل [1] ، وفي الدر المنثور عن ابن مسـعود قـال : على مراقبتها ، وعن عقبة بن عـامر قـال : الـذين إذا صـلّوا لم يلتفتـوا عن يمين ولا شمال [2] ، وكلّ ذلك صـحيح ، إلّا أنّ الآية جـاءت لتعطي البعد الأشمل والأصح للصلاة كما يراها الإسلام ويلـتزم بها المصـلّون الحقيقيّـون ، وهي الصـلاة الدائمة الـتي تـورث الصلة المستمرة مع ربّ الكائنات في القيام والقعـود في آناء الليل وأطراف النهار.

إنّ البعض فهم الصـــلاة فهما خاطئا على أنّها مجـــرد عدد من الركعات والأذكـار الـتي يؤدّيها المسـلم في وقت مخصوص ، وقطعوها ـ وهي عمود الدين ـ عن الاتصال

______

(1) الكشاف / ج 4 ـ ص 612.

(2) الدر المنثور / ص 266.

بمفردات الحياة وسلوك المصلّي. أمّا الصلاة التي يريـدها الإسـلام فإنّها الصـلة الدائمة بين العبد وربه ، وما العبـادة المتعارفة إلّا رمز ومظهر لـــذلك الجـــوهر .. فالمصـــلي الحقيقي لا يعيش الحياة مجـزّأة ، ولا يحـدّ الصـلاة بـوقت معين ، إنّما يعتبرها موصولة بكـلّ مفـردة في حياته ، وأنّه لو خالف قيمها وأهـدافها في واحـدة منها فإنّها لا تعـدّ في نظره مقبولة ، فلا يغشّ النـاس عند المعاملة ، ولا يكـذب في كلامه ، ويبخسهم أشياءهم ، ولا يغتاب ، ولا يتهم ، ولا يركن للظـالمين ، ولا .. و.. ، لأنّ كـلّ ذلك يسـلب صـلاته روحها ومعناها وثوابها .. فالصـــلاة لا بد أن تنهى عن كـــلّ فاحشة فردية أو اجتماعية ، ولا بد أن تقطع المســـلم عن كلّ أحد غير الله فيعيش مستقلا حتى تسمّى صلاة.

إنّ الذي يصلّي ثم يحيد عن أهداف الصـلاة في سـائر يومه وحياته لا يمكن أن يطلق عليه مصـــــــلّيا ، لأنّ من شروط المصـلي أن يـدوم على صـلاته بـالتزام مضـامينها وقيمها وأهـــدافها والاســـتقامة عليها طيلة يومه وحياتـــه. وحيث فهم الواعون المخلصـون من الرعيل الأول الصـلاة منهج حيـاة فـداموا عليها أصـبحت إليهم معراجا إلى كـلّ فضيلة وكرامة.

ولقد أوّل أئمة الهـــدى الصـــلاة في الآية بأنّها النوافل (الصلوات المستحبة) ، قال الإمـام البـاقر (ع): «هـذا في النوافل» [1] وقال القمّي : إذا فرض على نفسه شـيئا من النوافل دام عليه [2] ، وهـذه الأخبـار تهـدينا إلى أمـرين : أحــدهما : مــدى حرصــهم على صــلاتهم الواجبة ودوامهم عليها ، فـــإنّ من دام على المســـتحب كــــان أدوم على الواجب ، والآخر : درجة الـتزامهم بالإسـلام ومنهجيته في الحيــاة ، بحيث أنّهم يرفعــون المســتحبات المندوبة إلى مستوى الواجبات أداء والتزاما ، وهذا بدوره يكشف عن

(1) البصائر / ج 49 ـ ص 120.
(2) تفسير القمي / ج 2 ـ ص 316.

مدى حبهم للعبادة.

وقد ذكر الله صــــفة المداومة على الصــــلاة لأنّ المعطيات الحضارية وغيرها كالتغلّب على صـفة الهلع في النفس البشرية لا تتأتّى بصـورة سـريعة منذ أوّل ممارسة للصـــلاة من قبل الإنســـان ، بل لا بد من الـــدوام عليها والاستقامة حتى تعرج بنا إلى تلك المعطيات.

الثانية : الإنفاق في سبيل الله.

وبه يخرج المصلون من سلطان المال والـثروة الـذي يأسر الكثـير من النـاس الـذين أنعم الله عليهم فيمنعـون حقوق الله وحقوق المجتمع ، وإنّها لآية على تحوّل الصلاة إلى برنامج عملي في حيـاتهم. أو ليس هـدفها أن يتمحّض الإنسان في الخلـوص لله ، ويتنـازل عن كـلّ شـيء حـتى ذاته من أجل الحق؟ بلى. فلما ذا يبخلون بالمال؟

إنّ المصـلين الحقيقـيين حينما يكـرّرون في صـلاتهم قوله تعالى (**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ**) فإنّهم يعون بعمق أنّ الحمد ليس مجـرد كلمـات وشـعارات يلوكها الواحد بلســانه ، بل هو باللســان المعبّر عن النية الصــادقة والإيمــان المخلص ، وبالعمل من خلال تطــبيق منهجية الحمد في واقع الحيـاة ، ومنها إنفـاق نعم الله في سـبيله شكرا له وتعبّدا.

إنّهم قد اتصلوا بالله وعرفوه (ربّ العـالمين) وعلمـوا بـأنّ ما في الوجـود كلّه من عنـده وهو مالكه ، حـتى أنفسهم ، وما الأموال التي عنـدهم إلّا أمانـات اسـتودعهم إيّاها ، فكيف يبخلــون بها ويمنعــون عن أدائها إليه حين يطلبها فيأمرهم بإنفاقها في سبيله؟!

إنّ الامتنـاع عن الإنفـاق في يقينهم لـون من الخيانة للمستأمن ، وهذا ما يدفعهم

إلى الإنفـاق في وجـوه الخـير من جهة ، ومن جهة أخـرى يدفعهم الشعور بالمسؤولية الاجتماعية إلى مـدّ يد العـون لأصـــــحاب الحاجة والعـــــوز تطبيقا لمنهجية التكافل الاجتماعي التي تستهدفها الصلاة.

(**وَالَّذِينَ فِي أَمْــوالِهِمْ حَــقٌّ مَعْلُــومٌ* لِلسَّــائِلِ وَالْمَحْرُومِ**)

والسائل هو الذي يعـرض حاجته على النـاس ويسـأل العون مع أنّه قد يكون محتاجا وقد لا يكون كــذلك ، ولكنّ كرامة المصلين وعزتهم تمنعهم أن ينتظروا يدا تمتد إليهم بالسـؤال حـتى يعطـوه مهما كـان المعطى كثـيرا .. فهـذا سـيد الشـهداء وقد طـرق البـاب طـارق يناوله صـرة من النقــود الكثــيرة ، ولا ينظر إليه بل يمــدّ يــده الكريمة من وراء الباب. هكذا قال المجلسي : فسلّم الحسين وقــال : «يا قنبر هل بقي من مال الحجاز شيء» قال : نعم أربعة آلاف دينار ، فقال : «هاتها قد جاء من هو أحقّ بها منّـا» ، ثم نزع برديه ولفّ الدنانير فيها وأخرج يده من شقّ الباب حياء من الأعرابي وأنشأ :

خــذها فــإني إليك معتــذر	واعلم بـــــــأني عليك ذو شـــــــــــفقة
لو كان في سـيرنا الغـداة عصا	أمست ســــــمانا عليك مندفقة
لكنّ ريب الزمـان ذو غـير	والكـفّ مـني قليلة النفقة

قــال : فأخــذها الأعــرابي وبكا ، فقــال له : «**لعلك اســتقللت ما أعطينــاك؟**» قــال : لا. ولكن كيف يأكل التراب جودك؟ [1].

أما المحروم فإنّ فرقه عن السائل أمران : أحدهما : وجــود الحاجة الماسة عنــده وكونه مســتحقّا ، والثــاني : حياؤه الذي يمنعه عن السؤال .. هكذا جاء في تفسير

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج 44 ـ ص 190.

الرازي والمجمع والتبيان والميزان والكشّاف : والمحـروم الذي يتعفّف عن السؤال فيحسب غنيّا فيحرم [1] ، وهـذا يدل على أنّ المؤمـنين ينفقـون أمـوالهم على المحتـاجين وهم يشـعرون بـأنّهم هم أهل الحاجة إلى الإنفـاق .. فلا ينتظرون السائل يسألهم ، بل يعطوه للسائلين ، ويبحثون بأنفسـهم عن المحتـاجين لينفقـوا عليهم لوجه الله ، ولقد جـاء في التـاريخ : أنّ الإمـام زين العابـدين (ع) استشـهد وفي كتفه أثر الجـراب الـذي كـان يمـرّ به ليلا على بيـوت الفقراء والمحتاجين وقد ملأه تمرا وخبزا.

والظـاهر من الروايـات أنّ الإنفـاق الـذي تعنيه الآية ليس الواجب المفروض في الشريعة بقـدر ما هو الإنفـاق المندوب الذي يبادر إليه المصلون أنفسهم قربة لله تعالى ، قـال الإمـام الصـادق (ع): «إنّ الله عـزّ وجـلّ فـرض للفقراء في مال الأغنياء فريضة لا يحمدون بأدائها (أي أنّه ليس فضلا يمـدحون بأدائـه) وهي الزكـاة ، بها حقنـوا دماءهم ، وبها سمّوا مسلمين ، ولكنّ الله عزّ وجلّ فـرض في أموال الأغنيـاء حقوقا غـير الزكـاة ، فقـال عـزّ وجل : (**فِي أَمْوالِهِمْ حَـقٌّ مَعْلُـومٌ**) فـالحق غـير الزكـاة ، وهي شـيء يفرضه الرجل على نفسه في ماله ، يجب عليه أن يفرضه على قدر طاقته وسعة ماله ، فيـؤدي الـذي فرضه على نفسه ، إن شـاء في كـلّ يـوم ، وإن شـاء في كـلّ جمعة ، وإن شـاء في كـلّ شـهر» [2] ، وعنه قـال ـ عليه السلام ـ : «هو الرجل يؤتيه الله الثروة من المال فيخـرج منه الألف والألفين والثلاثة آلاف ، والأقل والأكـثر ، فيصل به رحمه ، ويحتمل به الكلّ عن قومه» [3] ، وهذا المحمل هو الأقرب لأن الإنفاق المستحب أدلّ على رسوخ الإيمان من الواجب.

وحيث يبـادر المصـلّون إلى هـذا النـوع من الإنفـاق فإنّهم لا يعتبرون أنفسهم

---

(1) التفسير الكبير / ج 30 ـ ص 130.
(2) البرهان / ج 4 ـ ص 384.
(3) المصدر / ص 385.

متفضلين على من أعطوا ، بل يشعرون في أنفسهم أنّ ذلك «حق» واجب عليهم أداؤه ، ممّا يبعدهم عن الرياء والمنّ والأذى. ثم أنهم من الناحية الاقتصادية متوازنون في إنفاقهم ، فهم لا يسرفون ولا يقترون ، بل يقدمون على مواقف وخطوات مدروسة قائمة على الحسابات الدقيقة .. فإنفاقهم كما يصف «معلوم» مدروس ومخطّط ومحدّد.

الثالثة : التصديق بالآخرة.

(**وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ**)

قال العلّامة الطبرسي : يؤمنون بأنّ يوم الجزاء حق لا يشكّون فيه [1] ، وفي الكشّاف : تصديقا بأعمالهم واستعدادا له [2]. وسمّيت الآخرة «يوم الدين» لأنّها يوم الجزاء وفيها الميزان ، ولأنّ الحاكمية المطلقة فيها لدين الله عزّ وجلّ. وإذا كانت الدنيا صولات وجولات بين الحق والباطل فإنّ الآخرة دولة مطلقة للحق. وتصديق المصلين بذلك اليوم وما فيه من الحقائق تصديقان : تصديق القلب بالإيمان واليقين الراسخ أنّ الآخرة حق واقع ، وتصديق الجوارح بالعمل والسعي الصالح ، الذي يكون مصداقا للإيمان ، ودليلا على صدق مدّعيه. وقد أعطى الإسلام لهذه الكلمة مفهومها الحقيقي الشامل حينما اعتبر كلّ صالحة وحسنة صدقة ، قال رسول الله (ص): «كلّ معروف صدقة إلى غنيّ أو فقير» [3] ، وقال (ص): «**تبسّمك في وجه أخيك صدقة ، وأمرك بالمعروف صدقة ، ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل في دلو أخيك صدقة**» [4]

---

(1) مجمع البيان / ج 10 ـ ص 356.

(2) الكشاف / ج 4 ـ ص 612.

(3) موسوعة بحار الأنوار / ج 96 ـ ص 122.

(4) كنز العمال / ج 5 ـ ص 163.

ونهتدي من قوله : (**يُصَدِّقُونَ بِيَـوْمِ الـدِّينِ**) إلى أنّ أعمالهم الصالحة مصـداق إيمـانهم بـالآخرة ، فلا يعملـون رياء أو سمعة ، أو أشرا أو بطرا ، أو اسـتعلاء في الأرض. كما نستوحي من ذلك أنّ يـوم الـدين هو العامل الرئيسي الذي به يصدّقون ويندفعون إلى الأعمـال الصـالحة. أتـرى لو كفر أحد بـالجزاء مـاذا يدفعه إلى التصـدّق والإنفـاق والتضحيات؟ لا شيء ، ولهذا فإنّ توقّف مسيرة الإحسـان والعطاء عند الكفرة سببه كفرهم بالآخرة.

وحيث إعتبر القرآن التصديق بـالآخرة صـفة أساسـية عند المصـلّين حقّا فلأنّهم عند ما يقومـون إلى الصـلاة يعيشـون بـوعيهم الإيمـاني ظـواهر الآخـرة وأحـداثها الفظيعة. وما هي قيمة الصلاة إذا لم يكن المصلي حاضرا بروحه وبصيرته في الآخرة عند أدائها؟

وإيمـانهم بـالآخرة له دور أساسي وكبـير في حيـاتهم إيمانا وتفكيرا وعملا ، فهو مقياسهم في القضايا المختلفة ، فلا يقربـون الـذنوب خشـية الخـزي والعـذاب يومئذ ، ويسـتزيدون من عمل الصـالحات طمعا في الفـوز بالجنة ورضـوان الله ، ولا يجزعـون عند البأسـاء والضـراء لأنّ الشر الحقيقي ليس الفقر ولا فقـدان الأحبة ولا المـرض إنّما هو عذاب الله وسخطه ، ولا يمنعون عند الخير بـرّهم عن أحد طمعا في الخير العظيم عند لقاء اللـه. وبعبـارة : إنّ الإنسـان لا يمكن له الثبـات ، بل يبقى هلعا متقلّب الشخصـية حـتى يـؤمن بـالآخرة ، لأنّ ذلك وحـده الـذي يعطيه الاطمئنان إذ يشبع تطلّعاته الفطرية ، ويشعره بأنّه يسير نحو مستقبل أفضل وأنبل.

الرابعة : الخوف من عذاب الله.

(**وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ**)

في التبيان : الإشفاق رقّة القلب عن تحمّل ما يخـاف من الأمر ، فإذا قسى قلب

الإنسان بطل الإشفاق ، وقيل : من أشفق من عذاب الله لم يتعـدّ له حـدا ولم يضـيع له قرضا [1] ، وخـوفهم في الحقيقة ليس من شـدة العـذاب بقـدر ما هو خـوف من سخط الله ، لأنّ فراق رضـوان الله أعمق وأشـدّ ألما من ألسنة النيران.

إنّ المصلين الحقيقيين يفترضون أنفسهم في النـار ، وينطلقون من ذلك بالجدّ والاجتهاد والسعي الحثيث لإنقاذ أنفسهم منها ، وإنّما لا يفترضـون أنفسـهم في الجنة لكي لا يستبدّ بهم الغـرور فـيركنون إلى الراحة والدّعة ، ولكي لا يعيشـوا في ظـلّ خرافة الشـرك أو أمنية الشـفاعة المحتومة على الله تعـالى سـبحانه أو حلم الأعمـال الصالحة التي لا يعرفون مدى قبولها من عند الله ، فهم لا يعطون لها الأمـان بالاعتقـاد الخـاطئ أنّ الله لا يعـذّبهم ، ولا بالاتكـال اغـترارا على أعمـالهم ، ولا بـالفهم السـيء للشفاعة.

(**إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ**)

وتأكيد هـذه الحقيقة من قبل الله يـأتي في سـياق المنهج التربوي للقرآن ، فإنّ من لا يأمن العذاب لا يسمح لنفسه بالغفلة ، وضـياع الفرصة ، كما أنّه يتحـرك في بعدين : بعد اجتناب الذنوب التي جزاؤها العذاب ، والثاني : بعد العمل الصـالح الـذي يقـرّب العبد إلى الله ، وينجيه من غضبه ، ويقرّبه من الأمان الحقيقي من عذابه.

إنّ الـذي يـأمن مكر الله وعذابه أو يكفر به ويكـذّب كأولئك الذين بلغ كفرهم بوعد الله حدّ الاستهزاء والتحدي بالسـؤال عن العـذاب ؛ إنّ هـذا الإنسـان لا يتحسس المسـؤولية ، ومن ثمّ يخـوض ويلعب ، وقد يعتمد على التمنّيات فيودّ لو يفتدي

(1) التبيان / ج 10 ـ ص 124.

بــالآخرين وينجو ، أو يطمع أن يــدخل جنة نعيم ، ولكنّها لا تعطي أمانا أبـدا ، قـال شـيخ الطائفة مفسّـرا الآية : قيل يخافون أن لا تقبل حسناتهم ويؤخذون بسيئاتهم [1] ، وفي الكشاف : أي لا ينبغي لأحد وإن بالغ في الطاعة والاجتهاد أن يأمنه ، وينبغي أن يكون مترجّحا بين الخوف والرجـاء [2] ، وقيل : لأنّ المكلّف لا يدري هل أدّى الواجب كما أمر به ، وهل انتهى عن المحظور كما نهي [3].

وكون العذاب غير مأمون لا يعني أنّه تعالى لا يعـدل ، حاشا وهو السـلام المــؤمن ، بل لكــون الإنســان غــير معصوم ، ولكون التمحّض في الحقّ من جانبه صعبا وقليلا أهله ، قال الإمام الصادق (ع): «أتي رسـول الله ــ صلّى الله عليه وآله ــ فقيل له : إنّ سـعد بن معـاذ قد مـات ، فقام رسـول الله (ص) وقـام أصـحابه معه ، فـأمر بغسل سعد وهو قـائم على عضـادة البـاب ، فلمّا أن حنّط وكفّن وحمل على سـريره تبعه رسـول الله (ص) بلا حـذاء ولا رداء ، ثم كان يأخذ يمنة السرير مرة ويسرة السرير مـرة حـتى انتهى به إلى القـبر ، فـنزل رسـول الله (ص) حـتى لحّده وسوّى اللبن عليه ، وجعل يقـول : نـاولوني حجـرا ، نـاولوني ترابا رطبا ؛ يسـدّ به ما بين اللّبن ، فلمّا أن فـرغ وحثا الـتراب عليه وسـوّى قـبره قـال رسـول الله (ص) : «إني لأعلم أنّه سـيبلى ويصل البلى إليه ، ولكنّ الله يحب عبـدا إذا عمل عملا أحكمـه» ، فلمّا أن سـوّى التربة عليه قالت أمّ سعد : يا سعد هنيئا لك الجنة ، فقال رسـول الله (ص) : يا أمّ سعد مه ، لا تجزمي على ربك فإنّ سـعدا قد أصابته ضمّة ، قال : فرجع رسول الله (ص) ورجع النـاس فقالوا له : يا رسول الله لقد رأيناك صنعت على سـعد ما لم تصنعه على أحد ، إنّك تبعت جنازته بلا رداء ولا حـذاء ، فقال (ص) : إنّ الملائكة كانت بلا رداء ولا حـذاء فتأسـيت بها ، قـالوا : وكنت تأخذ يمنة السـرير مـرّة ، ويسـرة السرير

---

(1) المصدر.
(2) الكشاف / ج 4 ـ ص 613.
(3) الميزان / ج 20 ص 20.

مـرّة ، قـال : كـانت يـدي في يد جبرئيل آخذ حيث يأخذ ، قـالوا : أمـرت بغسـله وصـلّيت على جنازته ولحّدته في قـبره ثم قلت إنّ سـعدا قد أصـابته ضـمّة؟! قـال : فقـال (ص) : نعم. إنّه كان في خلقه مع أهله سوء»[1].

الخامسة : العفّة الجنسية.

إنّ ممّا يبعد المصلّين عن صـفة الهلع هو سـيطرتهم التامّة على شـهواتهم ، فبينما تسـيّر الآخـرين غرائـزهم وأهواؤهم تجد المؤمنين يوجّهونها على أسـاس القيم كيفا ومقدارا ، مما يعطيهم الثبات في شخصيتهم.

(**وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ**)

ويفسّـر علاقة هـذه الآية بـالآيتين السـابقتين عن الخشية من العذاب حديث أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ : «من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشـهوات ، ومن أشـفق من النـار اجتنب المحرّمـات» ، وهـذا يؤكّد العلاقة بين عقائد الإنسان المـؤمن وسلوكه ، وأنّ المصلي بحـقّ هو الذي يترجم القيم الإيمانية إلى حقـائق واقعية في حياته ، فالتصديق بيوم الدين والإشـفاق من العـذاب ليس مجـرد أقوال على ألسـنتهم أو أفكـار في أذهـانهم ، بل هي واقع ملموس في شخصياتهم.

وبالتدبر في معاني الآية الكريمة نهتـدي إلى الحقـائق التالية :

ألف : إنّها باسـتثناء (**أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ**) شـاملة للـزوجين الرجل والمـرأة ، فـإنّ المـرأة كالرجل مكلّفة بصـيانة نفسـها جنسـيّا إلّا على زوجها ، وأن لا تبحث عن طرق ملتوية لإشباع غريزتها الجنسية.

---

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج 6 ـ ص 220.

بــاء : إنّ حفظ الفــرج يبــدأ من طهــارة القلب بعفّة الإيمان وعفّة النظر عمّا حرّم الله ، وهكذا سائر الجــوارح كالســمع واللمس ، فـإنّ فـرج الإنســان لا يـزال محفوظا حــتى تــدخل قلبه أفكــار الشــيطان ، أو يزيغ نظــره إلى الحرام ، وكذا سمعه وجلده.

جيم : إنّ التعبــير جــاء بــالجمع «فــروجهم» وليس بالمفرد ، وذلك يهـدينا إلى أنّ من حفظ فرجه فإنّه يحفظ فـــروج عرضه ومن يتعلّق به كســـنّة اجتماعية طبيعية ، وهكذا من يقتحم به الفواحش فإنّما يجعل فروجه ـ زوجته وأخواته وإخوانه وعقبه ـــ عرضة للتــورّط في الفاحشة ، فقد أوحى الله إلى موسى (ع) : «يا موســـــى! من زنى زني به ، ولو في العقب من بعـده» [1] «يا موسـى! عـفّ يعفّ أهلك» [2] ، «يا ابن عمـران! كما تـدين تـدان» [3] ، وفي حديث آخر : «لمّا أقام العالم (الخضر عليه الســلام) الجدار (لليتيمين) أوحى الله إلى موسى (ع) : إنّي مجازي الأبناء بسعي الآبـاء ، إن خـيرا فخـير ، وإن شـرا فشر ، لا تزنوا فتزني نساؤكم ، وإنّ من وطئ فراش أمري مســلم وطئ فراشه. كما تدين تدان» [4].

دال : وإذا نظرنا إلى الآية بتفكّر أمكننا توسـيع معـنى الفروج ليشمل كلّ فرجة يساهم بها الإنسان في ممارسة الجنس ، كـــالفم والأذن والعين وفتحـــات الشم ، وإنّ المصــلين يعفّــون بها عن ممارسة الحــرام ، فلا يقبّلــون بشفاههم غـير أزواجهم ، ولا يتلفظـون بها كلمـات الغـرام والغـزل ، كما أنّهم لا يسـتمعون بـآذانهم أحـاديث الهيـام وكلمـــات الحبّ ، ويصـــونون أعينهم عن النظر إلّا إلى محاسن الأزواج وزينتهنّ ، بل ويحفظــون مشــامّهم قــدر المستطاع عن الاستلذاذ بالحرام!

---

(1) كلمة الله للشهيد الشيرازي / ص 191.
(2) المصدر.
(3) المصدر.
(4) المصدر / ص 193.

هاء : ولعلّنا نقرأ في بطون الآية الكريمة أنّ المصلين يحسـنون إدارة عـوائلهم في كـلّ الأبعـاد ومنها الجنس ، بحيث تتصل الفروج المتعلّقة بهم إلى حدّ الإشـباع جنسـيّا وعاطفيّا ، مما يحفظها عن التفكـــير في ممارسة الجنس الحرام خـارج إطـار العلاقة الزوجية ، هـذا ما يسـتفاد من السياق وبالذات من قوله سبحانه في خاتمة الآية (**فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ**) كما يأتي تفسيره.

وإنّ الدراسات العلمية في جنس الاجتماع لتؤكّد على أنّ أغلب الانحرافـات في هـذا الجـانب ـ وبالتـالي فشل الأزواج في حفظ أزواجهم وحصر علاقاتهم الجنسية بهم ـ مبتنية على سوء إدارتهم للعائلة.

إنّ الإسلام دين الفطرة ، ومعنى ذلك أنّه ينسـجم مع طبيعة الإنســان ، والغريــزة الجنســية غريــزة طبيعية ، والإســلام لا يحاربها ، ولكنّه يفــرض عليه منهجا ســليما ، فهو من جهة يحــرّم ممارسة الجنس الحــرام ، ومن جهة أخـــرى يفتح المجـــال فيما يخصّ الزوجـــات وما ملكت اليمين.

(**إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ**)

وإذا عرفنا أنّ الزوجة تتعـدّد في الإسـلام إلى أربعة ، كما أنّها تشـــمل الدائمة والمؤقّتة ، فـــإنّ مصـــادر التمتّع بـالغريزة الجنسـية تكـون متنوّعة ، خصوصا عند ما كـانت الظروف مواتية لملك اليمين في ظلّ نظام الرّقّيّة الشائع في القديم.

(**فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ**)

لا من قبل الله ولا من قبل الناس.

والغريزة الجنسية أشبه شيء بتيّار ماء عـارم لا يدعه المؤمن يندفع حيث يشاء ،

بل يصنع حوله السدود ، ويحفر القنوات التي تستوعبه وتوجّهه إلى ما فيه الحقّ والصلاح.

(**فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ**)

نتيجة للشذوذ بممارسة الحرام زنا وغيره [1].

(**فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ**)

يقال عدى فلان : اعتدى ، وعدى في مشيه إذا أسرع وتجاوز الحدّ المعروف ، وهو الأصل ، والعادي : الظالم بالتجاوز. قيل : فأولئك الذين تعدّوا حدود الله ، وخرجوا عمّا أباحه لهم [2]. ومن مصاديق «**وَراءَ ذلِكَ**» الاستمناء (العادة السرية) ، فقد سئل الإمام الصادق (ع) عن الخضخضة فقال : «إثم عظيم قد نهى الله عنه في كتابه ، وفاعله كناكح نفسه ، ولو علمت بمن يفعله ما أكلت معه» ، فقال السائل فبيّن لي يا ابن رسول الله من كتاب الله ونهيه؟ فقال : «قول الله : «الآية» وهو ممّا وراء ذلك» [3]

وإنّ من انتصر على هوى النفس ووسواس الشيطان بشأن الشهوة الجنسية فقد أوتي خيرا كثيرا ، قال الإمام الباقر (ع): «**ما عبد الله بشيء أفضل من عفّة بطن وفرج**» [4] ، وهذه الرواية تفسر لنا العلاقة بين العفّة الجنسية وبين كون العفيف من المصلين الحقيقيين عند الله. وكيف يقيم الصلاة من يخبط خبط عشواء في الفواحش وربنا يقول : (**وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ**

---

(1) راجع سورة المؤمنون عند الآية : 6 ـ 7.
(2) مجمع البيان / ج 10 ـ ص 355.
(3) تفسير البصائر / ج 49 ـ ص 123.
(4) المصدر / ص 122.

(**وَالْمُنْكَرِ**)[1]؟ أي أنّ تجنّب الفواحش والمنكـرات شـرط أساسي لإقامة الصلاة بحدودها.

السادسة : رعاية الأمانات والعهد.

(**وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ**)

قال العلّامة الطبرسي : الأمانة ما يؤتمن المـرء عليه مثل الوصايا ، والودائع ، والحكومـات ونحوها[2] ، وقيل : كل نعمة أعطاها الله عبـده من الأعضـاء ، فمن اسـتعمل شـيئا منها في غـير ما أعطـاه الله لأجله وأذن له في اسـتعماله فقد خانه[3]. وإطلاق المعـنى هو الأصح ، فالأمانة كل ما اسـتؤمن عليه الإنسـان ، والعهد كل ما تعاقد عليه وقطع على نفسه الوفـاء بـه. وأظهر مصـاديق الأمانة العقل وما يفرضه من مسئولية اختيار الحق والذي يتجلّى في رسـالات الله ، تلك الأمانة الـتي عرضـها على السموات والأرض فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسـان. كما أنّ أظهر مصـاديق العهد ما أخـذه الله على بـنى آدم أن يوحّـدوه ولا يشـركوا به شـيئا ، والمشـار إليه في قوله تعـالى : (**وَإِذْ أَخَـذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُـورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْـهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِـهِمْ أَلَسْـتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُـوا يَـوْمَ الْقِيامَـةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هـذا غـافِلِينَ**)[4]. وما هي قيمة الصـلاة الـتي لا تردع الإنسان عن خيانة الأمانة والعهد؟ وما هي قيمتها إذا لم تعطه روح الوفاء بهما والرعاية لهما؟!

السابعة : القيام بالشهادة.

---

(1) العنكبوت / 45.
(2) مجمع البيان / ج 10 ـ ص 356.
(3) الميزان / ج 20 ـ ص 21.
(4) الأعراف / 172.

(**وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهاداتِهِمْ قائِمُونَ**)

فلا يكتمون الشهادة ، ولا يشـهدون بالباطل ، لا فـرق عنــدهم أكــانت لهم أم عليهم ، لأنّ المهم هو إقامة الحق وإعلاء كلمته لوجه اللــــه. وبالتـــالي فـــإنّهم لا يتـــأثرون بالضغوط التي تدعوهم للعدول بالشهادة عن الحق.

والشهادة أوسع من أن نحصرها في القضـاء ، بل هي قيام الإنسـان بالشـهادة للحـقّ في كـلّ حقل وبعد ، وذلك بالـدفاع عن الحـقّ قـولا وفعلا ، مما يجعله ميزانا للحق ، وحجة بالغة على المخـالفين له ، كما قـال الله يخـاطب حبيبه : (**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَـلْناكَ شـاهِداً وَمُبَشِّـراً وَنَـذِيراً**) [1] ، وقـال : (**وَكَـذلِكَ جَعَلْنـاكُمْ أُمَّةً وَسَـطاً لِتَكُونُوا شُـهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُـونَ الرَّسُـولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً**) [2].

وبكلمة «قـــائمون» أعطى القـــرآن مفهوما أعمق للشـــهادة ، فهي ليست مجـرّد قـول الحـقّ عند اختلاف النـاس فيه ، بل قد يـرقى إلى خـوض الصـراع الـذي قد ينتهي إلى القتل في سـبيل الله ، وهو قمّة شـهادة المـرء للحق. وبكلمة : إنّ القيام هنا قد يكـون نقيض القعـود في قـول الله : (**وَفَضَّلَ اللـهُ الْمُجاهِـدِينَ عَلَى الْقاعِـدِينَ أَجْراً عَظِيماً**) [3] ، مما يجعل كلّ مـؤمن شـهيدا شـاهدا على عصره ، ويجعل الصلاة رمز شهادته ومعراج شهوده.

الثامنة : المحافظة على الصلاة.

(**وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ**)

---

(1) الأحزاب / 45.
(2) البقرة / 43.
(3) النساء / 95.

بمظهرها وكيفيتها (يعــني الصــلاة المتعارفــة) ، وقد قــدّم الله تلك الصــفات للتأكيد بأنّها الجــوهر والأهم في الصــلاة ، لأنّها المحتــوى والصــلاة إطارها ، وهي القيم والصلاة مقامها ، وهي النـور والصـلاة مشـكاتها ، وينبغي لكـلّ مقبل على الصلاة أن يضعها نصب عينيه قبلها وبعد أدائها ، ويسـعى للالـتزام بها إلى جـانب التزامه بمظـاهر الصــلاة. قــال صــاحب المجمع : أي يحفظــون أوقاتها وأركانها فيؤدّونها بتمامها ، ولا يضــيعون شــيئا منها [1] ، وقــال الــرازي : ومحــافظتهم عليها ترجع إلى الاهتمــام بحالها حتى يؤتى بها على أكمل وجه [2]. ولا يمكن لأحد أن يحفظ صلاته من الفساد حتى يلـتزم بشـروطها فلا يقتحم الفــواحش والمنكــرات ، لأنّها تبطل أجرها ، وتمنع قبــول الله لها من أحد.

ما هو أجر المصــلين الحقيقــيين الــذين تقــدّمت صفاتهم؟ يقول ربّنا :

(**أُولئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ**)

كرامة حقيقية تتمثل في القـــــرب من الله ، وكرامة ظاهرة في نعيم الجنّات ، وفي هذه الآية تسكين لروعتهم من العـذاب ، وتـأمين لهم بأنّه بعيد عنهم. وجـزاؤهم هـذا نقيض جزاء الكـافرين الـذين تخشع أبصـارهم ، وتـرهقهم ذلّة وإهانة.

وفي نهاية سردنا لصفات المصلين في مفهوم القرآن نسجل هاتين الفكرتين :

1 ـ إنّ التعبير يكون صحيحا لو قال الله عند كلّ صفة (الذين) من غير إلحاق للضـمير المنفصل «هم» بـالكلام ، ولكنّه أثبته تعالى لغـرض التأكيد أوّلا ، ولبيـان أنّ صـفاتهم ليست عرضــيّة ، بل هي ســجايا وملكــات دافعهم إليها مرتكز في أنفسهم ،

(1) مجمع البيان / ج 10 ـ ص 357.
(2) التفسير الكبير / ج 30 ـ ص 129.

لا اتباعا لهوى أحد أو استرسالا مع ظرف محدّد.

2 ـ إنّ بيان تعريف المصلين بهذه الصفات يعطينا مقياسا لتقييم أنفسنا ، وميزانا لمعرفة الناس من حولنا ، فما أكثر من يصلي ولكنه لا يقيم الصلاة ، فيكون له الويل واللعنة ، لا كرامة الله والجنة.

[36] ومن بيان صفات المصلين التي هي ثمن الكرامة في الجنّات ينعطف السياق القرآني لانتقاد موقف الكافرين الذين يطمعون في دخول الجنة ، ويتمنّونها نصيبا ومصيرا من غير سعي واجتهاد ، مؤكّدا بأنّها منهجية خاطئة ، لأنّها تقوم على التمنّيات ، ولأنّها لا تقود إلّا إلى الخوض واللعب في الدنيا ، والخسران المبين في الآخرة.

(**فَما لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ**)

قيل أذلّاء [1] ، وفي المنجد : من ينظر في ذلّ وخضوع لا يقلع [2] ، قال تعالى : (**مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ**) [3] ، والأقرب هنا أنّ الإهطاع إسراع في ذل ، يقال : استهطع البعير في سيره أسرع ، وناقة هطعى : سريعة [4]. ويدل على ذلك قوله تعالى : (**خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ* مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ**) [5] أي مسرعين في إجابة داعي الله منكّسي رؤوسهم أمامه.

---

(1) القمي / ج 2 ـ ص 238.
(2) المنجد / مادة هطع.
(3) إبراهيم / 43.
(4) المنجد مادة هطع.
(5) القمر /

والآية تستنكر على الكفّار بالرسالة مسارعتهم في الفرار من دعوة الرسول (ص) ، كأنّهم قطيع بعير شاردة ، أو كما وصفهم تعالى حال إعراضهم عن التذكرة : (**كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ* فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ**) [1] حيث لا يثبتون قبل الرسول الذي يحمل إليهم منهج الفلاح والعزة في الدنيا والآخرة ، ولا يعلمون أنّهم بذلك الإسراع في الفرار إنّما يسارعون في الذلّ والفشل ، وليس كما يزعمون مسارعة في الخير ، وهذا ما يعاينونه في الآخرة (**يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ* خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ**) ، وهاتان الآيتان بيان واضح لمعنى الإهطاع أنّه الإسراع.

[37 ـ 39] ولا يفرّ الكافرون قبل الرسول في صفّ منتظم واحد ، بل في صفوف مختلفة ، وذلك لأنّ المسارعة في الفرار من الحق موقف مبدئي اجتماعي سياسي يتخذه المهطعون لعوامل متفاوتة بينهم ، مما يجعل مواقفهم التابعة للأهواء مختلفة ، فمن مشرق ومن مغرّب كما يقول الله ويصف القرآن :

(**عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ عِزِينَ**)

أي متفرقين جماعات كلّ ينتسب إلى جماعة مختلفة. وأصل العزي من النسبة ، يقال : تعزّى إليه يعني انتسب ، والعزية : الانتساب [2] ، قال الأزهري : عزا فلان نفسه إلى بني فلان ، يعزوها عزوا ، إذا انتمى إليهم ، والاسم العزوة. وكأنّ العزوة كل جماعة اعتزاؤها (وانتسابها) إلى أمر واحد [3]. ولقد رأينا كيف أنّ الانحراف عن الرسالة صيّر الناس مذاهب وطوائف ، بينما كانت الرسالة ـ لو استجابوا لها ـ تجمعهم أمة واحدة قوية وعزيزة .. إلّا أنّهم مزّقوا أنفسهم بالضلال

(1) المدثر / 50 ـ 51.
(2) المصدر / مادة عزي بتصرف.
(3) التفسير الكبير ج 30 ـ ص 131 ـ 132.

عن هداها كلّ ممزّق فصاروا إلى الضعف والذل.

وفي الروايات إشارة من رسول الله (ص) إلى معنى «عزين» على أنّه التفرّق جماعـات ومـذاهب ، فعن جـابر بن سـمرة قـال : دخل علينا رسـول الله (ص) المسـجد ونحن خلق متفرّقـون فقـال : «مـالي أراكم عـزين؟ ألا تصـفّون كما تصـفّ الملائكة عند ربّهـا؟» قـالوا : وكيف تصفّ الملائكة عند ربّها؟ قال : «**يتمّون الصفوف الأول ويتراصّون في الصفّ**» [1].

والتفـــرق نتيجة طبيعية للكفر بالله والرســـالة ، لأنّ الإيمان يجمع الناس على محور واحد هو محور الحق ، أمّا الكفر فإنّه يتخذ أشكالا مختلفة .. أحزابا وأفكارا وقيادات. وهناك قول بأنّ المقصود بالكافرين هم المنـافقون الـذين يظهرون الإيمان ويخفون الكفر والتكـذيب [2] ، والأقـرب تعميم المعنى ليشمل الكافرين والمنافقين جميعا.

وإذا تنكّب الإنسان عن صراط الجنة الرسول (قيـادة) والرسـالة (منهجـا) فكيف يسـعد؟ ومن أيّ بـاب يـدخل الجنة؟ وبأيّ وسيلة؟

إنّ الإنسان إنّما يرفض الحق قيادة ومنهجا فـرارا من المسؤولية والاجتهاد ، لا بغضا للحـقّ في ذاته أو جهلا به ، بينما نفسه تظل تتطلّع إلى الخلاص من العــذاب والفــوز بالجنة ، وهكذا تـراه يلجأ إلى التمنّيـات والظنـون. من هنا يستنكر عليهم السياق ذلك الطمع الزائف فيقول :

(**أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ**)

---

(1) تفسير البصائر / ج 49 ـ ص 124.

(2) هكـــذا في مجمع البيـــان ، وإليه ذهب الفخر الـــرازي والعلامة الطباطبائي وصاحب تفسير فتح القدير للشوكاني.

وللآية إيحاء بأنّ ذلك الـذي رفض دخـول الجنة بالصّـد عن طريقها وبابها من أين يدخلها؟ وهل ينتظر أحـدا يـأتي ليدخله فيها وهو لا يريد؟

(**كَلَّا**)

إنّه لا يكـون فلا يـدخل الجنة أحد من غـير بابها ، ومن دون أن يسـعى إليها سـعيها ، وما يحمل جنـاح التمـني والطمع صـاحبه إلّا إلى النـار والتهلكـة. وقـال ربنا : «يـدخل» مبنيّا للمجهـول لبيـان أنّ صـاحب التمنيـات لا يسعى بنفسه ، إنّما يترقّب نجاته من غـيره ، وليس يفعل ذلك أحد ، فأمّا الله والأوليـاء فهم أعـداؤه ، وأمّا الأنـداد فإنّهم لا يملكون نفعا ولا ضرا.

ثم إنّ الإنسـان حينما يتفكّر في الخليقة من حوله ، بل في خلق نفسه ، يصل إلى حقيقة مهمة تنفي له التمنيات والأطماع من أساسـها ، وأنّها لا تـدخل أحـدا إلى جنة النعيم ، لأنّه أينما نظر وتفكّر لن يجد شـيئا يـدور في الفراغ ، بلا قانون أو سنّة ، ومن ذلك نفسه.

(**إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ**)

إشـارة إلى خلقة الإنسـان المادية (العناصر الـتي يتكـون منهـا) والمعنوية (الأطـوار والقـوانين والسـنن). وفكـرة أخـرى تفسّـر العلاقة بين نسف القـرآن للتمنيـات وبين إشارته إلى خلقة الناس وهي أنّ في الإنسان جانبين لا بد أن يتكاملا : الجسد والـروح ، وهو لا يملك في تكامل جسمه شيئا كثيرا ، فمن نطفة يصـير علقة فمضـغة حـتى يولد طفلا فيشـبّ ويشـيخ ثم يمـوت ، بينما يعتمد تكامل روحه على إرادته وسـعيه ، والجنة جـزاء إحـرازه للتكامل في هـذا الجـانب ، ولن يـدخلها بمجـرد الطمع والتمنيـات. وبصيرة ثالثة : أنّ الكـافرين إنّما تركـوا الإيمـان والسـعي للطمع والتمنّي بسبب

كفـرهم بـالآخرة ، حيث قـالوا : كيف نعـود أحيـاء بعد أن نصير ترابا؟ فذكّرهم الله بأصل خلقتهم (التراب) لبيان أنّه تعـالى قـادر على إعـادتهم بشـرا أسـوياء بعد أن يصـيروا ترابا. ولعلّ الآية تقرير بأنّ جـذر ذلك التمـني والكفر راجع إلى طبيعة الإنسان الترابية وجانب الظلام في وجوده.

[40 ـ 41] ويعــالج الله موقف الكفّــار من وعـــده وعذابه الواقع بــالردّ على تحـــديهم للحق وســـؤالهم عن العذاب ، وذلك من خلال تذكيره بحقيقتين :

الأولى : طبيعـــتي الجهل والضـــعف عند الإنســـان ، واللتـان تجعلان تحديه في غـير محلّه ، فإنّه لو اطلع على عـــذاب ربه وعـــرف قـــدر خالقه لما ســـاقه الكفر والتحدي.وما عسى أن يكون وهو المخلوق الضعيف حـتى يتحدى خالقه ، ويسأله إنـزال عذابه عليه تكـذيبا وهـزوا؟! وإلى هذه الحقيقة تشير الآية (39).

الثانية : قـــدرة الله المطلقة وحكمته النافـــذة ، فهو قادر لو أراد أن يهلك الكفّار ويمحوهم من الوجـود ، ولكنّه حكيم لا يفعل ذلك .. ومن تحسّــس هـاتين الصــفتين لله ينبغي الإيمان بالآخرة وخشية العذاب.

(**فَلا أُقْسِـــمُ بِـــرَبِّ الْمَشـــارِقِ وَالْمَغـــارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ* عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ**)

وأول سـؤال يفـرض نفسه : مـاذا تعـني المشـارق والمغـارب؟ يجيب الإمـام أمـير المؤمـنين علي ـــ عليه السـلام ـــ عن ذلك عند ما وجّه ابن الكـوّا تهمة التنـاقض إلى القرآن ، فقال له ـ عليه السلام ـــ : ثكلتك أمك يا ابن الكـوّا! هـذا المشـرق وهـذا المغـرب (مشـيرا بيـده إلى الجهــــــتين) ، وأمّا قوله : «**رَبُّ الْمَشْـــــرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْـرِبَيْنِ**» فـإنّ مشـرق الشـتاء على حـده ومشـرق الصيف على حـده ، أما تعـرف بـذلك من قـرب الشـمس وبعدها؟! وأمّا قوله : (**بِرَبِّ الْمَشـارِقِ وَالْمَغـارِبِ**) فـإنّ لها ثلاثمائة وستين

برجا ، تطلع كلّ يوم من بـرج ، وتغيب في آخر ، فلا تعـود إليه إلّا من قابل في ذلك اليوم [1].

وعن ابن عبّـاس قـال : «**للشـمس كل يـوم مطلع تطلع فيه ، ومغرب تغـرب فيه ، غـير مطلعها وغـير مغربها بالأمس**» [2].

والعلاقة واضــحة بين إشــارة الله إلى آية المشــارق والمغـــارب الكونية ، وبين تأكيـــده على أنّه قـــادر على التبديل ، ذلك أنّ تبدّل المشارق والمغارب اليومي ـ هــذه الحركة الكونية ـ آية من آيات قدرته تعالى على التبــديل ، وأنّ الخلق والأمر إليه ؛ بحيث لو أراد الــردّ على تحـــدي الكفّار بـإنزال عذابه لفعل فـأهلكهم ، وأتى بغـيرهم خـيرا منهم ، لا يعجزه شيء أبدا.

والسؤال الثاني : لماذا قال ربنا : «خيرا منهم»؟ لعل الجواب : أنّ سـنّة هلاك الأمم الغـابرة قائمة على أسـاس أنّ الأمّة الناشـئة البديلة تكـون أفضل لقربها من فطـرة الخلق ، وعــدم تلوّثها بعوامل الفســاد والزيــغ. لقد أهلك الله قـــوم نـــوح ، وطهـــرت الأرض جميعا من فســـادهم وزيفهم ، وأنشأ من بعـــــدهم قوما صــــالحين (هم ذرية الناجين في السفينة) ، ثم أهلك فرعـون وقومه واسـتعمر بلادهم بنو إسرائيل ، وكـانوا أمّة مؤمنة .. وهكـذا لا يكـون خلق الله إلّا صالحا ، كما قال ربنا سـبحانه : (**لَقَـدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**).

(**وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ**)

أي لا يسبقنا شيء ، ولا يعجزنا أحد ، ولم نمارس في أمر الخلق لغوبا ولا

(1) الإحتجاج / ج 2 ـ ص 259.
(2) الدر المنثور / ج 6 ـ ص 267.

علاجا ، ولا تعلّمنا التجربة من أحد أو احتجنا إلى شريك أو معين ، سبحان الله .. وإنّما تقتضي حكمته الإمهـال. قـال شيخ الطائفة مشـيرا إلى هـذا المقطع من الآية : وقوله : «الآيــة» عطف علي جــواب القسم ، ومعنــاه أنّ هــؤلاء الكفّار لا يفوتـون بـأن يتقـدموا على وجه يمنع من إلحـاق العـذاب بهم ، فلم يكونـوا سـابقين ، ولا العقـاب مسـبوقا منهم ، والتقدير : وما نحن بمسبوقين بفوت عقابنا إيّاهم [1]. ويستشـــــفّ من الكلمة معـــــنى الغلبة لأنّ من دخل السـباق وسـبق فهو مغلـوب ، وتعـالى الله أن يغلبه أحد وهو القادر على كل شيء [2].

وفي الآية (**نُبَــدِّلَ خَيْــراً مِنْهُمْ**) اختلاف في كيفية الإبــدال ، فقيل : بـالإهلاك وذلك بـأن يهلكهم الله ويخلق غـيرهم ، وقيل : بأنّه تعـالى يبـدّل الرسـول عنهم ــ وهم المكـذّبون المهطعـون عن اليمين وعن الشـمال عـزين رافضين لرسالته ـ يبدّلهم بآخرين قبله يطيعونه ويصدّقون بدعوته. والاثنان صحيحان.

ثم يشير تعـالى إلى حقيقة أساسـية وهي : أنّ الـدنيا وإن كانت تتجلّى فيها سنّة الجزاء إلّا أنّه ليس ضـروريّا أن يجـازي الله فيها كـلّ أحد ، والسـبب أنّها دار الابتلاء ، أمّا دار الجزاء فهي الآخرة ، وإنهم ـ أي الكفّار ــ لن يفوتـوه ، بل سيلاقون جزاءهم يوم القيامة.

(**فَذَرْهُمْ**)

في الدنيا.

(**يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا**)

---

(1) التبيان / ج 10 ـ ص 129.

(2) لقد مـرّ بيانه في سـورة النجم ومواضع أخـرى لمعـنى (لا أقسـم) فراجع.

فيذهبوا بكلّ خلاقهم ، ويتمادوا في الذنوب حتى يـأتوا في الآخـــرة لا خلاق لهم ، وقد فعلـــوا ما يســـتحقّون به المزيد من العقـاب والعـذاب ، فـإنّ فرصـتهم أنّى بـدت طويلة فهي محدودة بالدنيا.

(**حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ**)

يعني يوم الجزاء عند ما يلاقون الإذلال والعذاب. ومن مصـــــــاديقه يـــــــــوم يتوفّـــــــــاهم اللـــــــــه. أوليس إذا مـات ابن آدم قـامت قيامتـه؟ أوليس المـوت يضع حدّا لخوضهم ولعبهم؟

وأصل الخوض دخول الماء ، يقال : خاض بالفرس إذا أورده الماء ، والغمرات اقتحمها ، وكذا المهالك [1] ، ولعلّه الـــدخول في الشـــيء بالكامل ، وخـــوض الكـــافرين هو دخـــولهم في الـــذنوب واتبـــاعهم الأهـــواء والشـــهوات مسترسلين بلا ضوابط أو حدود. واللعب كل ما يقدم عليه الإنســـان بأهـــداف شـــهوانية تافهـــة. وقـــول الله تعـــالى : «فـــذرهم» هو تحديد لموقف الرســـول ومن يتبعه تجـــاه الفريق المـذكور من الكـافرين ، ولا يعـني ذلك أن يعـتزل الرسـاليون سـاحة الجهـاد والعمل في سـبيل الله ، بلى. إنّهم من الناحية الدينية العقائدية ليســـوا مســـئولين عن دعوتهم لقبول الحق والإيمان بـالآخرة عن طريق الجـبر ، بل يتركونهم فالخيار لهم ، كما لا ينبغي أن يذهبوا أنفسهم حسرات على عدم إيمـانهم واختيـارهم طريق النـار. هـذا من جانب ، ومن جـانب آخر يجب أن لا تـدعوهم تحـديات الأعـــداء واســـتفزازاتهم إلى التعجّل بـــردّات الفعل غـــير المدروسة ، وإنّما يجب أن يصـــبروا صـــبرا جميلا ، في الوقت الذي يواصلون فيه مسيرة الجهاد ، حسـبما يـوحي إليه السياق العام لهذه السورة الكريمة.

---

(1) المنجد مادة خوض بتصرف.

[43 ـ 44] ويـبيّن القـرآن صـفات اليـوم الـذي يوعد الكـافرون وأعـداء الله ، مصـوّرا مشـاهد منه ، تبعث في القلوب رهبة وتدعوا الإنسان إلى التفكير في اتّقـاء سـوء عذابه.

(**يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً**)

بــإرادة الله ، فــإذا بجسد الإنســان تتصل به روحه ، ويصير بشرا سويّا واعيا في ساعات معـدودة ، «سـراعا» بحيث لا يحتــاج الأمر أن يمــرّ كــلّ واحد بمراحل خلقه الاولى .. نطفة فعلقة فمضـغة .. إلخ. والجـدث هو القـبر. وإنّ الكافرين الـذين تنكّبـوا عن الصـراط ورفضـوا دعـوة الله عن طريق رسله في الدنيا لا يملكــون يومئذ حيلة ولا قدرة للصـدّ عن دعـوة الحق ، بل يجيبـون دعـوة الـداعي مسرعين.

(**كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ**)

أي يعدون ويسرعون. وللنصب معان :

الأول : العلامـات ، فكـلّ ما نصب وجعل علما وعلامة فهو «نصـب» وما أشـبه إسـراعهم يومئذ بإسـراع الضـائع في الصـحراء حينما يقع بصـره على العلامـات الهادية إلى الطريق!

الثاني : الأصنام ، جـاء في المنجد : الأنصـاب حجـارة كانت حول الكعبة تنصب فيهلّ عليها ويذبح لغـير الله [1] ، قال تعالى : (**إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصـابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**) [2].

---

(1) المصدر / مادة نصب.

(2) المائدة / 90.

قـال صـاحب التبيـان : شـبّههم في إسـراعهم من قبـورهم إلى أرض المحشر بمن نصب له علم أو صـنم يستبقون إليه [1] ، وقـال الفخر الـرازي مثله : كما كـانوا يستبقون أنصابهم [2].

الثـالث : قصب السـبق الـذي ينصب حـدّا لميـدان السـباق أو علامة لمعرفة السـابق من المسـبوق ، وكـأنّ أهل النار يومئذ يسرعون سـرعة المتسـابق الـذي يسـعى للوصول قبل غيره من المنافسين.

(**خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ**)

فـالموقف منعكس عليهم من الناحية المادية حيث يعلـوهم الوجـوم ، ولا يرتـدّ إليهم الطـرف ، وترجف أطرافهم من شـدّة الموقف .. ومن الناحية المعنوية أيضا حيث يشملهم الصغار والذل.

(**تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ**)

---

(1) التبيان / ج 10 ـ ص 129.
(2) التفسير الكبير / ج 30 ـ ص 133.

سورة نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

عن أبي عبد الله الصادق ـ عليه السلام ـ قال : «**من كان يؤمن بالله ويقرأ كتابه لا يدع قراءة سـورة** (**إِنَّا أَرْسَـلْنا نُوحـاً إِلى قَوْمِـهِ**) **فـأيّ عبد قرأها محتسـبا صـــابرا في فريضة أو نافلة أســـكنه الله تعـــالى مساكن الأبرار ، وأعطاه ثلاث جنــان مع جنته كرامة من الله ، وزوجه مــائتي حــوراء ، وأربعة آلاف ثيّب إن شاء الله**»

تفسير الثقلين ج 5 ص 420

الإطار العام

في الوقت الذي تبين هذه الآيات من السورة الملامح العامة لرسـالة نـوح (ع) ومن خلالها للرسـالات الالهية جميعا (الآيـات 1) كما تشـير الى قصـته مع قومه والـتي انتهت بهلاكهم غرقا بالطوفان (الآيات 5) ، فـإن محورها الأساسي كما يبـدو ليس ذلك وانما هو التركـيز على أن نوحا ـ عليه السلام ـ ضرب مثلا رائعا للمعانـاة في سـبيل الله ، والاسـتقامة على نهج الرسـالة رغم التحـديات الخطيرة المتمادية ، حيث بقي ـ سـلام الله عليه ـ (**أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً**) [1] يكابد مرارة نفور قومه الـذين أصروا على الباطل ، واستكبروا عن الحق ، ومكروا مكـرا كبّـارا ، لا ينثـني عن أهدافه ، ولا يـتراجع عن نهجه ، وتلك الاستقامة درس عظيم لنا ، لأنها كانت من الثوابت التي لا تقبل التغيـير .. بلى. كـان يغيّر من أسـاليبه فمـرّة يـدعو جهارا ، وأخرى إعلانا ، وثالثة إسـرارا ، لا يدخله ادنى شك في الحق الذي بين يديه بسبب تكـذيب قومه ، والبشـرية يومئذ معارضة لدعوته ، ولا

---

(1) العنكبوت / 14

بسـبب تـأخر نصر الله عنه ، وانما كـان على عكس قومه تماما ، يزداد مضيّا على الحق ، وتسـليما لأمر ربه ، ويقينا بنصره.

إن العناد المقدس الذي اتصف به نـوح (ع) جعله رمز الرساليين (دعاة وقادة) عبر التـاريخ ، ومن ثم واحـدا من أولي العــزم من الرسل ، وأيّ عــزم ذاك الــذي واجه به عنـــاد البشـــرية كلها .. فلله درك يا شـــيخ المرســـلين! ولعمري انك لاية العزم والاستقامة!

سورة نوح

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (1) قالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2) أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (3) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (4) قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهاراً (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلاَّ فِراراً (6) وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً (9) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً (10) يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ

لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً (12) ما لَكُمْ لا تَرْجُـونَ لِلَّهِ وَقاراً (13) وَقَـدْ خَلَقَكُمْ أَطْـواراً (14) أَلَمْ تَـرَوْا كَيْفَ خَلَـقَ اللـهُ سَـبْعَ سَـماواتٍ طِباقـاً (15) وَجَعَـلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً (16) وَاللـهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتـــــاً (17) ثُمَّ يُعِيـــــدُكُمْ فِيها وَيُخْـــرِجُكُمْ إِخْراجـــاً (18) وَاللــهُ جَعَــلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً (19) لِتَسْـلُكُوا مِنْها سُـبُلاً فِجاجـاً (20) قـالَ نُـوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَـوْنِي وَاتَّبَعُـوا مَنْ لَمْ يَـزِدْهُ مالُـهُ وَوَلَـدُهُ إِلاَّ خَسـاراً (21) وَمَكَـرُوا مَكْـراً كُبَّاراً (22) وَقالُوا لا تَـذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَـذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُـواعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ

23 [ودّا] : صنم اتخذه قضاعة فعبدوه بدومة الجندل ، ثم توارثوه حتى صار الى كلب حتى جاء الإسلام وهو عندهم ، قـال الواقـدي : كـان ودّا على صورة رجل.

[سواعا] : كان صنما لآل ذي الكلاع ، وقيل : هو صـنم لهـذيل برهـاط ، وقال الواقدي : ان سواعا على صورة امرأة.

[يغوث] : كان يعبده بطنان من طيّ ، فذهبوا الى مـراد فعبـدوه زمانا ، ثم ان بني ناجية أرادوا أن ينزعوه منهم ففـروا به الى بـني الحـرث بن كعب ، وقيل : إن يغوث كان لبني غطيف من مـراد ، وقـال الواقـدي : كان يغوث على صورة أسد.

وَنَسْراً (23) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً (24) مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصاراً (25) وَقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فاجِراً كَفَّاراً (27) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَباراً (28))

[يعوق] : صنم لكهلان ثم توارثوه حتى صار إلى همدان وقال الواقدي : انه على صورة فرس.

[نسرا] : صنم لخثعم ، وقيل لآل ذي الكلاع من حمير ، وعن الواقدي : أنه على صورة نسر من الطير.

26 [ديارا] : ديار من فيعال ، من الدوران ، ونحوه القيام ، والأصل : قيوام وديوار ، فقلبت الواو ياء ، وأدغمت إحداهما في الأخرى ، قال الزجاج : يقال : ما بالدار ديار : أي ما بها أحد يدور في الأرض ، وقال الراغب : أنه الساكن.

أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ

بينات من الآيات :

[1] ان اتبـــاع الحق ضـــرورة حياتية ليس في الأفق المعنـــوي (الـــروحي والعلمي) وحسب ، وإنما في الواقع المـــادي أيضا ، وهـــذه الحقيقة أعظم تجليا في حيـــاة المجتمع منها في حيـاة الفـرد ، والـذي يسـتقرئ تـاريخ البشـرية يجد شـواهدها ماثلة في الأمم الغـابرة ، وهكـذا حينما ينظر الى الحياة من حوله.

وحيث تسـير البشـرية بأقـدام الضـلال والفسـاد الى هاوية العـــــــذاب الأليم ونهاية الهلاك بين الحين والآخر يعطف الرب عليها بلطفه ورحمته فيبعث الأنبياء برسالاته لإنقاذها قبل أن تحين ساعة الصفر ، وذلك من أظهر آيات رحمته ، والـتي تتجلى في الرسـالات والرسل الـذين هم قمّة الرحمة الإلهية للناس.

ولقد انحـــرف قـــوم نـــوح (ع) وكـــان الخط البيـــاني لمسيرتهم يتجه نحو الموت الجماعي ، ولكن الله الرحمن الرحيم ابى إلّا أن يرسل إليهم رسولا منهم رأفة بهم ،

وإقامة للحجة عليهم ، وإمضـــاء لســـنته في خلقه ، إذ ما كان الله معذّبا قوما حـتى يبعث فيهم رسـولا ، وعلى هـذا الأساس ولهذه الأهداف جاء نوح يحمل رسالة الإنـذار الى قومه.

(**إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ**)

وقومه يومئذ كل البشر الـــذين عـــددهم على بعض الأقوال (700) ألفا ، ونهتدي الى ذلك من طبيعة العـذاب إذ عم الأرض كلها طوفانه ، وفي الحــــديث عن الامــــام الباقر (ع) قال : «**كان بين آدم ونوح عشرة آباء كلهم أنبيـاء ، وإن الأنبيـاء بعثـوا خاصة وعامة ، فأما نـوح فانه أرسل الى من في الأرض بنبوة عامة ، ورسالة عامة**» [1] .. وفي الأخبار ان اسمه ليس «نوحـا» [2] ، بل «سـكن» عن الامـام علي (ع) [3] وقيل «عبد الأعلى وعبد الملك» عن الإمام الصادق [4] «وانما سـمّي نوحا لأنه نـاح على قومه ألف سنة إلّا خمسين عامـا» [5] كما قـال أمـير المؤمنين (ع) للشامي ، وفي معاني الاخبار : «معنى نـوح أنّه كـان ينـوح على نفسه ، وبكى خمسـمائة عـام ، ونحى نفسه عما كان فيه قومه من الضـلال» [6] وقـال الصـادق (ع) عن النـــبي : «عـــاش نـــوح ألفي ســـنة وأربعمائة وخمسين سنة» [7] ، وعنه قال : «كانت أعمار قـوم نـوح ثلاثمائة سنة ، ثلاثمائة سنة» [8]

---

(1) نور الثقلين ج 5 ص 421 نقلا عن كمال الدين وتمام النعمة

(2) راجع موسوعة بحار الأنوار ج 11 ص 286 / 287

(3) المصدر ص 286

(4) المصدر ص 287

(5) المصدر ص 286

(6) المصدر ص 287

(7) المصدر ص 290

(8) المصدر ص 289

والآية تشير الى ان الأمم تسـير عـبر دورة حضـارية ، ففي البـدء يكونـون على فطـرة الإيمـان والاسـتقامة ثم ينحرفون ، وعند منعطف خطير من حياتهم وبالضـبط عند الانحـــدار القاتل يبعث الرسل والمصـــلحون لكي يوقفـــوا مسيرة السقوط ، ولذلك يبدأ الأنبيـاء في الغـالب بالإنـذار باعتبارهم يرسـلون الى قـوم ضـلوا وانحرفـوا ليحـذرونهم مغبة استمرارهم في الضلال.

(أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ)

لأن العــذاب لا يـأتي من الفــراغ ، بل هو سـنّة إلهية وقانون تكويني له أسبابه ومبرراته التي يستطيع الإنســان بإزالتها تلافيه والنجاة منه ، ولهـذا فـان الاسـتجابة للإنـذار تنفع ما دام العـذاب لم يحن أجله ، حيث الفرصة لا تـزال قائمة ، يمكن فيها الإصلاح والتغيير.

ومعرفتنا بخلفيات انبعـاث الرسل في الأمم المختلفة وأهــدافهم .. وبالــذات انهم ينهضــون للتغيــير ويتصــدون لقيادة الإصلاح حينما تتردى أوضاع المجتمعات وتسير الى العذاب إنّ ذلك يحملنا بالتأكيد مسـئولية التصـدي للتغيـير إذا كنا نريد اتباع الأنبياء ومواصلة مسيرتهم ، وإذا كنا نريد للناس الخير والصـلاح. بلى. ان النبـوة سـمة غيبية يختص بها الله من يشـــاء من عبـــاده ، ولكن الرســـالة أمانة ومسئولية يمكن لأي إنسـان ان يرتفع الى مسـتوى حملها والتصدي لها ، فيكون قائدا رسـاليا بـالتزام الحق ، واتبـاع النهج الإلهي الذي مشى على هداه الأنبياء والرسل عليهم السلام.

[2 ـ 4] إنّ أحـدا لا يسـتطيع أن يـدعي العصـمة ، أو حضور جبرئيل عنده ، ولا حتى بلـوغ درجة الأنبيـاء ، ولكن يسـتطيع أن يحمل رسـالة الله الى قومه ، إذن فللرسـالة وجهـــان : وجه خـــاص يتفـــرد به من اصـــطفاهم لوحيه مباشـــرة ، ووجه عـــام يتسع لاتبـــاعهم والســـائرين على نهجهم وخطاهم ، فما هو نهج الأنبياء في ضلوعهم

بدورهم الخطير؟ إن حديث القرآن في هذه السورة يــبيّن لنا الخطوط العامة للنهج الـذي تلتقي عليه كل الرسـالات والزعامات الإلهية ، وذلك بعرض قصة نوح عليه السلام.

اولا : التصدي لقيادة التغيير :

(**قالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ**)

ان نوحا لم ينظر للأوضــاع نظــرة لا أباليّة ــ كما هو شـأن الكثـير من النـاس الـذين لا يهمّهم سـوى أنفسـهم ومصــالحهم ــ إنّما تحسس الانحــراف بكل أبعــاده (الاجتماعية ، والسياسـية ، والاقتصـادية ، والاخلاقيـة) ولم ينتظر من الأقــدار ان تغيّر أحــوال النــاس ، ولم يلق بالمسـؤولية على غـيره ، بل كـان متيقّنا بـأن الواقع رهن إرادة الإنسان ذاته ، ولا يتغير سلبا أو إيجابا إلّا تبعا لتغييره ما بنفسه ، فبدأ بتغيير ذاته وانطلق منها لإصلاح المجتمع ، متحملا من أجل ذلك كامل المســؤولية ، ومتحــديا كل العقبــات والضــغوط مع إصــرار على إبلاغ الرســالة ، والاستقامة في طريق ذات الشوكة.

ومن هنا طــرح نفسه كقائد ورمز للتغيــير ، وقبلها بالعمل الـدؤوب المـبرمج ، والمخلص لوجه اللـه. اعتقـادا منه بـأن القيـادة أمانة ومسـئولية قبل ان تكـون منصـبا وشــهرة ، وعملا وتحــدّيا ، فكــان أول طريقه مصــارحة المجتمع بالحقيقة ، وتوجيهه الى وجود الانحراف ، باعتبـار أن وضع اليد على الـــداء ، والقناعة بأصل الخطأ أول خطوة في طريق الإصلاح ، فإن الأمّة التي يأخذها الغـرور ، ولا تنتهج النقد الـــذاتي تبقى إلى الأبد في انحرافها وأخطائها وتخلفها.

ولم يكن نــوح عند ما طــرح نفسه جــاهلا بمــدى التحديات التي سيواجهها ، ولكنه

تحمل ذلك استـــجابة للمســـؤولية الإلهية ، إذ أمـــره الله بإنذار قومه ، وإذ يدعوه ضـميره الى القيـام بـذلك الـدور الحضاري الهام ، وحيث نهض ينـذر قومه اعتمد الأسـلوب الواضح والبليغ ، إيمانا منه بـأن حقانية الـدعوة وحـدها لا تكفي بل لا بد حتى يستجيب النـاس لها ان يكـون الإنـذار بها بيّنا ، يمتــاز به الحق عن الباطل وتقــوم الحجة ، وقد اعطى ذلك بصيرة واضحة لمن قد يطلع على عاقبة قومه بان عدم استجابتهم لم يكن بسبب الغمـوض في البيـان ، ومن ثم فإنهم لا يستحقون ما حل بساحتهم من العذاب.

ومن تكرار كلمة القوم ثلاث مرات في هاتين الآيــتين الى قومه ، انذر قومك ، يا قوم» نهتـدي إلى فكـرة مهمة وهي : أن الإنســان الفــرد مســئول عن قومه ومجتمعة ، كما أنهم مسئولون عنه ، ولا يجوز لأحد أن يعيش فــردا لا يبـالي بغـيره ، وأنّ الفـرد قـادر على الخـروج عن سـياق المجتمع الفاسد وتحــــدي الانحــــراف ، وأنّ نوحا بوقفته الرســــالية الشــــجاعة لآية على بطلان حتمية التوافق الاجتماعي.

ثانيا : تشخيص أسس الواقع المنحرف وطرح البدائل الصالحة :

(**أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ**)

وبهذه الجملة حـدد نـوح عليه السـلام معـالم النظـام القـائم والنظـام البـديل معا (ثقافيا واجتماعيا وسياسـيا) فإن الآية تهدينا إلى البصائر التالية : الاولى : الى انحراف المجتمع
(كفرا وشركا وفسادا) ومشكلة الإنسان (فـردا ومجتمعـا) ليست الجهل بالخـالق من الأسـاس ، بل هي في الدرجة الأولى عــــدم الخضــــوع لإرادته ، وتلقي القيم من لدنه ، ولقد كـــان مجتمع النــبي نـــوح (ع) متورطا بالفعل في الوثنية والشــــــــرك بتصــــــــريح الآية الكريمة : (**وَقالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُــواعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً**) وما أكـثر ما يـؤدي اليه الانحـراف المبدئي عن عبادة الله والتوحيد من تعويق

لمســيرة الإنســان نحو الــرقي والتحضر الحقيقي ، ومن ضــلال كبــير في الحيــاة وبالــذات في جانبها الــروحي والاخلاقي والثقافي ، مما يجعله عـاجزا عن الوصـول الى أهدافه وطموحاته الحقيقية الــتي لا يبلغها أحد الّا بعبــادة ربه. الثانية : ان المجتمع يومئذ لم يكن ضالّا عن المبــادئ الأولية وحسب ، بل كان بعيدا عن ربه حتى في التفاصـيل العملية لمفـردات الحيـاة ، إذ لم يكن يخشى الله ويتقيه ، وذلك يعــني انفلاته من كل الضــوابط ، واسترســاله مع الهوى ، حيث أن ضمانة الالتزام بـالقيم الانسـانية والدينية على السواء مرهونة بمدى التقوى عند الفرد والمجتمع.

كما تكشف لنا الكلمة الأخيرة (**وَأَطِيعُونِ**) عن وجـود الفساد في النظام السياسي ومن ثم الاجتماعي ، باعتبـار أن النظـام السياسي إطـار للنظـام الاجتمـاعي وسـائر النظم ، والمتـدبر موضـوعيّا فيما ورد عن قـوم نـوح من آيـــات القـــرآن يجد فيها بيانا واضـــحا لطبيعة القيـــادة السياسية والاجتماعية ، والتي ترمز بدورها الى الانحـراف المبــــدئي والعملي ، فهي لم تكن قائمة على أســــاس الكفاءة ، إنما على أسـاس الأمـوال والأتبـاع ، الأمر الـذي قسم المجتمع الى طبقـــتين : الاولى : طبقة المـــترفين الحـاكمين ، والأخـرى : طبقة المعـدمين (الأراذل بتعبـير المـترفين) ولا ريب أن القيـادة في أيّ مجتمع رمز لقيمة الواقعية ، ومن المعالم الاساسية لمسيرته.

وحيث رأى نــوح ــ عليه الســلام ــ الوضع المتخلف والفاسد عقد العــزم على تغيــيره ، فجعل خطوته الأولى تشـخيص العوامل الأساسـية للانحـراف باعتبـاره المصـلح وبيانها للنـاس ، وواضح للمتـدبر ، أنه لم تخدعه المظـاهر والنتــائج ، انما توجه الى الجــذور الأولية ، لأن علاجها هو النهج السليم لعلاج الأعراض والظواهر التي لا تعـدو كونها مجــرد نتــائج لها ، وهــذه من أهم خصــائص الحركـات الرسالية.

ومع أننا نقــرأ في الآية معــالم الوضع القــائم إلا أن الظاهر منها هو الإشارة الى

البدائل الحضارية الثلاثة (**اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ**) مما يؤكد ان التفكـير في البـدائل من قبل المصـلحين لا يقلّ أهمية عن التفكير في جـذور التخلف ، بل إنه الأهمّ ، إذ كيف يعرف النـاس أن المسـيرة تكـون الى الأمـام بعد هـدم الواقع إذا لم تكن البـدائل مطروحة بوضـوح كـاف؟ ولقد جسّـد نـوح (ع) هـذه القيمة في حركته فأكد : ان تحكيم القـانون الالهي (بعبـادة اللـه) والـذي لا يتم إلّا (بالتقوى) وتطبيق تفاصـيل النظـام الاجتمـاعي من جهة ، والطاعة للقيـادة الرسـالية من جهة أخـرى هو البـديل القـويم للوضع الفاسد ، ومن ثم السـير بـالمجتمع نحو الحياة الأفضل.

ونسـتطيع القـول : أن عبـادة الله بـديل للأصـول المنحرفة ، والتقـوى بـديل للفـروع الخاطئة ، والطاعة للقيـادة الرسـالية من أجل إصـلاح الممارسـات اليومية السـلبية ، وبـالتعبير القـانوني الحـديث تمثل عبـادة الله الدستور (الخطط الاصولية العامة) وتمثل التقوى القـانون (مجموعة القوانين الاقتصادية والاجتماعية والسياسـية و.. و..) ، وتمثل الطاعة للقيـادة اللـوائح (مفـردات الأمـور والتطـورات) ومن هنا قـال بعض المفسـرين : وفي الآية ندب الى أصول الـدين الثلاثة : التوحيد المشـار اليه بقوله : «**اعْبُـدُوا اللـهَ**» والمعـاد الـذي هو أسـاس التقـوى ، والتصـديق بـالنبوة المشـار اليه بالـدعوة الى الطّاعة المطلقة [1].

وفي قول نوح ـ عليه السـلام ـ : (**وَأَطِيعُـونِ**) دلالة واضحة واكيـدة على ضـرورة بل وجـوب أن يطـرح القائد المصلح نفسه بـديلا للقيـادة المنحرفة ، لأنه ما دام قـادرا على تخليص المجتمع من بليته فهو مسـئول عن النهـوض بمهمته ودوره ، وفي الإسـلام تفريق بين حب الرئاسة الذي يبغضه الله ، وطموح الإمامة الذي يندب اليه

(1) تفسير الميزان عند الآية.

ويفرضه على أهل الكفاءة [1].

ثالثا : التأكيد على المعطيات :

وهـذا من الأصـول في كـلّ دعـوة ، أن يـبين الداعية المعطيـــات الـــتي تنبثق عن اتبـــاع دعوته ، ولا ينبغي للرســاليين الغفلة عن ذلك ، لأنه يســاهم بصــورة إيجابية فعالة في دفع المجتمع للالتزام بالمنهج المطـروح ، وخلق ديناميكية التطــبيق في نفــوس أفــراده ، ولعل ذلك من دواعي تفصــيل القــرآن في التشــويق الى الجنة كنتيجة للعمل بــالحق والتخويف بالنــار كعاقبة لا تبــاع الباطل ، وبذات المنهج والمنطق حدث نوح قومه :

(**يَغْفِــرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُــوبِكُمْ وَيُــؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَــلٍ مُسَمًّى**)

وهـذان المعطيـان أهم ما تحتاجه الأمم والمجتمعـات الـــتي تتجه نحو الهلاك والنهاية حضـــاريا وماديا ، ذلك أن العـذاب الأليم الـذي يحل بـالأقوام ليس الا نتيجة للـذنوب والانحرافات التي يتورطون فيها ، فتكون سببا في هلاكهم ، والســـــــــؤال : لمــــــــــاذا قــــــــــال الله : (**مِنْ ذُنُوبِكُمْ**) وليس ذنوبكم ، مع أن من تفيد التبعيض؟

لعل ذلك لأمور ثلاثة :

الأول : أن مجرد العبادة والتقوى والطاعة للرسول لا تجبّ عن الإنســـــــان كل ذنوبه ، لأن منها ما هو متعلق بحقوق الناس ، فلا تغفر إلّا بإرضـائهم وأدائها ، ومنها ما لا يغفر الا بالعمل الصــالح بعد الايمــان ، بلى. إن (العبــادة والتقوى والطاعة) تسـبب غفـران الله لأهم الـذنوب ، أي الـتي تـؤدي الى الهلاك ، وهي بعض ذنـوب النـاس وليس كلها.

---

(1) لقد مر الكلام في ســورة الفرقــان بهــذا الشــأن عند قــول الله (**وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً**) فراجع

الثاني : أنه تعالى لا يريد أن يعطي أحدا صكّ الأمـان المطلق حـــتى لا يغـــتر بإيمانه وعمله ، إنما يـــوازن فيه الخوف إذ من الممكن انه لم يغفرها ، والرجاء بما غفر له ، ويعـبر القـرآن عن هـذه المنهجية الالهية بصـورة أخـرى مثل : (**لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُـــونَ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُـــونَ**) والـــتي تفيد الترجي لا القطع.

الثالث : وإذا فسرنا الغفران بأنه محو الآثـار السـلبية للـذنب ، فانه يمكننا القـول : بـأن لبعض الـذنوب آثـارا واقعية لا تنمحي بمجرد الإيمـان ، بل يمحو الله ما يـترتب عليها من الآثار الأخروية وبعض الآثار الدنيوية السيئة.

وقيل المعـــنى : يغفر لكم ذنـــوبكم الســـالفة ، وهي بعض الذنوب التي تضاف إليهم ، فلما كانت ذنـوبهم الـتي يســتأنفونها لا يجــوز الوعد بغفرانها مطلقا ، لما في ذلك من الإغراء بالقبيح. (1)

ولأن الأجل الذي ينتظر قوم نوح مترتب على منهجهم الخـاطئ في الحيـاة ، وبالتـالي ذنـوبهم الفظيعة ، فـان عـدولهم الى المنهج الرسـالي سـوف يجنبهم الأخطـاء ، ومن ثم يؤخر أجلهم الى مدته الطبيعية أو أكـثر وهـذا من أعظم الأهـداف الـتي ينشـدها الأنبيـاء باعتبـارهم يـأتون منقذين.

ومن قوله تعـالى : (**وَيُـؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَـلٍ مُسَـمًّى**) نهتدي الى ان للإنسان (فـردا أو أمـة) اجلين : أجل حتمي وآخر معلق ، فاما الحتمي فهو الأجل الاعتيـــادي الـــذي يوافيه كل فرد فـرد عند انتهـاء مدته المقـدرة له بـالموت بعد ستين سـنة ، أو سـبعين أو أقل أو أكـثر ، وأما المعلق فهو الأجل الـذي يكتب للمجتمعـات بسـبب من الأسـباب سلبا بتقصير الأجل المسمى نتيجة الذنوب ، وإيجابا بمـدّه وإطالته نتيجة الأعمـال الصـالحة جـاء في الحـديث عن الصادق (ع) في تفسير قوله : «**ثم قضى أجلا وأجل**

(1) التفسير الكبير ج 30 ص 134

مسـمّى عنـده ...» قـال : «الأجل الـذي غـير مسـمّى موقـوف ، يقـدم منه ما شـاء ، ويـؤخر منه ما شـاء ، وأمّا الأجل المسمّى فهو الذي ينزل مما يريد أن يكون من ليلة القدر ..» [1]

وعنه ـ عليه السـلام ـ أنه قـال : «**الأجل المقضي هو المحتوم الذي قضاه الله وحتمه ، والمسـمّى هو الذي فيه البداء ، يقدم ما يشـاء ، ويـؤخر ما يشـاء ، والمحتوم ليس فيه تقديم ولا تأخير**» [2].

والـذي يظهر من الآية الاولى والرابعة : أنّ قـوم نـوح حينما ضلوا وكفروا قدر لهم الهلاك السـلبي ، وثمة التقـاء بين الأجلين هو أنهما حينما يأتيـان لا يمكن دفعهما بشـيء أبدا إلّا أن يصلح الناس أمرهم من قبل ان يأتيهم العذاب.

(**إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**)

ويؤكد الله هذه الحقيقة لأن الإيمان بها يزرع الخشـية في النفس ، ويدفع الإنسـان إلى المزيد من الجد والعـزم واستغلال الفرصة.

[5 ـ 7] تلك كـانت رسـالة شـيخ المرسـلين ـ عليه السلام ـ الـتي تصـدى لإبلاغها ، وأعمل كل جهـده وصـبره وحكمته لكي يـؤمن قومه بها ، ولكنهم رفضـوه ورفضـوها إصرارا على اتباع المستكبرين ، وعلى ضـلالات الشـرك ، بـالرغم من أنهم وهم يسـيرون الى الهلاك أحـوج ما يكونون إليه وإليها.

(**قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهاراً**)

وهـذه من صـفات المجاهـدين الرسـاليين أنهم لا يعرفون وقتا مخصوصا يحصرون فيه

(1 ، 2) موسوعة بحار الأنوار ج 5 ص 139

دعـــوتهم وجهـــادهم ، إنما يســـخرون كل طاقـــاتهم ، ويصــرفون كل أوقــاتهم من أجل رســالتهم وأهــدافهم ، يــدفعهم إلى ذلك أمــران مهمّــان : أحــدهما : الرغبة في ثــواب الله وخشــية عقابه ، والآخر : إحساســهم بعظمة أهـــــدافهم وتطلعـــــاتهم ، وأن بلوغها لا يمكن إلّا بالجد والاجتهـــاد والمزيد من الســعي ، إذ الأهـــداف كبــيرة والإمكانــات محــدودة ، فلا بــدّ من سد النقص الكمي في العدد والعـدة بـالكيف ، الأمر الـذي لا يجعل حـتى ليلهم ــ كما يتصور البعض ــ وقت راحة واسـترخاء ، فـإنهم إن لم يشتغلوا فيه بدعوة الناس والأدوار الاجتماعية المباشــرة ، فســـيجعلونه فرصة للتفكـــير في شـــأن رســـالتهم ومسئولياتهم ، والاتصال بربهم تعرّضا لنفحاته ومرضــاته ، وتلقّيا لإرادة العمل الدؤوب في سـبيله ، وتـزودا بالإيمـان وروح التسليم.

ولكن جهـود نـوح ما كـانت تنفع قومه لأن بينهم وبين دعوته حجبا سميكة من الإصرار والتحــدي الأعمى للحق ، بل كانت تزيدهم فرارا منه ، وبعـدا عن الحق ، وهـذه من خصــائص الصــراع بين الحق والباطل ، انه كلما صــعدت جبهة الحق من تحركها ونضــالها ازدادت جبهة الباطل في عنجهيتها وعنادها.

(**فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً**)

وقد احتار المفسرون بسؤالهم : كيف يعقل أن تكون دعـوة نـوح سـببا لفـرار قومه من الحـق؟ إلا أن المسـألة طبيعية وقد أكدنا في مواضع من تفسيرنا على القول بأن في داخل الإنســـان ضـــميرا يـــدعوه الى الحق (فطرته ونفسه اللوامة وعقلـه) وحينما يعقد الكفّـار عـزمهم على رفض الإيمـــان فـــإنهم يواجهـــون حربا نفســية باطنية مع الضمير ، مما يـدعوهم لتحـدي عقـولهم ووجـدانهم ، ومن جملة وسائل التحـدي للحق التهـرب من مجـالس الـدعوة والــدعاة ، وذلك لإقنــاع النفس بعــزة الإثم ، وفي عــالم السياسة لا يخفى على المـــراقب أن وجـــود الحركـــات الرسالية في مجتمع ما تؤثر على النظام القائم

بصـورة معاكسة ، حيث يقـوم بالمزيد من القمع والظلم ، وقد سمى دعوته بالـدعاء لأنها في حقيقتها طلب لنجـاتهم من العذاب الأليم.

(**وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ**)

وبالتالي يتأخر عنهم العذاب الأليم ، والأجل المعلق.

(**جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ**)

كناية عن الحجب الــتي تمنعهم عن ســماع الــدعوة والاستجابة لها ، وربما كان بعضهم يضعها بالفعل.

(**وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ**)

اي اســتتروا بها فهي حجــاب كالغشــاء تمنعهم من الاتصال بالدعوة ، بل حتى من مجـرد النظر إلى الداعية ، والى جـانب هـذه الحجب الظـاهرة ، هنـاك حجب باطنة تغشى قلـوبهم أهمّها : الإصـرار على الباطل ، والضـلال ، والاستكبار عن التسليم للحق.

(**وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً**)

والمفعول المطلق «استكبارا» يفيد التأكيد والتهويـل. أي استكبروا أيّما استكبار فـاحش ، تحـدوا به الحق رمـزا وقيما ، وهـذا تمهيد لتـبرير الحكم الإلهي بعـذابهم تـبريرا موضوعيا ، فـإن من يعـرف مـدى تـودد نـوح لهم وتلطفه بهم من جهة ، ومدى عنادهم وجحودهم من جهة أخـرى لا يسـتبعد العـذاب عن سـاحتهم ، ولا يشك في عدالة اللـه. وفي الدر المنثور عن قتادة قـال : بلغـني أنه كـان يـذهب الرجل بابنه الى نـوح فيقـول لابنه : احـذر هـذا لا يغرنك ، فان أبي قد ذهب بي وانا مثلك

فحـذّرني كما حـذرتك [1] ومن ظـاهر الأخبـار أنه ــ عليه السـلام ــ عاصر ثلاثة أجيـال ، كلها كـانت لا تـؤمن به إلّا قليل منهم. لأن معـدل الأعمـار يومئذ كـان ثلاثمائة سـنة تقريبـا. قـال الصـادق (ع): «**كـانت أعمـار قـوم نـوح ثلاثمائة سنة**» [2].

[8 ـ 12] وأمـام الموقف الصـلف الـذي اتخـذه قـوم نــوح (ع) ضــده وضد رســالته لم يجعل خيــاره الهزيمة والـــــــتراجع ، ولا التوافق والمداهنة ، إنما أصر بعزيمة الإيمـان على المضي قـدما نحو الهـدف ، وأداء الرسـالة بأكمل وجه ، فهو مـــتيقن من الحق الـــذي بين يديه ، ولا يسـاوره أدنى شـكّ فيه ، فالأهـداف والقيم بالنسـبة اليه ثوابت لا تقبل التبديل أو التحويل ، وهذه من أهم خصائص الخط الرسالي الأصيل. ولذلك عمد شـيخ المرسـلين الى تغيير أسلوبه.

(**ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً**)

اي صارح قومه بأمره ، فبدل أن يطرح أهدافه وقيمه لمن يتصل بهم بصورة غير مباشرة ، خشية ردات الفعل ، أو خشية عدم استيعابها جاهرهم بها.

(**ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً**)

ومن الآيتين يتضح لمن يدرس تاريخ الحركة الرسـالية في عصر نـوح (ع) انها كـانت تنتقل بين الحين والآخر من أسلوب الى غيره تبعا لمقتضيات الظروف ، وهذه مسيرة طبيعية عند الحركات الرسالية وبالخصوص تلك التي يمتدّ عمرها اجيالا وتعاصر تطورات كثيرة ، فليست اذن العلنية صحيحة على طول الخط ، كما أن

---

(1) الدر المنثور ج 6 ص 268

(2) موسوعة بحار الأنوار ج 11 ص 289

التقية ليست أسلوبا ثابتا الى الأبد ؛ لان الحركة الرسـالية حركة واقعية ، فقد لا تعلن الـــــدعوة لأن الظـــــروف السياسية والاجتماعية والتربوية لا تسمح بذلك.

وقد احتـــار المفســـرون في التفريق بين الجهـــار والإعلان ، والذي يبدو : ان الجهار يعـني التصـريح الواضح والمباشر بأفكار الـدعوة وقيمها للنـاس ، وقد تكـون هـذه العملية محدودة فيمن يتصل بهم الرسـاليون اتصـالا خاصا ، فالقيم الرسالية كالتغيير الجـذري والكفـاح المسـلح أمر صعب ومستصعب لا يتحمله الناس من البداية مما يضطر الداعية الرســالي الى الارتقــاء بهم نفســيا وفكريا حــتى يتسنى له مجاهرتهم ببعض الأمور ، فليس صـحيح مثلا ان يفهم الفرد أنه في تنظيم ثوري رسـالي من أول لقـاء بل لا بد من إيصاله الى هذه الحقيقة شـيئا فشـيئا لكي يمكن مصـــارحته بها واســتيعابه لهـــا. أو أن الجهر مرحلة بين الكتمــــان والإعلان فليست ســــرية مائة في المائة ولا العكس ، أما الإعلان فهو أشبه ما يكون بـالإعلام ـ حسب المصطلح الحديث ـ أي الطرح الجماهيري السافر للدعوة الرسالية ، وقوله في الأخير : «وأســررت» يـدلنا على ان هـــذه المراحل والتكتيكـــات ليست ذات مـــراتب حتمية (اســرار ، ثم إجهـار ، ثم إعلان) كلا .. وإنما هي معطيـات يمليها الواقع ، فقد ينتقل العمل الرسالي من الإعلان الى الكتمان الشديد مباشرة لسبب من الأسباب.

ومع هـــذه التغــيرات الظاهرية تبقى الاســتراتيجيات المحورية واحدة وثابتة ؛ إنها دعوة الناس الى العـودة الى الله ، والترغيب في معطيـات الإيمـان ، واتبـاع الرسـالة ، والتحريض على نبذ الأنداد الموهومين من دونه عز وجل.

(**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً**)

أي دعـاهم الى الاسـتغفار ، وطمـأنهم بـأن الغفـران صـفة الله الـرحمن ، ولا ريب ان المعـنى من الاسـتغفار ليس مجــرد القــول : اســتغفر الله ، انما هو النــدم على الخطايا في

النفس ، والرجوع منها بالقول والعمل ، واللجــوء الى الله اســــــتجارة به منها ومن عواقبها ، وبتعبــــــير آخر : إن الاستغفار برنـامج متكامل وهـذا ما تفصح عنه المعطيـات التي يأتي بها.

(**يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً**)

اي مطرا كثيرا متواصلا ، تدرّه السماء كما يدرّ ضــرع البقر الحليب ، وقد قــدم القــرآن ذكر المــاء لأنه عصب الحياة والحضارة.

(**وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ**)

يعني أن الاستغفار يتسبب في النمو اقتصاديا وبشريا ، وقيل : انهم كانوا قد قحطوا ، وأسنتوا (أجـدبوا) وهلكت أموالهم وأولادهم (قبيل العذاب الأليم) ولــذلك رغبهم في رد ذلك بالاسـتغفار مع الإيمـان والرجـوع الى الله [1] والى ذلك ذهب أكثر المفسرين ، ونهتدي من هـذا السـياق الى أن الإيمان والاستغفار ليس من شؤون الآخرة وحسب بل هو متصل أيضا بحياة الإنسان في الدنيا. وعن قتادة قال : رأى نـوح (ع) قوما تجـزعت أعنـاقهم حرصا على الـدنيا ، فقال : هلمّوا الى طاعة الله فإن فيها درك الدنيا والآخـرة [2] وإلى ذات الحقيقة أشـــار الإمـــام علي (ع) في خطبة الاستسقاء حيث قال : «وقد جعل الله سبحانه الاسـتغفار سببا لدرور الرزق ، ورحمة الخلق فقال سبحانه : «الآية» [3].

(**وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً**)

---

(1) مجمع البيان ج 10 ص 361
(2) الدر المنثور ج 6 ص 268
(3) نهج البلاغة خطبة 134

تسـتوعب الميـاه وتقلّها للشـاربين إنسا وحيوانـات ، وسقاء للجنات والأشجار والمـزارع ، وثـابت علميا وعمليا ان وجـود الأنهـار من العوامل الحضـارية الأساسـية ، لأنه سـبب الزراعة الـتي هي بـدورها من مظـاهر الحضـارات ومقوماتها ، والجنات والأنهـار يشـيع كلاهما حاجـات مادية ومعنوية عند الإنســـان. ولا ريب أن الجعل هنا لا يتم عن طريق المعجزة بحيث تتنزل الجنات من السماء بأشجارها وأثمارها أو تـزداد الأمـوال والأولاد بعوامل غيبية مجـردة ، انما تحــدث البركة وتكــون الحضــارة بعــاملين (ســعي الإنسان الذي قمّته ورمزه الاستغفار+ بركة الله وفضـله) ونحن يجب ان نقرأ في ثنايا دعـوة نـوح ـ عليه السـلام ـ حينما قال (**اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ**) كل عوامل التقدم والترقي من سـعي وإتقـان وجد .. أو ليس الاسـتغفار غاية سـعي الإنســان نحو الفضـيلة والكرامــة؟! أو ليس يعــني تجنب الأخطاء ، والسير على المنهج القويم؟ وكما ان الاستغفار يجلب الخير والتقدم للأمم فإن الذنوب تسـلبهما ، وتصـير بها الى الشر والتخلف ، ويبــدو من ســياق الآيــات ومن الأحــاديث : أن قــوم نــوح أصــيبوا بنقص في الأمــوال والأنفس والثمــرات. بل أنضب مــاؤهم ، فجــاءت دعــوة النــبي نــوح ــ عليه السـلام ــ بهـدف إصـلاح مسـيرتهم وانتشـالهم من حضـيض هـذه المشـاكل إلى آفـاق البركة والرفاه ، قال العلامة الطباطبائي معلقا على هذا السـياق : أي أن هنـــاك ارتباطا بين صـــلاح المجتمع الانســـاني وفسـاده وبين الأوضـاع العامة الكونية المربوطة بالحيـاة الانسانية ، وطيب عيشه ونكـده [1] والى ذلك أشـار الفخر الـرازي مسـتدلا بقـول الله : (**ظَهَـرَ الْفَسـادُ فِي الْبَـرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**) [2] وبقوله تعالى : (**وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَـبَتْ أَيْـدِيكُمْ وَيَعْفُـوا عَنْ كَثِيرٍ**) [3].

---

(1) الميزان ج 20 ص 30

(2) الروم 41

(3) الشورى 30

[13 ـ 14] ويخاطب نوح قومه بلغة الوجدان ، مذكّرا بنعم الله وآياته لعلهم يعـودون الى فطـرتهم ، فيعبـدون الله ويتقونه ، ويطيعونه بدل الطاعة للمترفين.

(**ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً**)

قال ابن عباس : الوقـار هو الثبـات ، من وقر إذا ثبت واسـتقر ، ومنه قوله : «**وَقَـرْنَ فِي بُيُـوتِكُنَ**» فوقـاره تعـالى ثبوته واسـتقراره في الربوبية ، المسـتتبع لألوهيته ومعبوديته [1] وقيل : المعنى ما لكم لا توحدون الله تعـالى ؛ لأن من عظّمه فقد وحـــــده ، وعن الحسن : ما لكم لا تعرفون لله حقّا ، ولا تشكرون له نعمة [2] وقد ذهب أكـثر المفسـرين الى القـول بالعظمة ، ويبـدو أننا نهتـدي الى معنى الآية لو قارناها بقول الله : (**وَما قَـدَرُوا اللـهَ حَـقَّ قَـدْرِهِ**) [3] فـان توقـير الله بحق هو معرفة قـدره بمعرفة أسمائه وصفاته الحسنى ، والعيش في الحيـاة على ضـوء هـذه المعرفة ، وذلك لا يمكن الا بعبادته وتقـواه واتبـاع رسله ورسالاته.

وتكشف لنا الآية عن مدى الضلال المتورط فيه أولئك القوم ، ونستوحي ذلك من كلمة (**لا تَرْجُونَ**) إذ تبيّن أنهم ليس لا يـوقرون ربهم وحسب ، بل لا يرجـون أن يـوقره الآخرون ، ولا أن يـأتي يـوم يوقرونه في أنفسـهم ، فليس ثمة ولا بصيص نـور في فكـرهم يمكن أن يـوقروا ربهم به في المستقبل.

ثم يـذكر نـوح بعض الآيـات والنعم الإلهية الهادية إلى الايمـان بالله والتسـليم ، ومن ثم توقـيره لو أن الإنسـان توجه إليها وأراد شـكرها ، وأولها خلق الإنسـان ونظـام خلقته.

---

(1) تفسير البصائر ج 49 ص 201

(2) راجع المصدر فقد أورد (15) رأيا في الآية

(3) الانعام 91

(**وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً**)

ولهذه الكلمة معان من بينها :

1 ـ المراحل الـتي يمر بها الإنسـان في خلقه ، حيث يبدأ نطفة ثم علقة ثم مضغة ... وهكذا ، حتى يصير شيخا كبيرا ، وان خضوع البشر الحتمي لهذه الأطـوار دليل أكيد على أنه لا يملك أمر نفسه في كل شـــــيء ؛ إنما حياته محكومة بالقـــانون والنظـــام ، الـــذي يهديه الى المقنن والمنظم ، كما يدله على الحســـاب والجـــزاء ، حيث أن الإخراج من الأرض كما أطـوار الخلق حقيقة لا يمكن لأحد أن يرفضها أو يدعي القدرة على مقاومتها.

2 ـ التنـوع البشـري الـذي يـؤدي الى التكامل ، فقد خلق الله النـــاس مختلفين في مـــواهبهم وقـــدراتهم وتوجهـــاتهم ، مما يكامل مســـيرتهم في الحيـــاة ، فلم يخلقهم كلهم أمراء ولا أطبـاء. وذلك من عظيم نعم الله ، وإلا أصبحت الحيـاة قسـرية ، وذات لـون واحد مما يـؤدي الى فشـلها قـال تعـالى : (**وَرَفَعْنا بَعْضَـهُمْ فَـوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُـهُمْ بَعْضـاً سُـخْرِيًّا**) [1] (سـخريّا : أي سخرة) ، وثابت بالتجربة أن النظريات القسـرية نظريـات خاطئة فاشـــلة ، فقد خطط ماوتسي تونغ وســعى لجعل المجتمع الصـيني على نمط واحد ، وغفل عن أن المجتمع بحاجة الى التنوع لكي يتقدم ويتطور ، ولذلك وجـدنا كيف ان من خلفه خطّأه وخطّط للتغيير. قال الامام البـاقر (ع) في معنى الأطوار : «**وقد خلقكم على اختلاف الأهواء والإرادات والمشيئات**» [2].

[15 ـ 20] وينطلق السـياق بنا يعرفنا ببعض نعم الله ومننه علينا في الآفاق ،

(1) الزخرف / 32
(2) تفسير القمي ج 2 ص 387

وذلك ليطمئن الإنسـان بأنّه مهما جـال ببصـره وفتش في الوجود فإنها تهديه ايات الخلق الى ربه ، حيث آثـار قدرته وحكمته ورحمته مطبوعة على كل جزء جزء فيه.

(**أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً**)

انها سبع سموات ولكنك لا تجد فيها فطورا ولا تناقضا ، انما هي منسجمة يكمل بعضـها بعضا ، كما الأطـوار في الخلق والنـاس ، والآية تهـدينا إلى أن من بين المقصـود بالسـموات السـبع تلك الـتي تظل الأقـاليم السـبعة وذلك بـدلالتين ، الاولى : انه قـال : (**أَلَمْ تَـرَوْا**) مما يعـني ان المقصـود مما يـراه الإنسـان ويشـاهده وذلك لا يمكن لو قصـدت السـموات الـتي تنقل بينها النـبي (ص) في رحلة المعـراج لأنها طبق فـوق أخر وليس ظاهرا منها سوى الأولى.

والثانية : ان التعبير في الآية اللّاحقة جعل القمر نـورا فيها كلها ، بينما أطلق سـراجية الشـمس ، لأن دور القمر محدود في أفاق الأرض فقط ، بينما دور الشمس يشـمل كـواكب وآفاقا أخـرى فكلمة «فيهن» إذن إشـارة الى سـماوات الأقـاليم وليست السـموات الـتي بعضـها فـوق بعض حسب الظـاهر ، إذ القمر في واحـدة منهن وليس فيهن جميعا.

(**وَجَعَـلَ الْقَمَـرَ فِيهِنَّ نُـوراً وَجَعَـلَ الشَّـمْسَ سِراجاً**)

وبهـذه الآية كشف القـرآن للبشـرية جانبا من أسـرار الكون في وقت ما كانت تحلم بـالتطلع الى معرفة طبيعة الأرض فكيف بالاجرام التي حولها كـالقمر والشـمس؟ إن القمر يختلف عن الشـمس في خلقته ودوره ، فبينما خلقت من كتل النـيران حـتى تـوفر الطّاقة الحرارية ، والإضـاءة فيها ذاتية ، نجد القمر كـالمرآة الـتي تعكس أشعة الضوء السـاقطة من الشـمس ، وكما أنه تعـالى لم يترك الأرض

والسماء تكوينيا مظلمتين من دون نور وسراج ، كذلك لن يدع المجتمع البشري من دون إمام ونهج يهتـدى بضـوئه ، فلا غرابة اذن ان نجد بعض الروايـــــات تـــــأول القمر والشمس في أئمة الهدى ـ عليهم السلام ـ وكل امام حق .. قال أبو ذر ـ عليه السـلام ــ : «ان أهل بيت النبـوة فينا كالقمر الساري» [1]

(**وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً**)

قـــال شــيخ الطائفة ابو جعفر الطوسي : فالانبـــات إخـــراج النبـــات من الأرض حـــالا بعد حـــال ، والنبـــات هو الخارج بالنوى حالا بعد حال ، والتقـدير في «أنبتكم نباتـا» اي فنبتم نباتا ، لأن «أنبت» يـــــدل على نبت من جهة انه متضـمن له [2] وعلق صـاحب المجمع فقـال : يعـني مبـدأ خلق آدم ، وآدم من الأرض والنـاس ولـده ، وهـذا كقوله : (**وَبَثَّ مِنْهُما رِجـالاً كَثِـيراً وَنِسـاءً**) وقيل : أنبت جميع الخلق باغتـــذاء ما تنبته الأرض ، وقيل معنـــاه : أنبتكم من الأرض بالكبر بعد الصغر ، وبالطول بعد القصر [3].

فالإنسـان اذن ابن الأرض ، لا فـرق بين آدم وبين كل فرد فرد من أبنائه ، فمع أنه ـ عليه السلام ـ خلق مباشرة من التراب إلّا أننا عند التحليل العلمي الواقعي نهتدي الى أن كل ذرأت الجسم أصلها الأرض.

(**ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها**)

كما أنبتكم منها حيث يــذوب البــدن بــالموت وتتحلل أعضاؤه في التراب.

---

(1) البرهان ج 4 ص 270
(2) التبيان ج 10 ص 138
(3) مجمع البيان ج 10 ص 363

(**وَيُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً**)

بالبعث والنشور ، وإننا نعـرف بـأن هنـاك تشـابها بين الإنســان والنبــات في أطــواره ، حــتى في الإخــراج من الأرض الـتي تصـير يـوم البعث كما رحم الأم يمطرها الله أربعين صــباحا ، فــاذا بك تــرى الأرض تنشق عن النــاس سراعا.

(**وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً**)

نفترشها ونمشي على ظهرها ، والجعل يعـني التمهيد الذي تم بلطف الله ورحمته من خلال القـوانين الطبيعية ، وخلق الأرض بالكيفية الـــتي تجعل الحيـــاة عليها ممكنة وميسرة.

(**لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلاً فِجاجاً**)

اي طرقا كثـــيرة واســـعة ، وقيل : طرقا مختلفة ، والفج المســـلك بين الجبلين [1] وهــذه الآية تأكيد على انه تعــالى بسط الأرض لنا ، إذ لو لم يبســطها ما كنا نجد لنا طرقا للمشي فيها والتنقل بين بقعها المختلفة ، ومن الآيــات الالهية انه لا توجد بقعة الا وفيها ســبلا يســتطيع البشر ان يســلكها ، وقوله : «ســبلا» بــالجمع يهــدي الى الكثرة والتنوع في نفس الــوقت ، فبسط الله للأرض يعم اليابسة والماء والهواء.

وإذا قلنا : ان الفجــاج هي الطــرق بين الجبــال فانه ثابت عمليا بـأن أغلب الطـرق البرية بين البلـدان تمر من خلال السلاسل الجبلية ، وذكر الله للطـــــرق الـــتي بين الجبال بالذات لأنها أظهر آية ودلالة من التي في السهوب والصحاري.

[21] وهكــذا ذكرنا ســبحانه بتلك النعم لعلنا نعــرف عظيم منّه علينا فلا نعبد

(1) مجمع البيان ج 10 ص 137

سـواه ، وتـذكير نـوح ـ عليه السـلام ـ لقومه بمنـائح الله ونعمه يأتي في سياق اسـتثارة عقـولهم وضـمائرهم الـتي حجبها الضلال لعلهم يتذكرون الحق ويتبعونه ويعرفـون ان تلك النعم من عند الله رب العالمين ، وأنها تدعوا الإنسان الى التسليم بالحق قيما وقيادة ، وبعبارة أخـرى : تفـرض القيم الأساسية التي تتضمنها رسالات الأنبيـاء على البشر (عبادة الله وتقواه والطاعة للقيادة الرسالية) الا ان قــوم نــوح بلغــوا من الانحــراف عن الحق والجحــود ما لا تنفع معهم الموعظة.

(**قالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي**)

وهذا لوحده ذنب عظيم ان يـرفض الإنسـان التسـليم لقيادة الحق ، ولأن أحدا لا يسـتطيع ان يعيش فراغا قياديا فإنهم اتبعوا قيادات الباطل والضلال.

(**وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَساراً**)

ونســـــتوحي من الآية : انهم كــــــانت تحكمهم طبقة الأغنياء المترفين ، ومن الطبيعي ان يقف هؤلاء ضد دعوة الأنبيــاء والقيــادات الرســالية وطــرحهم القيــادي لأنهم حريصون على رئاسة المجتمعات والسيطرة على افرادها وخيراتها ومقـدراتها ، قـال العلامة الطبرسي : اي اتبعـوا أغنياء قومهم اغترارا بما أتـاهم الله من المـال ، فقـالوا : لو كـان هـذا رسـولا لكـان له ثـروة وغـنى ، وقيل : اتبع الفقـراء السـفلة الرؤسـاء الـذين لم يـزدهم كـثرة المـال والأولاد الا هلاكا في الـدنيا ، وعقوبة في الآخــرة [1] وذلك مما يـدلنا الى مـدى ارتكاسـهم في المادية والشـيئية ، إذ اعتبروا الأموال والأولاد مقياسا لاختيـار القائد وليس الحق ، وهنا نصل الى فكرة هامة وهي : ان الخطأ الفظيع الذي وقع فيه قوم نوح (ع) أنهم لم يسلكوا السبيل القـويم في الحياة مما أدى

---

(1) مجمع البيان / ج 10 ص 137

بهم الى الخسـران العظيم ، مع انه تعـالى فـرض على الإنسـان ان يختـار طريقه تشـريعيا وفي الحيـاة المعنوية والاجتماعية كما يختار طريقه بين فجاج الأرض ومناكبها.

وقد أكد نوح ذنب معصيتهم له بالـذات ، فلم يقل مثلا : أنهم لم يعبـدوا الله أو لم يتقـوه لأن معصـية القيـادة الالهية في الواقع معصية لله وعنوان كل انحـراف وفسـاد ، وإنما لم يعبدوا ربهم ولم يتقـوه لأنهم لا يريـدون الطاعة للرسـول واتباعه ، بل إن العصـيان هنا شـامل لعـدم استجابتهم للاهداف الثلاثة كلها (عبادة الله وتقـواه واتبـاع القيادة الرسالية) لأنه هنا يعني رفض الـدعوة والداعية كلّا وتفصيلا.

والسؤال لماذا يتبع الإنسـان المـترفين؟ ونجيب : لأنه ينبهر بالمـال أو القـدرة فيلهث وراء من يملكهما ، لعله يحصل على بعض الفتـات من الخـبز ، أو تصـيبه عـزة من عزته ، ولكن الأمر على العكس من ذلك بالضـبط إذ المجتمع الذي تشيع فيه هذه الثقافة سوف يصـبح فريسة ميسرة للمترفين ، فيمتصون جهـوده ويسـتغلونه اسـتغلالا بشعا ، ولو أننا حققنا في ظاهرة تسـلط المسـتكبرين من أصـحاب الـثروة والقـدرة على المجتمعـات والشـعوب المستضـعفة لوجـدناها متأسسة على هزيمة المحكـوم نفسـيا أمـامهم ، ولا يزيد المستضـعفين ذلك الا خسـارة ، لأنه كلما زاد الانبهـار زاد المسـتكبر اسـتكبارا ، واسـتغلالا لجهـود المستضـعفين ، وقمعا لتطلعـاتهم المشـروعة ، وطبيعي أن من لا يسخر المال من أجل مصالحه الحقيقية سـوف يـزداد خسـارة كلما ازداد مـالا ، من هنا قـال ربنا سـبحانه : (**مَنْ لَمْ يَـزِدْهُ مالُـهُ وَوَلَـدُهُ إِلَّا خَسـاراً**) لأن المعنى هنا شامل لخسارة الطرفين التابع والمتبوع ، بينما قد لا يشملهما لو جاء التعبير بما هو مفـترض (لم يـزدهم) ذلك أنه إذا خسر المتبوع فسـتنجر الخسـارة نفسـها على التابع الذي يلحق به في كل شيء.

[22] في قلب الإنسـان عقل يتـوهج بقيم الصـدق والصلاح ، ووجدان يقظ

يحاكم صاحبه عند كل انحراف ، وفي المجتمع الانساني عرف عام يلاحق المجرم باللائمة واللعنة .. كل ذلك يدعوا المجرم الى صنع ثقافة تبريرية للتهرب من وخز الضمير ومحاكمة الفطرة كما يدعوه الى مقاومة المصلحين وإسكات أصواتهم المعارضة ، لعلهم ينجون من لومهم وادانتهم ولعل هذا هو السبب في أن الإنسان كلما ازداد إجراما كلما ازداد مكرا وكيدا لأنه تزداد حاجته الى الفرار من لوم ذاته وإدانة العرف العام.

(**وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً**)

بنسبة عصيانهم وضلالهم ، وهذا ما يفسر مدى اهتمام المستكبرين وأذنابهم في هذا العصر الذي تزداد فيه الجريمة ، ويطغى فيه المستكبرون بأجهزة الاعلام ووسائله ، حتى تكاد الميزانية الإعلامية تضاهي أحيانا الميزانية العسكرية.

[23 ـ 26] ومن عظيم مكرهم تواصيهم بالباطل وتضليلهم لبعضهم ، إبقاء على الانحراف وإصرارا على الضلال.

(**وَقالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُواعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً**)

وقد اختلف المفسرون في هذه الأسماء ، وأقرب الآراء : أنها ترمز الى رجال عظماء من أبناء آدم ، أوحى إبليس الى تابعيهم باتخاذ تماثيل لهم ، ثم أمرهم بعبادتهم ، وبهذا وردت بعض النصوص.

وقولهم : «لا تذرن» حتى نهاية الآية (23) مما لاكته ألسن المترفين الذين أحسوا بخطر الرسالة على زعامتهم ومصالحهم ، وهم لا يدعون الناس للتمسك بتلك الأصنام ايمانا بها انما لأنها رمز للثقافة التي تمكنهم من السيطرة على المجتمع ، كما تنفخ دعاة العنصرية فيها وفي رموزها لمواجهة الحركات التحررية.

(**وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً**)

بهذه الـدعوات الباطلة ، حيث وجـدوا بين النـاس من اتبعهم بسبب الجهل أو انسياقا وراء المصلحة الدنيوية.

(**وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلالاً**)

قيل : ان الضـــمير في «تــزد» راجع الى الأصـــنام ، فـالمعنى أنها لا تزيد الظـالمين باتباعها الا ضـلالا ، وقيل : ان الجملة استئنافية ، وهي دعوة من نوح على قومه بـأن لا يزيـــدهم الله إلّا ضـــلالا ، وهي دعـــوة عليهم بكل شـــرّ مسـتطير ، أو ليس الضـلال أصل كل شر ، وقد اسـتجاب الله دعـاء نبيه الـذي أيقن بـأن الحيـاة لا تصـلح لهم ، وان الموت أولى لهم ، وكذلك اوحى اليه ربه : (**أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ**) [1] فأهلكهم غرقا بالطوفان ، وهنا يلفتنا السـياق الى حقيقة أساسـية ، وهي أن سـنة الجـزاء مرهونة بالإنسـان نفسه ، فهي تجـري في سـياق العدالة الإلهية ، وان كـانت مظهـرا لقـدرة الله أيضا ، ولو أننا فتشنا في الأسباب لهلاك أي قـوم لوجـدناها أعمـالهم ومسـاعيهم لا غـير ، وهـذه بالضـبط قصة قـوم نـوح مع الطوفان.

(**مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً**)

أصابهم الغـرق في الـدنيا ، ونقلهم المـوت إلى سـوء العذاب في الآخرة ، حيث نار جهنم الـتي تنتظر كل كـافر ومشـرك ، وما كـان مـوتهم في لجّة الأمـواج ينجيهم من نــــيران جهنم في الــــبرزخ ، لأن تلك النــــار تكمن في وجودهم.

(**فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصاراً**)

---

(1) هود / 36

يحجزون عنهم العذاب ، أو يقاومون بهم سلطان الله ومشيئته ، كما يزعم المشركون بعبادتهم الأصنام بشرا أو حجرا أو غيرهما.

(**وَقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكـافِرِينَ دَيَّاراً**)

والديار ـ كما يبدو ـ هو من يسكن الدور والديار ، وإنها حقّا دعوة بعذاب الاستئصال الذي حقت به كلمة الله عليهم ، فما بقي يومئذ أحد إلّا من آمن بنوح وركب السفينة ، ومن هنا نهتدي الى أن عذاب الاستئصال يأتي بهدف تطهير الأرض من العناصر الفاسدة التي لا تنفع معها النصيحة ، وان مبرر وجود الإنسان هو ما يشتمل عليه من الحق في كيانه فإذا صار خلوّا من أيّ حق فقد مبرر الوجود تشريعيا وتكوينيا مما يؤدي به الى الهلاك ، وهذه الحقيقة تنطبق بصورة أجلى على الإنسان (المجتمع) منها على الإنسان (الفرد) ومن هنا نفهم الآية الكريمة : (**وَلَوْ لا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ**) [1] وكذلك الروايات التي تقول : «**ان الله ليدفع بالمؤمن الواحد عن القرية الفناء**» [2] لأنه لو لا وجود المؤمنين من الناس لما بقي مبرر لوجود الآخرين.

[27] ثم يبين شيخ المرسلين الخلفيات والحيثيات وراء دعوته على قومه ، فهو لم يدع عليهم لأنه مل وتعب من الجهاد في سبيل الله ، ولا لأنه يحمل العداء الشخصي ضدهم لما لقيه من الأذى والمعاناة على أيديهم ، إنما كان منطلقه في ذلك رساليا خالصا لوجه ربه.

(**إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ**)

الموجودين ، فيزيدون الضالين ضلالة ، ويؤثرون على من آمن ليعود كافرا

---

(1) البقرة 251

(2) موسوعة بحار الأنوار ج 67 ص 143 عن أبي جعفر (ع)

مشركا مثلهم ، وفي هذه الآية يجب ان نقرأ مدى الضغط الذي يواجهه المؤمنون حينما يستقلون برأيهم ومسـيرتهم عن مجتمع الضلال والفسـاد .. إنه يبلغ حـدّا يخشى عليهم من الانحراف بسببه ، هذا من جانب ، ومن جـانب آخر أنّه لا يـرتجى خـيرا ولا مسـتقبلا سـليما للأجيـال الـتي تنسل منهم ، باعتبـارهم قد أحكمـوا أسـاليبهم التربوية السـيئة التي من شـأنها بنـاء شخصـية الأولاد على أسـاس الباطل والعداء للقيادة الرسالية ولخط المؤمنين.

(**وَلا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً**)

بالوراثة وبالتربية ، والفـاجر هو من لا يقف عند حـدّ شـرع أو عـرف ، ولا يقيم وزنا لقيمة لا في نفسه ولا في المجتمع ، إنما يطلق لشهواته العنان ، بينما الكفّار صـيغة مبالغة من الكفر وهو خلاف الإيمـان ، والكفـور خلاف الشكر.

ولقد انتهى نـوح الى هـذه النتيجة بتجربته المـرة الطويلة الـتي عاصر فيها ثلاثة أجيـال على الأقل وخـبرهم بتمام المعرفة ، وكذلك بإخبار الله له ، قال الراوي : قلت لابي جعفر البـاقر (ع) : ما كـان علم نـوح حين دعا على قومه انهم : «**لا يَلِـدُوا إِلَّا فـاجِراً كَفَّاراً**»؟! قـال : أما سمعت قول الله لنـوح : «**أَنَّهُ لَنْ يُـؤْمِنَ مِنْ قَوْمِـكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ**» [1] وقد ذهب أغلب المفسرين الى القول : بان الله تعـالى أخـرج من أصـلابهم كل من يكـون مؤمنا ، وأعقم أرحـام نسـائهم ، وأيبس أصـلاب رجـالهم قبل العذاب بأربعين سنة [2].

والآية تبين بأن الإنسـان قد يرحمه الله ليس لذاته بل لآخرين يتعلقون به كالأولاد.

---

(1) تفسير القمي ج 2 عند الآية

(2) مجمع البيان ج 10 ص 365

[28] وختاما لهـذه السـورة المتضـمنة للحـديث عن المعانات الصعبة ، ودعاء شـيخ المرسـلين على قومه نجد آثار اللطف وحب الخير يجليها لسان نوح عن قلبه الحنون ، وذلك حتى لا يظن أحد أنه ـ عليه السلام ـ يحمل العـداء الشخصي ضد قومه بالذات ، فإنه وازن بين الـدعاء سـلبا ضد الكفـار الفـاجرين ، والـدعاء ايجابيا لصـالح المؤمـنين الصالحين.

(**رَبِّ اغْفِرْ لِي**)

وهـذه قمة العبودية لله والخشـية منه ، فبـالرغم من الجهاد الطويل في سـبيل الحق الـذي امتد طيلة حياته إلا أنّه لم يمن على الله بشـــيء من طاعاته لإيمانه بأنها ما كـــانت تكـــون لو لا لطفه وتوفيقه ، وان الخضـــوع له والاعتراف بالتقصير تجاهه خير وسـيلة للمزيد من القـرب منه والسعي في خدمته وإنّه حقّا درس يحتاجه كل مجاهد في سـبيل الله ليقـاوم به الغـرور وهمـزات الشـيطان ، وبالـــذات أولئك الـــذين يتطـــاول بهم العمر في خدمة الرسالة.

ولكنه بأخلاق النبوة الـتي تـدعوه للخـروج من قوقعة الذات ، والتفكـير في نجـاة الآخـرين بمقـدار التفكـير في نجـاة نفسه ، لم ينس غـيره بـالرغم من أن سـاعة دعائه كانت صعبة حرجة ، سواء قلنا بأنه دعا ربه قبل الطوفـان أو أثنائه أو بعـــده .. فهـــذا هو يلتفت لأولي الفضل عليه (أبـوه وأمّـه) ولشـركاء الصف والمسـيرة (المؤمـنين) لا فـرق عنـده بين من عاصـروه وبين من سـبقوه أو يـأتون بعده ، ويلتفت مرة مؤكـدا براءته من الظلم والظـالمين ، كما أكد بسابقتها ولاءه للحق واهله.

(**وَلِوالِدَيَ**)

إذ لهما الفضل فطريّا وتربويا في وجـــوده وبنـــاء شخصيته ، وهكذا نتعلم درس

الوفاء لأول معلم يلتقيه الإنسان في الحيـاة ، إنه لم ينس عناء والديه ، حيث حملته أمه وهنا على وهن ، ثم سـهرت ليلها وتعبت نهارها من أجل راحته ، وحيث أجهد أبــــــوه نفسه في طلب المعـــاش له وأكله وشـــربه وكســـوته ، وفوق ذلك كله ما تلقاه من تربية طيبة على الإيمان وحب الله.

(**وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً**)

يعني المؤمنين الذين انتموا الى خطه ومسـيرته ممن عاصروه.

(**وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ**)

في كل زمـان ومكـان لأنهم وإن اختلفت الظــروف والازمنة اخوته الــذين تجمعه بهم وحــدة الهــدف والخط والمسيرة.

(**وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَباراً**)

أي هلاكا وعذابا وضـلالا ، وهـذه الجملة تأكيد للـبراءة من الباطل قيما وأناسا في مقابل تأكيد الـــولاء للانتمـــاء للحق الآنف.

سورة الجنّ

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الأعمـال بإسـناده عن أبي عبد الله ــ عليه السـلام ــ قـال : «**من أكـثر قـراءة** «**قُـلْ أُوحِيَ إِلَيَ**» **لم يصبه في الحيـاة الـدنيا من أعين الجن ولا نفثهم ولا سحرهم ولا من كيدهم ، وكـان مع محمد ــ صـلّى الله عليه وآله ــ فيقـول : يا ربّ لا أريد به بدلا ، ولا أبغي عنه حولا**»

نور الثقلين / ج 5 ص 430

الإطار العام

إنّ التخرّصـات بوجـود قـوى غيبية قـاهرة تـؤثّر في مجريات الحيـاة من الأفكـار الـتي لا تكـاد تخلو منها ثقافة من الثقافات البدائية ، وهي عامل رئيس في الشرك بالله وعبادة الأصنام والأوثـان ، فالـذي يعبد شـجرة فإنّما لظنّه بـأنّ فيها حلـولا من عـالم الغيب ، والـذي يعبد الحجر لا يعبده بذاته وإنّما يعبد الروح التي يزعم أنّها تحوم حوله.

والجن من بين تلك الأرواح الـتي أثـير ولا يـزال حولها الكثير من الجدل إلى حـدّ الخرافة والخيـال المبـالغ ، فقد زعم البعض أنّها أرواح خلقت ذاتيّا من غـير خـالق ، وقـال آخرون أنّها تقوم بدور الخير والشر في الحياة ، وعلى هذا الأساس ارتأوا ضرورة إرضائها فأشركوا بها ..

وقد أفـرز الـوحي الإلهي الخرافة عن الواقع ، فـبيّن الحق ، ونسف الثقافـات الباطلة حـول الجن ، كما كشف في هـذه السـورة الـتي سـمّيت باسـمهم عن جـوانب من حضـارتهم اعتمـادا على علم الله المحيط بكـلّ شـيء ، وليس على الظنون والتخرصات ،

وتحدّثنا آياته بلسانهم : (الآيات 1 ـ 14).

والذي يدقّق النظر في آيات هذه السورة يهتـدي إلى وجوه تشابه أساسية بين حضارتهم وحضارة البشر :

1 / فهم مخلوقـون مكلّفـون من قبل الله بالإذعـان للحق ، واتباع رسالته المتمثلة في القرآن.

2 / وإنّ واقعهم الاجتماعي والسياسي يشبه إلى حـدّ بعيد واقع المجتمع البشـري ، ففيهم الزعمـاء الـذين يتسـلّطون على المجتمع ويشـطّون طغيانا وسـفها .. كطواغيت الناس وحكّامهم الفاسدين.

3 / كما أنّهم يقعـون في ذات الأخطـاء الـتي يتـورّط فيها ضلّال الناس كالشرك بالله عز وجل.

4 / وبالتـالي فـإنّ فيهم الصـالحين ودون ذلك والمسلمين والقاسطين كما هو حال البشر.

وفي البين يشير القرآن إلى أنّ الالتقاء بين حضـارتي الإنس والجن القائم على الشـرك بالله وزيـادة الانحـراف والرهق فإنّه منبوذ ومحرّم في شرع الله .. ومنه استعاذة السحرة والمشعوذين بالجن ، مما يزيدهم بعدا عن الحـقّ وتوغّلا في الباطل.

ويفضح الوحي مجموعة التخرصات والخرافـات الـتي صوّرت الجنّ قوى خارقة ، ورفعتهم إلى مسـتوى الربوبية ، ممّا دعا بعض جهّـال النـاس لعبـادتهم والشـرك بهم ، فيؤكّد :

أولا : أنّهم لا يحـوزون على العلم الحـقّ المطلق ، فلا يصح الاعتماد على ما يلقونه

من ثقافتهم وأفكارهم في روع من يعوذ بهم ، لأنّ علمهم محــدود إذ يجهلــون الكثــير من الأمــور .. وواضح تأكيد القرآن على أنّ كثيرا من تصوّراتهم وثقافـاتهم قائمة على الظن لا على العلم الـواقعي القـاطع (يلاحظ تكـرار كلمة «ظننـا» بلسـان حـال الجن مـرّات عديـدة) ، كما أنّهم لا يـدرون بمصـير من في الأرض أريد بهم شـرا أم أراد بهم ربّهم رشــدا. وحيث جــاء القــرآن كشف لهم عن مــدى ضلالتهم وجهلهم بجملة من أهمّ الأمور وأوضـحها .. أعـني الإيمان بالله وتوحيده.

ثانيا : وأنّهم ليســوا قــوى ذات قــدرات خارقة حــتى يخشى منهم البشر أو يعوذون بهم طمعا في نيل القدرة ، ودليل ذلك اعترافهم أنفسهم بعجزهم عن اختراق الحجب واستراق السـمع من الملأ الأعلى ، وعجـزهم عن مقاومة إرادة الله ، أو حتى الهرب من حكومته وسلطانه.

وحيث تتمحور السورة حول الحديث عن الجن الـذين أشرك بهم ولا يزال بعض الإنس تؤكّد الآيات الأخيرة على حقيقة التوحيد ، وأنّه تعـالى الـذي يملك الضـرر والرشد ، وهو أهل الاستعاذة به ، وعالم الغيب لا يشــاطره أحد فيه إلّا من ارتضى من رســله .. مما يعطي الشــرعية لخــطّ الأنبياء فقط ، أمّا الجن ومن يتصل بهم ـ سواء كانوا كهنة وسحرة ومنجّمين ـ فلا يجوز إتباعهم أبدا.

سورة الجنّ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقـالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِـهِ وَلَنْ نُشْـرِكَ بِرَبِّنا أَحَـداً (2) وَأَنَّهُ تَعـالى جَـدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صـاحِبَةً وَلا وَلَـداً (3) وَأَنَّهُ كـانَ يَقُـولُ سَـفِيهُنا عَلَى اللهِ شَطَطاً (4) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ**

---

3 [جدّ] : الجدّ العظمة ، قال الطبرسي في مجمع البيـان : الجد أصـله القطع ، ومنه : الجد العظمة لانقطاع كلّ عظمة عنها لعلوّها عليه.
4 [شططا] : أي قولا بعيدا عن الحق ، جاء في مفردات.
الراغب : الشطط الإفراط في البعد ، يقال شطّت الدّار ، وأشطّ يقـال في المكان وفي الحكم وفي السّوم ، وشطّ النهر حيث يبعد عن المـاء من حافته.

وَالْجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِباً (5) وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقــاً (6) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللــــهُ أَحَـــداً (7) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُــهُباً (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِـدَ لِلسَّـمْعِ فَمَنْ يَسْـتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً (9) وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَـرٌّ أُرِيـدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَـــداً (10) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذلِـكَ كُنَّا طَرائِقَ قِـدَداً (11) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِـزَ اللــهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِـزَهُ هَرَباً (12) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُـؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً (13)

---

6 [رهقــا] : تعبا شــديدا ، وســمّي بــذلك لأنّه يعلو المرهق كالغشــاوة ، وقال البعض : رهقا أي طغيانا حيث أنّهم رأوا الجنّ ظهــيرا لهم ، أو زاد الإنس الجنّ طغيانا حيث أنّهم ظنــوا أنّ لهم مــدخلا في الأمــور الكونية حــتى اســتعاذ بهم الإنس ، وأصل الرهق اللحــوق ، ومنه غلام مراهق ، فكأنّ الإثم والطغيان يلحق الإنسان.

11 [قــددا] : جمع قــدّة وهي القطعة ، فــالجنّ على مــذاهب مختلفة وقطع متعدّدة ، وكلّ قطعة مخالفة للأخرى.

وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً (14) وَأَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً (15) وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً (16) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً (17) وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً (18) وَأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللهِ

---

14 [تحرّوا] : التحرّي تعمّد إصابة الحق ، وأصله طلب الشيء والقصد له.

16 [غدقا] : كثيرا ، وغدق الماء يغدق غدقا كثر فيه الماء.

17 [صعدا] : شاقّا شديدا غليظا متصعدا في العظم ومنه التنفّس الصعداء ، وقال البعض : (**عَذاباً صَعَداً**) أي عذابا يصعد عليه ويعلو بحيث يشمل جميع جسمه من قرنه إلى قدمه.

يَدْعُوهُ كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً (19) قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً (20) قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَداً (21) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (22) إِلاَّ بَلاغاً مِنَ اللهِ وَرِسالاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً (23) حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً (24) قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً (25) عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً (26) إِلاَّ مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (27) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً (28)

---

19 [لبدا] : متكاثرين عليه ليمنعوه عن الدعوة. الواحدة لبدة كاللّبد المتلبّد أي المجتمع ، وجمع اللّبد ألباد ولبود ، وقد ألبدت السرج جعلت له لبدا ، وألبدت الفرس ألقيت عليه اللّبد نحو أسرجته وألجمته وألببته ، وألبد البعير صار ذا لبد من الثّلط ، وقد يكنّى بذلك عن حسنه لدلالة ذلك منه على خصبه وسمنه.

25 [إن أدري] : ما أدري.

إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً

بينات من الآيات :

[1 ـ 3] إنّ علاج القــرآن لموضــوع الجن ليس ترفا فكريّا يهدف إعطاءنا مجرد رؤية عن خلق غــريب ، بل هو علاج لمشــكلة حقيقية موجــودة في ثقافــات النــاس ، ومنعكسة على واقع بعضــهم بصــورة خطــيرة ، حيث الخرافات والأساطير ، وحيث الشرك بالله عزّ وجـلّ. ومع أنّ القـرآن كلّه مـوحى به من عند الله إلى رسـوله إلّا أنّ مطلع هذه السـورة المباركة يؤكّد بـأنّ الحـديث عن الجن والذي تتضمّنه الآيات ليس حـديثا من الرسـول عن تجربة شخصية حدثت له ، ولا كسائر كلام البشر عن الجن الذي لا يتأسس إلّا على الخيال والظنون ، بل هو حـديث لعـالم الغيب والشهادة أطلع عليه رسوله ـ صلّى الله عليه وآله ـ عبر الوحي الذي لا ريب فيه.

(**قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِ**)

قال ابن عباس : انطلق رســول الله (ص) في طائفة من أصحابه عامدين إلى

سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : مالكم؟ قالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب ، قالوا : ما ذاك إلّا من شيء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فمرّ النفر الذين أخذوا نحو تهامة بالنبي (ص) وهو بنخل عامدين إلى سوق عكاظ ، وهو يصلّي بأصحابه صلاة الفجر ، فلمّا سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا : هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء ، فرجعوا إلى قومهم وقالوا : (**إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً**) ... حتى نهاية الآية الثانية فأوحى إلى نبيّه ــ صلّى الله عليه وآله ــ : «الآية الأولى». ورواه البخاري ومسلم في الصحيح أيضا [1]. قال الزمخشري في النفر : جماعة منهم ما بين الثلاثة والعشرة [2].

والاستماع على الأظهر هو مرحلة متقدمة من السماع حيث يعني التركيز والتدقيق فيما يسمع ، ولقد انبهر النفر من الجن بإعجاز القرآن وعظمة آياته ، انبهارا قادهم إلى التسليم له ، واكتشاف ما هم فيه من الضلال والباطل بنور آياته البينات. وهكذا يجلي الاستماع والتدبّر عظمة القرآن لقارئه. أمّا الذي يهذّه هذّ الشعر ، وينثره نثر الرمل ، أو يكون همّه آخر السورة ، فإنّه لا يتجاوز الحروف والكلمات إلى المعاني المعجزة ، كما تجاوز إليها أولئك الجن.

(**فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً**)

وهذا الإعجاب يشبه إلى حدّ بعيد إعجاب السحرة بمعجزات موسى ــ عليه السلام ــ ومن ثمّ إيمانهم به ونبذهم للسحر. وحريّ بالإنسان أن يبحث عمّا حملهم على ذلك من القرآن ، وأن يعجب إذا عجب به وليس بهم.

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 430
(2) الكشاف / ج 4 ـ ص 623.

إنّ الجن كما الإنس لـــديهم ثقافـــات ، وبينهم دعـــاة العلم (السـفهاء بحـدّ تعبـيرهم) وهم يضـلونهم دائما عن الحق ، ولكنّهم حينما اسـتمعوا للقـرآن وأنصـتوا بـدا لهم الفرق واضحا بين رسالة الله الـتي تحمل العلم والهـدى ، وبين الثقافـات الشـائعة عنـدهم والـتي لا تنطـوي إلّا على الجهل والضـــلال. ولعل هـــذه المفارقة من أهم عوامل الإعجاب بالقرآن إذ استمعوا له.

(**يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ**)

أي يعـرّف بـالحق ، ويرسم للإنسـان المنهج السـليم الذي يوصـله إليـه. وإنّ القـرآن ليعلّمنا الحق ، وينمّي فينا العقل والضـمير وسـائر حـوافز الخـير ، ممّا يـدفعنا إلى تطـبيق الحـقّ بالصـورة الأكمل ، وأين تجد هـذه في غـير كتاب الله؟ هل تجدها في أفكـار الفلاسـفة الغامضة الـتي تحتجب وراء الكلمات الكلّيّة لإخفاء الجهل والتنـاقض ، أم في ثقافة البـدائيين والشـعراء؟ كلّا ... وهـذا ما دفع النفر من الجن إلى الإيمان بالقرآن ونبذ كلّ الأفكـار والثقافـات الأخرى ، فهم وجدوه وحده الذي يهدي إلى الرشد.

ومع أنّ للرشد معنى عامّا يتسع لكثير من المفـردات ، فـالقرآن يهـدي إلى معرفة الحقـائق العلمية ، والسـنن الطبيعية ، والأنظمة الحكيمة الـتي أجراها الله في سـائر الحقول الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .. إلّا أنّ أعظم الرشد الذي يهـدي إليه هو التوحيد باعتبـاره سـنام الهـدى وقمّة الرشد.

وقد أشار بعض من المفسرين إلى ذلك ، قـال الفخر الـرازي : «يهـدي إلى الرشـد» إلى الصـواب ، وقيل إلى التوحيد ، (**وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً**) أي ولن نعـود إلى ما كنّا عليه من الإشراك به ، وهـذا يـدل على أنّ أولئك الجن كانوا

مشركين [1].

ولأنّ الهداية لا تتمّ بمجـــرد معرفة الحق بالضـــمير والعقل ، بل لا بد من الشـــجاعة الكافية لنقد الـــذات ، وتحدي الواقع المنحرف ، وبالتالي تحمّل مسئولية الصراع ضد كـلّ باطل ، لـذلك بـادر الجن إلى الإيمـان بـالحق من جهة ، ونبذ الباطل بعزيمة الإيمان من جهة ثانية.

(**فَآمَنَّا بِهِ**)

والإيمـان بـالقرآن يعـني رفضا قاطعا للقـوى الأخـرى غـير الله ، وعزما على المضـيّ قـدما في طريق التوحيد أنّى كـانت التحـديات .. وقد فهم النفر من الجن الإيمـان بهذه الكيفية وعزموا على رفض الأنداد المزعومين فقالوا :

(**وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً**)

وهذا يعـني الاسـتعداد لـدخول الصـراع ، والاسـتقامة على الحق ، وتقـديم التضـحيات من أجل الإيمـان وقيمة التوحيد ، وكـذلك ينبغي أن يكـون كـلّ من يختـار الحق ، فالرشد غاية يجب أن يسترخص المؤمنون في سبيلها كلّ شـيء ، كما فعل السـحرة (عند مواجهة عصا موسـى) إذ ألقـوا سـاجدين ، وتوجّهـوا إلى فرعـون بخطـاب الـرفض والتحـدي :

(**فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا**) [2] ، وقـدّموا أنفسـهم قـرابين في طريق ذات الشـوكة ، حيث قطع فرعـون أيـديهم وأرجلهم من خلاف ، وصـلبهم في جذوع النخل صبرا.

ونفي الجن القــاطع المؤبّد بــأنّهم لن يشــركوا ربما يهدينا إلى وجود قوى تضغط

(1) التفسير الكبير / ج 30 ـ ص 154.
(2) طه / 72.

عليهم باتجاه الشـرك بالله بما قد يصل إلى حـدّ الإكـراه ، مثلما أكـره فرعـون السـحرة على السـحر ، وكما يكـره الطغـاة اليـوم جنـودهم عسـكريين وإعلامـيين ومخـابرات على ممارسة الظلم ضد الشـعوب. ولأنّ أعظم الضـغوط الـتي تمـارس وأخطرها هو ضـغط التضـليل عن الحق ، والإيحـــاء بالشـــرك من خلال التربية الفاســـدة والاعلام المضلّل ، فقد أعلن أولئك النفر المؤمنون أنّهم لن يقبلـوا التغرير بوجود الشركاء أو التشكيك في عظمة الله.

(**وَأَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَلا وَلَداً**)

وفكـــرة الصـــاحبة والولد آتية من تصـــوّر المخلـــوق المحـدود للخـالق العظيم تصـوّرا معتمـدا على مقايسـته بذاته ، وهذا بالضبط العامل الفكري الـرئيس الـذي تقـوم على أساسه النظريات والفلسـفات البشـرية الـتي خـاض أصحابها في الحديث عن ذات الله وصفاته فشبّهوه بخلقه سبحانه وتعالى عمّا يصفون.

إنّ الجاهل ينكر وجود آفاق متسـامية لا يبلغها علمه ، فيريد تشبيه كلّ شيء بما يعرفه ، فـإذا به يتخيّل أمـورا لا واقع لها ، ويصبح هذا التخيل ـ بـدوره ـ حـاجزا بينه وبين معرفة الحقـــائق. لـــذلك ينبغي تســـبيح الله وتقديسه عن الشبه ، لأنّ ذلك السبيل الوحيد لمعرفته سبحانه.

وهناك عامل نفسي للشرك يتمثّل في أنّ المشـركين يريـــدون الـــزعم بـــأنّهم أبنـــاء الله ، كما قـــالت اليهـــود والنصـــارى «**نَحْنُ أَبْنـــاءُ اللـــهِ وَأَحِبَّاؤُهُ**» .. فلا بد من التأكيد على وجود الصاحبة باعتبار الأبناء نتيجة للعلاقة بين الطرفين ، تعالى الله علـوّا كبـيرا. ولا ريب أنّ دعـاة هـذه الفلسـفة هم أوّل من يريد تعريف نفسه ابنا للـربّ حـتى يعطي لنفسه شرعية خضوع الناس وتقديسـهم وطـاعتهم له أو ربط نفسه بابن الله حـتى يخلّصـها من المسـؤولية. مما يعني أنّ نفي الشرك ليس رفضا لفكرة مجــردة ، بل هو

رفض لنظام ثقافيّ واجتماعيّ وسياسيّ ثقيل.

وفي كلمة «جـــدّ» اختلاف بين المفســـرين ، ففي البرهـان عن أبي جعفر (ع) قـال : «**إنّما هو شيء قاله الجنّ بجهالة فحكى الله عنهم**» [1] ، وعلى هذه الرواية يكون المعنى هو المتعارف أي الجدّ أبو الأب والأم. وقـال الـرازي : الجـدّ الغـنى ، ومنه الحـديث : «لا ينفع ذا الجد منك الجد» أي لا ينفع ذا الغنى منك غناه ، وكذلك الحديث الآخر : «قمت على بـــاب الجنة فـــإذا عامّة من يـــدخلها الفقراء ، وإذا أصـحاب الجـدّ محبوسـون» يعـني أصـحاب الغـنى والـدنيا ، فيكـون المعـنى : وأنّه تعـالى غـني عن الاحتياج إلى الصاحبة ، والاسـتئناس بالولد [2]. ولا نجد في السياق ما يشير إلى أنّ الكلام جـاء على سـبيل الحكاية ، وإنّما يهدينا السياق إلى أنّه تقرير للحق الـذي جـرى على ألسن أولئك النفر من الجن. والذي يبـدو لي أنّ الجـدّ هنا بمعنى العظمة بحيث يمكن أن نجعل الغـنى عن الصـاحبة والولد في إطارها أيضا ، وقد أشـار العلّامة الطبرسي في بيـان لغـويّ لطيف إلى هـذا المعـنى فقـال : الجـدّ أصـله القطع ، ومنه : الجد العظمة لانقطـــاع كـــلّ عظمة عنها لعلوّها عليه ، ومنه : الجد أبو الأب لانقطاعه بعلـــوّ أبوّته وكل من فوقه لهـذا الولد أجـداد ، والجد الحظ لانقطاعه بعلوّ شـأنه ، والجد خلاف الهـزل لانقطاعه عن السـخف ، ومنه : الجديد لأنه حديث عهد بالقطع في غالب الأمر [3] ، فالمعنيّ من «تعالى جـدّ ربنـا» أي سـمت عظمته وعلت. والفـــرق بين هـــذه الآية وقولنا : (ربنا تعـــالى) أنّها هنا صـرحت بـالمتعلّق وهو العظمة (الجـدّ) ، بينما نطلق في قولنا بدون المتعلّق علوّ الله على كلّ شـيء وعن كـلّ ما يصـفه المشـركون. وقد خصّـص القـرآن في الآية ذكر العظمة بالذات لأنّ مشركي الجن يعملون من خلال نسبة الشـركاء لله على الطعن في عظمته والتقليل من شـأنه. وكيف لا تقلّ

---

(1) البرهان / ج 4 ـ ص 391.

(2) التفسير الكبير / ج 30 ـ ص 150.

(3) مجمع البيان / ج 10 ـ ص 367.

عظمة من يحتاج إلى الصاحبة والولد؟ ونفي الصاحبة عن الله هو نفي قـاطع لوجـود أيّ شـريك له عـزّ وجل ، لأنّ المـزاعم بوجـود الشـركاء مبنيّة على أسـاس بنـوّتهم له والتي لا تكون إلّا بوجود الصـاحبة. أمّا نفي الولد فهو نفي للوالد أيضا لأنّ من يلد فهو مولود مخلـوق بـالقطع ، قـال الإمام علي (ع) في صـفة الله : «لم يلد فيكـون مولـودا ، ولم يولد فيصير محدودا» [1] ، وقال : «**لم يولد سبحانه فيكـون في العـزّ مشـاركا ، ولم يلد فيكـون موروثا هالكا**» [2].

[4] ويؤكد القـرآن على وجـود التشـابه بين المجتمع البشري ومجتمع الجن من الناحيتين الفردية والاجتماعية ، فهم خلق مكلّفون عاقلون مختارون ، ومحـدودة علـومهم كما نحن ، ولـذلك يقعـون في الأخطـاء المقاربة لأخطائنا كالشرك ، وهـذا يهـدينا إلى خطأ الإعتقـاد بـاطّلاعهم على كـلّ شـيء ، والاعتمـاد على ما يقولـون ، إذ قد يقولـون شططا. هـذا من الناحية الفردية ، ومن الناحية الاجتماعية يتشـابهون معنا في كـونهم فرقا مختلفين ، وطبقـات مستضـعفة ومسـتكبرة ، بل ويعيشـون في ظـلّ أنظمة اجتماعية وسياسـية متشـابهة .. حيث يترأسـهم سـفهاء منهم ، كما يتزعم المجتمعات البشرية الحكّام والملوك.

(**وَأَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا عَلَى اللهِ شَطَطاً**)

والشـطط في الأصل : الكلام الـذي يبعد عن الحق ، قـال الـراغب الأصـبهاني : الشـطط خفّة النفس لنقصـان العقل ، والشـطط : القـول البعيد من الحق [3]. والكلمة تسـتوعب كـلّ قـول يحيد عن الصـواب إلى الخطأ ، ولكنّ أظهر مصاديقها فيما يتصل بالله عزّ وجل هو قول الشرك ، وإلى ذلك أشار القرآن في قوله على لسان أصحاب

---

(1) نهج البلاغة / خ 186 ـ ص 273.
(2) المصدر / خ 182 ـ ص 260.
(3) مفردات الراغب / مادة شطط.

الكهف : (**فَقــالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّــماواتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً**) [1].

وأمّا السفيه فمعناه لغة الجاهل الذي لا يحسن رأيا ولا تصرفا ، ففي المنجد : سفه سفها : كان عديم الحلم أو جاهلا أو رديء الخلق فهو سفيه ، والسافه الأحمق [2]. ويبدو أنّها كلمة جامعة لمساوئ الصفات والأخلاق. واصطلاحا ـ المعنى الذي يريده الجن من الكلمة ـ هو كلّ زعامة سياسية أو اجتماعية أو علمية شطّت بها الأفكار نحو الباطل ، وسعت في تضليل المجتمع كالحكّام الطغاة وعلماء السوء. وما أكثر ما يقوله سفهاؤنا ــ نحن البشر ــ على ربّ العالمين ، من على منابرهم ، وفي وسائلهم التضليلية ، في كلّ زمان ومكان! فما أحوجنا أن نكون كأولئك النفر من مؤمني الجن ؛ نستمع القرآن ، ونؤمن بما يهدي إليه من الرشد ، ونرفض الشرك بالله بجميع ألوانه وصوره ، وننتفض على سفهائنا تحت راية التوحيد وعلى هدى الوحي!

ونخلص هنا إلى الحقائق التالية :

الأولى : أنّ الجن ليسوا مجرد أرواح شريرة وحسب ، وإنّما فيهم المؤمنون الصالحون ، وبهذا يعالج القرآن مزاعم البشر وتصوراتهم الخاطئة عن طبيعة عالم الجن بأنّه شر محض.

الثانية : أنّ الهداية والرشد لا تتحقق لأحد بمجرد وجود الكتاب الهادي إلى الحق ، بل لا بد من التقاء بين العقل الباطن وبين رسالة الله ، وذلك بحاجة إلى المزيد من الإصغاء للآيات ، واستماعها ، والتدبر في معانيها.

الثالثة : أنّنا إذا فسّرنا الشرك بالتشريع من دون الله فإنّ الآيات تدلّ على أنّ

(1) الكهف / 14.

(2) المنجد / مادة سفه.

الجن كما الإنس يبتـدعون لهم تشـريعات غـير هـدى الله وآياته ، وأنّ القـرآن جـاء بـديلا عن منـاهجهم الضـالة ، وعلاجا لكـلّ انحـراف في حيـاتهم .. فهو رسـالة الله للعالمين إنسا وجنّا.

وإذا فسّـرناه بالخضـوع لغـير حاكمية الله ، فـإنّ الآية الرابعة بالـذات تـدل على أنّ الجن ــ كما نحن ــ مبتلـون بالحكّـام السـفهاء والأنظمة الفاسـدة ، وأنّ رسـالة الله التي تهـدف الهداية إلى الرشد وغايته التوحيد تهـدف قبل كـلّ شـيء إلى تحرير المجتمعـات إنسـية وجنّيّة من ربقة الطواغيت والحكومات الظالمة (الحاكميات السفيهة).

الرابعة : أنّ أصل أكثر الأفكـار الشـركية ــ كما تقـدّم القول ـ وأصل قبول استعباد السـلطات المنحرفة ، وأصل التمييز العنصـري وغـيره ، يعـود إلى الـزعم بـولادة الله ، ومن ثمّ وجود شيء أو شخص أقرب من شيء أو شـخص قربا ذاتيّا إلى الله عزّ وجلّ.

[5] ويوصل السـياق كلام النفر عن طـبيعتهم بما يكشف لنا واقع الجن.

(**وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُـولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللـهِ كَذِباً**)

ولعلّ الظن هنا يعني العلم ، ولكن ليس العلم القـائم على الحجة والبرهـان ، وإنّما هو العلم المتأسّـس على التصـوّر المجـرد. والآية تـبيّن صـفتين سـلبيتين كانتا وراء تورّطهم في الضلال :

الأولى : السـذاجة المغرقة إلى حـدّ الوثـوق في الآخـرين وتصـديقهم فيما يقولـون ، بحمل ما يصـدر عنهم على محمل الصدق والصواب.

الثانية : التقليد الأعمى للآخـرين ، قـال العلّامة الطبرسي معلّقا على الآية :

وفي هذا دلالة على أنّهم كانوا مقلّدة حتى سمعوا الحجة ، وانكشف لهم الحق فرجعوا عمّا كانوا عليه ، وفيه إشارة إلى بطلان التقليد ، ووجوب اتباع الدليل [1].

وكلتا الصفتين نتيجة لإلغاء دور العقل وفقدان الاستقلال بالتوافق مع تيّار المجتمع والتبعية العمياء له. إلّا أنّ القرآن الذي أنزله الله لإثارة دفائن العقول فجّر فيهم لمّا استمعوا آياته كوامن قدراتهم ، العقلية والروحية ، وخلق في أنفسهم إرادة التحرّر من أغلال السذاجة والجهل والتبعية ، وإرادة التحدي للانحراف بكلّ كيانه قيما (السفه) وأشخاصا (السفهاء). إنّ مشكلة الكثير من الإنس والجن أنّهم يتخذون الأشخاص لا القيم مقياسا ، فمتى ما ضلوا أولئك وانحرفوا ضلّوا وانحرفوا معهم ، بينما يجب أن تكون القيم هي المقياس ، لأنّها الضمانة الأصيلة والوحيدة لمعرفة الحق والاستقامة على هداه.

وفيما يتصل بالكذب تهدينا الآية إلى أنّ الإنسان يرفضه ويستقبحه بالفطرة بحيث لا يتصور أنّ أحدا يجرأ على التورّط فيه ، وهذا ما يجعله فريسة للكذّابين المرّة بعد الأخرى.

[6 ـ 10] ثم يحدّثنا النفر بآية محورية عن التظاهر بين بعض الإنس وبعض الجن على الباطل ، كصورة من صور الشرك لدى بعض أبناء حوّاء ، حيث الهالة الكبيرة من الأساطير والأوهام تدعوا البعض إلى الإعتقاد بأنّ الجن قوى خارقة لديها العلم والقدرة المطلقين ، مما يحدو بهم إلى الاتصال بالجن وطلب العون منهم. ويجهلون أنّ الأمر على العكس ، يضيف جهلا إلى جهلهم وتعبا إلى تعبهم ، إلى حدّ الرهق الشديد.

(**وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً**)

---

(1) مجمع البيان / ج 10 ـ ص 365.

والرهق : الغشاوة ، وقيل للتعب الشديد إرهاق لانّه يعلو المرهق كالغشاوة فلا يكاد يبصر بقلب ولا بعين. وإذا كان المعنيّون بالآية كلّ من غرّتهم خرافة الاستعاذة بالجن وتعظيمهم فإنّ الكهنة والسحرة ومن يتصل مباشرة بالجن مخصوصون بقول «رجال من الإنس» أو ليسوا يستعينون بهم في الشعوذة وسحر أعين الناس والكهانة؟!

ولأنّ الجن ليسوا ـ كما يتوهّم هؤلاء الرجال ـ يعلمون كلّ شيء ، ويقدرون على صنع المستحيل ، فإنّهم يزيدونهم رهقا في أبدانهم وأنفسهم ، وضلالا عن الحق باتباع أخبارهم الكاذبة ، وخوض اللجج اعتمادا على وعودهم التي يعجزون عن الوفاء بها. أمّا من جانب الجن فلعلّهم كانوا كرجال الإنس يتمادون في الغيّ والضلالة ، حيث يكبرون أنفسهم ، ويتوهّمون أنّهم أنصاف آلهة نتيجة تقديس رجال الإنس لهم واستعاذتهم بهم.

والكهنة والسحرة بدورهم كانوا يضللون من حولهم من الناس ، قال الإمام الباقر (ع): «**كان الرجل ينطلق إلى الكاهن الذي يوحي إليه الشيطان فيقول : قل لشيطانك فلان قد عاذ بك**» [1].

والعياذ الاعتصام وهو الامتناع بالشيء من لحاق الشر [2] ، وللاستعاذة هنا أحد معنيين :

الأول : أنّهم كانوا يعتقدون بأنّ الجن قوى شر في الطبيعة ، وبالتالي يجب إرضاؤها للتخلّص من شرها وأذاها.

---

(1) البرهان / ج 4 ـ ص 391.
(2) التبيان / ج 10 ـ ص 148.

الثـاني : أنّهم كـانوا يعتمـدون على الجن في مواجهة الأخطار والمشاكل ، أو في مقاومة القوى التي يخشــونها ، ظنّا منهم بأنّهم ينفعونهم أو يضرونهم .. فبدل أن يفكّروا في حلّ مشاكلهم من خلال العقل والسعي تراهم يلجأون للخرافة والأساطير ، وبدل أن يتقرّبـوا إلى الله عـزّ وجـلّ بالطاعة تراهم يعـوذون بـالجن ، ظنّا بـأنّهم قـادرون على صــدّ غضب الله أو التـأثير على أمــره ســبحانه وتعــالى. وهكذا عوض أن يشحذوا إرادتهم ويعملوا فكرهم لمواجهة العدو عسكريّا يتوسّـلون بهـذه الثقافة الميتة والمضـللة .. فلا يصلون إلّا إلى الشر والرهق.

ومن وجوه التلاقي بين الإنس والجن ــ بالإضـافة إلى التعاون على الباطل ـ تشابه وجوه الانحراف والضلال في الأفكـار والثقافـات ، ومن بين ذلك الكفر بـالآخرة كنتيجة للثقافة القائمة على الظنون والتصـورات ، لا على الـوعي بالواقع والمنهجية العلمية المعتمدة على الدليل والحجّة.

(**وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحَداً**)

في المجمع : أن لن يبعث الله رســــولا بعد موسى وعيسى [1] ، وفي التفســير الكبــير : ويحتمل أن يكــون المــراد أنّه لن يبعث أحــدا للرســالة على ما هو مــذهب البراهمة [2] ، ومع إمكانية صحة هذا الرأي إلّا أنّ الأقـرب بعث الناس للحساب والجزاء ، وهذا هو جذر كلّ انحــراف وفرار من إطار المسؤولية. والآية تنسف الإعتقاد الـواهي بأنّ الجن آلهة خلقوا ذاتيّا ولا يموتون ، كلّا .. إنّهم يموتون ــ كما يمــوت بنو آدم ــ ويبعثــون كما يبعث البشر ، بلى. وبعضهم يشك في البعث ممّا يدعوه إلى الشــرك والمزيد من الزيغ.

---

(1) مجمع البيان / ج 10 ـ ص 369.
(2) التفسير الكبير / ج 30 ـ ص 157.

وقد جـرى جـدل بين المفسـرين حـول هـذه الآية هل هي من جملة ما حكاه النفر من الجن ، أم هي قول الله؟ فقـال بعضـهم : أنّها قـول من الله ، وقـال آخـرون ــ وهو الأقرب ـ : أنّها قول الجن ، قال الفخر الرازي : واعلم أنّ حمله على كلام الجن أولى لأنّ ما قبله وما بعـــــده كلام الجن ، فإلقـاء كلام أجنـبيّ عن كلام الجن في الـبين غـير لائق [1]. ولعل التعبــــير اختلف من المتكلم «وإنّــــا» إلى الضمير الغـائب «وأنّهم» لأنّ المتكلم نفر من المؤمـنين ، وهم ليسوا من جملة الكـافرين بـالبعث ، ممّا دعـاهم إلى نسب الأمر إلى غيرهم.

ثم يعود السياق إلى مجـراه (ضـمير المتكلم) باعتبـار أنّ ما يأتي أمر عام وشـامل حـتى للنفر الـذين آمنـوا من الجن ، باعتبارهم كسائر الجن سعوا لاستراق السـمع ، إلّا أنّهم حيث احتجبوا عن ذلك تحسسوا قـدرة ربهم ، وآمنـوا به تائبين.

(**وَأَنَّا لَمَسْـنَا السَّـماءَ فَوَجَـدْناها مُلِئَتْ حَرَسـاً شَدِيداً وَشُهُباً**)

والحرس هم الملائكة ، بينما الشـهب أسـلحتهم الـتي يرمون بها كلّ من يحاول استراق السمع ، فهي مشـحونة جنودا وعتادا إلى حدّ الامتلاء ، بحيث لا يجد مسترق ثغـرة ينفذ منها إلى الملأ الأعلى. وقــال : «لمســنا» ولم يقل : (رأينا) لأنّ اللمس صـفة مادية ممّا يؤكّد المعـنى ويقرّبـه. وحقّا : إنّهم لمسوا السماء وعرفوا تلك الحقيقة من خلال التجربة العملية .. إذ هلك الكثـير منهم بالشـهب وهم في مهمة الاستراق.

(**وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ**)

سابقا قبل أن يشاء الله منعهم تماما.

(**فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً**)

---

(1) المصدر.

ومن كلمة «مقاعـد» نسـتفيد أنّهم كـانوا يسـترقون السمع من ثغرات معينة يقعدون فيها. ويشير أئمة الهـدى إلى الحكمة الـتي أغلق الله أبـواب الاسـتراق بسـببها عن الشـياطين والجن ، يقـول الإمـام الصـادق (ع): «**وأمّا أخبـار السـماء فـإنّ الشـياطين كـانت تقعد مقاعد اسـتراق السـمع إذ ذاك ، وهي لا تحجب ولا تـرجم بـالنجوم ، وإنّما منعت من اسـتراق السـمع لئلّا يقع في الأرض سبب يشـاكل الـوحي من خـبر السـماء ، ويبلس على أهل الأرض ما جاءهم عن الله ، لإثبـات الحجة ونفي الشبهة**» [1].

إذن فالجن لا يعلمـون الغيب حـتى يعـوذ بهم النـاس. قال صاحب البصائر بتعبـير لطيف عن صـلة هـذه الآية بما قبلها من الآيـات : فـالإنس كـانوا يعـوذون بـالجن لأنّهم يعلمون الغيب أو خبر السماء فجـاءت هـذه الآية لتقـول : أنّهم «لا يعلمون الغيب ، وأنّ السماء ممنوعة عنهم» [2].

واختلف في حراسة السـماء ، فمن قائل أنّها لم تكن قبل بعث النـبي (ص) ومن قائل غـير ذلك ، وظـاهر الآية يشـير إلى ما ذهب إليه العلّامة الطباطبـائي إذ قـال : إنّ الحـادث هو المليء وكـثرة الحـرس لا أصل الحـرس ، وظهور قوله : «**نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّـمْعِ**» في أنّا نجد فيها بعض المقاعد خاليا من الحـرس والشـهب ، والآن ملئت المقاعد كلّها ، (**فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِـهاباً رَصَداً**) [3]. وفي الأحاديث : أنّهم كانوا يحجبون عن سـماء بعد أخرى حتى ولد خاتم المرسـلين فحجبـوا تماما ، وعن الإمـام علي ــ عليه السـلام ــ قـال : «**ولقد همّ إبليس بـالظعن في السـماء لمّا رأى من الأعـاجيب تلك الليلة ـ التي ولد فيها رسـول الله ــ وكـان له مقعد في السماء**

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 369.
(2) تفسير البصائر / ج 49 ـ ص 376.
(3) الميزان / ج 20 ـ ص 43.

الثالثة ، والشـياطين يسـترقون السـمع ، فلمّا رأوا العجـائب أرادوا أن يسـترقوا السـمع فـإذا بهم قد حجبوا عن السـموات كلّها» [1] إذن فمن يـدّعي معرفة الغيب من الكهنة والمنجّمين باعتبـارهم يتصـلون بـالجن فإنّما يزعمون باطلا حيث حجبوا باعترافهم أنفسهم.

والسـورة الكريمة تهـدينا إلى طبيعة المنهج القـرآني الواقعية ، فآياته لا تدور في الفراغ ، ولا تطـرح الأسـاطير كما يقـول الكفّـار والمشـركون ، وإنّما يعـالج قضـايا ومشاكل نفسـية واجتماعية وثقافية واقتصـادية وسياسـية حقيقية ، وحيث تـنزّلت سـورة الجن فمن أجل اجتثـاث جذور الكهانة والشرك بـالجن والشـياطين ، وهكـذا يعـالج القـرآن تلك النظريـات الشـائعة في المجتمعـات. ولعل سـائلا يقـول : وهل عـالج القـرآن المـذهب الوجـودي والماركسي وغيرهما من الفلسـفات الـتي تجـدّدت في القرون الأخيرة؟ ونقول : بلى. لأنّ هـذه المـذاهب ليست إلّا تطـويرات للنظريـات القديمة ، فقد كـانت الوجودية موجـودة تاريخيّا وإن كـانت بصـورة أخـرى مبثوثة في الأفكار اليونانية التي دعت الإنسان لإثبات وجوده والالتذاذ الـدائم ، وهي مشـابهة لـدعوة سـارتر وتلامذته الآن ، كما كـانت الفلسـفة الاشـتراكية حاضـرة في عهد من عهـود إيران تحت عنـوان (المزدكيـة) وهي اشـتراكية بلغت حـدّ الشيوعية والإباحية.

وتخصـيص القـرآن سـورة باسم الجن صـورة حيّة لواقعيته ، لأنّ اسـتعاذة رجـال من الإنس بهم وتلقّيهم لهمزاتهم كـان ولا يـزال من الأسـباب الرئيسـية لانحـراف البشر وضـلالهم عن الحق ، حيث الخلط بين تلك الإلقاءات وبين الوحي. وما فلم (الوساوس الأخيرة للسيد المسيح) وكتـاب (الآيـات الشـيطانية) إلّا دليل على الجهل بالوحي ، ومن ثمّ الخوض في شأنه بغير علم.

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ـ 436 عن الإحتجاج عن الإمام علي (ع).

والتطلع إلى معرفة الغيب من الـــــــــــدوافع الملحّة للإنسان نحو الاتصال بأيّ جهة يتوقّع معرفتها به لعلّه يعلم بعضه ، ولكنّ قسما من الناس يخطئون إذ يعوذون بـالجن بدل أن يربطـوا أنفسـهم بـوحي الله ، مع أنّهم لا يعلمـون من الغيب شيئا ، وما أدلّ على ذلك من اعترافهم أنفسهم بهذه الحقيقة.

(**وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَـرٌّ أُرِيـدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً**)

إنّهم بهتوا بالإرهاصات والتحوّلات الكونية التي رافقت بعث خــاتم الأنبيــاء ، كــامتلاء الســماء حرسا وشــهبا ، وعجزهم عن استراق السمع بعدئذ ، فلم يســتوعبوا الأمر ، وتخبّطوا في تفسـير تلك الظـواهر هل هي شر لّسـكّان الأرض كأن تكون من أشراط الساعة أم خير أراده الله؟! وهــذا يؤكّد قصــورهم عن علم الغيب ، وجهلهم بتفســير الظــواهر الكونية المتجــدّدة كما يجهلــون كثـيرا من تلك الظواهر ، فلا ينبغي التعويل عليهم في تفسـير شـيء من الظــواهر كــالمرض والفقر والهزيمة وما أشــبه مثلما هو شــأن بعض المســتعيذين بهم. ولا ريب أنّ بعث الرســول (ص) خير عظيم لمن في الأرض ، حيث ينقـذهم برسـالته وقيادته من ظلام الباطل والضلال والجهل ، إلى نور الحق والهدى والعلم ، وهكذا منع الشياطين من الاسـتراق نعمة عظيمة لهم حيث يزول السـبب الـذي تتشـاكل به حقـائق الوحي وتتشابه مع أباطيل الجن. قال ابن جـريح : قـالوا : لا نــدري لم بعث هــذا النــبي ، لأن يؤمنــوا به ويتبعــوه فيرشدوا ، أو لأن يكفروا به ويكذّبوه فيهلكوا كما هلك من قبلهم من الأمم؟ [1] ، وقيل معناه : أنّ هذا المنع لا يدرى العــذاب ســينزل بأهل الأرض أم لنــبيّ يبعث ويهــدي إلى الرشد ، فإنّ مثل هذا لا يكـون إلّا لأحد هـذين الأمـرين [2]. قــال العلامة الطباطبــائى : وقد صــرّحوا بالفاعل لإرادة الرشد وحــذفوه في جــانب الشر أدبا ، ولا يــراد شر من جانبه

---

(1) الدر المنثور / ج 6 ـ ص 273.
(2) مجمع البيان ج 10 ـ ص 369

تعالى إلّا لمن استحقّه [1]. ولقد قال الله : «رشدا» ولم يقل (خيرا) في مقابل الشر إشارة للرسالة التي تعطي الهدى ، ولأنّ الرشد سبب كلّ خير وسنامه ، بل هو المصداق الأعظم للخير.

[11 ـ 12] وينسف ربّنا نظرة التقديس المطلق للجنّ ببيان اختلافهم ، وأنّ فيهم من لا يستحق الاحترام لتخلّفه عن الصلاح وتورّطه في الفساد العريض.

(**وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذلِكَ**)

أقلّ مرتبة. وكلمة «دون ذلك» تتسع لدرجات مختلفة يلي بعضها بعضا في التسافل حتى آخر درك من الانحراف والضلال ، ويعلوا بعضها فوق بعض حتى درجة الصلاح. ثم يضيفون :

(**كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً**)

أي مذاهب وجماعات مختلفة متفرقة ، من قدّ الثوب يقدّه إذا شقّه وقطعه ، ففرّقه خرقا بعد أن كان قطعة واحدة. ومن الآية نهتدي إلى أنّ الاختلاف في مدى الصلاح بين الجن أفرادا وجماعات راجع إلى اختلاف مذاهبهم ، وأنّهم كالبشر مختلفون في توجّهاتهم ونظراتهم إلى الحياة. ولعل تأكيد القرآن على التشابه بين الخلقين (الإنس والجن) يأتي لبيان أنّهم خلق من خلقه تعالى يتعرّضون لما يتعرض له الناس ، وليسوا آلهة كما يزعم البعض فيعبدهم ويشرك بهم من دون الله.

وما دام الجن صالحين ودون ذلك فإنّ الاتصال بهم قد يعود إلى الإنس بالخير لو كان طرفه الصالحين ، وقد يعود عليهم بالشر العظيم إذا كان طرفه الضالين الفاسدين

---

(1) الميزان / ج 20 ـ ص 44.

منهم ، وهذا ما يجعل الاعتماد على قول الكهنة وأخبـارهم محـلّ إشـكال وشك ، باعتبـار مصـادره تحتمل الصـواب والخطأ والصدق والكذب.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : على مذاهب مختلفة ، مسلم وكافر ، وصالح ودون الصالح. وقال شيخ الطائفة : والطرائق جمع طريقة ، وهي الجهة المســـتمرة مرتبة بعد مرتبة ، والمعـــنى : إنّا كنّا على طرائق متباينة ، كل فرقة يتباين صـاحبها كما بين المقـدود بعضه من بعض [1].

وخلاصة القول : أنّهم مختلفون في مذاهبهم وتوجهـاتهم ، وفي كلّ فرقة يختلف الأفراد عن بعضهم صلاحا وانحرافا.

وإلى جانب بيان القرآن تصوّر الجن عن علم الغيب ، ممّا ينفي المــزاعم بــأنّهم آلهة أو انصــاف آلهة ، يــبيّن ضعفهم وعجـزهم باعتبـارهم مخلـوقين عن مقاومة إرادة الله ، بل عجزهم حتى عن الهرب من سلطانه وحكومته ، الأمر الذي يهدم ثقافة الشرك بهم من أساسها.

(**وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللهَ فِي الْأَرْضِ**)

بصورة مباشـرة من خلال مواجهة إرادته ، أو بصـورة غـير مباشـرة من خلال القفز على سـننه أو خرقها ، ولو كانت هذه القدرة موجودة عند الجن لأظهرها شياطينهم ، ولخرّبـــوا كثـــيرا من قـــوانين الطبيعة ونظمها ، ولكنّهم عاجزون عن ذلك .. ممّا يهـدينا إلى أنّهم محكومـون مثلنا بــــإرادة الله وســــننه ، فخطأ إذن أن يعتمد بعض الإنس عليهم ويعـوذ بهم زعما بأنّه يحتمي بهم عن مشـيئة الله ، على أسـاس أنّهم قـوى قـاهرة وضـاغطة تعـالى الله عمّا يصـفون ، فـإنّ وجـودهم كسـائر المخلـوقين مرتكز في الضـعف والعجز ، فهم لا يسـتطيعون أن يـدفعوا عن أحد إرادة الله ، ولا يجدون أنفسهم سبيلا للهرب منه.

---

(1) التبيان / ج 10 ـ ص 151.

(**وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً**)

لأن إرادته تعالى ليست محـدودة بـالأرض حـتى يفلت من يطـير إلى غيرها من إرادته ، ويعجـزه سـبحانه ، إنّما هيمنته شاملة للوجود كلّه دون استثناء أو فرق بين كوكب وآخر ، ولا بقعة وبقعة أخـرى. قـال الزمخشـري : أي لن نعجـــزه كـــائنين في الأرض أينما كنّا فيها ، ولن نعجـــزه هاربين منها إلى السماء [1].

والظن في الآية ليس بمعنى الشك ، فـإنّ الجن على يقين تامّ علميّا بأنّهم لا يعجزون ربّ العزة ، بل هو بمعنى اليقين الـذي يصل إلى حـدّ التصـور والاستحضـار للحقيقة بـالظن وكأنّها حقيقة مادية قائمة ، أي تركـيز قـوة التخيّل والتصور بصورة شديدة.

[13] ولقد عـرف النفر من الجن أنفسـهم المحـدودة بالجهل والعجز فتحسســــــــوا الحاجة الفطرية الملحّة بضرورة الاستعاذة بالخـالق المتعـالي عن أيّ عجز أو حـدّ فعرفوا ربهم فاتخذوا معرفة النفس وسيلة لمعرفة الرب. أوليس من عرف نفسه فقد عـرف ربه كما في الحـديث؟ فآمنوا به ، وراحوا يعـوذون به إيمانا منهم بـأنّ الاطمئنـان والسعادة لا يوجدان إلّا عنده عزّ وجلّ.

وحيث سـمعوا آيـات الـذكر الحكيم وهم في مخـاض الشك المنهجي والبحث عن ســبيل الرشـــاد أصــغوا لها مسامع قلوبهم ، وسلّمت لحقائقها أفئدتهم ، فآمنوا به.

(**وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدى آمَنَّا بِهِ**)

ولعلنا نستشف من هـذا المقطع أنّ المتكلمين كـانوا يعانون من مشكلة التعتيم

---

(1) الكشاف / ج 4 ـ ص 627.

والتضـــليل ، لأنّهم كـــانوا في بيئة جاهلية كجاهلية البشر قبيل بزوغ فجر الرسالة.

ويشـــير النفر إلى الخلفية الــتي دعتهم الى اختيـــار الهـــدى بالإيمـــان بالله ، ألا وهي كـــون الإيمـــان ســـبيل السعادة.

(**فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً**)

وعلى عكس ذلك الشــرك بــالقوى المخلوقة كــالجن والأوثــان الــتي لا تزيد المشــرك بها ســوى الخســارة بعد الخسارة ، لأنّها محدودة وعــاجزة عن تحقيق الضر والنفع لنفسها فكيف للآخرين؟!

إنّ البعض كالفرقة اليزيدية قدّســـــوا الشـــــيطان ، وفلسفوا موقفهم على أســاس أنّه رمز قــوى الشر الــذي ينبغي اتقاؤه بعبادته وكسب رضاه ، بينما تركوا عبادة الله لأنّه كما يزعمــون ربّ الرحمة الــذي لا خــوف من جانبه .. وراحــوا يعظّمــون الطــاووس لأنّه في معتقــدهم مسكون بالشيطان! والحال أنّ الإيمان بغير الله لا يــؤمّن للإنســان الاطمئنان ، بل يضــاعف خســارته وتعبــه. بلى. إنّ الإيمــان بالله وحده الذي يملأ القلب بالاطمئنان إلى حسن الجــزاء ونعم العاقبة ، فلا بخس ولا رهق.

قــال صــاحب المجمع : البخس النقصــان ، والرهق العــدوان [1] ، ورافقه التفســير الكبــير إلّا أنّه أضــاف : والرهق الظلم ، ثم فيه وجهــان : الأول : لا يخــاف جــزاء بخس ولا رهق ، لأنّه لم يبخس أحـــدا حقّا ولا ظلم أحـــدا فيخاف جزاءهما ، والثاني : لا يخاف أن يبخس ، بل يقطع بأنّه يجزي الجــزاء الأوفى ، ولا يخــاف أن ترهقه ذلّة ، من قوله «**تَــرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ**» [2] ، وأصل البخس القلة ، قــال تعالى (**وَشَرَوْهُ**

---

(1) مجمع البيان / ج 10 ـ ص 371.

(2) التفسير الكبير / ج 30 ـ ص 159.

بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ) [1] ، وإنّما قيل كذلك لأنّ ما دفعوه ثمنا ليوسف أقل من ثمنه حتى في السوق لو كان عبدا يباع. وسمي البخس بخسا لأنّه في حقيقته الأخذ من مال النـاس بما هو تقليل لحقـوقهم الواقعية [2]. وما تنفيه هـذه السـورة (البخس والرهـق) بالنسـبة للمؤمـنين بالله على عكس ما أثبتته الآية السادسة في شأن المسـتعيذين بالجن من الإنس.

[14 ـ 15] ويعـود النفر المؤمنـون من الجن للتأكيد بما يشبه الآية الحادية عشر على أنّهم مختلفون.

(**وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقاسِطُونَ**)

والمسـلم هو الـذي يسـلم نفسه بكـلّ كيانها للحق ، فيكيّفها معه معنويّا وعمليّا ، وأمّا القاسط فهو الظـــــالم الـذي يضـمّ قسط الآخـرين إلى نفسه بغـير حق ، على خلاف المقسط الـــذي يعطي حق الآخـــرين ، وإنّما قابل القرآن كلمة المسلم بالقاسط مع أنّها تقابل الكافر عـادة لأنّ من أظهر معـاني الإسـلام هو العـدل ، ولأنّ التسـليم للحق هو العامل الرئيسي في تجســـيد قيمة العدالة في الواقع ، ولأنّ المطلوب من الإسلام ليس مجـرد التسـليم اللفظي بل كبح جماح النفس الأمّارة بالسوء.

(**فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً**)

قال الراغب : حرى الشيء يحـري ، أي قصد حـراه ، أي جانبه وتحرّاه [3] ، وفي تفسير البصائر تحـرّى تحرّيا : طلب ما هو أحـرى بالاسـتعمال في غـالب الظن ، وطلب أحـرى الأمـرين وأولاهما ، وتحـرّى الأمر توخّـاه وقصـده ، والتحرّي هو الاجتهاد في

---

(1) يوسف / 20.

(2) لقد مـرّ بيـان لمعـنى الإرهـاق عند الآية (43) من سـورة القلم فراجع.

(3) مفردات الراغب مادة حري.

تعـرّف ما هو أولى وحق ، وفي الحـديث : «**تحـرّوا ليلة القدر في العشر الأواخر**» أي تعمّدوا طلبها فيها [1].

وعلى هذا التفسير للكلمة يكون المعنى أنّ من اختار الإسلام وسلّم له فقد جانب الرشد والهدى ، وهذا مسـلّم به لأنّه حينئذ سـيهديه الله بنـور الـوحي وآيـات الرسـالة ، ممّا يكمل عقله وعلمه فيجعله راشـــدا. والآية تأكيد على أنّ الإســلام ليس مجــرد تســليم النفس للحق ، بل هو إضافة إلى ذلك وعي الحق بعد البحث عنه طلبا للرشد.

(**وَأَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً**)

ومن هنا نهتدي إلى أنّ أظهر معـاني (تحـرّي الرشـد) طلب النجــاة من النــار ومن غضب الله ، بمعرفة طريق الهدى بـالنفس والعقل ، وكـذلك بتجنّب الـذنوب والخطايا والقيـام بالصـالحات ، وذلك ما لم يفعله القاسـطون ممّا أدّى بهم إلى العـذاب. ولا يقـول القـرآن أنّهم سـيكونون حطبا لجهنّم ، بل قال «كانوا» بصـيغة الماضي ، والسـبب أنّ مرتكب الذنوب والفواحش قد جعل نفسه وقودا للنـار لحظة اقتحامها بالفعـل. قـال الزمخشـري : القاسـطون الكـافرون الجـائرون عن طريق الحق ، ونقل طريفة عن سعيد بن جبير ـ رضي الله عنه ـ : أنّ الحجـاج قـال حين أراد قتله : ما تقــول فيّ؟ قــال : قاسط عــادل ، فقــال القــوم : ما أحسن ما قــال! حســبوا أنّه يصــفه بالقسط والعــدل ، فقــال الحجّــاج : يا جهلــة! إنّه ســمّاني ظالما مشــركا ، وتلا قوله تعــالى : (**وَأَمَّا الْقاسِــطُونَ**) وقوله تعالى : (**ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**) [2].

وجـرى جـدل بين المفسـرين في عـذاب الجن ، فقد أجمعوا على إمكان تعذيب

---

(1) تفسير البصائر ج 49 ص 320 / 321.

(2) الكشاف ج 4 ص 628.

القاســــــطين من الإنس بجعلهم حطبا لجهنم ، ولكنّهم اختلفـوا في كيفية تعـذب الجن بالنـار وهم من جنسـها ، فقال بعضهم كـالفخر الـرازي : إنّهم وإن خلقـوا من النـار لكنّهم تغيّروا عن تلك الكيفية وصاروا لحما ودما هكذا [1] ، ومن أطرف ما قرأته في هذا الشأن : أنّ بهلـول أتى إلى المسجد يوما وأبو حنيفة يقـرّر للنـاس علومه ، فقـال في جملة كلامه : إنّ جعفر بن محمد تكلّم في مســــائل ما يعجبـــني كلامه فيها : الأولى : يقـــول : إنّ الله ســـبحانه موجـود ولكنّه لا يـرى لا في الـدنيا ولا في الآخـرة ، وهل يكـون موجـود ولا يـرى؟ ما هـذا إلّا تنـاقض! الثانية : إنّه يقول : إنّ الشيطان يعذّب في النار مع أنّ الشيطان خلق من النـار ، فكيف يعـذّب الشـيء بما خلق منـه؟! الثالثة : إنّه يقول : إنّ أفعال العباد مسـتندة إليهم ، مع أنّ الآيـات دالة على أنّه تعالى فاعل كلّ شيء!

فلمّا ســمعه البهلــول أخذ مــدرة وضــرب بها رأسه وشجّه ، وصار الدم يسـيل على وجهه ولحيته ، فبـادر إلى الخليفة يشكو من بهلول ، فلمّا أحضروا بهلول وسئل عن السبب قال للخليفة : إنّ هذا الرجل غلّط جعفر بن محمد (ع) في ثلاث مســائل : الأولى : أنّ أبا حنيفة يـــزعم أنّ الأفعـال كلّها لا فاعل لها إلّا الله ، فهـذه الشـجة من الله تعــالى وما تقصـيري؟! الثانية : أنّه يقــول : كـلّ شــيء موجود لا بد أن يرى ، فهذا الوجع في رأسه موجود مع أنّه لا يراه أحد ، الثالثة : أنّه مخلوق من التراب وهذه المـدرة من الــتراب وهو يقــول : إنّ الجنس لا يتعــذّب بجنسه ، فكيف يتـــألّم من المـــدرة؟! فـــأعجب الخليفة كلامه ، وتخلّص من شجّة أبي حنيفة [2].

[16 ـ 17] ويسـتثير الواحد إنسـيّا أو جنيّا فكـره بحثا عن الأسـباب الـتي أدّت إلى انحطـاط حضـارته ، وتخلّفه عن ركب التقدم ، فلا يجد مهما أنعم الفكر والنظر

(1) التفسير الكبير / ج 30 ص 160.
(2) شجرة طوبى / ج 1 ص 49.

ســـوى إجابة واحـــدة هي الانحـــراف عن النهج الســـليم والتفرق بالسبل الملتوية ، وبتعبير القرآن : الانحـراف عن الطريقة لأنّها وحدها التي تأخذ الإنسان إلى السعادة.

(**وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً**)

أي كثيرا فراتا. فما هي تلك الطريقة؟

إنّ تعريف القرآن لها بألف ولام العهد والجنس يهدينا إلى أنّها طريقة معينة للإنس والجن ، وليس ســـــــواها طريقة حتى يستراب فيها ذهن السـامع أو ينصـرف عنهـا. ولقد كـثرت الأقـوال في بيـان المقصـود بالطريقة إلّا أنّ أقربها ـ كما يبدو لي ـ الحق المتمثل في :

1 ـ الفطرة التي أركزها الله في خلقه ، حيث الإيمان والتسـليم للحق .. فـإنّ الاسـتقامة عليها هي السـبيل إلى كلّ خير وسعادة.

2 ـ خط الرســالات الإلهية والأنبيــاء ، قــال العلّامة الطبرسي : لو استقاموا على طريقة الهـدى بدلالة قوله : «**وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيـلَ وَما أُنْـزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ**» [1] ، ونظيره قوله تعالى : (**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكـاتٍ مِنَ السَّـماءِ وَالْأَرْضِ**) ، وقوله : (**وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَـهُ مَخْرَجـاً**) وقوله : «**وَيا قَـوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِـلِ السَّـماءَ عَلَيْكُمْ مِــدْراراً**» [2]. والفطـــرة والرســالات مع الأنبيــاء يكمل واحـدهما الآخر في هداية الإنسـان إلى الطريقة السـليمة ويثبّتانه عليها لو اتبعهما ، وهي ـــ أي الطريقة ـــ واضـحة عند كلّ مكلّف بالاستقامة عليها ، إلّا أنّ القليل هم الــذين يلتزمون بها كما يريد الله ، ويستقيمون

---

(1) مجمع البيان ج 10 ص 371.
(2) التفسير الكبير / ج 30 ص 160 / 161.

عليها حـــتى النهاية رغم المصــاعب والعقبــات. بلى. إنّ النتائج الحضـارية للرسـالة قد لا تظهر في اللحظة الأولى التي يقرر المجتمع فيها الالتزام بقيمها والاستقامة عليها ، لأنّ القيم الرسالية تشبه إلى حدّ بعيد البذرة الـتي يزرعها الفلّاح في الأرض .. لا بد من الصبر عليها حتى تؤتي أكلها ورعايتها في الأثناء ، ممّا يفـرض الاسـتقامة كأسـاس في السعي الحضاري ، ووعي هـذه القيمة الواقعية من شـأنه تثـبيت الإنسـان على الهـدى ، ودفع روح القنـوط واليـأس من الرسـالة عن فكـره ونفســه. أتــرى لو يئس الرعيل الأول من الإســلام حيث لم يكونـــوا يــرون منه ســـوى التضحيات تلو التضـحيات فهل كـانوا يبنـون حضـارته على امتـداد المعمـورة؟ أو هل كـانوا يحقّقـون تلك الأهـداف والمنجــزات العظيمة الــتي وصــلوا إليها بفضل الصـــبر والاستقامة؟ كلّا .. وما أحـوج الأمة الإسـلامية وهي تعيش مخاض الصحوة والعودة إلى رسـالتها أن تلتفت إلى هـذه الحقيقة ، وتعزم السير إليها قدما مهما حاول الأعداء ثنيها عن الطريقة بتهويل التضـحيات والمشـاكل الـتي تواجهها كل أمّة ناهضة في الســـــنين الأولى للنهضة ، فـــــإن الاسـتقامة وحـدها الـتي توصل الأمم إلى موسم الحصـاد حيث يكسبون المعطيات بكلّ شـموخ واقتـدار ، فلا يطعم المــاء الغــدق إلّا من تــذوّق مــرارة الاســتقامة وتحمّل تحدياتها وجراحاتها.

ولقد توقّف المفسـرون عند الشـطر الثـاني من الآية (**لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَـدَقاً**) متسـائلين : كيف يعد الله الجن والإنس بالمــاء الغــدق كنتيجة للاســتقامة على الطريقة والحال أنّ الجن ليسوا ذوي أبدان إنسية أو يحتــاجون إلى الماء فيكون الوعد به مغريا عندهم؟ والجواب :

أولا : إنّنا نفهم من عمــوم القــرآن بــأنّ الحاجة إلى الماء مرتكزة في كلّ كـائن حي ، لقوله تعـالى : (**وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ**) [1] بغضّ النظر عن المقدار

(1) الأنبياء 30.

والكيفية.

ثانيا : يبدو أنّ الماء رمز للحضارة حيث الماء عصبها ، فأيّ تقدّم حضاريّ لا غنى له عن الماء.

ثالثا : كما أن اجلى مصـاديق المـاء ليس ما نشر به ونسـقي به الـزرع ، إنّما هو العلم الحق الـذي تحيا بالاستجابة له النفوس والعقـول ، وتنعش به الحيـاة. قـال الإمام الصـادق (ع): «يعـني لأمـددناهم علما كي يتعلّمونه من الأئمة (ع)» [1] وعن بريد العجلي قـال سـألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عزّ وجلّ : «**وألّو اسـتقاموا على الطريقة**»؟ قال : «يعـني الولايـة» ، «**لَأَسْـقَيْناهُمْ مـاءً غَدَقاً**»؟ قال : «لأذقنـاهم علما كثـيرا يتعلّمونه من الأئمة (ع)» [2] وعن البـاقر (ع) قـال : «**لأشـربنا قلـوبهم الإيمـان ، والطريقة هي الإيمـان بولاية علي والأوصياء**» [3] .. ولا غرابة في تأويل الآية على هذا النحو ، لأنّ الاستقامة على الطريقة في النفس بالإيمـان ، وفي الفكر باتبـاع آيـات الله ورسـالته ، وفي المجتمع بالانتمـاء إلى حزبه واتباع أوليائه.

ومن كلمة «أسقيناهم» يتبيّن أنّهم ظمأى ، وعطشهم إلى الإيمـان والمعرفة أشـدّ من عطشـهم إلى المـاء ، والاسـتقامة 482 على الطريقة الآنف ذكرها يـؤمّن للبشرية كلّ ذلك ، حيث الإيمان بالله وحيث بصائر الوحي التي تروي القلـوب والعقـول ، وتبـني حضـارة السـعادة ، ومستقبل الفلاح.

ولأن هدف الحيـاة الـدنيا هو الابتلاء لاسـتظهار معـدن المكلّفين وكـوامنهم فـإنّ المسـألة لا تنتهي عند حـدود الاستقامة على الطريقة من قبل المخلوقين وإسقاء الماء

---

(1) البصائر / ج 49 ـ ص 428.
(2) المصدر.
(3) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 438.

الغدق من قبل الله ، بل لا بد من الفتنة ، كقضية أساسية يفرضها هدف الخلق ، وكون الدنيا ليست الدار الأخيرة.

(**لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ**)

بهـدف معرفة طـبيعتهم ، ومـواقفهم العملية من نعم الله عزّ وجلّ ، بالذات وأنّ المسيرة الحضـارية للأمم تبـدأ بجيل ملـتزم مسـتقيم يشـيّد صـرح الحضـارة ثم ينحـرف ببطر النعمة ، أو يرثه من بعـــده خلف يضـــيّع القيم ويتبع الأهواء. فأمّا الأمة التي تفلح في الاسـتقامة على الطريقة قبل الرغد وبعـده فإنّها تصـبح محـلّ عناية الله ، والمزيد من فضله بالزيادة جزاء للشكر ، وعلى عكسها الأمة التي يأخـذها الغـرور بمنجزاتها ، وتنخـدع بزينة الحيـاة الـدنيا ، وفضل الله عليها ، فإنّها تدخل نفق الانحطاط والعذاب.

(**وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً**)

قيل : هو العذاب الذي يزداد ويتصاعد بمرور الـزمن ، وإنّ الأمة الــتي تضل عن مســيرة الحق لــترى الأهــوال وألــوان العــذاب المتكــاثرة في أنواعها ، والمتزايــدة في كيفيتها ، وقيل : هو العذاب الأليم الـذي يصـعد إلى المخ ، وقيل : صـــعود جبل في جهنم يجـــبر المجرمـــون على صعوده محمّلين بالأثقال ، فكلّما بلغـوا قمّته أعيـدوا للأمر كرّة وأخرى دون اسـتراحة .. وفي الأثنـاء تضـربهم ملائكة العذاب بمقامع الحديد النارية.

ومن الناحية الواقعية لو أردنا أن نتصـوّر مسـيرة أمّة خـــالفت الطريقة الســـليمة واتبعت الســـبل المنحرفة فسنجدها كمن يصعد الجبال الوعرة يخالف سـنّة الله في الجاذبية ، فيلقى في طريقه العقبات الـتي لا تطـاق. قـال ابن عباس : إنّ صعدا جبل في جهنم ، وهو صخرة ملسـاء فيكلّف الكافر صعودها ، ثم يجذب من أمامه بسلاسل

ويضــرب من خلفه بمقــامع حــتى يبلغ أعلاها في أربعين سنة ، فإذا بلغ أعلاها جذب إلى أسـفلها ثم يكلّف الصـعود مرّة أخرى [1].

وإنّما يسـلك المعـرض عن ذكر الله عـذابا صـعدا لأنّ ذكـره تعـالى وسـيلة الاسـتقامة على الطريقة ، ولا يقـدر الإنسـان على الاسـتقامة من دونها ، فـإذا ما أعـرض أحد عن الوسيلة لم يبلغ النتائج فإذا بالماء الغدق يصـبح عـذابا صـعدا. ولعمـري إنّ الأمة الإسـلامية حين اسـتقامت على الطريقة سـقيت المـاء الغـدق ، وصـارت إلى السـعادة والسلام ، ولكنّها حيث افتتنت بالمعطيـات والنعم فشـلت في الامتحـان ، إذ أعرضت عن ذكر ربها وأوليائه فصـارت ولا تزال إلى العذاب الصعد.

[18 ـ 20] وفي سـياق الحـديث عن الجن الـذين اتخـذهم البعض آلهة فأشـركوا بهم ، وعبـدوهم من دون الله ، يؤكّد ربنا حقيقة التوحيد كهـــــدف رئيس من وراء نسف المزاعم الموغلة في الخرافة حـول هـذا الخلق من خلقه تعـالى ، ممّا يهـدينا إلى كـون الآية الثامنة عشر آية محورية في سورة الجن.

(**وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً**)

والأنبيـاء وكــلّ من يسـيرون على خطهم ويتبعـون منهجهم حيث يقومـون لله بالـدعوة وينهضـون للتغيـير يجعلـون محـورهم توحيـده عـزّ وجـلّ عن أيّ شـريك من خلقه ، إلى حـدّ التجـرد له عن أيّة ذاتية ، يتجـرّدون عن الأرض والعشيرة وكلّ قرابة وأيّة علاقة بشيء أو بشخص ، ويسـلّمون أنفسـهم بصـورة مطلقة له ، ويكيّفونها حيث التوافق مع رسالته. وهذا من أهمّ الفـوارق بين الـدعوات الإلهية الخالصة وبين الـدعوات البشـرية الـتي يسـعى أصحابها في الغالب إلى الانتفاع منها لصالحهم.

---

(1) التفسير الكبير / ج 20 ـ ص 162.

إنّك لو درست حركة الكهنة فستجدهم يسـعون لجعل أنفسـهم محـورا من وراء ثقافـاتهم ودعـوتهم ، فهم دائما يريدون إقناع الناس بـأنّهم عظمـاء ، وأنّ لـديهم قبسا من عظمة الله سبحانه وعلما من علمـه. أمّا الأنبيـاء والرسل فـإنّهم لا يـدعون مع الله أحـدا أبـدا. ويتفـرّع من ذلك أنّ الدعوات البشرية عادة ما تكون وسـيلة لارتـزاق أصـحابها بها. أمّا أولياء الله فإنّهم لا يسألون أحـدا أجـرا. بل يـأتون ليعطوا الناس الأجر والخير.

وقد اسـتفاد أئمة الهـدى من هـذه الآية حكما شـرعيّا جنائيا بحرمة قطع المساجد كـالكف في حـوادث السـرقة مثلا ، وقد جـــاء في الرواية في قصة ســـارق أحضر إلى المعتصم العبّاسي فاستفسر : من أيّ حــــــــدّ يجب أن يقطع؟ فقال الراوي (وهو ابن أبي داود) : من الكرسوع ، قـــال : وما الحجة في ذلـــك؟ قـــال : قلت : لأنّ اليد هي الأصـــابع والكف إلى الكرســـوع ، لقـــول الله في الـــتيمم (**فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْـدِيكُمْ**) ، واتفق معي على ذلك قوم. وقال آخـرون : بل يجب القطع من المرفق ، قـال : وما الدليل على ذلك؟ قالوا : لأنّ الله لمّا قال : (**وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِـــقِ**) في الغسل دلّ على أنّ حـــــدّ اليد هو المرفق.

قــــال : فــــالتفت إلى محمد بن علي بن موسى بن جعفر (ع) فقـال : ما تقـول في هـذا يا أبا جعفر فقـال : «قد تكلّم القوم فيه يا أمير المؤمـنين» ، قـال دعـني ممّا تكلّموا بـه. أيّ شـيء عنـدك؟ قـال : «اعفـني عن هـذا يا أمير المؤمـنين» ، قـال : أقسـمت عليك بالله لمّا أخـبرت بما عنـدك فيـه؟ فقـال : «أمّا إذا أقسـمت عليّ بالله إنّي أقــول : إنّهم أخطئــوا في الســنّة ، فــإنّ القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع فيترك الكف» قـال : وما الحجة في ذلك؟ قال : قـول رسـول الله (ص) : السـجود على ســبعة أعضـــاء : الوجه ، واليـــدين ، والركبـــتين ، والرجلين ، فـإذا قطعت يـده من الكرسـوع أو المرفق لم يبق له يد يسجد عليها ، وقال الله تبارك

وتعـالى : «**وَأَنَّ الْمَسـاجِدَ لِلَّهِ**» يعـني به هـذه الأعضـاء السبعة التي يسجد عليها «فلا تدعوا مع الله أحدا وما كان لله لم يقطع» قـال : فـأعجب المعتصم ذلك ، وأمر بقطع السارق من مفصل الأصابع دون الكف. قـال ابن أبي داود : قامت قيامتي ، وتمنيت أنّي لم أك حيّا [1].

ونســـتفيد من الآية بصـــيرة عملية وهي حرمة جعل المساجد محلّا لدعوة غير الله ، واسـتخدامها بغـير غـرض العبـادة له عـزّ وجـلّ ، كالـدعوات الانتخابية والتوجهـات الحزبية وما أشبه.

ومن الفوارق الأساسية بين دعوة أوليـاء الله (رسـله وأنبياؤه ومن يسـير على نهجهم) وبين الـدعوات البشـرية كالكهانة والسـحر والفلسـفات المنحرفة أنّهم لا يبحثـون عن التيـار الاجتمـاعي ليسـبحوا معه ، إنّما يهمّهم العمل بالحق مهما كان ذلك مخالفا لتوجّهات المجتمع ، بينما نجد الكهنة والسحرة ومن أشبه يسيرون في ركاب السلاطين ، وأصحاب النفوذ في المجتمع ، ويخشـون من الاصـطدام مع الواقع.

فالرســاليون لا يعرفــون المداهنة والمســاومة ، بل يثورون لتغيـير الواقع الفاسد ، ويصـطدمون مع كـلّ قيمة منحرفة بغضّ النظر عن العواقب ما دام الأمر يرضي الله ، فإذا بواحدهم كإبراهيم ـ بل هكذا كل واحد منهم ـ يقف أمّة لوحده في قبالة مجتمع بكامله وقد تظـاهر عليه وتلبّد كما تتلبّد الغيوم بعضها مع البعض الآخر.

(**وَأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ**)

أي يدعو ربه نابذا كلّ الأفكار والقيم الشركية الضالة.

---

(1) العياشي / ج 1 ص 319.

(**كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً**)

قـال الشـيخ الطوسي : جماعـات متكاتفـات بعضـها فوق بعض ، لـيزيلوه بـذلك عن دعوته بـإخلاص الإلهية [1]. ولعل في الآية إشارة من بعيد إلى تظاهر المشـركين من الإنس ومن الجن مع بعضهم ضد داعية الحق ، ولكنّ ذلك ليس بالذي يثني الأنبياء والرسل ولا بالذي يفـلّ عـزائمهم وعقائـدهم الراسـخة ، فقد وقف نـبيّ الإسـلام (ص) وكما أمره الله متحديا جبهة الضلال المتلبّدة ضـده ، ومعلنا بأنّه لن يغيّر مسيرته ، ولن يتنازل عن قيمه وأهدافه.

(**قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً**)

وهـذه الآية رمز لتحـدي الرسـاليين لكـلّ عامل وأحد يضغط باتجاه المداهنة في قيمة التوحيد أو التنـازل عنهـا. أوليست الاستجابة للضغوط لونا من ألوان الشرك؟!

[21 ـ 22] وتمتاز الدعوة الإلهية عن غيرها بأنّها تثـير في الإنسـان كوامنه ، وتدفعه إلى السـعي لا التمنيـات ، كما يفعل الكهنة ودعاة الأديان والمذاهب البشرية ، الذين يوزّعون صكوك الجنة والأمان المزعومة على النـاس إزاء المـال! كلّا .. إنّ أوليـاء الله يصـارحون النـاس بأننا لسـنا بـدائل عنكم ، ولا يغـني إيماننا عن سـعيكم .. حـتى لا يتخذهم الناس أربابا من دونه تعالى ، ولا شفعاء بالطريقة الموجودة في نظرية الفداء عند بعض النصارى.

(**قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَداً**)

وهـذه قمّة التجـرّد لله وتوحيـده ، ودليل إخلاص المساجد له من قبل

---

(1) التبيان ج 10 ص 155.

الرسول (ص). والآية تحـريض على التوجّه لله وحـده لأنّه الــــــذي يملك الضر والرشد ، كما أنّ فيها تحريضا على الاعتماد على مواهب الله للنفس البشرية والسعي الذاتي كمنهجية سليمة وكجزء من الطريقة. وتلاحظ في السورة تكرّر كلمة الرشد أربع مرات في الآيات (2 ، 10 ، 14 ، 21) واســتخدامها محل النفع الــذي يقابل الشر والضر ، ولعلّ السبب يكمن في معالجة السـياق لمشـكلة الضـلال والانحـراف الـتي تسـبّبها المـزاعم والفلسـفات البشـرية الباطلة حول الجن وغيرهم ، فأراد تعالى التأكيد على دور الــوحي في الهداية والرشد ، بل التأكيد على الرشد بذاته في مقابل علاج مشكلة الضلال.

والرسول ليس لا يملك للآخـرين ضـرا ولا رشـدا ، بل لا يملك حـتى لنفسه شـيئا من ذلك ، إنّما الله وحـده منه النفع والضر والإجارة ، فخطأ إذن أن يعـوذ أحد بغـيره جنّا أو إنسا أو سواهما.

(**قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللـهِ أَحَـدٌ وَلَنْ أَجِـدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً**)

وهذه العقيـدة من أهمّ دواعي التسـليم له عـزّ وجـلّ وتوحيده ، وبها يقاوم المؤمنـون عوامل الهزيمة والخـوف حيث التوكل على ربّ العزة والاستجارة به من سـواه ، لا كما يفعل السـفهاء فيسـتعيذون بالأنـداد والشـركاء من تقدير الله وأمره وعذابه!

والملتحد الملجأ الصغير بقـدر اللحد ، وإنّ من يجـيره الله فلا خوف عليه ، وإنّ من يريده عـزّ وجـلّ بسـوء فلن يجد ملجأ ولا بمقدار اللحد يفرّ إليه منه وقد وسعت قدرته كلّ شيء.

[23 ـ 28] ويـبيّن النـبي (ص) كنه دوره ومهمته في الحيـاة ، فهو لم يـأت ليعطي النـاس صـكوك الأمـان ، ولا ليكون شريكا لله في ملكوته ، إنّما جاء عبدا لله

ورسولا من الله يبلّغ رسالته إلى الناس.

(**إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللهِ وَرِسالاتِهِ**)

و «إلّا» تفيد هنا الاستثناء الحصري ، وقال : (**وَرِسالاتِهِ**) بالجمع وليس رسالته بالافراد لبيان أنّه امتداد برسالته لكلّ رسالات الله السابقة ، وأنّ خطّ الأنبياء واحد يكمل بعضه (أفراد ورسالات) بعضا.

(**وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً**)

ولا تكون معصية الرسول إلّا باتباع هوى النفس وسفهاء الأمم من القادة المنحرفين الذين يقولون على الله شططا. وإدخال القرآن لعنصر التخويف بالنار في الحديث عن معصية الله والرسول لأنّ ذلك ينمّي الحذر من الله في النفس ، ويضمن طاعة المؤمنين لله والرسول. والآية هذه توازن الموقف من الرسول القائد ، فصحيح أنّه لا يملك لأحد ضرا ولا رشدا ، إنّما يملك الناس أنفسهم ضر أنفسهم ورشدها ، ولكنّه حيث تجرّد لله يعتبر مقياسا ، ويتحوّل بشخصيته وموقعه إلى ميزان وقيمة في المجتمع ، بحيث يقرن الله رضاه وغضبه وطاعته ومعصيته برضى الرسول (ص) وغضبه وطاعته ومعصيته. وهكذا يصير كلّ قائد واحد ميزانا بمقدار ما يجسده من قيم الحقّ في حياته.

ولأنّ العصاة إنّما يتمرّدون على أوامر الله ورسوله اغترارا بما لديهم من القوة ، وبمن حولهم من الأنصار ، فإنّ الله يذكّرهم بأنّهما لا يغنيان عنهم شيئا في تحدّيهم لرسوله وللحق ، باعتبارهما الأقوى ناصرا والأكثر جندا .. الأقوى لأن الله ناصرهم ، والأكثر لأنّ الملائكة وقوى الطبيعة تقف إلى جانب الحق ، ومهما تأخر وعد الله بدحرهم والإنتصار لحزبه ورسالاته في الدنيا والآخرة فإنّه آت لا ريب فيه.

(**حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ**)

من الهزيمة في الـــدنيا أمـــام المؤمـــنين ، أو الوعد بالبعث والجزاء الذي راح يشكّك فيه ضلّال الإنس والجن.

(**فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً**)

ومما يزيد في ضـلال العصـاة لله ولرسـوله بالإضـافة إلى الاغترار بـالقوة والعـدد هو تشـكيكهم في صـحّة وعد الله بالجزاء ، ولذلك تـراهم لا يفـترون يسـألون مجـادلين عن أجل الوعد. وهنا يتـدخّل الـوحي يسـدّد المؤمـنين في مــواجهتهم لتلك التشــكيكات والجــدليّات ، بــأمرهم أن لا يخوضـوا معهم حيثما شـاؤوا فيكـون زمـام الحـوار بأيـدي أولئك ، وإنّما إدارته حيث تقتضي القيم والإســـتراتيجيات الرسالية ، فإنّ الجدليات التي تصـبح هـدفا بـذاتها كجدلية السـؤال عن السـاعة لا تنتهي عند حد كما أنّ الرسـاليين ليسوا مكلّفين بالإجابة على كلّ سؤال يطرحه الآخرون إلّا في حدود المصلحة الرسالية وحدود ما أوتوا من العلم.

(**قُـلْ إِنْ أَدْرِي أَقَـرِيبٌ ما تُوعَـدُونَ أَمْ يَجْعَـلُ لَـهُ رَبِّي أَمَداً**)

وإنّما تــرك الرســول الإجابة على ذلك بالكيفية الــتي يريــدها المجــادلون اتباعا للمصــلحة الحكيمة ، ولأنّ علم الســاعة ممّا يختص به الله وله فيه البــداء ، فقد يكــون موعــدها قريبا ، وقد يعطي الله للنــاس فرصة لمراجعة الذات بتمديد أجلها لعلّهم يتذكّرون ويتوبون. والآية إشـارة إلى فكــرة البــداء من حيث أنّه تعــالى مختــار في تحديد وقت السـاعة مـتى شـاء ، فقد يكـون لها في علمه زمن معيّن ثم يبدو له فيجعل لها أجلا آخر قريبا أو بعيدا.

وكفى بجهل الإنس والجن بميقــــــات الســـــاعة وبالمستقبل دليلا على قصورهم عن

علم الغيب ، وانحصار معرفته بـرب العـالمين ، وذلك مما يميز الخالق عن المخلوق.

(**عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً**)

وهـذه الآية تنفي المـزاعم والأباطيل حـول علم الجن والكهّـــان بـــالغيب. بلى. قد يظهر الله بعض أوليائه من الرسل على ما يريد من علم الغيب ، وهم بـــــــــدورهم يحفظـون سـره تعـالى ، إذ يعلم أين يضع رسـالته ، ومن يختار لأمانته ، ومع ذلك يحفظهم تماما كما حفظ السـماء من استراق السمع.

(**إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ**)

فلا أحد يفـرض على ربنا أن يظهـره على غيبه ، إنّما هو الـذي يتفضّـل برضـاه وحكمته على من يشـاء فيطلعه على بعض الغيب ومع ذلك لا يـــدع غيبه يتســـرب من مخازنه إلى من لا يستحقه.

(**فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً**)

يحفظونه ويســدّدون خطـــاه ، ويراقبـــون حركاته وتصـرفاته ، برصد ما يصـدر منه في الحاضر والمسـتقبل (**بَيْنِ يَدَيْـهِ**) وما صـــدر عنه في الماضي (**مِنْ خَلْفِـهِ**). وكيف يطّلع المنجّمون والسحرة والكهّان على الغيب وهم مغضــــوب عليهم عند اللــــه؟! أم كيف تصل معرفة الشياطين به وهم أعداؤه الذين أعدّ لهم الحرس الشـديد والشـهب حربا عليهم؟! وفي هـذا جـاءت أحـاديث أئمة الهدى كالتالي :

قال الإمام الباقر (ع) لحمران : «فـإنّ الله عـزّ وجـلّ عالم بما غاب عن خلقه فيما يقدّر من شيء ويقضـيه في علمه قبل أن يخلقه وقبل أن يقضيه إلى الملائكة ، فلذلك يا حمـران! علم هو موقـوف عنـده إليه في المشـيئة ، فيقضيه إذا أراد ، ويبدو له فلا

يمضيه ، فأمّا الذي يقدّره عزّ وجـلّ ويقضـيه ويمضـيه فهو العلم الذي انتهى إلى رسول الله (ص) ثم إلينا» [1] ، وعن الإمام الصادق (ع) قال : «إنّ لله عزّ وجــلّ علمين : علما عنـــده لم يطلع عليه أحـــدا من خلقه ، وعلما نبـــذه إلى ملائكته ورسله ، فما نبـذه إلى ملائكته ورسـله فقد انتهى إلينا» [2].

وتهدينا الآية إلى أمرين :

الأول : إذا كان ثمّة سبيل للمخلوقين يطلعون بسـببه على الغيب فإنّه ليس الجن ولا غـــيرهم لأنّهم لا يعلمونه ، إنّما ينبغي لهم الاستعاذة بالله وطلبه عند رسله وأوصـيائه المرضيين عنده.

الثـــاني : خطأ ما زعمه البعض من أنّ أحـــدا لا يعلم الغيب البته ، فإنّه يعلمه من ارتضــاه الله لغيبه وبقــدر ما يعلّمه الله بصريح النص. قال الإمام علي (ع) وهو يتحـدّث عن الناس : وألزمهم الحجة بأن خاطبهم خطابا يـدلّ على انفــراده وتوحيــده ، وبــأنّ لهم أوليــاء تجــري أفعــالهم وأحكــامهم مجــرى فعله ، وعــرّف الخلق اقتــدارهم على علم الغيب بقوله : «**عالِمُ الْغَيْبِ** ..» قـال السـائل : من هؤلاء الحجج؟ قال : هم رسول الله (ص) ومن حــلّ محله من أصـفياء الله الـذين قـال : «**فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْـهُ اللهِ**» الـذين قـرنهم الله بنفسه وبرسـوله ، وفـرض على العبــاد من طــاعتهم مثل الــذي فــرض عليهم منها (من الطاعة) لنفسه [3].

ويـبيّن الله الهـدف من اطلاع رسـله المرضـيين على الغيب ، وســلك الرصد من بين أيــديهم ومن خلفهم ، ألا وهو كونه ممّا يقتضي تبليغ الرسالة ويخدم مصلحتها.

---

(1) البرهان ج 4 ـ ص 395.

(2) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 442.

(3) المصدر ص 444 نقلا عن الإحتجاج.

(**لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ**)

والآية تهـــدينا إلى أنّ الرســـالة جـــزء من ذلك الغيب الــــذي يظهر عليه من يرســــلهم بها ، وإنّ اطلاعهم على بعض الغيب لـدليل على كـونهم رسل ربّ العـالمين ، ممّا يقيم الحجة على العقلاء ويفـرض إتبـاعهم عليهم ، فـذلك إذن ممّا يعينهم في إبلاغ الرسالة من جهة ، وإقامة الحجة الداعية إلى تبليغها على الأنبيـــاء أنفســـهم بحيث لا يبقى لهم عذر لو قصّروا حاشاهم.

(**وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ**)

إحاطة عامة شاملة.

(**وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً**)

أي إحاطة مفصّـلة بالأرقـام والـدقائق ، وحيث يفعل الله شـــيئا فـــإنّ فعله يرتكز على العلم والحكمة ، وإنّما يطلع بعض رســــــــله على الغيب لإحاطته بهم ومعرفته بصلاح ذلك وضرورته.

الفهرست

سورة التغابن

فضل السورة...5
الإطار العام..6
ذلك يوم التغابن......................................11
إنما أموالكم وأولادكم فتنة...........................27

سورة الطلاق

فضل السورة...45
الإطار العام..46
ومن يتق الله يجعل له مخرجا......................51
فاتقوا الله يا أولي الالباب...........................72

سورة التحريم

الإطار العام..93
تحرم ما أحل الله لك..............................102

سورة الملك

فضل السورة...127
الإطار العام..128
تبارك الذي بيده الملك............................134
إن الكافرون إلا في غرور.........................161

سورة القلم

فضل السورة..187
الإطار العام...188
ولا تطع كل حلاف مهين...........................194
فاصبر لحكم ربك.................................233

سورة الحاقة

فضل السورة..259
الإطار العام...260
وتعيها أذن واعية..................................265
وانه لحق اليقين...................................291

سورة المعارج

فضل السورة..333
الإطار العام...334
فاصبر صبرا جميلا.................................339
الذين هم على صلاتهم دائمون....................354

سورة نوح

فضل السورة..389
الإطار العام...390
أن اعبدوا الله واتقوه واطيعون...................396

سورة الجن

فضل السورة..427
الإطار العام...429
إنا سمعنا قرآنا عجبا..............................436
الفهرست...473